

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الكتاب والسنة

تم إجراء التصويبات حسب

توجيهات لجنة المناقشة

د / أحمد محمد نور سيف

د / أحمد ناصر محمد الحمد

د / الشريف منصور بن عون العبد لي

د / سيد عبد العزيز السيلي

موقف المدرسة الحقلية

من السنة النبوية



رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إعداد الطالب

الأمين الصادق الأمين

إشراف

الدكتور

الدكتور

أحمد ناصر محمد الحمد

أحمد محمد نور سيف

١٤١٤ هـ

الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد ..

عنوان الرسالة : موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية.

وقد تمت الدراسة من خلال تمهيد وثلاثة أبواب .

أما التمهيد فقد كان عن السنة النبوية ، والعلاقة بين الشرع الإسلامي والعقل .

وأما الباب الأول فكان عن المعتزلة التي هي مثال للمدرسة العقلية القديمة ، حيث تناولت الدراسة موقفهم من العقل وعلاقة ذلك بأصولهم الخمسة ، ثم موقفهم العقلي من الحديث المتواتر وحديث الأحاد .
وأما الباب الثاني فكان عن المستشرقين وشبههم حول الوحي النبوي وحول صحة الحديث مع الجواب عنها .

وأما الباب الثالث فكان عن المدرسة العقلية الحديثة حيث تناولت الدراسة اعتمادها على المعتزلة والمستشرقين في التعامل العقلي مع الأحاديث وإثارة الشبه حول السنة مع الجواب عن ذلك .
وملخص ما عولج من خلال الدراسة :

أهمية السنة ، وإجماع الأمة على الأخذ بها وعدم معارضتها بعقل أو رأي ، وحفظ الله لها في كل زمان بما هيا من علماء أفاضل قاموا بخدمتها ودفع الشبه عنها حتى دونت في كتب الحديث المختلفة وبيان اهتمام الإسلام بالعقل ، حيث لم ينقصه حقه ولم يرفعه فوق مقامه ، وأن العقل السليم لا يخالف النصوص الصحيحة لعجزه عن إدراك كثير من الحقائق ، وعقول الخلق ناقصة متباينة فلا تجعل حاكمة على شرع الله تعالى .

والمعتزلة جعلوا العقل أصلاً في الاستدلال فدفعهم ذلك إلى رد كثير من نصوص السنة رداً عقلياً ، وقد بان ذلك جلياً من خلال منهجهم في صفات الله تعالى ، ورؤيته ، وأفعال العباد ، وصاحب الكبيرة ، والشفاعة ، وعذاب القبر .

وورث المستشرقون عنهم شيئاً من ذلك الرفض فلم يصدقوا بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم عداً للإسلام فاثاروا الشبه حول الوحي النبوي والتشكيك في صحة الحديث بالوضع والاختلاف والطعن في رجاله لينفثوا بعد ذلك إلى الطعن في القرآن ، إذ همهم محو الإسلام وإذلال أهله والاستيلاء على ثروات بلادهم .

وورثت المدرسة العقلية الحديثة منهج المعتزلة العقلي في معاملة النصوص ، كما ورثت شبه المستشرقين التي أثاروها حولها ، فتمخض من ذلك تهوين أمر السنة وتهميشها تطبيقياً في حياة بعض المسلمين .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ، ،

العميد

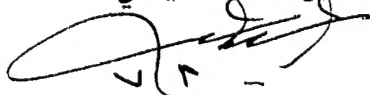
المشرف

الطالب

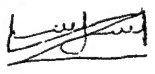
عبدالله بن عمر الدميحي

الدكتور أحمد محمد نور سيف

الأمين الصادق الأمين



والدكتور أحمد ناصر محمد الحمد





كلمة شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .
وبعد :

اعترافا بالفضل وإسداء للجميل أتقدم بجزيل الشكر ووافره إلى جامعة أم القرى ، وأخص بالشكر كلية الدعوة وأصول الدين على ماتقدمه من خدمة جليلة ، ورعاية كريمة لطلبة العلم فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء . كما أخص بالشكر رابطة العالم الإسلامي والقائمين عليها لما لها من دور مهم في تيسير السبل لتعليم أبناء المسلمين .

كما أتقدم بوافر الشكر للدكتورين الفاضلين ، الدكتور أحمد محمد نور سيف والدكتور أحمد ناصر محمد الحمد على ماأولياني من رعاية وعناية وتوجيهات كريمة ، ونصائح نافعة ، وإرشادات قيمة ، واستدراكات مفيدة كان لها أبلغ الأثر في خروج هذا الموضوع بهذه الصورة .

فجزاهما الله خير الجزاء على ماقاما به من جهد مشكور ، وتضحية وبذل ، وجعل الله ذلك في ميزان حسناتهما ، ونضر الله به وجهيهما وأعلى منزلتهما ، ورفع درجاتهما في عليين .

كما أتقدم بجزيل الشكر للإخوة الذين ساعدوني في هذا العمل بتوجيه أو إشارة أو نصيحة أو غير ذلك .

ولايفوتني كذلك أن أزجى شكرى وتقديرى للدكتورين الفاضلين الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلى والدكتور سيد عبد العزيز السيلي اللذين تكرما بقبول مناقشة الرسالة وتكبدا المشاق في متابعتها وتقويمها . فجزاهما الله خيرا على ماقاما به ، وأسأل الله أن يرزقهما دوام الصحة والعافية في الدنيا والآخرة .

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت في هذا الموضوع ووفيته حقه كاملا ، وأن يجزينى به الجزاء الأوفر ، ويجعله عملا صالحا متقبلا ، إنه ولى ذلك وهو على كل شىء قدير .

(أ)

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .
وإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله
عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ،
وكل ضلالة في النار .

أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم على
فترة من الرسل ، حين انغمست الإنسانية في لجج الضلال ، واخرفت عن نهج
الأنبياء وسلكت سبل الغواية ، فأثار الله بيعته العقول وأحيا بها القلوب ،
فظهر الحق بعد أن كان عافيا ، وأضاء الكون بعد أن كان مظلمًا ، وأنزل
عليه وحيين عظيمين :

أولهما : كتاب الله تعالى الذى وصفه بقوله : {وكذلك أوحينا إليك
روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي
به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم} (١).

فهو الروح لأن به الحياة الحقة ، وهو النور لتوقف الهداية عليه .
وهو المحفوظ من التبديل والتغيير كما قال تعالى : {لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} (٢).

وثانيهما : السنة الغراء ، التى أبان الله بها كتابه ، وفصل فيها مجمله
وأوضح فيها مشكله ، وحفظها كما حفظ كتابه ، ولم يفرق بينهما فى إقامة
الحجة على العباد .

(١) سورة الشورى : آية ٥٢

(٢) سورة فصلت : آية ٤٢

(ج)

وقد وجد هؤلاء بين أبناء الإسلام من انخدع بأفكارهم وآرائهم ، وتأثر بثقافتهم ومناهجهم ، وبعض هؤلاء يمثلون رموزا بارزة في بلدانهم مما كان له أبلغ الأثر في نشر تلك الأفكار بين المسلمين ، فاستجاب لها السذج ، وتفلت بعض منهم بسببها من الالتزام بالشرع وأحكامه .

ومن المؤسف حقا أن يتبنى فكرة رد السنة بالعقل أناس يحسبون من أهل العلم ويشار إليهم بالبنان ، ويشق بهم ويعلمهم كثير من المسلمين . ولقد أصبح هؤلاء في هذا العصر حجر عثرة أمام موكب الإسلام المتقدم الذى بدأت ثماره في جيل الصحوة الإسلامية ، كما أنهم أصبحوا أداة تخريب وتشكيك لهذا الجيل . ويبقى خطرهم عظيما وشرهم جسيما ، إن لم يجدوا رادعا ، وكاشفا ومبينا لضلالهم .

وقد بذلت في ذلك جهود لا يستهان بها من علماء أفاضل حرصا منهم على حماية السنة النبوية من أن يتناول إليها من جهل مقامها وأخطأ في فهمها ، وقصرت به همته أن يساير ركب العلماء .

ولقد دفعنى إلى خوض غمار هذا البحث الخطير أمور أردت أن أسجلها لكى تكون شافعة لى فى تناول هذا الموضوع .

أولا : كثرة الأعاصير التى تهب فى وجه السنة النبوية مستهدفة نحو أثرها وقلع جذورها ، وخاصة فى هذا العصر ، فأحببت أن تكون لى مشاركة فى صد تلك الأعاصير وإيقاف زحفها مع من بذلوا جهودا فى الدفاع عن السنة لحماية حصنها من التهديم والتخريب ، راجيا بذلك المثوبة من الله تعالى .

ثانيا : بيان أن العقل السليم لا يمكنه أبدا أن يخالف نصا صحيحا ، وبيان خطورة مسلك من رد السنة بالعقل ، وتحذير المسلمين منه مع العلم بأنه لم تسبق فيه دراسة مستوفاة حسب علمى (١) .

ثالثا : تأثر عدد من أبناء الإسلام الذين قلت بضاعتهم وثقافتهم من علم الكتاب والسنة ، بتيار رد السنة بالعقل ، ووقوعهم فريسة لهذا النهج الخاطيء المنحرف عن جادة الصواب مما يوجب على من عرف الحق أن يأخذ بأيديهم إلى بر الأمان .

(١) من تلك الدراسات : القرآنيون وشبهاتهم حول السنة لحادم حسين إلهى بخش ، منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير لابن الرومى .

(د)

رابعاً : إرادة الإسهام في كشف القناع عن مخططات أعداء الإسلام من المستشرقين الذين يحكون الدسائس لأبناء ديننا الحنيف ، وتحذير المسلمين من الوقوع في شراكهم والتأثر بشبهاتهم .

خامساً : إرادة الإسهام في تنبيه أبناء الإسلام الذين يسايرون ركب الغرب بعلّة المدنية والحضارة كي يعودوا إلى دينهم الحق حيث تكمن سعادة الدنيا والآخرة ، وليعلموا أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

سادساً : تعظيم وتبجيل بعض من رموز المدرسة العقلية وعدم قبول الطعن فيهم ممن جهل حقيقتهم من المسلمين ، فأردت أن أكشف تلك الأقنعة المزيفة التي تنكر بها أولئك ، لتظهر حقيقتهم ، ويبدو عوارهم ، ويتضح أمرهم ، والحق لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق .

سابعاً : الرغبة في المشاركة في دفع عجلة الصحوة الإسلامية بإرجاع أمة الإسلام إلى التمسك بالسنة النبوية وتعظيمها وتوقيرها وعدم الاستهانة بأمرها .

ولكن ثمة عقبات اعترضت مساري وأنا في بداية هذا البحث ، من ذلك :

(١) عدم وضوح الرؤية الكافية ، للسير بين ثنايا هذا الموضوع ، والتهيب من اقتحام لججه ، لما يحدثه من آثار في نفوس كثير ممن ينتسب إلى الإسلام .

(٢) اتساعه وتشعبه ، وكثرة الشبه وتداخلها مما دفعني لمطالعة العديد من الكتب في أنواع العلوم المختلفة مما أدى إلى استنفاد جهد ووقت ليس بالقليل .

ولكن أحمد الله الذي أعانني على ذلك ، فيسر تلك الصعوبات وأزال تلك العقبات وهياً لي من أعانني على اجتيازها وتخطيها ، وهما الدكتوران الفاضلان ، الدكتور أحمد محمد نور سيف ، والدكتور أحمد ناصر محمد الحمد اللذان شجعاني على السير قدماً في هذا الموضوع ، وكان لإشرافهما أكبر الأثر وأطيبه في إخراج هذا البحث بصورته الحالية .

وقد قسمت هذا الموضوع إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .
أما التمهيد فهو في مطلبين :

المطلب الأول : أتناول فيه الحديث عن السنة النبوية من حيث تعريفها ، وحجيتها ومزلتها من القرآن الكريم .

المطلب الثاني : أتناول فيه العلاقة بين الشرع الإسلامى والعقل ، وأبين فيه أهمية العقل فى الإسلام حتى لا يفهم أحد أن الإسلام يحارب العقل أو ينقص من مقامه ، كما أتناول الصلة التى يجب أن تكون بين الشرع والعقل ، وأوضح أن العقل لا يمكن أن ينافى نصا صحيحا .

وأما الباب الأول :

وقد جعلته فى فصلين :

وهو عن المدرسة العقلية القديمة ، وسيكون الحديث منصبا على طائفة المعتزلة لأنها أهم الطوائف الإسلامية التى أعطت العقل سلطانا واسعا وحكمته فى النصوص ، وأجعلها مثالا للمدرسة القديمة ، وأتناول فى حديثى عنها موقفها من العقل وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة عندهم ، وهو الفصل الأول . ثم أتناول فى الفصل الثانى أثر ذلك الموقف فى رد الأحاديث الصحيحة ، وأمثلة لذلك بعدة أمور كى يتبين هذا المنهج الخاطىء . وهى : صفات الله تعالى ، رؤية الله سبحانه وتعالى ، أفعال العباد ، صاحب الكبيرة ، الشفاعة ، عذاب القبر .

وأما الباب الثانى :

فهو خاص بالحديث عن المستشرقين .

وقد جعلته فى فصلين :

الأول : أمهد له بالحديث عن صلة المستشرقين بالفكر الإسلامى وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبهات حول السنة النبوية .

وأضمن ذلك الحديث عن مفهوم الاستشراق ، وتاريخه وأهدافه ، ومنهجه . ثم أعرض شبهاتهم حول الوحي النبوى، التى هى عنوان الفصل، مع الإجابة عنها .

الثاني : موقفُ المستشرقين من صحة الحديث النبوي .
 وأتناولُ من خلاله شبهَ المستشرقين حولَ صحة الحديث مع الجواب
 عن كل شبهة .
 وأما البابُ الثالثُ :

فهو عن المدرسة العقلية الحديثة . وفيه فصلان :
 الأولُ : علاقةُ المدرسة العقلية الحديثة بالمدرسة العقلية القديمة ، وأثرُ
 تلك العلاقة في ردِّ الأحاديث النبوية ، وسأتناولُ ذلك من خلال مجموعة
 من الأحاديث التي ردها هؤلاء بعقولهم مع اختيار ثلاثة منها للدراسة حتى
 يتبينَ منهجُ هذه المدرسة وتنكشفَ حقيقتهُ .

الثاني : تأثرُ المدرسة العقلية الحديثة بالمستشرقين ، وأثرُ ذلك في إثارة
 الشبه حول السنة . سأبينُ في هذا الأثر والتأثر ثم أوردُ تلك الشبهات مع
 الجواب عنها .
 وأما الخاتمةُ :

فأبرزُ فيها أهمَ النتائج التي أتوصلُ إليها من خلال البحث .
 وسوف أسيرُ في هذا البحث على المنهج الذي يسيّرُ عليه الباحثون في
 الغالب ، مع التنبيه على أمور منها :

(١) قد أستخدمُ طبعاتٍ مختلفةً في توثيق المعلومات ، ففي هذه الحالة أوثقُ
 الطبعة التي أستخدمها نادراً بين ثنايا البحث ، وأوثقُ الأخرى في ثبَتِ
 المراجع .

(٢) قد أوثقُ بعضَ الكتب بين ثنايا البحث ولو لم أستخدمُ إلا طبعةً
 واحدةً ، وهذا يكونُ غالباً في الكتب التي أخذتُ عنها نادراً .

(٣) سوف أتعاملُ مع طبعتين مختلفتين من كتاب العقيدة والشرعية لجوليد
 زيهري ، وهما الطبعة الأولى والثانية ، وأرْمُزُ للأولى بعبارة "الأولى" ،
 وأتركُ الثانيةَ بغيرِ رمزٍ .

(٤) كذلك سوف أتعاملُ مع نسختين من شرح النخبة للحافظ ابن حجر ،
 أحدهما باسم نزهة النظر ، والأخرى باسم شرح نخبة الفكر .

التمهيد

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : السنة النبوية

المطلب الثاني : العلاقة بين الشرع والعقل في
الدين الإسلامي

المطلب الأول السنة النبوية

(١) **السنة في اللغة** : السنة في الأصل مأخوذة من السن وهو الطريق والوجه والقصد^(١).

وقد أطلقت على عدة معاني . من ذلك :

أ - السيرة : حسنة كانت أو قبيحة .

قال خالد بن عتبة الهذلي :

لا تجز عن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

وفي الحديث : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ... ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده » الحديث^(٢) يريد من عمل بها ليقندي به فيها^(٣) .

وكل من ابتدأ أمراً فعمل به أحد بعده ، قيل هو الذي سنه .

قال نصيب :

كأنني سننت الحب أول عاشق من الناس أو أحببت من بينهم وحدي^(٤)

وسن فلان طريقاً من الخير يسُنّه إذا ابتدأ أمراً لم يعرفه قومه فاستنوا به واتبعوه فيه^(٥) .

ويقال : فلان من أهل السنة : إذا كان على الطريقة المحمودة المستقيمة^(٦) .

ب - الطبيعة والخلق والوجه والصورة^(٧) .

قال ذو الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرّفة
ملساء ليس بها خالٌ ولانذب

(١) انظر لسان العرب : ٢٢٦/١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه . من حديث جرير . كتاب الزكاة : (١٢) . باب الحث على الصدقة : (٢٠) . برقم : (١٠١٧) . ٧٠٤ - ٧٠٥ .

وبلفظ مقارب في كتاب العلم : (٤٧) . باب من سن سنة حسنة أو سيئة : (٦) . برقم (١٠١٧) . ٢٠٥٩/٤ .

(٣) انظر : لسان العرب : ١٣ / ٢٢٥ .

(٤) انظر : تهذيب اللغة : ٣٠٦/١٢ ، لسان العرب : ٢٢٥/١٣ . وبيت الشعر في كتاب شعر نصيب بن

ربيع : ٨٤ : ٥٠

(٥) انظر : لسان العرب : ١٣ / ٢٢٦ .

(٦) انظر : تهذيب اللغة : ٢٩٨/١٢ .

(٧) المعجم الوسيط : ٤٥٦/١ .

يريد بذلك صورة الوجه ودوائره ^(١) .

وسنة الخد : صفحته ^(٢) .

د - الإمام المتبع المؤتم به .

هـ - الأمة ، والسنن الأمم .

ومن ذلك قول المفضل :

ما عاين الناس من فضل كفضلهم ولا رأوا مثلهم في سالف السنن ^(٣)

و - العادة المتبعة :

ومن ذلك قول الله عز وجل :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) ^(٤) .

قال القرطبي :

« سنة الأولين عادة الأولين في عذاب الاستئصال » ^(٥)

وقد استخدم الجاهليون لفظ السنة بأنها العادة المتبعة سواء كانت حميدة أو ذميمة .

قال لييد :

ممن معشر سنت لهم أبائهم ولكل قوم سنة وإمامها ^(٦)

وقال حسان بن ثابت :

إن الذوائب ممن فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع ^(٧)

(١) الصحاح للجوهري : ٢١٣٩/٥ . وبيت الشعر في ديوان ذي الرمة ٢٩/١

(٢) الفائق في غريب اللغة : ٢٠١/٢ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢١٦/٤ .

(٤) سورة الكهف : الآية : (٥٥) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن : ٦/١١ .

(٦) شرح ديوان لييد : ص : ٣٢٠ .

(٧) انظر : دراسات في الحديث النبوي : ٢/١ والبيت في ديوان حسان بن ثابت : ص : ١٤٥ .

ز - الخط الأسود على متن الحمار^(١)

وضرب من تمر المدينة ، معروفة^(٢) .

وقد كثر استعمال السنة في القرآن بمعنى الطريقة والعادة المتبعة^(٣) .

قال الراغب :

« السنن . جمع سنة ، وسنة الوجه طريقته ، وسنة النبي طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته نحو : (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)^(٤) (ولن تجد لسنة الله تحويلاً)^(٥))^(٦) .

وقد صار في عرف كثير من علماء أهل الحديث أن السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات ، خاصة في مسائل الإيمان والقدر ، وفضايا الصحابة . وبالتالي صنفوا في هذا العلم تصانيف متعددة وسموها : كتب السنة^(٧) .

وأهل السنة والجماعة هم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سار على نهجهم ، الذين اجتمعوا على الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(٨) .

[٢] السنة في الشرع :

قال ابن الأثير : « وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه ونذب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز . ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة : أي القرآن والحديث »^(٩) .

قال الإمام الشاطبي رحمه الله :

« يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في

(١) تهذيب اللغة : ٣٠٤ / ١٢ .

(٢) المرجع السابق : ٣٠٦ / ١٢ .

(٣) انظر : دراسات في الحديث النبوي : ٥ / ١ ، السنة والعلم الحديث : ص : ١٣ .

(٤) سورة الفتح : الآية : (٢٣) .

(٥) سورة فاطر : الآية : (٤٣) .

(٦) المفردات في غريب القرآن : ص : ٢٤٥ .

(٧) انظر : أهل السنة والجماعة معالم الإنطلاقة الكبرى : ص : ٤٤ .

(٨) انظر : شرح العقيدة الواسطية : ص : ١٦ ، أهل السنة والجماعة : ص : ٤٥ .

(٩) النهاية في غريب الحديث : ٤٠٩ / ٢ .

الكتاب العزيز بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام كان بياناً لما في الكتاب أولاً» (١) .

وإذا أريد سنة غير النبي ﷺ فإنها تقيد بذلك ولا تطلق .

روى البخاري بسنده إلى ابن شهاب (٢) عن سالم (٣) بن عبد الله عن أبيه في قصته مع الحجاج (٤) حين قال له : « إن كنت تريد السنة فهجراً بالصلاة » .

قال ابن شهاب : « فقلت لسالم : أفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : وهل تتبعون في ذلك إلا سنته » ؟ (٥) .

وقد نقل السيوطي هذا الحديث ثم قال عقبه :

« فنقل سالم وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة وأحد الحفاظ من التابعين عن الصحابة أنهم إذا أطلقوا السنة لا يريدون بذلك إلا سنة النبي ﷺ » (٦) .
وقال السرخسي رحمه الله : « مطلق السنة يتناول سنة رسول الله ﷺ فقط » (٧) .

(١) الموافقات في أصول الفقه : ٢/٤ .

(٢) ابن شهاب : هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، القرشي ، أبو بكر ، الفقيه الحافظ ، متفق على جلالته وإتقانه . روى عن أنس بن مالك ، والسائب بن يزيد ومحمود بن الربيع ، وعنه عطاء وعمر بن عبد العزيز وعمر بن دينار . مات سنة ١٢٥ وقيل قبل ذلك .
انظر : الجرح والتعديل : ٨/٧١ ، تذكره الحفاظ : ١/١٠٨ ، ١١٣ ، تهذيب التهذيب : ٩/٤٤٥ ، تقريب التهذيب : ٢/٢٠٢ .

(٣) سالم : هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي ، أبو عمر أو أبو عبد الله ، المدني ، أحد الفقهاء السبعة ، وكان ثباتاً عابداً فاضلاً ، يشبه بأبيه في الهدى والسمت . روى عن أبيه وأبي هريرة . وعنه الزهري ، وصالح بن كيسان . مات سنة ١٠٦ هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٤/١٨٤ ، الكاشف : ١/٣٤٤ ، تقريب التهذيب : ١/٢٨٠ .

(٤) الحجاج : هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ، الأمير ، المشهور ، الظالم ، المبير ، وقع ذكره وكلامه في الصحيحين وغيرهما ، وليس بأهل أن يروى عنه ، ولي إمرة العراق عشرين سنة . روى عن أنس بن مالك . وعنه مالك بن دينار وثابت . مات سنة ٩٥ هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٣/١٦٨ ، ميزان الاعتدال : ١/٤٦٦ ، تقريب التهذيب : ١/١٥٤ .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الحج : (٢٥) . باب الجمع بين الصلاتين بعرفة : (٨٩) ، ١٧٤/٢ -

١٧٥ .

(٦) تدريب الراوي : ١/١٨٩ .

(٧) أصول السرخسي : ١/١١٤ .

وقد تطلق السنة على ما عمل عليه الصحابة رضوان الله عليهم وجد ذلك في الكتاب أو السنة أو لم يوجد لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا ، أو اجتهاداً مجمعاً عليه منهم أو من خلفائهم . وذلك كحد شارب الخمر ، وجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة وتدوين الدواوين . والدليل على ذلك قوله ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين »^{(١)(٢)} .

ومما يدل على ذلك أيضاً قول علي رضي الله عنه في حد شارب الخمر : « جلد النبي ﷺ أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وكم لها عمر ثمانين ، وكل سنة »^(٣) .

كما تطلق السنة في مقابلة البدعة ، أي فيما يحدثه الناس من قول أو عمل في الدين مما لم يؤثر عنه ﷺ أو عن أصحابه^(٤) .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : « فيقال فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ وكان ذلك مما نص عليه في الكتاب أولاً . ويقال فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك . وكان هذا الإطلاق إنما اعتبر فيه عمل صاحب الشريعة فاطلق عليه لفظ السنة من تلك الجهة وإن كان العمل بمقتضى الكتاب »^(٥) .

وقد تطلق السنة على النوافل من العبادات غير المفروضة مما جاء عن النبي ﷺ سواء

- (١) جزء من حديث أخرجه : أبو داود في سننه . من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه . كتاب السنة . باب في لزوم السنة . رقم : (٤٦٠٧) . ٢٠٠-٢٠١/٤ . والترمذي في سننه . كتاب العلم : (٤٢) . باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع : (١٦) . برقم (٢٦٧٦) . وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ٤٤-٤٣/٥ وابن ماجه في سننه . المقدمة . باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين : (٦) . برقم : (٤٢) ، (٤٣) ، (٤٤) . ١٧-١٥/١ .
والدرامي في سننه . المقدمة . باب اتباع السنة : ٤٤-٤٥/١ .
وأحمد في المسند : ١٢٦/٤ ، ١٢٧ . والحاكم في المستدرک . يطرق إلي العرياض .
وقال : « هذا حديث صحيح ليس له علة » ووافقه الذهبي . ٩٥-٩٧/١ .
وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : « صحيح » إرواء الغليل : برقم (٢٤٥٥) . ١٠٧-١٠٩/٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : برقم : (٩٣٧) . ٦٤٧-٦٤٨ ، صحيح الجامع : برقم (٢٥٤٦) ١٠/٣٤٦ .
صحيح سنن أبي داود : ٨٧١/٣ ، صحيح سنن ابن ماجه : ١٣/١ - شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٣٨٣ هامش : (٥٠١) ، وص : ٤٨٥ هامش : (٧١٥) .
(٢) انظر : الموافقات : ٣-٢/٤ .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الحدود : (٢٩) . باب حد الخمر : (٨) . برقم : (١٧٠٧) . ١٣٣١-١٣٣٢/٣ .
(٤) انظر : توثيق السنة : ص : ١٦ .
(٥) الموافقات : ٢/٤ .

كانت مؤكدة يكره تركها أو غير ذلك (١) .

وإذا نظرنا إلى علماء الحديث والأصول والفقهاء نجد أن كل فئة أطلقت اصطلاحاً معيناً لتعريف السنة حسب ما تقتضيه أغراض كل فئة :

فالسنة عند المحدثين ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها (٢) .

والسنة عند الأصوليين :

هي ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن الكريم من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي (٣) .

والسنة عند الفقهاء :

هي كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب (٤) .

ويتضح مما سبق من تعريفات أن اصطلاح المحدثين أوسع الاصطلاحات لتعريف السنة وأجمع لجوانبها وأشمل .

فأقواله ﷺ كحديث « قل آمنت بالله فاستقم » (٥) وأفعاله ، كأداء الصلوات (٦) ومناسك الحج (٧) .

(١) انظر : توثيق السنة : ص : ١٦ ، ١٧ .

(٢) انظر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ص : ٧٤ أصول الحديث : ص : ١٩ .

(٣) انظر : أصول الحديث ، ص : ١٩ . أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف : ص : ٣٦ .

(٤) انظر : إرشاد الفحول : ص : ٣٣ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه . من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي .

كتاب الإيمان : (١) . باب جامع أوصاف الإسلام : (١٣) . برقم : (٣٨) . ٦٥/١ .

(٦) قال صلى الله عليه وسلم في حديث مالك بن الحويرث : « صلوا كما رأيتموني أصلي الحديث » أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأذان : (١٠) باب الأذان للمسافر : (١٨) . ١٥٥/١ . وفي كتاب الأدب : (٧٨) . باب رحمة الناس بالبهائم : (٢٧) . ٧٧/٧ . وفي كتاب أخبار الأحاد : (٩٥) . باب ماجاء في إجازة خبر الواحد : (١) . ١٣٣/٨ .

(٧) قال رسول الله ﷺ في حديث جابر بن عبد الله : « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه » .

أخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الحج : (١٥) . باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركباً : (٥١) . برقم : (١٢٩٧) . ٩٤٣/٢ .

وتقريراته كإقراره للعب الأحباش بالحراب في المسجد أيام الأعياد (١) .

وأما صفاته فممنها غير الاختيارية كحركات الأعضاء مما وضع فيه أمر الجبلة ولا يتعلق بالعبادات كالقيام والقعود ، ومنها ما يحتمل أن تخرج من الجبلة إلى التشريع بمواظبته ﷺ عليها على هيئة مخصوصة كالأكل والشرب والنوم واللبس وتكون في هذه الحالة داخلة في أفعاله (٢) .

وأما سيرته قبل البعثة كتحنثه في غار حراء الليالي ذوات العدد (٣) .

والسنة بتعريف علماء الحديث ترادف تعريف الحديث وذلك عند كثير من علماء الحديث.

مع أن فريقاً من العلماء فرق بين مدلول لفظ السنة والحديث فأطلق «الحديث» على ما نقل عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل أو تقرير ، أو صفة .

وأطلق السنة على الواقع العملي في تطبيق الشريعة من عصر الرسول ﷺ إلى آخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم (٤) .

وعلى هذا يحمل قول عبد الرحمن بن مهدي (٥) في الإمام الثوري (٦) إذ يقول : « الناس

(١) روى البخاري بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : « رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا انظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم » الحديث .

صحيح البخاري : كتاب النكاح : (٧٦) . باب نظر المرأة إلى الحبشة . (١١٤) . ١٥٩/٦ .

(٢) انظر : نزهة النظر : ص : ٧ .

(٣) انظر : صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي : (١) . باب (٣) . ٣/١٠ .

كتاب التفسير : (٦٥) . تفسير سورة اقرأ : (٩٦) . باب (١) . ٨٨/٦ .

كتاب التعبير : (٩١) . باب التعبير : (١) . ٦٢/٨ .

صحيح مسلم : كتاب الإيمان : (١) . باب بدء الوحي : (٧٣) . برقم : (١٦٠) ، ١٤٠/١ .

(٤) انظر ، أدب الحديث النبوي : ص : ١٠ .

(٥) عبد الرحمن بن مهدي :

هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري ، مولا هم ، أبو سعيد البصري ، ثقة ثبت ، حافظ عارف بالرجال والحديث . قال ابن المدني : « ما رأيت أعلم منه » انظر : الجرح والتعديل : ٢٨٨/٥ - ٢٩٠ ، الكاشف ١٨٢/٢ - ١٨٨ ، تقريب التهذيب : ٤٩٩/١ .

(٦) الثوري :

هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله الكوفي ، ثقة حافظ فقيه ، عابد إمام حجة . روى عن أيوب السخستاني ، وثور بن يزيد ، وحמיד وعنه شعبه ومعمر ، وأبو اسحاق الفزاري وخلق مات سنة ١٦١ انظر : الجرح والتعديل : ٣١١/١ - ٥٥/١ ، ١٢٦ ، ٢٢٢/٤ ، ٢٢٥ تذكرة الحفاظ : ٢٠٣/١ - ٢٠٧ تهذيب التهذيب : ١١١/٤ - ١١٥ ، تقريب التهذيب : ٣١١/١

على وجوه ، فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في الحديث ليس بإمام في السنة ، فأما من هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري ^(١) .

وكقوله « لم أر أحداً قط أعلم بالسنة ولا بالحديث الذي يدخل في السنة من حماد بن زيد » ^(٢) ^(٣) .

وهذا لا يناقض قوله رحمه الله الآخر إذ يقول :

« سفيان الثوري إمام في الحديث والأوزاعي ^(٤) إمام في السنة ، ومالك إمام فيهما جميعاً »

فهو يريد أن الثوري كان إماماً في استحضر الأحاديث والآثار في كل باب من أبواب الفقه فيفتي بها . والأوزاعي كان إماماً في معرفة قواعد السلف في كل باب من أبواب الفقه فيفتي بموجبها . ومالك كان إماماً في كلا الأمرين فيفتي بموجبهما . ^(٥) .

[٣] حجية السنة :

لا شك إن السنة النبوية هي المصدر التشريعي الثاني بعد كتاب الله تعالى ، ولا يمكن لدين الله أن يكتمل ، ولا لشريعته أن تتم إلا بأخذ سنة النبي ﷺ جنباً إلى جنب مع كتاب الله تعالى .

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم **المكاثرة** وأحاديث الرسول ﷺ **اترة** تأمر بطاعة رسول الله ﷺ والتمسك بسنته والاحتجاج بها . إضافة إلى ماورد من إجماع من الأمة ،

(١) الجرح والتعديل : ١١٨ / ١ .

(٢) حماد بن زيد :

هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي ، الجهمي ، أبو اسماعيل البصري ، ثقة ثبت فقيه . قال عنه الذهبي : « أحد الأعلام ، أضر ، وكان يحفظ حديثه كالماء » . روى عن أبي عمران الجوني وثابت وأبي جمرة . وعنه مسدد وعلي . مات سنة : ١٢٩ هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٣ / ١٣٧-١٣٩ ، الكاشف : ١ / ٢٥١ ، تقريب التهذيب : ١ / ١٩٧ .

(٣) الجرح والتعديل : ١ / ١٢٧ .

(٤) الأوزاعي :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي ، أبو عمرو ، الفقيه ، ثقة جليل . قال عنه الذهبي : « وكان رأساً في العلم والعبادة » . روى عن عطاء ومكحول والتميمي ، وعنه قتادة ويحيى بن أبي كثير وغيرهم . مات سنة ١٥٧ هـ . انظر : الجرح والتعديل : ٥ / ٢٦٦-٢٦٧ ، الكاشف : ٢ / ١٧٩ ، تقريب التهذيب : ١ / ٤٩٣ .

(٥) نزهة النظر : ص ٧-٨ .

وأقوال الأئمة ، في إثبات حجيتها ووجوب الأخذ بها .
ونذكر من ذلك شيئاً يسيراً على سبيل المثال لا الحصر .
أولاً : الأدلة من القرآن الكريم :

١ - قال الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (١) .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في بيان هذه الآية :

« يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير مما نعة ولا مدافعة ولا منازعة » (٢) .

٢ - وقال سبحانه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » الآية (٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

« فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فالأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه » (٤) .

٣ - وقال جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٥) .

قال الشاطبي رحمه الله : « وسائر ما قرن فيه طاعة الرسول بطاعة الله فهو دال على أن

(١) سورة النساء : الآية : (٦٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٥٢٠/١ .

(٣) سورة النور الآية : (٦٢) .

(٤) أعلام الموقعين : ٥٤-٥٥/١ .

(٥) سورة النساء : الآية : (٥٩) .

طاعة الله ما أمر به ونهى عنه في كتابه ، وطاعة الرسول ما أمر به ونهى عنه مما جاء به مما ليس في القرآن إذا لو كان في القرآن لكان من طاعة الله » ^(١) والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد موته ^(٢) .

٤ - وقال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ^(٣) .

قال المباركفوري :

« أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية كل من يدعي محبته أن يتبع محمداً ﷺ ، وما معنى اتباعه إلا اتباعه ﷺ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وهديه . ومجموع أقواله وأفعاله وأحواله وهديه هو المعنى بالأحاديث النبوية . فثبت أن من لم يتبع الأحاديث النبوية ولم ير العمل بها واجباً فهو في دعوى محبته لله تعالى كاذب ، ومن كان في هذه الدعوى كاذباً فهو في دعوى إيمانه بالله تعالى كاذب بلامرية » ^(٤) .

٥ - قال سبحانه وتعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ^(٥) .

قال ابن كثير رحمه الله :

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنها جه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ... فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً « أن تصيبهم فتنة » أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة « أو يصيبهم عذاب أليم » أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك » ^(٦) .

(١) الموافقات : ٧ / ٤ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦١ / ٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية (٣١) .

(٤) مقدمة تحفة الأحوذى : ص : ٤١ .

(٥) سورة النور : الآية (٦٣) .

(٦) تفسير القرآن العظيم : ٣٠٧ / ٣ .

ثانياً : الأدلة من السنة النبوية :

١ - روى البخاري بسنده إلى أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلبجوا فانطلقوا على مهملهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » (١) .

٢ - وروى بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « وكل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا يا رسول الله : ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » (٢) .

٣ - روى ابن ماجه بسنده إلى المقدام بن معد يكرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل . فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرماناه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » (٣) .

٤ - قال ﷺ (نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأدأها كما سمعها فرب مبلغ

(١) صحيح البخاري : كتاب الاعتصام : (٩٦) . باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) . ١٤٠/٨ . ولفظ مقارب في كتاب الرقاق : (٨١) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . ١٨٦/٧ .
وأخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الفضائل : (٤٣) . باب شقيقته صلى الله عليه وسلم على أمته : (٦) . برقم : (٢٢٨٣) . ١٧٨٨ - ١٧٨٩ / ٤ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الاعتصام : (٩٦) . باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) . ١٣٩/٨ .

(٣) سنن ابن ماجه : المقدمة : باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(٢) ، برقم : (١٢) . وأخرج نحوه من حديث أبي رافع : برقم (١٣) . ٧-٦/١ . وأخرج ، أبو داود نحوه من حديث المقدم . برقم (٤٦٠٤) ، وأبى رافع برقم : (٤٦٠٥) . كتاب السنة ، باب في لزوم السنة . ٢٠٠/٤ .
والترمذي نحوه من حديث أبي رافع . كتاب العلم : (٤٢) . باب مانهى عنه أن يقال عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (١٠) . برقم . (٢٦٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . ٣٧-٣٦/٥ .



٢٠٢

أوعى من سامع) (١).

ثالثاً : الإجماع :

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

« لم أسمع أحداً نسبته للناس أو نسب نفسه إلى علم ، يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه بأن الله عز وجل لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، وأن ماسواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد ، لا يختلف في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ » (٢).

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (٣).

والدرامي . بلفظ مقارب عن المقدم . المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله ، ١/١٤٤ وأحمد بلفظ مقارب عن المقدم . ١٣٢/٤ .

ونحوه عن أبي رافع ٨/٦٠ .

والحاكم بلفظ مقارب عن المقدم ١٠٩/١ . ونحوه عن أبي رافع .

وقال : وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه « ووافقه الذهبي . ١٠٨/١ - ١٠٩ والحديث صحيح كما نص على ذلك الترمذي والحاكم ، والشيخ ناصر الدين الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير : برقم : (٨٠٣٨) . ٦/٣٦٥ . صحيح سنن أبي داود : ٣/٨٧١ .

(١) حديث متواتر : انظر دراسة وافية عنه في كتاب « دراسة حديث نضر الله امرأاً سمع مقالتي ... رواية ودراية » للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد . فإنه ذكر له أربعة وعشرين صحابياً ممن رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة ص : ٢٨ .

وانظر بعض طرقه في :

سنن أبي داود : عن زيد بن ثابت في كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم برقم ٣٦٦٠ / ٣/٣٢٢ ، سنن الترمذي . عن زيد بن ثابت برقم ٢٦٥٦ ، وعبد الله بن مسعود برقم ٢٦٥٧ ، ورقم ٢٦٥٨ .

وقال الترمذي « وفي الباب عن ومعاذ بن جبل وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس » ٣٣-٣٤ .

سنن ابن ماجه ، من حديث زيد بن ثابت برقم ٢٣٠ ، وجبير بن مطعم برقم ٢٣١ وابن مسعود برقم ٢٣٢ ، وعن أنس برقم ٢٣٦ .

المقدمة ، باب من بلغ علماً (١٨) ، ١/٨٤ - ٨٦ .

(٢) الأم : ٢/٢٧٣ .

(٣) سورة النساء الآية : ٥٩ .

قال : « الأمة مجمعة على أن هذا الخطاب متوجه إلينا وإلى كل من يخلق ويركب روحه في جسده إلى يوم القيامة من الجنة والناس ، كتوجهه إلى من كان على عهد رسول الله ﷺ وكل من أتى بعده عليه السلام وقبلنا ولا فرق » (١) .

رابعاً : أقوال الأئمة :

١ - قال حسان بن عطية :

« كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن » (٢) .

٢ - قال الشافعي رحمه الله :

« وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علماً لدينه بما افترض من طاعته وحرّم من معصيته وأبان من فضله بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به » (٣) .

٣ - وقال ابن حزم رحمه الله :

« والقرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى ، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما... قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٤) .

وقال تعالى : « قل إنما أنذركم بالوحي » (٥) فأخبر تعالى... أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحي ، والوحي بلا خلاف ذكر ، والذكر محفوظ بنص القرآن » (٦) .

[٤] **منزلة السنة** : تتبوأ السنة المشرفة منزلة عظيمة من كتاب الله العزيز فهي التطبيق

(١) الإحكام في أصول الأحكام : ٩٢/١ .

(٢) سنن الدرامي : ١٤٥/١ .

(٣) الرسالة : ص : ٧٣ .

(٤) سورة الحجر : الآية : (٩) .

(٥) سورة الأنبياء : الآية : (٤٥) .

(٦) الإحكام في أصول الأحكام : ٩٨/١ .

العملي لما جاء فيه وذلك لأنها معضدة لآياته كاشفة لغوامضه ، مجلية لمعانيه ، شارحة لألفاظه ، موضحة لإبهامه كما جاءت بأحكام لا توجد في كتاب الله ولم ينص عليها فيه وهي لا تخرج عن قواعده وغاياته، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال أو إهمالها في وقت من الأوقات ، وذلك لأهميتها القصوى في فهم دين الله والعمل به .

وقد أوضح العلماء **أوجه** السنة من القرآن وأنها معه على ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

أنها تأتي مؤكدة لآياته مقررة لأحكامه معضدة لها ، ومثاله أحاديث وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج ، من ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » (١) .

فهو يؤكد لقوله سبحانه وتعالى في شأن الصلاة والزكاة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٢) وفي شأن الصوم لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٣) .

وفي شأن الحج لقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » (٤) (٥) .

وهذا القسم هو الذي عناه الإمام الشافعي رحمه الله بقوله : « ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب » (٦) .

النوع الثاني :

أنها تأتي مبينة لكتاب الله عز وجل كما قال سبحانه في شأن رسوله ﷺ :

(١) أخرجه : البخاري في صحيحه كتاب الإيمان : (٢) . باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خمس » : (١) ، ٨ / ١ . ويلفظ مقارب . موقوفاً على ابن عمر . في كتاب التفسير : (٦٥) . تفسير سورة البقرة : (٢) ، باب « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » : (٣٠) ، ١٥٧ / ٥ . ومسلم في صحيحه . كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام : (٥) برقم : (١٦) . ٤٥ / ١ .

(٢) سورة البقرة : الآية : (٨٣) .

(٣) سورة البقرة : الآية : (١٨٣) .

(٤) سورة آل عمران : الآية (٩٧) .

(٥) انظر : معالم على طريق السنة : ص : ٢٣ .

(٦) الرسالة : ص : ٩١ - ٩٢ .

«وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» ^(١) وهي ما عناه الشافعي بقوله : « مما أنزل الله فيه جملة كتاب فيين عن الله معنى ما أراد » ^(٢) ويتمثل بيانه للقرآن في عدة جوانب من ذلك :

١ - بيان مجمله بالمجمل هو : ما لم تتضح دلالاته ^(٣) .

ولقد جاءت كثير من أحكام القرآن العملية مجملة **فبيئت** السنة إجمالها ، من ذلك أن الله أمر بأداء الصلاة من غير بيان ^(٤) فبيئت السنة كل ذلك بتطبيق رسول الله ﷺ ذلك عملياً وبتعليمه كيفيتها للمسلمين كما قال ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي » ^(٥) .

وفرض الله الزكاة من غير بيان لمقاديرها وأوقاتها وانصبتها وتعيين ما يزكي مما لا يزكي ، فجاءت السنة وافية ببيان كل ذلك وتفصيله .

وشرع الحج من غير أن يبين مناسكه ، فبين ﷺ تلك المناسك فقال في حجة الوداع « لتأخذوا مناسككم » الحديث ^(٦) .

وكذلك بيانه ﷺ لأحكام الصوم مما لم ينص عليه في الكتاب ، والطهارة والذبائح والصيد والأنكحة .

وأحكام البيوع والجنايات والحدود مما وقع مجملاً في القرآن ففصله النبي ﷺ ^(٧) .

٢ - تخصيص عامه :

العام : هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر .

والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام ^(٨) .

(١) سورة النحل : الآية : (٤٤) .

(٢) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن : ٣٩ / ٢ .

(٤) لأوقاتها وأركانها وركوعها وسجودها وعدد ركعاتها

(٥) انظر : أصول الفقه الإسلامي لبدران أبي العنين : ص : ١٠٣ والحديث : سبق تخريجه . انظر : ص : ٦

(٦) انظر : أصول الحديث : ص : ٤٧ . والحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٦

(٧) انظر : الموافقات : ١٤ / ٤ .

(٨) مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٢١ .

وفي القرآن وردت أحكام عامة جاء في السنة تخصيصها من ذلك قوله تعالى «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» ^(١) فالآية عامة في كل أصل موروث ، فخصص ﷺ ذلك بغير الأنبياء فقال : « لانورث ما تركنا صدقة ^(٢) (٣) » .

ومن ذلك قوله تعالى « وأحل الله البيع » ^(٤) فهي عامة في كل بيع فخصصت السنة جميع البيوع الفاسدة وهي كثيرة ^(٥) .

٣ - تقييد مطلقه :

المطلق هو ما دلّ على الحقيقة بلا قيد .

ويعارضه المقيد الذي يدل عليها بقيد ^(٦) .

فمما ورد في القرآن مطلقاً فقيدته السنة . قوله تعالى : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ^(٧) فأمرت الآية بإخراج الوصية من مال الميت ولم تحدد مقدارها ، فجاءت السنة مقيدة للوصية

(١) سورة النساء : الآية : (١١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب فرض الخمس : (٥٧) . باب فرض الخمس : (١) . ٤٢/٤ ، ٤٣ . وفي كتاب المغازي : (٦٤) باب حديث بني النضير : (١٤) ٢٣/٥ . وفي كتاب النفقات : (٦٩) . باب حبس نفقه الرجل : (٣) . ١٩٠/٦ . وفي كتاب الاعتصام : (٩٦) باب ما يكره من التعق والتنازع في العلم : (٥) . ١٤٦/٨ .

وأخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب حكم الفيء : (١٥) . برقم : (١٧٥٧) . ١٣٧٨/٣ - ١٣٧٩ . وفي باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لانورث ما تركنا فهو صدقة » : (١٦) برقم : (١٧٥٨) ، (١٧٥٩) . ١٣٧٩/٣ - ١٣٨١ .

(٣) انظر : أصول الفقه الإسلامي لبدران : ص : ١٠٣ ، ١٠٤ ، أصول الحديث : ص : ٤٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية : ٢٧٥ .

(٥) انظر : الاتقان في علوم القرآن : ٣٦/٢ .

(٦) انظر : مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٧) سورة النساء : الآية : (١١) .

بالثالث (١) .

٤ - توضيح المشكل :

لقد كانت بعض الآيات يشكّل فهمها على بعض الصحابة رضوان الله عليهم فيوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكّل عليهم .

من ذلك ما رواه البخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لما نزلت هذه الآية : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » (٢) شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذلك ألا تسمعون إلى قول لقمان : « إن الشرك لظلم عظيم » (٣) (٤) .

فقد فهم الصحابة أن المراد بالظلم في الآية عموم الظلم ويدخل في ذلك ظلم الإنسان نفسه بتقصيره في بعض الحقوق فأزال الرسول ﷺ الإشكال بإيضاحه لهم أن الظلم ليس على عمومهم وإنما المقصود نوع من الظلم وهو الشرك بالله وهو أعظم أنواع الظلم .

(١) انظر : المدخل إلى توثيق السنة : ص : ١٣ .

روى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مرضت فعادني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ادع الله أن لا يرديني على عقبي قال : « لعل الله يرفعك وينفع بك ناساً » قلت أريد أن أوصي وإنما لي ابنة ، قلت أوصي بالنصف ؟ قال : « النصف كثير » قلت : فالثالث ؟ قال : « الثالث والثالث كثير أو كبير » قال : فأوصي الناس بالثالث وجاز ذلك لهم .

صحيح البخاري : كتاب الوصايا : (٥٥) . باب الوصية بالثالث : (٣) . ١٨٧/٣ وانظر : باب أن يترك ورثته أغنياء : (٢) ، ١٨٦/٣ . كتاب الجنائز : (٢٣) ، باب رثى النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة : (٣٧) ، ٨٢/٢ . كتاب مناقب الأنصار : (٦٣) ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم امضني لأصحابي هجرتهم » : (٤٩) ، ٦٣/٤ . كتاب النفقات : (٦٩) ، باب فضل النفقة على الأهل : (١) ، ١٨٩/٦ . كتاب المرضى : (٧٥) ، باب وضع اليد على المريض : (١٣) ، ٦/٧ . وباب قول المريض إني وجع : (١٦) ، ٩ ، ٧ ، ٩ . كتاب الدعوات : (٨٠) . باب الدعاء برفع الوباء والوجع : (٤٣) ، ١٦٠/٧ . كتاب الفرائض : (٨٥) ، باب ميراث البنات : (٦) ، ٥/٨ . صحيح مسلم : كتاب الوصية : (٢٥) ، باب الوصية بالثالث : (١) . برقم : (١٦٢٨) ، ٣/١٢٥٠ - ١٢٥٣ . (٢) سورة الأنعام : الآية : (٨٢) . (٣) سورة لقمان : الآية : (١٣) .

(٤) صحيح البخاري : كتاب استتابة المرتدين : (٨٨) ، باب : (١) ، ٤٨/٨ وأخرجه بلفظ مقارب : في كتاب الأنبياء : (٦٠) ، باب قول الله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » الآية : (٤١) ، ١٣٧/٤ . وفي كتاب التفسير : (٦٥) تفسير سورة الأنعام : (٦) ، باب « ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » : (٣) ، ١٩٣/٥ وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب ، وفيه ، قالوا : « أينما لا يظلم نفسه » ، كتاب الإيمان : (١) ، باب صدق الإيمان وإخلاصه : (٥٦) برقم : (١٢٤) ، ١١٤-١١٥ .

٥ - بسط مختصره :

تشير بعض آيات القرآن الكريم إلى بعض الحوادث التي وقعت في عهد النبي ﷺ أو في العهود السابقة وتتناولها بشيء من الإيجاز ، فيأتي في السنة بسط لما أشار إليه القرآن ، وإيضاح لبعض الجوانب التي لم تذكر فيه .

مثال ذلك حادثة الثلاثة : الذين خلفوا عن غزوة تبوك فقد تعرض القرآن لذكرها باختصار بالغ في قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » الآية (١) .

وقد جاء بسطها في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وهو حديث طويل استوعب جزئيات تلك القصة (٢) .

ومثال ذلك في العهود السابقة ما ذكره الله عز وجل في شأن أصحاب الأخدود ، فأورده باختصار فذكر رسول الله ﷺ جانباً مما وقع لهم وما لا قوه من ابتلاء وامتحان (٣) .

٦ - ناسخة لحكم ثبت بالقرآن :

النسخ هو : رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخ عنه (٤) ونسخ السنة للقرآن موضع اختلاف بين العلماء .

ومن يجوز ذلك يستند في ذلك لقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (٥) .

فقد نصت الآية بالوصية للوالدين ، وهما من الورثة ، ولهما حق مقرر معلوم ، فجاءت السنة ناسخة : حكم الوصية لكل وارث وذلك في قوله ﷺ :

(١) سورة التوبة : الآية : (١١٨) .

(٢) انظر : في الحديث النبوي : ص : ٢٨ .

وانظر : صحيح البخاري : كتاب المغازي : (٦٤) ، باب حديث كعب ابن مالك : (٧٩) ، ١٣٥-١٣٠/٥ . صحيح مسلم : كتاب التوبة : (٤٩) ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه : (٩) : (٢٧٦٩) . ٢١٢٩-٢١٢٠/٤ .

(٣) انظر : صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقائق : (٥٣) . باب قصة أصحاب الأخدود : (١٧) . برقم : (٣٠٠٥) ، ٤ ، ٢٣٩٩-٢٣٠١ .

(٤) مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٣٢ .

(٥) سورة البقرة : الآية : (١٨٠) .

« إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث »^(١) فنسخت الآية بالسنة الثابتة لا بالإرث على الصحيح من أقوال العلماء ، لأن الكل حكم الله تعالى وأمره عنده وإن اختلفت الأسماء^(٢) .

٧ - مفرعة على أصل تقرر في الكتاب :

مثال ذلك منع بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ففي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم »^(٣) .

تحريم على الناس أكل أموالهم بينهم بالباطل وبغير حق وإباحة الأكل بشرط عقد التراضي .

فجاء النبي ﷺ إلى المدينة فوجد الناس قد وقعوا في أعراف وعادات آباحوا بها أكل أموالهم بصور كانت مصدراً لنزاع دائم من ذلك ، بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، فقد يأتي مرض أو جائحة على ذلك الثمار فتفسده فيقع الخصام والنزاع . فلذلك حرم رسول الله صلى

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي أمامة . كتاب الوصايا ، باب ماجاء في الوصية للوارث . برقم (٢٨٧٠) .
 ١١٤/٣ . وفي كتاب البيوع ، باب في تضمين العارية ، برقم (٣٥٦٥) ، ٢٩٦/٣ - ٢٩٧ .
 والترمذي في سننه ، عنه رضي الله عنه ، برقم : (٢١٢٠) ، وعن عمرو بن خارجة برقم : (٢١٢١) ، كتاب الوصايا :
 (٣١) ، باب ماجاء لا وصية لوارث : (٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . ٣٧٦/٤ - ٣٧٨ .
 والنسائي في سننه عن عمرو بن خارجة ، في كتاب الوصايا ، باب إبطال الوصية للوارث ، ٢٠٧/٦ .
 وابن ماجه في سننه عنه رضي الله عنه برقم : (٢٧١٢) ، وابن أبي عمير أمانة برقم (٢٧١٣) وأنس برقم : (٢٧١٤) . كتاب
 الوصايا : (٢٢) ، باب لا وصية لوارث : (٦) ، ٩٠٥/٢ - ٩٠٦ .
 والدارمي في سننه ، عن عمرو بن خارجة ، كتاب الوصايا ، باب الوصية للوارث ٤١٩/٢ .
 والبيهقي في سننه ، عن أبي أمامة وعمرو بن خارجة وأنس . ٢٦٤/٦ - ٢٦٥ وأحمد في المسند عن عمرو بن خارجة :
 ١٨٦/٤ ، ١٨٧ .

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني عنه : « صحيح » صحيح الجامع : ٩٦/١ برقم (١٧١٦) صحيح سنن أبي داود :
 ٥٥٤/٢ ، ٦٨٠ . وأورده في أرواء الغليل برقم : (١٦٥٥) . وذكر طريقه ثم قال : « إن الحديث صحيح لاشك فيه ، بل
 هو متواتر كما جزم بذلك السيوطي وغيره من المتأخرين » . ٨٧/٦ - ٩٦ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢/٢٦٣ .

(٣) سورة النساء : الآية : (٢٩) .

الله عليه وسلم بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها^(١) وقال في ذلك أيضاً : « أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه » (٢)(٣) .

قال الإمام الشافعي بعد ذكره للنوعين السابقين - أي السنة المؤكدة والسنة المبينة - قال : « وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما » (٤) .

النوع الثالث :

أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه ، أو محرمة لما سكت عن تحريره (٥) .

وهي القسم الذي عناه الشافعي بقوله : « ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب » (٦) .

ومثالها الأحاديث التي تحرم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها (٧) .

وهذا النوع هو الذي وقع الخلاف فيه بين العلماء. فهل تعتبر أحكاماً مستقلة عما في

(١) انظر : صحيح البخاري : كتاب الزكاة : (٢٤) ، باب من باع ثماره .. (٥٨) ، ١٣٤/٢ ، كتاب البيوع ، (٣٤) ، باب بيع المزلة : (٨٢) ، وباب بيع الثمر على رؤوس النخل : (٨٣) ، وباب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٥) ، وباب بيع النخل قبل أن يبدو صلاحها : (٨٦) ، وباب إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٧) . ٣١/٣ - ٣٤ . وكتاب المساقاة : (٤٢) ، باب الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط : (١٧) ، ٨١/٣ . صحيح مسلم : كتاب البيوع : (٢١) ، باب النهي عن بيع الثمار قبل بدء صلاحها : (١٣) حديث رقم : (١٥٣٤) ، (١٥٣٨) ، ١١٦٥/٣ - ١١٦٨ .

وفي باب تحريم بيع الرطب بالتمر إلا في العرايا : (١٤) . برقم : (١٥٣٩) ، ١١٦٨/٣ . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك في كتاب البيوع : (٣٤) ، باب إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٧) . ٤٣/٣ ، ويلفظ مقارب في باب بيع المخاضرة : (٩٣) . ٣٦/٣ . وأخرجه مسلم في صحيحه بالفاظ مقاربة ، كتاب المساقاة : (٢٢) ، باب وضع الجوائح : (٣) ، برقم : (١٥٥٥) . ١١٩٠/٣ .

(٣) انظر : بداية المجتهد : ١٤٩-١٦٣ ، المدخل إلى علم أصول الفقه : ص : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٥) أعلام الموقعين : ٢/٣١٤ .

(٦) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٧) روى البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها » وروى قريباً منه عن أبي هريرة . في كتاب النكاح : (٦٧) ، باب لا تنكح المرأة على عمتها : (٢٧) . ١٢٨/٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه . من حديث أبي هريرة ، في كتاب النكاح : (١٦) ، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ، (٤) ، برقم : (١٤٠٨) ، ١٠٢٨/٢ - ١٠٣٠ .

القرآن؟ أو هي داخلة تحت نصوصه ، ولو اتبع في ذلك شيء من التأويل والتكلف؟ ذهب المحدثون وأكثر العلماء على أن السنة قد تستقل بالتشريع وتأتي بما ليس في كتاب الله تعالى لأنها من عند الله حقيقة فهي موحى بها من الله إلى رسوله ﷺ (١) فوحى الله إلى رسوله قسمان ، قال عنهما الإمام ابن حزم : « أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن ، والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو ولكنه مقروء وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ » (٢) .

وذهب آخرون على أن السنة لا تستقل بالتشريع وإنما تدخل أحكامها تحت نصوص القرآن .

قال الشاطبي : « السنة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيل مجمله ، وبيان مشكله ، وبسط مختصره . وذلك لأنها بيان له وهو الذي دل عليه قوله تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٣) .

فلا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية (٤) .

وقال أبو زهرة : « لانكاد نجد مثلاً لحكم أتت به السنة إلا وجدنا له أصلاً قرآنياً قريباً كان أو بعيداً » (٥) .

وقد استند كل فريق على أدلة تؤيد ما ذهب إليه (٦) مع اتفاقهما على وجود أحكام جديدة لم ترد في القرآن صراحة ، وهذا ما عناه الفريق الأول باستقلال السنة في التشريع ، بينما عني الفريق الثاني أن عدم وجودها صراحة في القرآن لا يخرجها عن دخولها تحت نصوص أو قواعد عامة دل عليها القرآن (٧) .

وفي الحقيقة إرجاع كل ما ورد في السنة إلى القرآن الكريم وإدخاله تحت نصوصه فيه

(١) انظر : مقاييس نقد متون السنة : ص : ٢٦٩ .

(٢) الأحكام في أصول الأحكام : ٩٧/١ .

(٣) سورة النحل : الآية : (٤٤) .

(٤) الموافقات : ٦/٤ .

(٥) أصول الفقه : ص : ١١٣ .

(٦) انظر : الموافقات : ٦/٤ - ٨ . السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ص : ٣٨١ .

(٧) المرجع السابق : ص : ٣٨٥ .

نوع من التكلف والتأويلات البعيدة ، وقد اعترف الإمام الشاطبي بذلك .

فبعد إيراده لمجموعة من الأحاديث التي حاول بعض العلماء إدخالها تحت نصوص القرآن ، قال :

« ولكن القرآن لا يفي بهذا المقصود على النص والإشارة العربية التي تستعملها العرب أو نحوها فالملتزم بهذا لا يفي بما ادعاه إلا أن يتكلف في ذلك مأخذ لا يقبلها كلام العرب ولا يوافق على مثلها السلف الصالح ولا العلماء الراسخون في العلم » (١) .

ويتبين مما سبق من خلاف ، أنه لا يتعدى أن يكون لفظياً إذ الكل مقر بوجود أحكام ثابتة في السنة لم ترد في القرآن بل إن الجميع اتفقوا على حجيتها (٢) .

ولذلك قال الإمام الشافعي بعد ذكره للخلاف السابق :

« وأي هذا كان فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في دينهم إن سنته ﷺ إذا كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب أخرى : فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال » (٣) .

وهذا القسم على اعتبار أنه زائد على القرآن فهو تشريع مبتدأ من رسول الله ﷺ يجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، امتثالاً لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان لا يطاع في هذا القسم ، لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، لأنه إذا لم تجب طاعته إلا إذا وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به ، وقد قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤) (٥) .

(١) الموافقات : ٢٨ / ٤ .

(٢) انظر : أعلام الموقعين . ٣١٥ / ٢ ، ٣١٦ .

(٣) الرسالة : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) سورة النساء الآية : (٨٠) .

(٥) انظر : أعلام الموقعين : ٣١٤ / ٢ ، ٣١٥ .

المطلب الثانى العلاقة بين الشرع والعقل فى الدين الإسلامى

ماهية العقل :

العقل صفة قائمة بنفس الإنسان التى تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بالقلب لقوله تعالى : {أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها} (١)(٢).

وظيفته :

العقل شرط فى معرفة العلوم ، وفى الأعمال وصلاحها ، وبه يكمل الدين والعمل ، ولكنه لا يستقل بذلك ، إذ هو غريزة فى النفس وقوة فيها كقوة البصر ، إن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار ، وإن انفرد لم يبصر الأمور التى يعجز وحده عن إدراكها وإن أبعد بالكلية كانت الأقوال والأفعال أمورا حيوانية (٣).
موقف أرباب المذاهب منه :

لقد تباينت أقوال الناس وأحكامهم فى العقل ودلالته على الحق ، وذهب فيه كل منهم مذهبا .
فأهل الكلام والفلسفة (٤) جعلوا العقل من أصول العلم

(١) سورة الحج : آية ٤٦

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٣٠٣/٩ .

(٣) انظر المرجع السابق ٣٣٩، ٣٣٨/٣ .

(٤) الفلسفة : لفظ الفلسفة مشتق من اليونانية وأصله (فيل - صوفيا) ومعناه محبة

الحكمة . ويطلق على العلم بحقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح . وتعنى عند الأوائل جميع العلوم ، وأما فى الحديث فهى تطلق على دراسة المبادئ الأولى التى تفسر المعرفة تفسيرا عقليا كفلسفة العلوم ، وفلسفة الأخلاق .

انظر : المعجم الفلسفى ١٦٥-١٦٠/٢ .

وجعلوا الوحي تابِعاً له ، بل حكموه في نصوص الوحي فلا يقبل منها إلا ما أيده العقل ووافقه ويدفع منها ما عارضه وخالفه (١) .

وكثير من المتصوفة يذمون ^{هذا} العقل ويعيبونه ، ويرون أن الأحوال والمقامات لا تكون إلا مع عدم وجوده ، ويقرون ويصدقون بما يكذب به صريح العقل ، ويمدحون الأمور التي تؤدي إلى زواله كالسكر والجنون (٢) . وظن الأولون أن دلالة الكتاب والسنة قاصرة فقط على الأخبار المجردة الخالية من الدلالات العقلية ، وهذه الأخبار موقوفة على العلم بصدق المخبر ، ويجعلون ما يبني عليه صدق المخبر معقولات محضة (٣) .

فهؤلاء عظموا عقولهم وقدموها وأخضعوا لها نصوص الوحي . فالحق عندهم ما جاء به ، والباطل ما رفضته ، وجردوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن الدلائل العقلية ، بل جعلوا الشرع والعقل ضدين استحكمت بينهما العداوة والتنافر .

وأما الذين عطلوا عقولهم وكبلوها ، وذموا العقل وعابوه فهؤلاء ذمهم الله ، ووصفهم بأنهم شر الخليقة في الأرض ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ (٤) .

ولذا كان جوابهم يوم القيامة عندما يطرحون في النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ (٥) .

١- سوف يأتي بسط الكلام عن هذه الفئة ، وما يؤيد ما ذكرت من أقوالهم وشبههم ، والجواب عنها .

٢- انظر : مجموع الفتاوى : ٣/ ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ١/ ٢٨ ، ٢٩ .

٤- سورة الأنفال : الآيات : (٢٢) ، (٢٣) .

٥- سورة الملئ : الآيات : (١٠) ، (١١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"عدم العقل والتمييز ... لا يحمد لخال من جهة نفسه ، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم . بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه ونحو ذلك في غير موضع ودم عدم ذلك في مواضع" (١).

فقد مدح الله وأثنى على أصحاب العقول السليمة التي أحسن أصحابها استخدامها فهداهم الله بها إلى الحق . تلك العقول التي تتدبر في خلق الله وتجدول بفكرها في مخلوقاته تتلمس فيها قدرة الخالق وربوبيته لجميع الخلق ، {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه} فقنا عذاب النار { (٢) } . ولم تعارض شرع الله ودينه ، وإنما وقفت عند حدودها التي حدها الله لها ، فلم تنتهك حرمة النصوص ، ولم تغفل تدبرها وفهمها . فهي التي عرفت الحق وصارت على الصراط المستقيم حيث لا إفراط ولا تفريط .

(١) الاستقامة ١٥٧/٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٩٠، ١٩١

اهتمام الإسلام بالعقل :

إن الإسلام اهتم بالعقل اهتماماً بالغاً فجعله مناط التكليف ، فإذا فقد ارتفع التكليف وعد فاقده كالبهيمة لا تكليف عليه (١).

بل جعله الإسلام أحد الضروريات الخمس التي أمر الشارع بحفظها ورعايتها ، لأن مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة عليها (٢).

والعقل الذي يستطيع أن يؤدي وظيفته على أكمل وجه هو الذي تجرد من الهوى وخلص من ربة التقليد ، فلم يتأثر بالآراء والأفكار المنحرفة التي تدفعه للوقوع في الضلال ، كما أنه لم يعطل قواه باتباع أعمى فينجر إلى الانحراف والزيغ .

فهذا هو العقل الذي يمكنه أن يحمل رسالة الإسلام حملاً صحيحاً ، منصاعاً لتكاليف الإسلام ، منقاداً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه .

وأحكام الإسلام كلها معقولة لم تخاطب إلا العقل ، ولم توجه إلا إليه ، فحث الإسلام العقل على التفكير والتدبر والتبصر ونهاه عن التقليد ، والخضوع الأعمى للسادة والكبراء ، ووجه الدعوة إليه معزولة عن وسائل الضغط والشدة والقصر والإكراه كما قال تعالى : {الإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (٣)(٤).

والقرآن والسنة مملوءان بالأدلة العقلية التي تقصر عنها عقول أهل الكلام والفلسفة .

(١) انظر : الموافقات ١٣/٣ .

(٢) المرجع السابق ٨/٢ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦

(٤) انظر : لمحات في وسائل التربية الإسلامية - وغايتها ص ١٢٣-١٢٧ .

فالله سبحانه وتعالى قد ضمن كتابه العزيز من الأدلة العقلية والحجج البينة الباهرة والأقيسة التي هي الأمثال المضروبة ما يتضح لكل ذي عقل ، فخطب بذلك أولى الألباب ، والنهي ، والحجى ، ومن يعقل ويسمع . فضمنه سبحانه وتعالى من الأدلة العقلية ما أخبر به عن نفسه وأسمائه وصفاته ، وأمر المعاد ، وثبوت الأوامر والنواهي ، والوعد والوعيد (١) .

قال شيخ الإسلام بن تيمية :

« قد تدبرت عامة ما يذكر المتفلسفة والمتكلمة ، والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر ، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها ، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها » (٢) .

وقال : « إنما عند النظار أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية . فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق ، وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه ، مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء ، فإن خطأهم فيها كثير جداً ، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم ، وجهلهم أكثر من علمهم » (٣) .

وقد جاءت البراهين العقلية في القرآن الكريم في أعظم المطالبة الإلهية ، ففي الدلالة على توحيد الله وتفرده بالعبادة دون سواه ، خاطب الله أصحاب العقول مبيناً لهم بطلان الآلهة التي اتخذت من دونه فقال : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف

١- انظر : « بيان تلبيس الجهمية » ١ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

٢- مجموع الفتاوى ١٩ / ٢٣٢-٢٣٣ .

٣- المرجع السابق ٩ / ٢٢٥ .

الطالب والمطلوب» (١) .

فهذه الآلهة التي عبدت مع الله عز وجل آلهة ضعيفه عاجزة لا تملك لمعبوديتها نفعا ولا ضرا .

فإذا كان الذباب وهو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبده من دون الله على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين . وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين (٢) .

وقال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

وهذا من أقوى الأدلة في نفي الشريك عن الله سبحانه وتعالى ، فهو خطاب موجه إلى المشركين الذين صرفوا العبادة لغير الله سبحانه .

فهل يرضى أحدهم أن يكون مملوكه في نفسه وماله مثله ، فإذا لم يرضوا هذا لأنفسهم فكيف جعلوا لله شركاء ؟ (٤) .

وهذا مثل ضربه الله لكي ينتفع به أصحاب العقول السليمة كما قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٥) .

فالأمثال المضروبة في القرآن أورد الله فيها خلاصة الحجج والأقضية العقلية التي ينتفع بها أصحاب العقول النيرة ، والأفهام المدركة ، قال تعالى

١- سورة الحج الآية (٧٣) .

٢- انظر الجامع لأحكام القرآن ٩٧/١٢ .

٣- سورة الروم الآية (٢٨) .

٤- انظر المرجع السابق ٢٣/١٤ .

٥- سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم
يتذكرون ﴾ (١) . (٢)

وقد دل الله عز وجل على معاد الأجسام بأبلغ الأدلة التي يقف العقل
أمامها متحيراً بعظم الاستدلال وقوة الحجة ، وذلك في قوله تعالى ﴿ أو لم
ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً
ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول
مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم
منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق
مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له
كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

فقد ذكر الله في هذه الآيات عدة أدلة عقلية على المعاد : فبين أنه
خلق الإنسان من نطفة وهي ماء مهين حقير ضعيف في غاية من الضعف
والعجز فصار خلقاً سوياً تام العقل والإدراك والقدرة على التصرف وكسب
المصالح لنفسه ودفع المضار عنها .

فإذا هو يخاصم ويجادل في نشأته ومن يقدر على إعادة خلقه .

ألا يقدر من أوجده من ذلك الأصل المוגل في الضعف والعجز أن
يعيد نشأته إذا توفاه وصار رميمًا ؟

وإذا سلم بهذه الحقيقة ، وأصل نشأته فما الذي يستبعده عقله من
القدرة على الإعادة ؟ أليس من الأمر البدهي أن إعادة الشيء بعد تلفه
وتفرقه أهون من إنشائه أول مرة من العدم ؟

١- سورة الزمر الآية (٢٧) .

٢- انظر درء تفاوض العقل والنقل ٢٩/١ .

٣- سورة يس الآيات (٧٧-٨٣) .

ولتقرير هذا المعنى وإثبات قدرة الخالق المطلقة على هذا وعلى ما هو أعجب من ذلك ضرب لذلك مثلاً بالنار التي تخالف طبيعتها الرطب والماء حيث لا يجتمعان، وفي ذلك دلالة على عظمة قدرة الخالق الذي لا يعجزه شيء (١) .

ثم أخبر عن عظم قدرته في خلق السموات وما فيها من كواكب ، والأرض وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، وهذا أعظم في الإيجاد من خلق الأجساد كما قال تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (٢) . (٣)

والعلوم والأعمال التي يستفيد منها الخلق نوعان : نوع يحصل بالعقل كعلم الحساب والطباعة والصناعة والحياكة وغير ذلك .

ونوع لا يعلم بمجرد العقل : كالعلوم الإلهية ، وعلوم الديانات ، وهذه منها ما يمكن أن يقام عليه أدلة عقلية ، والرسل عليهم السلام هم الذين هـدوا الخلق وأرشدوهم إلى دلالة القدرة عليها ، وهي عقلية شرعية (٤) .

١- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول : ٤٧/١ ، ٤٨ .

٢- سورة غافر الآية (٥٧) .

٣- انظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٨٢/٣ .

٤- انظر : مجموع الفتاوى ٢١٠/٤ ، ٢١١ .

لاتعارض بين الشرع والعقل :

وقد وضع علماء الكلام قاعدة عامة سموها قانونا كليا يرجع إليه في جميع أمور الدين . فقالوا : إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية ، أو النقل والعقل فإما أن يجمع بينهما وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يردا جميعا ، وإما أن يقدم السمع وهو محال ، لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذى هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشئ قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا ، فوجب تقديم العقل ، ثم النقل إما أن يقال بعدم صحته ، وإما أن يتأول أو يفوض (١).

فبهذه القاعدة الباطلة استطاع هؤلاء أن يردوا نصوص الوحي الثابتة وأن يجعلوا لعقولهم سلطانا عليها يجول في النصوص فيرد ما شاء ويقبل ما شاء ويدعى معارضته لما شاء ، وحكموها على النصوص وقدموها عليها . وما كانت الشريعة الغراء بقسميها الكتاب والسنة تعارض العقول أو تخالفها .

لأن كل ما فيها يوافق العقل ، والمعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فلم يخبر الله ورسوله بما يناقض صريح العقل ، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل (٢).

(١) انظر أساس التقديس في علم الكلام ص ١٧٢، ١٧٣ .

(٢) انظر أعلام الموقعين ٧١/٢ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ... »

وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع ... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه : إما حديث موضوع ، أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته (١) .

فكيف ينقدح في ذهن المؤمن أن في نصوص الوحي المنزلة من عند الله عز وجل ما يخالف العقول السليمة ، بل كيف ينفك العقل الصريح عن ملازمة النص الصحيح ؟ بل هما أخوان لا يفترقان وصل الله بينهما في كتابه فقال ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٢) .

فذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل (٣) .

١- درء تعارض العقل والنقل ١/١٤٧ .

٢- سورة الأحقاف الآية (٢٦) .

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٦١ .

وكيف بعد هذا يجوز لأحد أن يقول إن في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة الصحيحة ما يعلم أحد من الخلق أنه باطل ، وأن كل من اشتبه عليه شيء مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قدم رأيه عليه ودفعه به ، خاصة في أنباء الغيب التي ضل فيها عامة من دخل فيها بمجرد رأيه ، بدون الاستهداء بهدي الله ، والاستضاء بنوره الذي بعث به رسوله ، وأنزل به كتبه ، مع علم كل أحد بقصوره . وتقصيره في ذلك؟ (١) .

وعلى المعتزلة الذين حكموا عقولهم في نصوص الوحي ومن سار على نهجهم وتتبع خطاهم ، أن يعلموا أنه لا يوجد حديث واحد على وجه الأرض يخالف العقل إلا أن يكون ضعيفاً أو موضوعاً ، بل لا يعلم حديث صحيح في الأمر والنهي أجمع المسلمون على تركه إلا إذا كان منسوخاً ، بل لا يعلم حديث أجمعوا على نقيضه ، فضلاً أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء . فإن ما يعلم بالعقل الصريح أظهر وأوضح مما يعلم بالإجماع (٢) .

فالعقلاء متفقون على أن العقل الصريح لا يخالف نقلاً صحيحاً (٣) .

وواجب على هؤلاء أن يخالفوا قاعدتهم ، فمتى ما تعارض الشرع والعقل عندهم . وجب عليهم تقديم الشرع ، وذلك لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به ، والشرع لم يصدقه في كل ما أخبر به ، ولا العلم

١- انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٥٥ .

٢- انظر المرجع السابق ١/ ١٥٠ ، ١٥١ .

٣- انظر الصفات الإلهية ص ١٥ .

بصدق الشرع موقوف على كل ما يخبر به العقل .

فالعقل متول ، ولي الرسول ثم عزل نفسه ، لأن العقل دل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر (١) .

ولذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

« إذا تعارض النقل وهذه العقول أخذ بالنقل الصحيح ، ورمى بهذه العقول تحت الأقدام ، وحطت حيث حطها الله وأصحابها » (٢) .

وجوب انقياد العقل واستسلامه للشرع :

لقد بعث الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وجعله خاتم الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، فأقام به الملة بعد إعوجاجها ، وأوضح به الحجة بعد اندثارها ، فأرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وقد أغلق الله جميع الطرق إلا طريقاً واحداً هو الموصل إليه ، كما قال ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣) .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو الدليل الهادي إلى هذا الصراط كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ (٤) .

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٣٨ .

٢- مختصر الصواعق ص ٨٢ ، ٨٣ .

٣- سورة الأنعام الآية (١٥٣) .

٤- سورة الأحرار الآية (٤٥) ، (٤٦) .

وقال : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (١) . (٢)

وقد ألزم الله العباد بطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر والانتهاز عما عنه نهى وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرعه على لسانه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٣) .

فالواجب على كل مسلم كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارض خبره بخيال باطل نسميه معقولاً ، أو نحمله شبهة أو شكاً ، أو نقدم عليه آراء الرجال وذبالة أذهانهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحده المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل (٤) .

قال الطحاوي رحمه الله : « ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجه مرامه عن خالص التوحيد ، وصاف المعرفة ، وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصداقاً ، ولا جاحداً مكذباً » (٥) .

١- سورة الشورى الآية (٥٢) .

٢- انظر : مجموع الفتاوى ٥٧،٥٦/٤ .

٣- سورة النساء الآية (١١٥) .

٤- انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٠ .

٥- متن العقيدة الطحاوي ص ١٠ .

أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد إليها ، ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسيه ، كما قال ابن شهاب : « من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » (١) .

وقد ضرب العلماء مثلين في انقياد العقل واستسلامه للرسول صلى الله عليه وسلم .

الأول : أن العقل مع خبره صلى الله عليه وسلم كالعامي المقلد مع الإمام المجتهد - بل هو دون ذلك بكثير - فلو عرف العامي المقلد عالماً مجتهداً فدل عليه مستفتياً ثم اختلف الدال والمفتي فعلى المستفتي قبول خبر المفتي دون الدال ، لأن الدال شهد للمفتي بالعلم دونه وأنه أعلم منه ، بل على العامي الدال التصديق بفتية العالم والتسليم له بذلك وعدم الاعتراض (٢) .

الثاني : مثله كمثل استسلام الصبي الصغير لأستاذه ومربيه ، فإنه لا يعارضه ولا يخالفه بل يجب أن يكون استسلام العقل للرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك بكثير ، فإن التباين بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين صاحب المعقول أضعاف أضعاف التباين بين الصبي وأستاذه .

ومن العجب ، أن هؤلاء المقدمين عقولهم على الوحي ، خاضعون لأئمتهم وسلفهم ، مستسلمون لهم في أمور كثيرة ، ويقولون : هم أعلم فيها منا ، وعقولهم أكمل من عقولنا ، فليس لنا أن نعترض عليهم ، فكيف جوزوا الاعتراض على الوحي بعقولهم مع أن النسبة بين عقولهم وبين الوحي أدنى بكثير من نسبة عقولهم إلى عقول أئمتهم؟ (٣) .

١- انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٢٠١ .

٢- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/١٣٨ ، ١٣٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ٢٠١ ، ٢٠٢ .

٣- انظر : الصواعق المرسله ٣/٨٩٣ ، ٨٩٤ .

إكمال الدين :

قد أكمل الله دينه على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم ولم يحوجه هو ولا أمته من بعده إلى عقل ولا إلى نقل ولا إلى رأي سوى ما جاء به .

فقال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) .

«وأنكر على من لم يكتف بالوحي المبين ولجأ إلى شبهات العقول وترهاتها فقال : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (٢) ، (٣)

فما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور الدين كامل كاف لا يحتاج إلى مزيد تقذف به عقول ناقصة ولا آراء واهمة ، كما أنه ليس فيه نقصان ولا تقصير . لأنه لا يجوز أن يخلو كتاب الله وسنة رسوله من مهمات الدين ، فما خلى عنهما فليس من مهام الدين بل ذلك زيادة في الدين محرمة (٤) .

وكذا النقص يعد خللاً في الدين ، ولو كان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ناقصاً ما حكم الله له بالكمال وشهد لرسوله بالبلاغ كما قال تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (٥) .

١- سورة المائدة : الآية ٣ .

٢- سورة العنكبوت : الآية ٥١ .

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة : ٩ .

٤- انظر : إيثار الحق على الخلق : ص ١٠٨ .

٥- سورة المائدة : الآية ٦٧ .

وقد أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بتبليغه الدين بعد أن شهد له أفضل هذه الأمة في أفضل يوم ، في حجة الوداع فقال لهم : « هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد » (١) .

فما أوحاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من كتاب وسنة مغنى عما سواه ، ولا حاجة للناس لزيادة عليه .

قال الخطيب البغدادي رحمه الله : « ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتضى آثار الفقهاء والمحدثين ، لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه ، واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه » (٢) .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم « أعلام الموقعين » تحت عنوان : « لا حاجة للناس بعد رسول الله ودينه » .

قال : « وبالجمل فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه ، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس أو حقيقة

١- أخرجه البخاري في صحيحه . عن ابن عباس ، وأبي بكرة وابن عمر رضي الله عنهم .

في كتاب الحج : (٢٥) . باب الخطبة أيام منى ، (١٣٢) . ١٩١/٢ - ١٩٢ .

وفي كتاب الفتن : (٩٢) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا

بعدي كفارا... » (٨) ، ٩١/٨ . وأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب القسامة :

(٢٨) ، باب تغليظ تحريم الدماء : (٩) برقم : (١٦٧٩) . ١٣٠٧/٣ .

٢- شرف أصحاب الحديث : ص ٧-٨ .

أو معقول خارج عنها ، ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ﴿١﴾ .

فما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النعمة المهداة إلى الخليقة جمعاء بل هو العلم الحق والهدى والرحمة كما قال تعالى ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والسنة على بيان ذلك من كان ناقصاً في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل النار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (٣) ، (٤)

فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به رسل الله عن الله عز وجل طلباً وخبراً ، فهو العلم الذي زكى الله به النفوس ، وكمل به الفطر وصح به العقول وأزال به الشكوك ، ودحض به الشبه وأقام به الحجة وهدى به الخلق ، كما قال تعالى في شأن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (٦) وأما ما عند هؤلاء المعارضين

١- أعلام الموقعين ٢٧٦/٤ .

٢- سورة يوسف الآية (١١١) .

٣- سورة الملك الآية (١٠) .

٤- انظر : مجموع الفتاوى ٢٩٥/٣ ، ٢٩٦ .

٥- سورة البقرة الآية (١٥١) .

٦- سورة النساء الآية (١١٣) .

لنصوص الوحي بعقولهم فهو ظن لا يغني من الحق شيئاً ، وتخرص وكذب مناف للحق ومجاف للعلم كما قال تعالى ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ (١) وقال ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ (٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد ، فمن أعظم نعم الله على عباده ، وأشرف منة عليهم ، أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبين لهم الصراط المستقيم ، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها ، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية ، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم ﴾ (٣) .

فإذا كان عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، بل لو وزن عقله بعقولهم جميعاً لرجح عقله عليها ، ومع ذلك فقد أخبر الله أنه قبل الوحي ما كان يدري ما الكتاب والإيمان كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك

١- سورة الأنعام الآية (١٤٨) .

٢- سورة النجم الآية (٢٨-٣٠) وانظر: الصواعق المرسلة ٣/ ٨٧٨ - ٨٧٩ .

٣- مجموع الفتاوى ١٩/ ١٠٠ .

لتهدي إلى صراط مستقيم ﴿ (١) . بل ما حصل له الهدى إلا بالوحي كما قال تعالى : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾ (٢) . فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون الوحي، حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى معارضة النصوص بالعقل : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ (٣) ، (٤) .

فهل يعتقد هؤلاء أنهم أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحقائق الأمور وأحرص منه على هداية العباد ، وأنه قد يأتي بالمتناقضات التي تدفعها العقول ولا تقبلها القلوب ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون رسولاً لله ؟ ويأمنه الله على رسالته ودينه ويأمره بتبليغ ذلك للإنس والجن ؟ .

بل هو رسول الله حقاً ، وهو أعلم الخلق بالحق ، وأقدر الناس على بيان الحق ، وأنصح الخلق للخلق ، وأفصحهم لساناً وأصحهم بياناً ، وأحرصهم على هدى العباد كما قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (٥) ، بل كلامه وبيانه أكمل وأتم من كلام وبيان غيره ، فلا يجوز عليه صلى الله

١- سورة الشورى الآية (٥٢) .

٢- سورة سبأ الآية (٥٠) .

٣- سورة مريم الآية (٨٩ - ٩٠) .

٤- انظر : مختصر الصواعق المرسله ص ٧٥ ، ٧٦ .

٥- التوبة الآية (١٢٨) .

عليه وسلم أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل ، ويسكت عن بيان الحق المراد ، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم ، لأن ذلك يعد قدحاً فيه صلى الله عليه وسلم (١) .

وعجب من هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ، كيف يوجب أحدهم على عقله أن ينقاد إلى طبيب يهودي فيما يأمره به من علاجات وطرق استعمالها بما فيها من كلفة وألم ومشقة ، لظنه أن ذلك الطبيب أعلم بهذا منه ، وأن ذلك العلاج قد يؤدي إلى شفائه ، مع علمه بأن الطبيب قد يخطئ ، بل قد يكون ما وصفه له سبباً في هلاكه ، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده . فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يقول إلا الحق ، ولا يخبر إلا بالحق ، ولا يمكن أن يكون في خبره ما يخالف الواقع والحق . ؟ (٢) .

فرسل الله معصومون فيما يبلغونه عن الله ، فلا يجوز أن يستقر في خبرهم شيء من الخطأ كما أتفق على ذلك جميع المقرين بالرسول من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم ، فليس عندهم ما يناقض العقل ، فمتى ما علم المؤمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بشيء جزم جزمًا قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يكون في الباطن خلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ، عقلي أو سمعي ، وإن كل ما ظن أنه عارضه فإنما هو حجج داحضة وشبه باطلة (٣) .

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل ٢٣/١ .

٢- انظر : المرجع السابق ١٤١/١ ، ١٤٢ .

٣- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١٣٧/١ ، ١٣٨ .

فمن قال : يجب تصديق ما أدركته بعقلي ، ورد ما جاء به الرسول لرأي وعقلي ، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول ، مع تصديق بأن الرسول صادق فيما أخبر به ، فهو متناقض ، فاسد العقل ، ملحد في الشرع . وأما من قال : لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي ، فكفره ظاهر ، وهو ممن قيل فيه :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (١) وممن قيل فيه : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٢) ، (٣) .

وقد أقسم الله سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول ، لأنه لا يثبت لأحد إيمان حتى يحكم رسوله في جميع أموره ولا يبقى في نفسه حرج لحكمه ويسلم لذلك تسليماً كاملاً فلا يعارضه بعقل ولا رأي لقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٤) ﴿ (٥) .

١- سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

٢- سورة غافر الآية (٨٣ - ٨٥) .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٨٩ ، ١٩٠ .

٤- سورة النساء الآية (٦٥) .

٥- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٩٠ .

وتحكيم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يعصم الأمة من الزيف والانحراف والاختلاف ، فالناس لا يفصل بينهم في النزاع إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد عقل (١) . ولذلك أمرهم بالرد عند التنازع إلى الكتاب والسنة فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (٢) .

والأمة متفقة على أن المراد بالرد إلى الله ورسوله الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكونا وافيين ببيان مهمات الدين ما أمرهم الله بالرجوع إليهما عند الاختلاف (٣) .

والله عز وجل قد أقام الحجة على البشرية ببعثة الرسل لا بحجج العقول كما قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا ﴾ (٥) .

فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثة الرسل شرطاً لوجوب العقوبة (٦) .

١- انظر : مجموع الفتاوي ١٦٣/٢٠ ، بيان تلبيس الجهمية ٢٤٨/١ .

٢- سورة النساء الآية (٥٩) .

٣- إيثار الحق على الخلق : ص ١١١ بتصرف .

٤- سورة النساء الآية (١٦٥) .

٥- سورة الإسراء الآية ١٥ .

٦- انظر : المرجع السابق ص ١١٠ .

وفي الجملة فالناس محتاجون إلى شرع الله أكثر من احتياجهم إلى الطعام والشراب ، لأنه لاصلاح في الآخرة إلا به ، ولا سعادة في الدنيا إلا به ، كما قال شيخ الإسلام : « فإن الإنسان مضطر إلى الشرع ، فإنه بين حركتين ، حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره ، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره ، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده ، وحصنه الذي من دخله كان آمناً » (١) .

والشرع ثابت في نفسه لا يحتاج في إثباته إلى عقول البشر . بل العقول هي التي تحتاج إلى أن تعلمه ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً (٢) .

١- مجموع الفتاوي : ٩٩/١٩ .

٢- انظر : درء تعارض العقل والنقل ٨٨/١ ، ٨٩ .

الصحابه والسلف الصالح لم يعارضوا الشرع بالعقل :

والصحابه رضوان الله عليهم كيف كانوا يتلقون الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كانوا يعارضونه بعقولهم وآرائهم أم كانوا ينقادون له ، ويستسلمون لأحكامه ويصدقون بأخباره ؟ وهل كانوا يدفعون من النصوص ما رفضته عقولهم ؟ ويقدمون العقل عليها ؟

فإن العقل لا يجب أن يتقدم بين يدي الشرع ، فإنه من التقدم بين يدي الله ورسوله ، بل يكون ملبياً من وراء وراء .

وهذا هو مذهب الصحابة رضي الله عنهم الذي عليه دأبوا ، وإياه اتخذوا طريقاً إلى الجنة فوصلوا ، ولم ينكروا ، بل أقروا وأذعنوا لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يصادموه ، ولا عارضوه بإشكال ، ولو كان شيء من ذلك لنقل إلينا ، فلما لم ينقل دل على أنهم آمنوا به وأقروه كما جاء من غير بحث ولا نظر (١) .

فلم يعارضوا ما جاء في السنن بآرائهم وعقولهم علموا معناه أو جهلوه ، جرى لهم على معهودهم أولاً ، فليعتبر بذلك من قدم الناقص وهو العقل على الكامل وهو الشرع (٢) .

وقد اكتفوا رضوان الله عليهم بما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمهم أن الحق فيه ووفقهم الله للعمل به ففتحوا البلاد شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، فتفتقت لعلمهم الأذهان ، واستنارت بهم القلوب ، فنشروا دين الله في الأرض صافياً نقياً ، خالياً من الشبه والشكوك والأوهام والظنون .

١- انظر الاعتصام ٣٣١/٢ ، ٣٣٢ .

٢- المصدر السابق ٢٣٦/٢ بتصرف .

بل كانوا من أشد الناس بغضاً لاعتراض الشرع بالآراء والعقول ، لأنهم يعلمون أن ذلك مناف للإيمان والتسليم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك حذروا منه أيما تحذير .

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال « يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه لرددته .. » (١) .

وقد كانوا يستشكلون بعض النصوص ويوردون استشكالاً لهم على النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبهم عنها . (٢) وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض ، فيوفق بينها لهم ، وما كان أحد فيهم يورد عليه معقولاً ليعارض به نصاً من النصوص ، ولا عرف عن أحد منهم - وهم أكمل الأمة عقولاً - أنه عارض نصاً بعقله . (٣)

وانظر إلى عائشة رضوان الله عليها عندما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » فقلت : يا رسول الله : إليس قد قال الله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ (٤) ، فقال رسول الله

١- أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الاعتصام : (٩٦) ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس : (٧) ، ١٤٨/٨ . ومسلم في صحيحه . كتاب الجهاد والسير : (٣٢) ، باب صلح الحديبية : (٣٤) . برقم : (١٧٨٥) . ١٤١٢/٣ . ١٤١٣ .

٢- انظر : ما سبق في الحديث عن السنة في توضيح المشكل ص : ١٧

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة . ص ١٤٣ .

٤- سورة الإنشقاق : الآيات : (٧-٨) .

صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » (١) .

فعائشة رضوان الله عليها لم تعترض على النص بعقلها ورأيها ، وإنما أوهم في ذهنها أنه يخالف ما في الآية فاستفسرت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يزيل الإشكال من ذهنها ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأين هؤلاء الذين جعلوا نصوص الوحي ألوبة تتقاذفها العقول ، وتتجاذبها الأهواء وتتحكم فيها الآراء ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عظم في نفوسهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهانت عليهم عقولهم أن يقدموها عليه . بل قد بلغ من تعظيم الصحابة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقبلون مع سنته رأي أحد مهما بلغ شأنه وعظمت مكاتته بل كانوا يغضبون غضباً شديداً ، وينكرون إنكاراً قوياً على من لا يستجيب لسنته ولو كان من أقرب الناس إليهم (٢) .

١- أخرجه : البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق : (٨١) ، باب من نوقش الحساب عذب : (٤٩) . ١٩٨/٧ . ولفظ مقارب في كتاب التفسير : (٦٥) تفسير سورة إذا السماء انشقت : (٨٤) ، باب فسوف يحاسب حساباً يسيراً : (١) . ٨١/٦ . ومسلم في صحيحه ، بلفظ مقارب ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها : (٥١) باب إثبات الحساب : (١٨) ، برقم : (٢٨٧٦) . ٢٢٠٥-٢٢٠٤/٤ .

٢- انظر : السنة قبل التدوين : ص ٨٧ .

إن قريباً لعبد الله بن مغفل خذف (١) . فنهاه وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف وقال : « إنها لا تصيد صيداً ولا تنكأ (٢) عدواً . ولكنها تكسر السن وتفقأ العين » قال فعاد ، فقال : « أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف لا أكلمك أبداً » (٣) .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس قال : « تمتع النبي صلى الله عليه وسلم » فقال عروة بن الزبير (٤) « نهى أبو بكر وعمر عن المتعة » فقال ابن عباس « ما يقول عروة ؟ » قال : يقول « نهى أبو بكر وعمر عن المتعة » فقال ابن عباس : (أراهم سيهلكون) أقول : (قال النبي صلى الله عليه وسلم : ويقول نهى أبو بكر وعمر) (٥) .

-
- ١- خذف : الخذف هو : وضع الحصة أو النواة بين السبابتين ثم الرمي بها . انظر النهاية في غريب الحديث : ١٦/٢ .
 - ٢- تنكأ : ويكتب بغير همز ، والمعنى : تكثر الجراح والقتل في العدو . انظر : المرجع السابق : ١١٧/٥ .
 - ٣- أخرجه البخاري في صحيحه . بلفظ مقارب : في كتاب الذبائح والصيد : (٧٢) ، باب الخذف والبندقة : (٥) . ٢١٩/٦ . وفي كتاب الأدب : (٧٨) ، باب النهي عن الخذف : (١٢٢) ، ١٢٤/٧ . ومسلم في صحيحه . واللفظ له ، في كتاب الصيد والذبائح : (٣٤) ، باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو وكراهة الخذف : (١٠) برقم : (١٩٥٤) . ١٥٤٨/٣ .
 - ٤- عروة بن الزبير : هو ابن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، أبو عبد الله المدني ، ثقة ، فقيه مشهور ، كثير الحديث . روى عن أبويه وخالته عائشة وعلى ، وعنه بنوه والزهرى . مات سنة ٩٤هـ على الصحيح . انظر : الجرح والتعديل : ٣٩٥/٦ ، الكاشف : ٢٦٢/٢ تقريب التهذيب : ١٩/٢ .
 - ٥- مسند أحمد : ٣٣٧/١ . قال الشيخ أحمد محمد شاكر « إسناده صحيح » مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر : ٤٨/٥ هامش : (٣١٢١) .

هكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقفون عنده ولا يتعدونه ، وينصاعون له ويلتزمون به مع سعة علمهم ، ورجاحة عقولهم ، وصفاء أذهانهم ، حتى رفع الله منزلتهم ، وأعلى من شأنهم ، ورضي عنهم في قوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات ... » (١) الآية .

أفما وجد أذيال الغرب ، والمقتفون آثار المستشرقين في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة لهم وقدوة ، فيكفوا عقولهم القاصرة عن العبث بنصوص الشرع والتهجم عليها . قال ابن مسعود رضي الله عنه : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقدمها هدياً ، وأحسنها خلالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه ، فأعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » (٢) .

والصحابة رضوان الله عليهم مع أنهم أكمل الأمة عقولاً ومعارف لم يسألوا نبيهم : لما أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قال كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للاستسلام والإيمان . فأول مراتب تعظيم الأمر : التصديق به ، ثم العزم على امتثاله ، ثم المسارعة والمبادرة إليه ، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأموراً به ، فلا يتوقف

١- سورة التوبة : الآية : (١٠٠) .

٢- الاعتصام ٣٣٧/١ . وقد أخرجه أبو نعيم بإسناد مقبول عن عبد الله بن عمر في حلية الأولياء ٣/١ - ٣٠٦ .

الإتيان به على معرفة حكمته ، لأن مبنى العبودية والإيمان بالله على التسليم وعدم الأسئلة والتفصيل عن الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع (١) .

وأما المعارضون للشرع بعقولهم فهمهم أن يقحموا هذه العقول بين ثنايا النصوص لاستكشاف الحكم ، فإن عجزوا عن الوصول إلى ذلك سارعوا بردها، وحجتهم أنها تخالف العقول .

وقد سار السلف الصالح والأئمة رضوان الله عليهم على منهج الصحابة رضوان الله عليهم في الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما، وعدم معارضتهما بآراء وشبه ، وعقول وأوهام .

بل يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل الذي يعتمد عليه ويرد ما يتنازع فيه الناس إليه ، فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً ، ونصوص الوحي أكبر وأعظم في صدورهم من أن يقدموا عليها عقلاً أو شبهاً (٢) .

وهم رحمهم الله لا ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف والتدبر في الآيات الكونية ، ولكنهم لا يسلكون في شأنه مسلك أهل الكلام في الاستدلال به وحده والاكتفاء به ، ولا يقرون بالتعارض الذي يزعمه أهل الكلام بين العقل والشرع ، ولا يقدمون العقل على نصوص الوحي لإيمانهم بأن الله أرسل الرسل ليبينوا للناس دين الله عز وجل ، وبيانهم يغني عن كل شيء ، ولا يغني عنه غيره (٣) .

١- انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ٢٦١ .

٢- انظر : الصواعق المرسله ٣/ ٩٩١ ، ٩٩٢ .

٣- انظر : الصفات الإلهية : ص ٥٨ ، ٥٩ .

فقد كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه ، فيثبتون ما أثبتته الله ورسوله ، وينفون ما نفاه الله ورسوله ، وأنه حق يجب قبوله ، وإن لم يفهم معناه ، وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يفهم معناه (١) .

فالمتمسكون بالحديث هم أخص الناس بالرسول وأتباعه ، فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم .

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولاً وحالاً ، فلزم أن يكون أعلم الناس به ، أعلم الخلق بذلك ، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق ، وهم أهل الحديث وشيعته (٢) .

ولهذا جاءت أقوالهم رحمهم الله تتراً تأمر بالتمسك بالسنة ، والالتزام بها ، والاهتداء بالأحاديث وعدم الاعتراض عليها ، قال عمر بن عبد العزيز (٣) رحمه الله :

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ٧٦/١ .

٢- انظر : مجموع الفتاوى : ١٤٠/٤ - ١٤٣ .

٣- عمر بن عبد العزيز : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي ، أمير المؤمنين ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، ولى إمرة المدينة للوليد ، وكان مع سليمان كالوزير ، وولى الخلافة بعده ، فهو من الخلفاء الراشدين . مدة خلافته سنتان ونصف . روى عن عبد الله بن جعفر وأنس وابن المسيب ، وعنه ابنه وأيوب . انظر : الجرح والتعديل : ١٢٢/٦ ، الكاشف : ٣١٧/٢ ، تقريب التهذيب : ٥٩/٢ - ٦٠ .

« سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر من بعده سنناً ،
الأخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل ، واستكمال لطاعة الله عز وجل ،
وقوة على دين الله ، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها ولا النظر
في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو المهتد ، ومن انتصر بها فهو
منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله تعالى ما
تولاه ، وأصله جهنم وساءت مصيراً » (١) .

وقال الشافعي رحمه الله :

« أجمع الناس على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس » (٢) .

كما جاءت عنهم الآثار تذم الرأي المعارض للحديث ، وتحذر من معارضة
السنة بالعقل . كتب عمر بن عبد العزيز إلى الناس « إنه لا رأي لأحد
مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

وقال الأوزاعي :

« عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء
الرجال، وإن زخرفوا لك القول » (٤) .

وقال ابن عبد البر :

« ليس لأحد من علماء الأمة يشب حديثاً عن النبي صلى الله

١- الشريعة للأجري ص : ٤٨ ، ٦٥ .

٢- أعلام الموقعين : ٢٨٢/٢ .

٣- الشريعة للأجري : ص : ٥٣ ، جامع بيان العلم : ٤٢/٢ .

٤- الشريعة للأجري : ص : ٥٨ ، جامع بيان العلم : ٢٧٧/٢ .

عليه وسلم ثم يرده دون إدعاء نسخ عليه بأثر مثله ، أو إجماع ، أو بعمل يجب على أصله الانتقياد إليه ، أو طعن في سنده ، ولو فعل ذلك أحد سقطت عدالته ، فضلاً أن يتخذ إماماً ، ولزمه إثم الفسق» (١).

مزلق من عارض الشرع بالعقل :

قد بين العلماء رحمهم الله الطوائف التي عارضت الوحي بعقولها وآرائها وأنهم خمس فرق :

طائفة عارضته في الخبريات ، وقد منّ عليه العقل ، فقالوا لأصحاب الحديث لنا العقل ولكم النقل .

وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم فقالوا : لكم الحديث ولنا الرأي والقياس .

وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم ، وقالوا : لكم الشريعة ولنا الحقيقة .

وطائفة عارضته بسياساتهم وتديبرهم ، فقالوا : أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة .

وطائفة عارضته بالتأويل الباطل ، فقالوا : أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن . (٢)

والحديث هنا ينحصر في الطائفة الأولى التي قدست العقل وأعطته سلطاناً يتحكم في الشرع ويعترض عليه ، من المعتزلة (٣) ومن نحل

١- المرجع السابق : ١٨٢/٢ .

٢- انظر : الصواعق المرسلة ١٠٥١/٣ .

٣- سوف يأتي الحديث عنهم : انظر ص : ٦٨ فما بعدها

منحاهم في رد النصوص بالعقل من المستشرقين (١) وأذنبهم ممن سقط في برائن الحضارة الغربية ، وانبهر بوميضها الكاذب فانعكست أمامه الموازين ، وتشعبت عليه السبل ، وانطقاً أمامه نور الهدى . فظل في ظلام دامس لو أخرج يده لم يكده يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ولعللى ها هنا أحاول جاهداً أن أبين خطورة موقف هؤلاء ، والعظائم التي تلزم من معارضتهم لنصوص الوحي بعقولهم ، والمزالق التي وقعوا فيها بسبب سلوك هذا النهج الخاطيء والمسلك المنحرف .

فأول مزلق سقط فيه أولئك هو مضاهاتهم لإبليس لعنه الله حين اعترض على الله عز وجل ولم يسلم لأمره بالسجود لآدم وعارضه بعقله فقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (٢) . فكانت العاقبة : الطرد من رحمة الله والخلود في جهنم ، قال تعالى : ﴿ قال اخرجها من آدم مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأ جهنم منكم أجمعين ﴾ (٣) ، (٤) .

ثانياً : مشابهة الكفار في اعتراضهم على الشرع في أكثر من موضع ، بل ذلك من أخص صفاتهم التي أوضحها الله في القرآن ، من ذلك : معارضتهم لنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٥) . ومعارضتهم لقدر الله ،

١- سوف يأتي الحديث عنهم انظر ص : ٣٤٣ فما بعدها

٢- سورة الأعراف الآية (١٢) .

٣- السورة السابقة الآية (١٨) .

٤- انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٠٧ .

٥- سورة الزخرف الآية (٣١) .

في قوله سبحانه : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (١) . وعارضوا تحريم الربا بعقولهم بتسويته بالبيع ، قال تعالى : ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (٢)، (٣) .

ثالثاً : يلزم من ذلك تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتخطئته ، وإبطال دلالة السمع ، وسد طريق العلم بما أخبر به الأنبياء والمرسلون ، بل تكذيب بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله ، ومنع الاستدلال بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم على شيء . لأنه من علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق ، وأن ما أخبر به ثابت ، وأن إخباره لنا بالشئ يفيد تصديقاً بثبوت ما أخبر به ، فمن كان هذا معلوماً له امتنع أن يجعل العقل مقدماً على خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يضطره الأمر إلى أن يقع في هذه اللوازم السابقة (٤) .

رابعاً : إنما تأتي معارضة العقل لنصوص الوحي لمن يقر بالنبوة على قواعد الفلسفة ، إذ الوحي عندهم تابع لا متبوع ، ولا تأتي على قواعد المسلمين المؤمنين بالنبوة حقاً .

١- سورة الأنعام الآية (١٤٨ - ١٤٩) .

٢- سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

٣- انظر : الصواعق المرسل : ٨٩٥/٣ ، ٨٩٧ .

٤- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١٤٠/١ .

وكل طائفة ممن تنتسب إلى الإسلام وجدوا الوحي على خلاف مذهبهم وقول من قلدوه فلجأوا إلى معارضته بعقولهم واعتصموا بها دونه، وهذا يناقض الإيمان بالنبوة .

وأمر النبوة وما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فوق مدارك الحس والعقل والخيال والوهم .

فالعقل معزول عما يدرك بنور النبوة وطرق الوحي كعزل الحواس عن إدراك المعقولات (١) .

قال شيخ الإسلام :

« والداعون إلى تمجيد العقل ، إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سموه عقلاً ، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لما أرسل الله الرسل » (٢) .

خامساً : لم يستند هؤلاء من جهة الرسول شيئاً ، لأنهم لا يرجعون إليه صلى الله عليه وسلم في المطالب الإلهية ، فصار وجوده عندهم كالعدم ، بل أضر من العدم ، لأنهم لم ينتفعوا منه شيئاً ، واحتاجوا أن يدفعوا ما جاء به إما عن طريق التكذيب أو التعريض أو التأويل (٣) .

سادساً : من حكمة الله عز وجل في خلقه إفساد عقول من خالفوا رسله (٤) .

١- انظر : الصواعق المرسله ٩٥٥/٣ - ٩٥٧ .

٢- موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢١/١ .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ١/١٣٥ ، ١٣٦ .

٤- انظر : الصواعق المرسله ٨٦١/٣ .

وكلما كان الرجل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أبعد كان عقله أقل وأفسد ، ولذلك كان أكمل الناس عقولا أصحاب الرسل ، وأفسدهم عقولا المعرضين عنهم ، وعما جاءوا به ، ولهذا كان أهل السنة والحديث أعقل الأمة ، وهم في الطوائف كالصحابة في الناس .

ومن أعظم معصية العقل إغراضه عن كتاب الله ووحيه الذي هدى به رسله ، والمعارضة بينه وبين كلام غيره ، فأى فساد أعظم من فساد هذا العقل (١).

سابعاً : اتباع الهوى ، وهو ينتج من عدم الاهتداء بشرع الله والاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} (٢).

وأهل الهوى في الحقيقة هم الذين لم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك . فردوا كثيرا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم ، وأساءوا الظن بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة ، حتى ردوا كثيرا من أمور الآخرة وأحوالها من الصراط والميزان ، وحشر الأجساد ، والنعيم والعذاب الجسمي ، وأنكروا رؤية الباري ، وأشبهوا ذلك ، بل صيروا العقل شارعا ، جاء الشرع أو لا . بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل (٣) ، وإن لم يجيء فإنهم يكتفون بالعقل بناء على قاعدتهم في التحسين والتقبيح .

(١) انظر المصدر السابق ٣/٨٦٤، ٨٦٥ .

(٢) سورة القصص : آية ٥٠ .

(٣) انظر الاعتصام ٢/١٧٦ .

قال ابن القيم رحمه الله :

« وكل من له مسكة عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العقل ، وما استحکم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحکم هلاكه ، وفي أمة إلا فسد أمرها ، أتم فساد فلا إله إلا الله كم نفى بهذه الآراء من حق ، وأثبت بها من باطل ، وأميت بها من هدى ، وأحيى بها من ضلالة وكم هدم بها من مغفل الإيمان وعمر بها من دين الشيطان ، وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل ، بل هم شر من الحر ، وهم الذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (١) ، (٢) .

ثامناً : دفعهم هذا النهج الخاطيء على القول على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير علم .

لأن الذي يعارض الوحي بعقله ليس عنده علم ولا هدى ولا كتاب مبين كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (٣) فمعارضته باطلة ، وليس عنده إلا الجهل والضلال ، لأن العلم هو ما جاء به الوحي كما قال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ (٤) ، (٥) .

١- سورة الملك الآية (١٠) .

٢- أعلام الموقعين ١/٦٨ - ٦٩ .

٣- سورة الحج الآية (٨) .

٤- سورة آل عمران الآية ٦١ .

٥- انظر : الصواعق المرسله ٣/١٠٨٦ .

وقال عز وجل في حق الذين يؤمنون بالوحي ويعترفون بأنه الحق ولم يعارضوه برأي ولا عقل قال في شأنهم : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (١) .

وهذا دليل ظاهر في أن الذي نراه معارضاً للوحي ، ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في شيء (٢) .

فلما فارق هؤلاء الوحي وانصرفوا عنه إلى عقولهم كان حرى بهم أن يقولوا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم . يقول ابن قتيبة رحمه الله :

« وقد تدبرت ... مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون القذي في عيون الناس ، وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يهتمون آراءهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث ... ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما ، وضع لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الاجتماع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات .. » (٣) .

وقد حرم الله القول عليه بغير علم فقال : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٤) . ولذلك نهى وحذر عنه في قوله ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع

١- سورة سبأ الآية (٦) .

٢- انظر : المرجع السابق ٣/ ٨٥٠ ، ٨٥١ .

٣- تأويل مختلف الحديث ١٣-١٤ .

٤- سورة الأعراف الآية (٣٣) .

والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴿ (١) .

تاسعاً : من أميز الصفات والسمات التي وصم بها أولئك واتسموا بها التفرق والاختلاف والتنازع .

بل هم من أكثر الناس اختلافاً ، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين (٢) .

فلما كانت صفة الاختلاف لازمة لهم لا تنفك عنهم ، أشار الى ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في خطبة كتابه « الرد على الجهمية » فقال :

« الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، ويقولون على الله ، وفي الله ، وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » (٣) .

وذلك لأن العقول التي حكموها في الشرع متفاوتة متباينة ، فقد يعلم زيد بعقله ما لا يعلمه بكر ، بل ما يعلمه الإنسان بعقله في وقت ما قد يجهله في وقت آخر . فلو قدم العقل على الشرع والعقول بهذه المثابة من التباين والاضطراب لوجب أن يحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ، ولا اتفاق للناس عليه . ولهذا وقع بينهم التنازع في أصول المسائل والعلوم الضرورية فكيف بسواها . أما الشرع فهو صادق

١- سورة الإسراء الآية (٣٦) .

٢- انظر : تأويل مختلف الحديث ص ١٤ .

٣- الرد على الجهمية ضمن عقاد السف ص ٥٢ .

في نفسه ، لا يختلف صدقه باختلاف أحوال الناس للزوم صفة الصدق له. ولذا أمر الله المؤمنين عند التنازع بالرد إليه فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (١) إذ لو ردوا إلى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزددهم هذا الرد إلا اختلافاً واضطراباً وشكاً وارتياباً (٢) .

ويزداد تنازعهم واختلافهم كلما بعدوا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « كل من كان من السنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم » (٣) .

عاشراً : وقوعهم في الشك والحيرة :

إن أساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الغاية ، ودأبوا ليلاً ونهاراً في التعمق ودراسة هذه العقليات لم يصلوا إلى معقول صريح واحد يناقض الوحي ، بل وصلوا إلى الحيرة والشك أو الاختلاف والارتياب ، فكيف بمن سواهم ممن لم يبلغ ذكاؤه ذكاءهم ومعرفته معرفتهم (٤) .

١- سورة النساء الآية (٥٩) .

٢- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/١٢٠-١٢٢ .

٣- درء تعارض العقل والنقل : ١/١٥٧ .

٤- انظر : موافقة صحيح المنقول : ١/١٣٤ ، ١٣٥ .

ولقد اعترفوا بحيرتهم وشكوكهم .

فالرازي (١) مع سبقه في باب المعقول ، وفرط ذكائه يشكو حيرته وعجزه فيقول :

« نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا في رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عيلاً ، ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٢) .

«إليه يصعد الكلم الطيب» (٣) وأقرأ في النفي : ﴿ ليس كمثله

١- الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي ، فخر الدين الرازي ، ويقال له : ابن خطيب الري ، الإمام المفسر ، الأصولي ، المتكلم ، له كثير من التصانيف منها : « مفاتيح الغيب » ، و « أساس التقديس » ، « المحصول في علم الأصول » . مات سنة ٦٠٦ هـ . انظر : الكامل في التاريخ : ١٢٠/١٢ ، وفيات الأعيان : ٢٤٨-٢٥٢/٤ ، سير أعلام النبلاء : ٥٠٠/٢١ - ٥٠١ ، البداية والنهاية : ٥٦-٥٥/١٣ ، طبقات الشافعية : ٣٣/٥ - ٤٠ ، الأعلام : ٣١٣/٦ .

٢- سورة طه الآية (٥) .

٣- سورة فاطر الآية (١٠) .

شيء (١) ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ (٢) . ثم قال : « ومن جرب
مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » (٣) .

وقال الشهرستاني (٤) :

« فقد أشار إلى من إشارته غنم ، وطاعته حتم ، أن أجمع له
مشكلات الأصول ، وأحل له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول
لحسن ظنه بي أني وقفت على نهاية النظر ، وفزت بغايات مطارح الفكر
، ولعله استسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم لعمري :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادماً (٥)

١- سورة الشورى الآية (١١) .

٢- سورة طه الآية (١١٠) .

٣- شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٠٨-٢٠٩ وانظر : سير أعلام النبلاء :
٥٠١/٢١ .

٤- الشهرستاني : هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني ،
الملقب بالأفضل ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ،
له معرفة بالأصول والأدب ، وكان يغلو في التشيع ، وينصر مذهب الفلاسفة .
مات سنة ٥٤٨ هـ . من آثاره : « الملل والنحل » ، و « نهاية الإقدام » ،
« الإرشاد إلى عقائد العباد » وغير ذلك . انظر : وفيات الأعيان : ٢٧٣/٤ -
٢٧٥ ، تذكرة الحفاظ : ١٣١٣/٤ ، سير أعلام النبلاء : ٢٨٦/٢٠ -
٢٨٨ ، طبقات الشافعية : ١٢٨/٦ - ١٣٠ لسان الميزان : ٢٦٣/٥ - ٢٦٤ ،
الروافي بالوفيات : ٢٧٨/٣ - ٢٧٩ ، شنرات الذهب : ١٤٩/٤ ، الأعلام :
٢١٥/٦ .

٥- نهاية الإقدام في علم الكلام : ص : ٣ .

وغير هذين كثيرون ممن سلكوا هذا المسلك فآل أمرهم إلى الحيرة والشك والضلال (١) .

والحق يقال : إن أهل الكلام المقدسين للعقل المعظمين له المحتكمين إليه ، قد أطالوا الكلام ، ووعروا الطريق في إثبات علوم قل نفعها وفائدتها فهي كلحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل ، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً ، وأحسن تفسيراً ، وليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد (٢) .

ولعل السائرين على منهجهم ، المقتفين آثارهم ، يعرفون حقيقة ما هم فيه ، وما وصل إليه أولئك من الانحراف والضياع ، فينتبهون لأمرهم ، ويعيدون النظر فيما عندهم ، فينصاعون إلى الحق ، ويلتزمون بالشرع ، ويدعون هذه المغالطات والشبهات التي لا تسمن من جوع ، وإنما تقذف بصاحبها إلى هوة سحيقة حيث لا نجاة ولا فلاح . فالحق هو ما جاء به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والنجاة إنما تكمن في شرع الله لا في شبه الأذهان وظلمات الأفكار ، وترهات العقول .

ورحم الله ابن القيم إذ يقول :

« فعلى عقولكم العفاء فإنكم	عاديتم العقول والمنقولا
وطلبتم أمراً محالاً وهو إدراك	الهدى لا تبتغون رسولا
وزعتم أن العقول كفيلا	بالحق أين العقل كان كفيلا
وهو الذي يفضى فينقض حكمه	عقل ترون كليهما معقولا

١- انظر الى طائفة من أقوال أولئك في شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

٢- انظر : المرجع السابق ص : ٢٠٦ بتصرف .

وتراه يجزم بالقضاء ويعد ذا
لا يستقل العقل دون هداية
فإذا النبوة لم ينك ضياؤها
نور النبوة مثل نور الشمس
طرق الهدى محدودة إلا على
فإذا عدلت عن الطريق تعمداً
يا طالباً درك الهدى بالعقل
كم رام قبلك ذاك من متلذذ
مازالت الشبهات تغزو قلبه

يلقى لديه باطلاً معلولاً
بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلاً
فالعقل لا يهديك قط سبيلاً
للعين البصيرة فاتخذه دليلاً
من أم هذا الوحي والتنزيلاً
فاعلم بأنك ما أردت وصولاً
دون النقل لن تلق لذاك دليلاً
حيران عاش مدى الزمان جهولاً
حتى تشحط بينهن قتيلاً» (٢)

الباب الأول

موقف المدرسة العقلية القديمة
- المعتزلة - من السنة النبوية

وفيه فصلان :

الفصل الأول : موقف المعتزلة من العقل
وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة .

الفصل الثاني : موقف المعتزلة من الحديث
المتواتر وحديث الآحاد .

الفصل الأول

موقف المعتزلة من العقل وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة

إن المعتزلة^(١) من أهم الفرق الكلامية في الإسلام ، وقد احتلت مكانة بارزة في تاريخ علم الكلام ، وذلك بسبب النزعة العقلية التي غلبت عليها وأثرت في منهجها تأثيراً بالغاً .

ولما كانت المعتزلة تنبؤاً مركز الصدارة بين فرق الإسلام في تمجيد العقل وتعظيمه وإعطائه منزلة فوق منزلة الكتاب والسنة ، ووضوح ذلك في منهجها، تم اختيارى لها كفرقة قديمة تمثل المدرسة العقلية القديمة تمثيلاً واضحاً .

ولاشك أن السنة النبوية وهى المصدر التشريعي الثانى وجدت مواجهات سافرة وحملات عنيفة من طائفة أهل الاعتزال . مما كان سبباً في رد كثير من نصوصها وعدم الاعتماد على حجيتها وتقديم العقل عليها . وسوف يتبين ذلك كله من خلال عرضي لشبه هذه المدرسة والرد عليها .

(١) ذكر الشهرستاني سبب تسميتهم بالمعتزلة فقال :

"دخل واحد على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لأقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة " . الملل والنحل ٤٨/١ .

وذكر في تسميتهم غير ذلك . انظر : المعتزلة لزهد جار الله ص ٢-٥ .

(١) موقف المعتزلة من العقل :

(أ) العقل هو أول الأدلة :

قال القاضي عبد الجبار^(١) في معرض حديثه عن الأدلة :

"أولها دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة والإجماع .

وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط ، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس الأمر كذلك ، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة والإجماع ، فهو الأصل في هذا الباب" (٢).

والقرآن والسنة موقوفان في صحة دلالتهما على العقل ، لأن صحة معرفة الشيء من جهتهما موقوف على أنه تعالى على صفة معها لا يختار فعل القبيح ، وهذه لا تعلم إلا من جهة العقل ، ومتى أمكن معرفة ذلك صح أن يعلم بخبره سائر ما يخبر به (٣).

(١) القاضي عبد الجبار :

هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني ، الأسدي ، أبو الحسين ، قاضي ، أصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره . يلقبونه قاضي القضاة ، ولا يطلقون ذلك على غيره ، كان من كبار فقهاء الشافعية . ولى قضاء الرى . وله كثير من التصانيف . مات سنة ٤١٥ هـ .

من آثاره : "تزيه القرآن عن المطاعن" ، "شرح الأصول الخمسة" ، "المغنى في أبواب التوحيد والعدل" وغير ذلك .

انظر : تاريخ بغداد ١١/١١٣-١١٥ ، الأنساب ١/٢١١-٢١٢ ، ميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ ، سير أعلام النبلاء ١٧/٢٤٤-٢٤٥ ، طبقات السبكي ٥/٩٧-٩٨ ، لسان الميزان ٣/٣٨٦-٣٨٧ ، شذرات الذهب ٣/٢٠٢-٢٠٣ ، الأعلام ٣/٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١٣٩ .

(٣) انظر : المحيط بالتكليف ٤/١٧٣ .

وقال أبو علي الجبائي (١):

"إن سائر ماورد به القرآن في التوحيد والعدل ورد مؤكدا لما في العقول . فأما أن يكون دليلا بنفسه يمكن الاستدلال به فمحال" (٢).

وقال عبد الجبار :

"وإذا وجدنا في كتابه المحكم والمتشابه . عرضنا ذلك على ماركبه في قلوبنا ، لنحمل أحدهما على وفاق الآخر ، فكيف يصح فيما طريقه الدين أن نتبع قول الكثير ، وقد آتانا الله من العقل مانعرف به البصيرة" (٣).

(ب) حجة العقل وإعماله أول الواجبات على العباد ، وأن معرفة الله لا تكون إلا بالعقل :

قال عبد الجبار :

"إن سأل سائل فقال : ما أول ما أوجب الله عليك ؟
فقل النظر (٤) المؤدي إلى معرفة الله تعالى ، لأنه تعالى لا يعرف ضرورة ولا بالمشاهدة ، فيجب أن نعرفه بالتفكير والنظر" (٥).
وقال :

(١) أبو علي الجبائي :

هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي . ينسب إلى جبي - من قرى البصرة - كان من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره . وإليه تنسب الطائفة الجبائية . له مقالات وآراء انفرد بها . مات سنة ٣٠٣ هـ.

من آثاره : "كتاب الأصول" ، "التعديل والتجوير" ، "التفسير الكبير" وغير ذلك . انظر : وفيات الأعيان ٢٦٧/٤ - ٢٦٩ ، سير أعلام النبلاء ١٨٣/١٤ - ١٨٤ ، البداية والنهاية ١٢٥/١١ ، الوافي بالوفيات ٧٤/٤ - ٧٥ ، لسان الميزان ٢٧١/٥ ، شذرات الذهب ٢٤١/٢ ، الأعلام ٢٥٦/٦ .

(٢) المحيط بالتكليف ١٧٤/٤ .

(٣) فضل الاعتزال ص ١٨٩ .

وسوف يأتي بيان للمحكم والمتشابه .

(٤) قال عبد الجبار في تعريفه للنظر :

"النظر هو التفكير في الأدلة ليتوصل بها إلى المعرفة" . شرح الأصول ص ٤٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٩ .

"سائر الشرائع من قول وفعل لا تحسن إلا بعد معرفة الله تعالى ،
ومعرفة الله لا تحصل إلا بالنظر فيجب أن يكون النظر أول الواجبات" (١).
وقال في معرض ذكره لأنواع الأدلة مرتبا إياها الأهم فالهمم :
"حجة العقل ، والكتاب ، والسنة ، والإجماع ، ومعرفة الله لا تنال
إلا بحجة العقل" (٢).

(٢) الأصول الخمسة هي التي كلف الله بها العباد :

قال عبد الجبار :

"فأما جملة ما كلف المرء به ... يلزمه أن يعرف التوحيد ، والعدل ،
والوعد والوعيد ، والمثلة بين المثلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر" (٣).

وقال أبو الحسين (٤) :

"وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول
الخمس" (٥).

(١) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩ .

وسوف يأتي بيان لهذه الأصول عند المعتزلة .

(٤) أبو الحسين :

هو محمد بن علي بن الطيب البصري ، أبو الحسين ، أحد أئمة المعتزلة . قال
الخطيب البغدادي : له تصانيف وشهرة بالذكاء والديانة على بدعته . مات سنة
٤٣٦ هـ .

من آثاره : "المعتمد في أصول الفقه" ، "تصفح الأدلة" ، "غرر الأدلة" .

انظر : طبقات المعتزلة ص ١١٨ ، تاريخ بغداد ١٠٠/٣ ، الكامل في التاريخ ٥٢٧/٩ ،
وفيات الأعيان ٢٧١/٤ ، ميزان الاعتدال ٦٥٤-٦٥٥/٣ ، سير أعلام النبلاء
٥٨٧-٥٨٨/١٧ ، البداية والنهاية ٥٣-٥٤/١٢ ، لسان الميزان ٢٩٨/٥ ، الوافي
بالوفيات ١٢٥/٤ ، شذرات الذهب ٢٥٩/٣ ، الأعلام ٢٧٥/٦ .

(٥) فضل الاعتزال ص ١٧ .

الجواب على ذلك :

ولكى أجيب على هذه الشبه لابد من وقفة نعرف من خلالها الدافع الذى دفع أهل الاعتزال إلى إحاطة العقل بهذه الهالة من التعظيم والتقديس والتمجيد الذى خرج به عن حده الذى حده له رب العالمين .

ذلك الدافع هو وقوعهم فى براثن الفلسفة اليونانية التى ارتضعوا من ثديها ، وتغذوا بلبانها ، فجرت فى عروقهم ، وأثرت فى منهجهم تأثيرا بالغاً صرفهم عن الصراط المستقيم .

قال أحمد أمين :

"وكان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة فى ذلك أبو الهذيل العلاف^(١) ، والنظام^(٢) ،

(١) أبو الهذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل بن عبيد الله البصرى العلاف ، من أئمة المعتزلة ، وشيخ الكلام . له مقالات فى الاعتزال ، وانفرد بآراء . مات سنة ٢٣٥هـ وقيل غير ذلك . وله تصانيف كثيرة .

انظر : طبقات المعتزلة ص ٤٤-٤٩ ، تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ ، وفيات الأعيان ٤/٢٦٥-٢٦٧ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٢-٥٤٣ ، ١١/١٧٣-١٧٤ ، لسان الميزان ٥/٤١٢-٤١٣ ، الوافى بالوفيات ٥/١٦١-١٦٣ ، شذرات الذهب ٢/٨٥ ، الأعلام ١٣١/٧ .

(٢) النظام :

هو إبراهيم بن سيار بن هانىء البصري ، أبو اسحاق النظام ، شيخ المعتزلة ، تبحر فى علوم الفلسفة ، وانفرد بآراء تابعته فرقة من المعتزلة سميت "النظامية" . اتهم بالزندقة ، وكفره جماعة . مات سنة بضع وعشرين ومائتين ، وله كتب فى الفلسفة والاعتزال .

انظر : طبقات المعتزلة ص ٤٩-٥٢ ، تاريخ بغداد ٦/٩٧-٩٨ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٢-٥٤١ ، لسان الميزان ١/٦٧ ، الوافى بالوفيات ٦/١٤-١٩ ، الأعلام ١/٤٣ .

والجاحظ " (١) (٢) .

وهؤلاء الثلاثة هم من قادة المعتزلة وزعمائها ، الذين عن حماها ،
المدافعين عن منهجها .

يقول الشهرستاني عن الأول في معرض نقده لبعض آرائه :

" وإنما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة " (٣) .

وعن الثاني : " قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام
المعتزلة " (٤) .

(١) الجاحظ :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، مولا هم ، أبو عثمان ، المشهور بالجاحظ ،
البصري ، المعتزلي ، كان متبحراً في الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ،
مات سنة ٢٥٥ هـ .

له تصانيف كثيرة منها : " الحيوان " ، " البيان والتبيين " ، " مجموع رسائل " ،
وغيرها الكثير .

أنظر : تاريخ بغداد ٢١٢/١٢ - ٢٢٠ ، وفيات الأعيان ٤٧٠/٣ - ٤٧٥ ، ميزان
الاعتدال ٢٤٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٢٦/١١ - ٥٣٠ ، البداية والنهاية
١٩/١١ - ٢٠ ، لسان الميزان ٣٥٥/٤ - ٣٥٧ ، شذرات الذهب ١٢١/٢ - ١٢٢ ،
الأعلام ٧٤/٥ .

(٢) فجر الإسلام ص ٢٢٩ ، وانظر : مشكل الحديث وبيانه ص ٧ الهامش .

(٣) الملل والنحل ٥٠/١ .

(٤) المرجع السابق ٥٣/١ ، ٥٤ .

وعن الثالث : "وقد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج كثيرا من مقالاتهم بعباراته البليغة ، وحسن براعته اللطيفة" (١).
وقد بين الشيخ أبو زهرة الأسباب التي أدت إلى وقوع المعتزلة في أحضان الفلسفة فقال :

"وقد دفعهم إلى دراسة الفلسفة أمران :

أحدهما : أنهم وجدوا فيها ما يرضى نهمهم العقلي وشغفهم الفكري ، وجعلوا فيها مرانا عقليا جعلهم يلحنون بالحجة في قوة .

وثانيهما : أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبادئ الإسلامية ، تصدى هؤلاء للرد عليهم ، واستخدموا بعض طرقهم في النظر والجدل ، وتعلموا كثيرا منها ليستطيعوا أن ينالوا الفوز عليهم" (٢).

فقد حاول المعتزلة مناهضة الفلاسفة والرد عليهم ولكنهم علموا أنهم لاقدرة لهم عليهم إلا بدراسة الفلسفة ، والانكباب عليها ، لدعم حججهم وتقوية أقوالهم ، إذ الأدلة النقلية من الكتاب والسنة غير كافية وحدها - هكذا زعموا - لإفحام الغير والزامه الحجة ، وإنما يفتقر ذلك إلى البراهين العقلية (٣).

ولقد كان المعتزلة يفخرون بغوصهم في مجور الفلسفة والجدل ، وخوضهم لجج تلك المفاوز والوهاد .
يقول أبو الحسين الخياط (٤) :

"والكلام في الأصوات على أي وجه تسمع؟ من لطيف الكلام وغامضه وليس لأحد فيه قول يعرف إلا المعتزلة لأنهم أرباب الكلام وأهل النظر والمعرفة بدقيق الكلام وغامضه بعد إحكام جليل الكلام وظاهره" (٥).

(١) الملل والنحل ٧٥/١ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٣١ .

(٣) انظر : علم الكلام ومدارسه ص ١٧٢-١٧٣ .

(٤) أبو الحسين الخياط : هو عبد الرحيم بن محمد بن عثمان ، شيخ المعتزلة البغدادية ، من نظراء الجبائي ، وله مكانة عند المعتزلة .

من آثاره : كتاب الاستدلال ، كتاب الانتصار .

انظر : الأنساب ٢٥٠/٥ ، الفرق بين الفرق ص ١٧٩-١٨٠ ، تاريخ بغداد ٨٧/١١ ،

سير أعلام النبلاء ٢٢٠/١٤ ، لسان الميزان ٨/٤-٩ .

(٥) كتاب الانتصار ص ٤٣ .

وقد فتحوا بذلك باب شر عظيم على أمة الإسلام دخل من خلاله جحافل من أبناء المسلمين ، انغمس الكثير منهم في مجور الفلسفة ولم يفلت منهم إلا القليل .

يقول دكتور خفاجي :

"ما تميزت به المعتزلة على غيرها من الفرق الكلامية مما أثارت من مسائل وبسطت من شرح ووضعت من أصول ، وكان المنفذ الأول الذى دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية ، لأن المعتزلة أول من استعان بالفلسفة اليونانية" (١).

ونتيجة لذلك تكونت عقائد ، ونشأت مناهج ، وظهرت إلى السطح أقوال وآراء ، وكثر الجدل ، وتشعبت السبل بسالكها .

(أ) زعمهم أن العقل هو أول الأدلة وتقديمه على الكتاب والسنة ؛ زعم مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف الأمة رحمهم الله .

قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} (٢).

وقال سبحانه : {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا} (٣).

فكيف يؤخر ما أمر الله بتقديمه ، ويقدم ما من شأنه التأخير ، بل الكتاب والسنة لهما الحكم المطلق على سواهما ، وسواهما لاحكم له عليهما بل هو تابع لهما .

(١) في العقيدة الإسلامية ص ٣٨ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٦

قال الإمام الشاطبي رحمه الله :

"هنالك أمران مما يقتضيهما العاقل :

أحدهما : أن لا يجعل العقل حاكما باطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم باطلاق وهو الشرع ، بل الواجب عليه أن يقدم ماحقه التقديم - وهو الشرع - ويؤخر ماحقه التأخير - وهو نظر العقل - لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل ، لأنه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة فلامعدل عنه ، ولذلك قال : اجعل الشرع في يمينك والعقل في يسارك ، تنبيهها على تقدم الشرع على العقل .

والثاني : أنه إذا وجد في الشرع أخبار تقتضى ظاهراً خرق العادة الجارية المعتادة ، فلا ينبغي له أن يقدم بين يديه الإنكار باطلاق^(١).

والسلف رحمهم الله لم يستعوضوا نصوص الوحي بغيرها ، ولم يقدموا عليها سواها ، ولم يطلقوا لعقولهم الأعنة لتنتهك حرمة النصوص ، بل وقفوا بها عند الحد الذي حده الله لها ، والقيد الذي قيده بها ، فلا تجاوزا لحدودها ولا قصور بها عن موضعها ، فأعملوها حيث جاز لها أن تعمل ، وأوقفوها حيث حق لها أن تقف ، فلا إفراط ولا تفريط .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض رده على الفلاسفة والمتكلمين :
"وأما السلف والأئمة فكانوا في ذلك من العدل والاستقامة وموافقة المعقول الصريح والمنقول الصحيح بحال آخر ، فالعصمة وإن كانت شاملة لجماعتهم فأحاديثهم مع ذلك لا يجترؤون في مخالفة النصوص المشهورة والمعقولات المعروفة على ما يجترأ عليه هؤلاء المسفستون^(٢) ، وكانوا

(١) الاعتصام ٣٢٦/٢ - ٣٢٧ .

(٢) المسفستون : أو "السوفسطائية" :

وهم الذين ينسبون إلى السفطة ، وهي كلمة يونانية تعنى عند الفلاسفة الحكمة المموهة ، وعند المنطقيين القياس المركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم واسكاته . وقد صارت هذه الكلمة ينسب إليها كل من ركب شيئا من الباطل يريد أن يدحض بها الحق .

انظر : المعجم الفلسفي ٦٥٨/١ - ٦٦٠ ، إحصاء العلوم ص ٢٤ ، مفاتيح العلوم ص ٩١ التعريفات للجرجاني ، مادة (سفسطة) ص ١٥٨ .

يستعملون القياس العقلي^(١) على النحو الذى ورد به القرآن فى الأمثال التى ضربها الله تعالى للناس ، فإن الله ضرب للناس فى القرآن من كل مثل ، وبين الأقيسة العقلية المقبولة بالعقل الصريح من المطالب الإلهية والمقاصد الربانية ما لاتصل إليه آراء هؤلاء المتكلمين فى المسائل^(٢).

فهذا هو الانصاف والعدل من دلالة العقل ، وهو الموقف الوسط الذى لا إجحاف فيه ولا غلو ، فأين موقف طائفة أهل الاعتزال من هذا الموقف فانهم يقفون على النقيض منه ، فلاسلطان عندهم يكبح جماح عقولهم التى أطلقوا لها القياد لتعصف بنصوص الوحي ، منتهكة حرمتها ، عابثة بقدسياتها ونائلة من شرفها ورفعتها ، فكم من آية أولوها ، وكم من حديث صحيح ردوه ، وإن سلم من الرد ووجه بسلاح التأويل الذى هو تحريف وتعطيل . ويمكن أن نرد على هؤلاء المعتزلة فى تقديمهم لحجية العقل على النصوص ، وإخضاع النصوص له بأمور نجملها فيما يأتى :

(١) العقل الصريح لا يمكنه أن يناقض نصاً صحيحاً ، لأن العقل متى ماكان سليماً معافى أذعن لسلطان النصوص وخضع لأدلة الوحي ، وتجرد من الكبر والغرور لعلمه بأن نصوص الوحي معصومة عن الخطأ ، محفوفة بحفظ الله لها ، كما قال تعالى : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} (٣).

(١) القياس العقلي :

القياس فى اللغة هو : رد الشئ إلى نظيره .

وهو نوعان عقلي وشرعي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

"فإن القياس عند أصحابنا والجمهور ينقسم إلى : عقلي وهو مايكتفي فيه بالعقل .

وإلى شرعي وهو ما لا بد فيه من أصل معلوم بالشرع . مجموع الفتاوى ٢٥٩/٩ .

والقياس العقلي هو الذى يسمونه بالمنطقي وهو : قول مؤلف من أقوال إذا

وضعت لزم عنها بذاتها قول آخر غيرها اضطرارا .

انظر : التعريفات ص ٩٦ ، المعجم الفلسفي ٢٠٧/٢-٢١١ .

(٢) بيان تلبيس الجهمية ٣٢٦/١-٣٢٧ .

(٣) سورة الحجر : آية ٩

(٢) العقل عاجز عن إدراك كثير من الحقائق بل عاجز عن إدراك حقيقة نفسه لضعفه وقصوره فكيف يجعل حكماً على الوحي الكامل الذى جاء من عند الله سبحانه وتعالى الذى لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ، وصدق الله إذ يقول : {وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين} (١).

وقال عن هذا الإنسان الضعيف : {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} (٢)، والآية فيها مثال قوى لبيان عجز العقل وضعفه . فهذه الروح التى هى مادة الحياة فى الأجساد وهى مخلوقة لله سبحانه ، هل استطاع العقل أن يدرك كنهها أو حقيقتها؟ إنه عاجز عن كل ذلك فكيف يجعل أصلاً لشرع تقوم عليه سعادة الدنيا والآخرة؟

(٣) العقول مختلفة متباينة فى إدراكاتها وفهمها فما هو العقل الأمثل الذى يمكن أن يختار من بينها ليحكم على النصوص؟

وهل بإمكان طائفة المعتزلة أن تنتخب لنا من أساطينها من يكون عقله فى منزلة من الكمال والنضوج حتى نخضع له نصوص الوحي؟ بل بان ضعف عقولهم جلياً فى تناقضهم وكثرة اختلافهم فى أمور هى من أظهر وأبرز ما يكون ، قال شيخ الإسلام رحمه الله :

"المتكلمون والفلاسفة كلهم على اختلاف مقالاتهم هم فى قياس الغائب على الشاهد مضطربون كل منهم يستعمله فيما يشتهه ، ويرد على منازعه ما استعمله فى ذلك، وإن كان قد استعمل هو فى موضع آخر ما هو دونه ، وسبب ذلك أنهم لم يمشوا على صراط مستقيم ، بل صار قبوله ورده هو بحسب القول لا بحسب ما يستحقه القياس العقلي ، كما نجدهم أيضاً فى

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥

النصوص النبوية كل منهم يقبل منها ما وافق قوله ويرد منها ما خالف قوله ، وإن كان المردود من الأخبار المقبولة باتفاق أهل العلم بالحديث ، والذي قبله من الأحاديث المكذوبة باتفاق أهل العلم والحديث . فحالهم في الأقيسة العقلية كحالهم في النصوص السمعية لهم في ذلك من التناقض والاضطراب ما لا يحصىه إلا رب الأرباب" (١).

(٤) ما يدعيه هؤلاء من عقليات مخالفة للنصوص لاحقيقة لها عند الاعتبار الصحيح ، بل هي أوهام وخيالات عارية من الصواب . بل إذا أعطى النظر في المعقولات حقه من التمام وجدها براهين ناطقة بصدق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن نفى فلإنما نفى لجهله بحقيقة الأمر وعجزه عن إدراك الحق الجلى البين" (٢).

(ب) قولهم بأن حجة العقل أو إعماله هو أول الواجبات التي أوجبها الله على العباد ، وهو ما يعرف بالنظر قول عار عن الصحة ولا يسنده دليل بل الدليل بخلافه .

فقد عقد الإمام البيهقي رحمه الله في كتابه "الاعتقاد" بابا قال فيه : "باب أول ما يجب على العاقل البالغ معرفته والاقرار به" ، ثم ساق الأدلة التي تدل على أن أول واجب على العبد هو معرفة الله معرفة حققة والإقرار به وهو توحيد الله عز وجل فذكر قوله تعالى : {فاعلم أنه لا إله إلا الله} (٣) وقوله : {فاعلموا أن الله مولاكم} (٤) ، وقوله : {فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون} (٥) ، وقوله : {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} الآية (٦).

(١) بيان تلبيس الجهمية ٣٢٦/١ .

(٢) انظر المرجع السابق ٦٢٩/١ .

(٣) سورة محمد : آية ١٩

(٤) سورة الأنفال : آية ٤٠

(٥) سورة هود : آية ١٤

(٦) سورة البقرة : آية ١٣٦

ثم قال : "فوجب بالآيات قبلها معرفة الله تعالى وعلمه ، ووجب بهذه الآية الاعتراف به والشهادة له بما عرفه ، ودلت السنة على مثل ما دل عليه الكتاب " .

ثم ساق بسنده إلى أبي هريرة وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل" (١) ، ومن حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يا أبا هريرة - وأعطاني نعليه - اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة" (٢) . ومن حديث عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة" (٣) ، ومن حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة" (٤) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، بلفظ مقارب من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . كتاب الإيمان (٢) ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة (١٧) ، ١٢-١١/١ ، ومن حديث أنس بن مالك . كتاب الصلاة (٨) ، باب فضل استقبال القبلة (٢٨) ، ١٠٢/١-١٠٣ . ومن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه معلقا ، كتاب الاعتصام (٩٦) ، باب قول الله تعالى {وأمرهم شورى بينهم} (٢٨) ، ١٦٢/٤ . وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة من حديث عمر بن الخطاب برقم (٢٠) ، وأبى هريرة برقم (٢١) ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر برقم (٢٢) ، كتاب الإيمان (١) ، باب الأمر بقتال الناس (٨) ، ٥١/١-٥٣ .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا (١٠) برقم (٣١) ، ٦١-٥٩/١ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه فى الكتاب والباب السابقين برقم (٤٣) ، ٥٥/١ .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٢٤٧،٢٣٣/٥ .

وأخرجه أبو داود فى سننه ولفظه : "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" . فى كتاب الجنائز ، باب فى التلقين برقم ٣١١٦ ، ١٩٠/٣ .

وقال الشيخ ناصر الدين الألبانى : صحيح . صحيح سنن أبى داود ٦٠٢/٢ .

ثم قال رحمه الله : " وفي الحديث الأول بيان ما يجب على المدعو أن يأتي به حتى يحقن به دمه ، وفي الحديث الثاني بيان ما يجب عليه من الجمع بين معرفة القلب والإقرار باللسان مع الإمكان حتى يصح إيمانه ، وفي الخبر الثالث والرابع شرط الوفاة على الإيمان حتى يستحق دخول الجنان ، بوعد الله تعالى جده " (١).

فهذه الأدلة التي ساقها رحمه الله تدل دلالة واضحة على أن أول ما يجب على المكلف توحيد الله تعالى لا النظر ولا الدعوة إليه . إذ إن التوحيد هو الذي يدخل به الإنسان الإسلام وذلك بنطقه بالشهادتين . والله لا يقبل من أحد عملاً ما لم يحقق التوحيد كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم { ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } (٢)

وقد حرم الله الجنة على من أخفق في تحقيق توحيد ربه فقال تعالى : { إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ومال للظالمين من أنصار } (٣). ولذا أوصد باب التوبة ومغفرة الذنوب أمام من انخرم توحيدهم فقال : { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } (٤). ولما كان التوحيد بهذه المثابة من الأهمية بدأ رسول الله عليهم السلام أقوامهم في أول مابدأوا بالدعوة إليه ، فقال تعالى في شأن نوح عليه السلام : { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } (٥). وفي شأن هود عليه السلام : { وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون } (٦). وهكذا

(١) الاعتقاد ص ١٩-٢١ .

(٢) سورة الزمر : آية ٦٥

(٣) سورة المائدة : آية ٧٢

(٤) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦

(٥) سورة الأعراف : آية ٥٩

(٦) السورة نفسها : آية ٦٥

عن صالح وعن شعيب عليهما السلام ، بل كل الرسل ساروا في قومهم بهذه الدعوة كما قال تعالى : {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (١). وقال : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن : "يامعاذ إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه أن يوحدوا الله" الحديث (٣).

فتبين من هذا أن التوحيد هو أول ما يجب على المكلف وأن الدعوة إليه أول ما يجب على الدعاة إلى الله .

وهذا التوحيد لا يعرف إلا من جهة الرسل عليهم السلام ، أما العقول فلا مجال لها في معرفته كما تدعى طائفة أهل الاعتزال .

قال الإمام اللالكائي رحمه الله : "سياق ما يدل من كتاب الله عز وجل وماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل" . ثم ذكر قوله تعالى : {فاعلم أنه لا إله إلا الله} (٤). وقوله : {اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن

(١) سورة النحل : آية ٣٦

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥

(٣) وانظر : فتح المجيد ص ١٦، ١٧ ، تيسير العزيز الحميد ص ٣٦، ٣٧ .
أخرجه البخارى بألفاظ مقاربة في كتاب الزكاة (٢٤) ، باب وجوب الزكاة (١) ، ١٠٨/٢ ، وفي باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (٤١) ، ١٢٥/٢ . وفي باب أخذ الصدقة من الأغنياء (٦٣) ، ١٣٦/٢ . وفي كتاب المغازي (٦٤) ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٦٠) ، ١٠٩/٥ . وفي كتاب التوحيد (٩٧) ، باب ماجاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله (١) ، ١٦٤/٨ . وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة في كتاب الإيمان (١) ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٧) برقم (١٩) ، ٥١-٥٠/١ .

(٤) سورة محمد : آية ١٩

المشركين}{(١). وقوله تعالى : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}{(٢).

ثم قال رحمه الله : "فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد" (٣).

وقال السفاريني رحمه الله :

"فإن الله تعالى خلق العقول وأعطاهها قوة الفكر وجعل لها حداً تقف عنده من حيث ماهي مفكرة لامن حيث ماهي قابلة للوهاب الإلهي ، فإذا استعملت العقول أفكارها فيما هو في طورها وحدها ووفت النظر حقه أصابت باذن الله تعالى ، وإذا سلطت الأفكار على ماهو خارج عن طورها ووراء حدها الذي حده الله لها ركبت متن عمياء ، وخبطت خبط عشواء ، فلم يثبت لها قدم ولم ترتكز على أمر تطمئن إليه ، فإن معرفة الله تعالى وراء طورها ، مما لاتستقل العقول بإدراكها من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وإنما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة ، فهو اختصاص إلهي يختص به الأنبياء وأهل وراثتهم مع حسن المتابعة وتصفية القلب من وضر (٤) البدع ، والفكر من نزغات الفلسفة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

... ومما يوضح ذلك أن العقول لو كانت مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب ،

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٦

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٩٣/١ - ١٩٥ .

(٤) وضر :

قال صاحب القاموس : "الوضر ، محركة : وسخ الدسم واللين ، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما" .

القاموس المحيط ص ٦٣٣ - ٦٣٤ .

واللازم باطل بالنص . قال تعالى : {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} (١). وقال تعالى : {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى} (٢)، فكذا الملزوم ، فلما بعث الله الرسل وأنزل الكتب وجبت لله على الخلق الحجة البالغة وانقطعت علة الاعتذار" (٣).

فمن أين للعقول أن تعرف ما يجب لله من أنواع العبادات التي يتم بها توحيده سبحانه؟ ومن أين لها أن تتعرف على أسمائه الحسنی وصفاته العليا لتصفه بها؟ بل هذا باب مغلق وطريق مسدود لا يلجّه إلا أنبياء الله الذين يوحى إليهم من قبل الله سبحانه .

وأما معرفة ربوبية الله تعالى على العباد ، والإقرار بالصانع الذي يتعب أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم في حشد الأدلة للوصول إليه ، وإجهاد العقول وكد الأذهان للدلالة عليه ، فهو أمر فطري فطر الله عليه القلوب والنفوس فهو لا يحتاج إلى دليل لأنه مركوز في الفطر ، مستقر في القلوب (٤).

والأدلة على ذلك شاهدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . من ذلك :

قوله تعالى : {وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين} الآية (٥).

(١) سورة الإسراء : آية ١٥

(٢) سورة طه : آية ١٣٤

(٣) لوامع الأنوار ١٠٥/١ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٤٨/١ ، ١٦،٦/٢ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول

١٣٤/٢، ١٣٥ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٥ .

(٥) سورة الأعراف : آية ١٧٢

فقد أخرج الله ذرية بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم على أنه ربهم ومليكهم فأقروا بذلك ، وقد وردت أحاديث تدل أيضا على أن الله استخرج من صلب آدم ذريته وهم فى عالم الذر فأقروا بربوبية الله تعالى . من ذلك ما رواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان^(١) يعنى عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبل^(٢) ، قال : "ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" (٣)(٤).

ومن الأدلة قوله تعالى :

{فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (٥)

(١) نعمان : واد بين مكة والطائف . وقيل واد لهذيل على ليلتين من عرفات . انظر : معجم البلدان ٢٩٣/٥ .

(٢) قبل : أى خاطبهم عيانا ومقابلة لامن وراء حجاب . انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٨/٤ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٢، ١٧٣

(٤) أخرجه أحمد فى المسند ٢٧٢/١ .

قال الهيثمى : "ورجاله رجال الصحيح" . مجمع الزوائد ٢٥/٧ .

وقال الشيخ أحمد محمد شاکر : "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاکر ١٥١/٤ .

ورواه الحاكم فى المستدرک بلفظ مقارب . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبى ٥٤٤/٢ .

وذكره الشيخ ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٥٨/٤ ، وأورد له مجموعة من الطرق والشواهد ، وحكم بصحته ، بل قال : "هو متواتر المعنى" . ١٦٢/٤ .

وذكره جماعة من المفسرين عند تفسير الآيات السابقة . انظر : تفسير ابن كثير ٢٦٢، ٢٦١/٢ .

(٥) سورة الروم : آية ٣٠

روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟" . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : "فطرة الله التى فطر الناس عليها". الآية (١). وروى مسلم بسنده إلى عياض بن حمار المجاشعى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته : "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا . كل مال نخلته عبدا ، حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ... الحديث (٢)".

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب اذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٨٠) ، ٩٨،٩٧/٢ .

وبلفظ مقارب : فى باب ما قيل فى أولاد المشركين (٩٣) ، ١٠٤/٢ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة الروم (٣٠) ، ٢٠/٦ ، وفى كتاب القدر (٨٢) ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٣) ، ٢١١/٧ . وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب القدر (٤٦) ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦) برقم ٢٦٥٨ ، ٢٠٤٧-٢٠٤٩ . قال النووى :

"وأما قوله صلى الله عليه وسلم "كما تنتج البهيمة بهيمة" فهو بضم التاء الأولى وفتح الثانية ، ورفع البهيمة ونصب بهيمة ، ومعناه : كما تلد البهيمة بهيمة (جمعاء) بالمد أى مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها جدعاء - بالمد - وهى مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء . ومعناه : أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لانقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها" . شرح النووى على مسلم ٢٠٨/١٦-٢٠٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٦) برقم ٢٨٦٥ ، ٢١٩٧-٢١٩٨ .

وحنفاء : جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام . وهو عند العرب من كان على دين إبراهيم عليه السلام . والمعنى خلقهم طاهرين الأعضاء من المعاصى ، أو أنهم مؤمنين ومقرين بربوبية الله تعالى . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤٥١/١ . =

والإقرار بربوبية الله ، وبالصانع لاينجى صاحبه من عذاب الله ، ولايكفى للإيمان بالله سبحانه. وهو الذى يحرص أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم إلى معرفته والإقرار به ، فقد أخبرنا ربنا سبحانه أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهضوه العداء وأخرجوه من أرضه وحاربوه فقتل منهم من قتل وأسر من أسر كانوا مقرين بهذا النوع من التوحيد ومع ذلك لم يشفع لهم عند ربهم ، كما قال سبحانه مبينا اعترافهم بربوبيته : {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون}{(١)}

وقال تعالى : {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون}{(٢)}

فهم أقروا بالله الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لأمر الكون ، وإنما أتوا من اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله وصرفوا لها العبادات التى لا تجوز إلا لله سبحانه ، كما قال تعالى مبينا قولهم فى ذلك : {مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}{(٣)}.

فهذا هو التوحيد الذى يسعى المعتزلة إلى الإقرار به وسلوك الطرق المتشعبة التى لا تخلو من الخلل والطول وكثرة التعب للوصول إليه (٤).

= واجتالهم الشياطين : أى استخفتمهم فجالوا معها فى الضلال .

المرجع السابق ٣١٧/١ .

(١) سورة يونس : آية ٣١-٣٢

(٢) سورة المؤمنون : آية ٨٤-٨٩

(٣) سورة الزمر : آية ٣

(٤) انظر موافقة صحيح المنقول ١٣٥/٢ .

وأما التوحيد الذى علمه السلف الصالح رضوان الله عليهم وحدوه وبينوه ، فهو علم العبد واعترافه واعتقاده ، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال وتوحيده فى ذلك ، واعتقاده أنه لا شريك له فى كماله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين (١).

وهو الشامل لأنواعه الثلاثة : الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وهو الذى دعت إليه الرسل عليهم السلام ، وأوضحته كتب الله المنزل . (٢) أما الحديث عن أصول أهل الاعتزال الخمسة التى وضعوها بإزاء أصول دين الإسلام الخمسة وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهدموا بها كثيراً من دين الإسلام فهى أصول مبتدعة (٣) لم تبين على كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما بنيت على مقاييس عقلية فاسدة ومقدمات منطقية تستلزم رد كثير مما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٤). ولهذا لما سلك المعتزلة الطرق الفاسدة والأقيسة العقلية المعوجة التى يعلم بالاضطرار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها ، فلما سلكوها فى بيان أصول الدين التزموا لأجلها كثيراً من اللوازم الفاسدة كنفى صفات الرب سبحانه ، والقول بخلق القرآن ، وإنكار رؤية الله تعالى ، إلى غير ذلك مما التزموه (٥).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله فى معرض حديثه عن طرق المعتزلة التى يثبتون بها أصولهم :

"وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل ، والمقاصد . أما المقاصد فإن حاصلها بعد التعب الكثير والسلامة خير قليل ، فهى لحم جمل

-
- (١) الكواشف الجلية ص ٤١٧ .
 (٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٩ .
 (٣) انظر : مجموع الفتاوى ٨/٢ .
 (٤) انظر : موافقة صحيح المنقول ٥١/١ - ٥٣ .

غث ، على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولاسمين فينتقل . ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا .

وأما الوسائل : فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ، ينقطع السالكون فيها كثيراً قبل الوصول ، ومقدماتها في الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها ، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء . ولهذا لا يتفق منهم اثنان ... على جميع مقدمات دليل إلا نادراً . فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة ، والمتكلمين له طريقة في الاستدلال ، تخالف طريقة الرئيس الآخر ، بحيث يقدر كل من أتباع أحدهما في طريقة الآخر ، ويعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته ، وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونه فيها" (١).

والعجب من هؤلاء المبتدعة الذين يبتدعون في دين الله ما ليس منه ، ثم يجعلون ما ابتدعوه أصول الدين ، ثم يلزمون الناس بالتزامها ، ويوالون ويعادون عليها ، بل ويكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه (٢).

بل والعجب من هؤلاء الذين يتكلمون في أصول الدين وهم لا يتلقون ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أترى الله سبحانه يترك أصول دينه التي يقوم عليها بنيان الإسلام وينبني عليها صرحه ، ويدع ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يبينها للناس حتى يأتي أهل الاعتزال ليشرعوا للناس ديناً ما أنزل الله به من سلطان ، وأصولاً ليس عليها دليل ولا برهان ، ويزعموا أنها أصول الدين الذي شرعه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم . سبحانه هذا بهتان عظيم . بل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بينا أصول الدين وفروعه أتم بيان وأوضحاً ذلك أكمل توضيح بحيث لم يدع لأحد منفذاً ينفذ من خلاله لابتدع في دين الله ما ليس منه .

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/٢ .

(٢) انظر موافقة صحيح المنقول ٢٠٥/١ .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

"وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها قولاً ، أو قولاً وعملاً كمسائل التوحيد ، والصفات ، والقدر ، والنبوة ، والمعاد . أو دلائل هذه المسائل .

... فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته ، واعتقاده ، والتصديق به من هذه المسائل قد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر . إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين ، وبينه للناس ، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه . وكتاب الله الذى نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التى هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نقلوها أيضاً عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد ، وتقام الواجب ، والمستحب" (١).

قال : "وأما ما يدخله بعض الناس فى هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين ، وإن أدخله فيه مثل المسائل والدلائل الفاسدة مثل نفى الصفات ، والقدر ، ونحو ذلك من المسائل" (٢).

وقال رحمه الله :

"وإذا عرف أن مسمى أصول الدين فى عرف الناطقين بهذا الاسم فيه إجمال وإيهام - لما فيه من الاشتراك بحسب الأوضاع والاصطلاحات - تبين أن الذى هو عند الله ورسوله وعباده المؤمنين أصول الدين فهو موروث عن الرسول ، وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ هو

(١) مجموع الفتاوى ٢٩٥/٣ ، وانظر موافقة صحيح المنقول ٤٣/١ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٠٣/٢ .

باطل وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق" (١).

وقد بين صلى الله عليه وسلم أصول دين الإسلام في حديث جبريل عليه السلام عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام وأركان الإيمان وركن الإحسان (٢). بعد هذا يتبين لنا أن المعتزلة بابتداعهم أصول دين لم يعرفها سلف الأمة الأخيار بل علموا نقيضها ، ارتكبوا عظام أربع :
أولها : ردهم النصوص .

الثاني : ردهم ما يوافق النصوص من معقول العقلاء .

الثالث : جعل ماخالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هي أصول الدين .

الرابع : تكفيرهم ، أو تفسيقهم ، أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصریح المعقول (٣).

(١) المرجع نفسه ٣٠٥/٣-٣٠٦ .

وانظر في بيان الله ورسوله لأصول دين الإسلام : بيان تلبيس الجهمية ١/١٠١، ٢٤٦ موافقة صحيح المنقول ١/٥١-١٧٩، ٥٣-١٨٠ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٥-١٩٦ الرياض الناضرة ص ١٧٩-١٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبى هريرة كتاب الإيمان (٢) ، باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان (٣٧) ، ١/١٨ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة لقمان (٣١) ، باب قوله "إن الله عنده علم الساعة" (٢) ، ٢٠/٢١-٢١ .

وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب برقم (٨) ، ومن حديث أبى هريرة برقم (٩) ، كتاب الإيمان (١) ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) ، ٣٦/١-٤٠ .

(٣) انظر : موافقة صحيح المنقول ١/٢٠٦ .

الفصل الثانى

موقفهم من الحديث المتواتر وحديث الآحاد .

١ - ذم تعلم الحديث وأهله :

لقد ذم أهل الاعتزال من تعلم الحديث ، وحذروا من تعلمه وقللوا من فائده والاستدلال به ، ونصوا على أنه لا حاجة إليه ، إذ العقول تغنى عنه والأذهان تكتفى بغيره .

ويستدل عبد الجبار على ذلك بإيراده أقوال بعض أهل الحديث التى يزعم أنها تبين كراهيتهم لطلبه ، وذمهم لمن أكثر منه .
فنقل عن شعبة^(١) أنه قال : "مأنا من شيء أخوف منى أن يدخلنى النار من الحديث" .

وعن أبى إسحاق الفزارى^(٢) قال : "كتبت إلى سفيان الثورى إياك والحديث" .

وذكر أن الواحد من أصحاب الحديث يجب الاستكثار من طريق حديث واحد ، ولا يكون فيه كبير فائدة ، إلا تخيير الزيادات فيه .
ثم علل ماسبق من نقول فقال :

(١) شعبة :

هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى مولاهم ، أبو بسطام الواسطى ، ثم البصرى ، ثقة ، حافظ متقن ، أول من فتن بالعراق عن الرجال ، وذبح عن السنة . وكان عابداً . مات سنة ١٦٠هـ .

انظر : التاريخ الكبير ٢٤٤/٤-٢٤٥ ، الجرح والتعديل ٣٦٩/٤ ، تاريخ بغداد ٢٥٥/٩-٢٦٦ ، الكاشف ١١/٢ ، تذكرة الحفاظ ١٩٣/١-١٩٧ ، سير أعلام النبلاء ٢٠٢/٧-٢٢٨ ، تهذيب التهذيب ٣٣٨/٤-٣٤٦ ، تقريب التهذيب ٣٥١/١ .

(٢) أبو إسحاق الفزارى :

هو إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ، الفزارى ، الإمام ، أبو إسحاق ، ثقة حافظ . له تصانيف . مات سنة ١٨٥هـ وقيل بعدها .

انظر : تذكرة الحفاظ ٢٧٣/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٣٩/٨-٥٤٣ ، تهذيب التهذيب ١٥١/١ ، تقريب التهذيب ٤١/١ .

"يحمل ماروى عن شعبة وغيره من ذم أصحاب الحديث ، لفساد طريقتهم وقلة تمييزهم" .

وذكر أن المعتزلة لم يشتهروا بالفقه والحديث لأنهم توفروا على ماعندهم ، وهو أجدى في الدين من طلب الفقه والحديث .

ثم ذيل على ذلك بقوله :

"الحديث بمزلة سائر مايجب أن يتحرز الإنسان فيه ، لأن من حدث عن غيره بما لايعلم أنه قد سمع منه ، إما على جملة أو تفصيل فهو مقدم على قبيح لايجل منه ذلك ، كما لايجل منه لو علمه كذبا ، فمن يشتد تحرزه ، يرى أن ذلك لو وجب لكان من فروض الكفايات والسعيد فيه قد كفى بغيره" (١).

٢ - الحديث المتواتر (٢) :

ذهب النظام إلى جواز وقوع الكذب في الخبر المتواتر (٣) ، والحجة العقلية عنده كفيلة بنسخ الأخبار (٤) . كما جوز إجماع الأمة في كل عصر وفي جميع الأعصار على الخطأ من جهة الرأي والاستدلال (٥) .

وأبو الهذيل العلاف يرى أن الحجة في طريق الأخبار فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء عليهم السلام ، وفيما سواها لا تثبت بأقل من عشرين نفسا ، فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر . ولم يوجب بأخبار

(١) فضل الاعتزال ص ١٩٣-١٩٤ .

(٢) المتواتر :

هو الخبر الذى رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وأن يكون مستند خبرهم الحس وإفادة العلم لسامعه .

انظر : شرح نخبة الفكر ص ١٠ ، تيسير مصطلح الحديث ص ١٩-٢٠ .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٤٣ .

(٥) انظر : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

الكفرة والفسقة حجة وإن بلغوا عدد التواتر الذى لا يمكن معه تواطؤهم على الكذب ، إذا لم يكن فيهم واحد من أهل الجنة .
 وزعم أن خبر مادون الأربعة لا يوجب حكما ، ومن فوق الأربعة إلى العشرين قد يصح وقوع العلم بخبرهم وقد لا يصح .
 واستدل على العشرين حجة بقوله تعالى : {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين} (١).
 وقال : "لم يبح لهم قتالهم إلا وهم عليهم حجة" (٢).

٣ - حديث الآحاد :

(أ) تعريفه ، وأنه لا يعد من السنة :

لقد عرف المعتزلة حديث الآحاد بأنه الذى لا يعلم كونه كذبا أو صدقا (٣).

ومن هنا يقبح أن يقال عنه إنه سنة تضاف إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن السنة هى ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ليدام عليه ، أو فعله ليدام الاقتداء به ، وحديث الآحاد لا يؤمن فيه من الكذب فلا يقال إنه من السنة إلا على وجه التعارف ، وذلك بعد موافقته للعقل ، ولهذا لا يجوز فى العقل أن يقال فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعا وإنما يجوز أن يقال روى عنه صلى الله عليه وسلم (٤).

(ب) عدم الاحتجاج به مطلقا فى أمور الدين :

إن الاحتجاج إنما يكون بالإجماع القاطع دون أخبار الآحاد التى قد يتعمد فيها الكذب ، ويقع فيها السهو والنسيان والتغيير والتبديل (٥).

(١) سورة الأنفال : آية ٦٥

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص ٧٦٩ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص ١٨٥-١٨٦ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ١٩٥ .

قال أبو الحسين :

"وقد كان السلف ينكرون كثرة الرواية . وحكى عن شعبة أنه قال :
"ثلاث الحديث كذب" ، وكثيراً ما يتضمن الجبر والتشبيه^(١) ما لا يمكن تأويله إلا
بتعسف شديد ، لا يتعذر مثله في كل كلام متناقض . وذلك يمنع أن يقوله
النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يمنع أن يكون من روى ذلك من المتأخرين
قد تعمد الكذب . ولا يمنع أن يثبت أن بعض الصحابة الذى رواها أن
يكون لحقه سهو وغلط ، وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم حكاه عن
غيره ، وظن الراوى أنه حكاه عن نفسه ، أو خرج عن سبب يغير فائدته ،
أو تقدم ما يعين حكمه"^(٢).

وقد تعلقوا ببعض الشبه التى زعموا أنها تؤيد مذهبوا إليه فى ردهم
لجبر الواحد وعدم قبوله .

من ذلك قصة ذى اليمين وكون النبي توقف فى خبره حتى تابعه عليه
غيره^(٣).

(١) سوف يأتى بيان لمعنى الجبر والتشبيه عند المعتزلة .

(٢) المعتمد فى أصول الفقه ٥٥٠/٢-٥٥١ .

(٣) روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة قال : "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتى العشى - قال ابن سيرين : قد سماها أبو هريرة ولكن نسيته أنا - قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم فقام إلى خشبة معروضة فى المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبك بين أصابعه ، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا قصرت الصلاة ، وفى القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه ، وفى القوم رجل فى يديه طول يقال له ذو اليمين ، قال : يارسول الله أنسيته أم قصرت الصلاة؟ قال : "لم أنس ولم تقصر". فقال : "أكما يقول ذو اليمين؟" فقالوا : نعم . فتقدم فصلى ما ترك ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر ، ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر ، فربما سأله ثم سلم . صحيح البخارى ، كتاب الصلاة (٨) ، باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره (٨٨) ، ١٢٣/١-١٢٤ .

وقصة أبي بكر حين توقف في خير المغيرة في ميراث الجدة حتى تابعه
محمد بن مسلمة (١).

= وأخرج نحوه في كتاب الأذان (١٠) ، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس
(٦٩) ، ١٧٥/١ ، وفي كتاب السهو (٢٢) ، باب من لم يتشهد في سجدة السهو
(٤) ، وباب يكبر في سجدة السهو (٥) ، ٦٦/٢ ، وفي كتاب الأدب (٧٨) ،
باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير (٤٥) ، ٨٥/٧ ، وفي
كتاب أخبار الأحاد (٩٥) ، باب ماجاء في إجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٣/٨ ،
وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة من حديث أبي هريرة برقم ٥٧٣ ،
وبنحوه من حديث عمران بن حصين برقم ٥٧٤ ، كتاب المساجد (٥) ، باب
السهو في الصلاة (١٩) ، ٤٠٣/١ - ٤٠٥ .

(١) روى مالك بسنده إلى قبيصة بن ذؤيب أنه قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر
الصديق تسأله ميراثها . فقال لها أبو بكر : مالك في كتاب الله شيء . وما علمت
لك في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً . فارجعى حتى أسأل الناس .
فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم
أعطاهما السدس . فقال أبو بكر : هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري
فقال مثل ما قال المغيرة . فأنفذها أبو بكر الصديق ، ثم جاءت الجدة الأخرى إلى
عمر بن الخطاب تسأله ميراثها ، فقال لها : مالك في كتاب الله شيء . وما كان
القضاء الذي قضى به إلا لغيرك . وما أنا بزائد في الفرائض شيئاً . ولكنه ذلك
السدس . فإن اجتمعتما فهو بينكما ، وأيتكما خلت به فهو لها .
الموطأ ، كتاب الفرائض (٢٧) ، باب ميراث الجدة (٨) ، ٥١٣/٢ .
وأخرجه أبو داود في سننه بلفظ مقارب ، كتاب الفرائض ، باب في الجدة برقم
٢٨٩٤ ، ١٢١/٣ - ١٢٢ .

والترمذي في سننه بلفظ مقارب ، في كتاب الفرائض (٣٠) ، باب ماجاء في ميراث
الجدة (١٠) ، برقم ٢١٠١، ٢١٠٠ ، ٣٦٥/٤ - ٣٦٦ .
وابن ماجه في سننه بلفظ مقارب ، في كتاب الفرائض (٢٣) ، باب ميراث الجدة
(٤) برقم ٢٧٢٤ ، ٩٠٩/٢ - ٩١٠ .
وأحمد نحوه في مسنده ٢٢٥/٤ - ٢٢٦ .
والحاكم نحوه في مستدركه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم
يخرجاه . ووافقه الذهبي ٣٣٨/٤ - ٣٣٩ .

وتوقف عمر في خبر أبي موسى في الاستئذان حتى تابعه أبو سعيد
الحدري (١).

(ج) عدم الاحتجاج به اذا خالف العقل :
قال أبو الحسين :

"لم يقبل ظاهر الخبر في مخالفة مقتضى العقل ، لأننا قد علمنا بالعقل
على الاطلاق أن الله عز وجل لا يكلف إلا ما يطاق ، وأن ذلك قبيح . فلو
قبلنا الخبر في خلافه ، لم يخل إما أن نعتقد صدق النبي صلى الله عليه وسلم
في ذلك فيجتمع لنا صدق النقيضين ، أو لانصدقه فنعدل عن مدلول المعجز .
وذلك محال" (٢).

(د) عدم الاحتجاج به في باب الاعتقاد :

وقد ذهب فريق الاعتزال إلى أن خبر الآحاد لا يقبل فيما طريقه
الاعتقاد لأن الاعتقاد إنما يبنى على اليقين لا الظن ، وخبر الآحاد إنما يفيد

= وأورده الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير وقال : "وإسناده صحيح لشدة رجالة ،
إلا أن صورته مرسل ، فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق" . ٩٥/٣ .
(١) انظر : المعتمد في أصول الفقه ٦٢٣/٢ ، تدريب الراوى ٧٣/١ .

روى البخارى بسنده إلى أبي سعيد الحدري قال : كنت في مجلس من مجالس
الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن
لي فرجعت . فقال : مامنك؟ قلت استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت . وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع"
فقال : والله لتقيمن عليه بينة . أمنكم أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؟
فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم . فكنت أصغر القوم
فقممت معه فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك " .

صحيح البخارى ، كتاب الاستئذان (٧٩) ، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً (١٣) ،
١٣٠/٧ ، وأخرج نحوه في كتاب البيوع (٣٤) ، باب الخروج في التجارة (٩) ،
٦/٣ .

وأخرج نحوه مسلم في صحيحه ، كتاب الآداب (٣٨) ، باب الاستئذان (٧) برقم
٢١٥٤، ٢١٥٣ ، ١٦٩٤-١٦٩٧ .

(٢) المعتمد في أصول الفقه ٥٤٩/٢ .

الظن^(١)، وأما اليقين فإنما يؤخذ من حجج العقول . كما قال الجاحظ :
 "وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل"^(٢).
 وقال : "والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة ،
 والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود"^(٣).

وقال أبو الحسين :

"وقولنا فى خبر الواحد العدل إنه لا يوجب علماً"^(٤).

قال عبد الجبار :

"وإن كان - أى خبر الآحاد - مما طريقه الاعتقادات ينظر ، فإن كان
 موافقاً لحجج العقول قبل واعتقد موجه ، لالمكانه بل للحجة العقلية ، وإن
 لم يكن موافقاً لها ، فإن الواجب أن يرد ويحكم بأن النبى لم يقله ، وإن
 قاله فإنما قاله على طريق الحكاية عن غيره ، هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا
 بتعسف ، فأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول"^(٥).

وقال بعد ذكره لبعض أحاديث الرؤية :

"وقد قال أصحابنا : إن خبر الواحد لا يقبل فى مثل ذلك ، وإنما يقبل
 خبر الواحد فيما طريقه العمل"^(٦).

(هـ) عدم الاحتجاج به فى الأعمال إلا بشروط :

شرط بعض أهل الاعتزال شروطاً لقبول حديث الآحاد فيما طريقه
 العمل . فأبو على الجبائى لا يقبل الخبر إذا رواه العدل الواحد ، إلا إذا انضم
 إليه خبر عدل آخر ، أو عضده موافقة ظاهر الكتاب ، أو ظاهر خبر آخر ،

(١) انظر : المعتمد فى أصول الفقه ٥٧٧/٢، ٥٧٨، ٥٧٩ ، شرح الأصول ص ٧٦٩ .

(٢) رسالة التبريع والتدوير ، ضمن رسائل الجاحظ ٥٨/٣ .

(٣) كتاب المعلمين . ضمن رسائل الجاحظ ٢٩/٣ .

(٤) الانتصار ص ٥٥ ، وانظر : المعتمد فى أصول الفقه ٥٦٦/٢ .

(٥) شرح الأصول ص ٧٧٠ ، وانظر المعتمد فى أصول الفقه ٥٤٩/٢ .

(٦) فضل الاعتزال ص ١٥٨ ، وانظر ص ١٥٦ .

أو يكون منتشراً بين الصحابة ، أو عمل به بعضهم (١).
بل زعموا أن من أخبار الآحاد ما يعلم أنه بروايته ارتكب عظيماً كما
روى في باب التشبيه والجبر وغيرهما من ضروب الخطأ، ولولا الدلالة على
وجوب العمل به على بعض الوجوه لم يكن في نقله فائدة (٢).

(١) تدريب الراوى ٧٣/١ .

وانظر : المعتمد في أصول الفقه ٦٢٢/٢ ، النكت على ابن الصلاح ٢٤٢/١ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص ١٩٤ .

الجواب على شبه المعتزلة :

لقد فضل الله عز وجل هذه الأمة على الأمم السابقة وجعلها شاهدة عليهم لأنها أمة العدل والإنصاف فقال تعالى : {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} (١)، وقال سبحانه : {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} (٢).

وحفظ لها دينها من بين سائر الأديان بحفظه لكتابه الذى {لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} (٣)، فقال سبحانه : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} (٤)، وأوكل حفظ الكتب الأخرى إلى الربانيين والأخبار كما قال : {بما استحضروا من كتاب الله} (٥)، ولكنهم بدلوا وغيروا (٦).

وحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم كما حفظ كتابه لأنها بيان له كما قال سبحانه : {لتبين للناس ما نزل إليهم} (٧). ومن حفظ الكتاب حفظ بيانه معه . وهى وحى من عند الله لقوله تعالى : {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى} (٨). وقال : {إن أتبع إلا ما يوحى إلى} (٩).

قال ابن حزم : "ولاخلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة فى أن كل وحى نزل من عند الله فهو ذكر منزل وهو محفوظ بحفظ الله تعالى

-
- | | |
|-----|----------------------------|
| (١) | سورة البقرة : آية ١٤٣ |
| (٢) | سورة آل عمران : آية ١١٠ |
| (٣) | سورة فصلت : آية ٤٢ |
| (٤) | سورة الحجر : آية ٩ |
| (٥) | سورة المائدة : آية ٤٤ |
| (٦) | انظر : روح المعانى ١٦/١٤ . |
| (٧) | سورة النحل : آية ٤٤ |
| (٨) | سورة النجم : آية ٣ |
| (٩) | سورة الأنعام : آية ٥٠ |

بيقين . لا يضيع منه شيء ولا يحرف تحريفاً لا يأتي البيان بطلانه" (١).

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم مصدر من مصادر التشريع كصنوه القرآن ، وإن كان دونه في المنزلة فهو مثله في الحجية وذلك لقوله سبحانه وتعالى : {من يطع الرسول فقد أطاع الله} (٢)، ولقوله صلى الله عليه وسلم "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" (٣).

وما أثاره المعتزلة حوله من شبه ، فهي شبه واهية ، لاتستند إلى دليل ولا تؤيدها حجة .

ولم يفعلوا غير أنهم أوعروا بتلك الشبه الطريق وأوصدوا بها الأبواب أمام معرفة الله وأسمائه وصفاته ، ومعرفة دينه وأحوالوا الناس على أمور وهمية ، ومقدمات خيالية ، سموها قواطع عقلية ، وبراهين يقينية ، وهى فى التحقيق "كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور" (٤). ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي ، وعزلوا لأجلها النصوص ، فأقفر قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ، ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية . ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح ، الموافق للفطرة السليمة (٥).

ويجاب على ما أثاروه من شبه حول الحديث بالآتى :

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١٢١/١ .

(٢) سورة النساء : آية ٨٠

(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ١١

(٤) سورة النور : آية ٣٩-٤٠

(٥) شرح الطحاوية ص ٣٥٤ بتصرف .

١ - ذمهم تعلم الحديث ، ومن تعلمه واشتغل به من أهل الحديث ينبيء عن جهلهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلة معرفتهم به ، وعدم الاعتناء والاهتمام به ، ولذلك قل استدلالهم بالحديث في كتبهم . وكثير منهم بل أفضلهم عند أصحابه لا يعتقد أنه روى في الباب الذي يتكلم فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء أو يظن أن المروى فيه حديث أو حديثان كما يجده لأكابر شيوخهم كأبي الحسين البصري فهو لا يعتقد أنه روى في الرؤية إلا حديث جرير ، ولم يعلم أنه فيها ما يقارب ثلاثين حديثاً (١).

وأما أهل الحديث فهم الذين حفظ الله بهم دينه ، وأيد بهم شرعه ، لأنهم ورثاء نبيه صلى الله عليه وسلم ، والذابون عن سنته . والمطلع على سيرتهم يجدهم من أعظم الناس صدقا وأمانة وديانة ، وأوفر الناس عقولاً ، وأشدهم تحفظاً وتحريماً في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يجابى أحدهم فيه أباه ولا ابنه ولا شيخه ولا أحداً من الخلق ، وأنهم حرروا الرواية عنه صلى الله عليه وسلم تحريراً لم يبلغه أحد سواهم . وهم أصدق الطوائف قاطبة . قال عبد الله بن المبارك (٢):

"وجدت الدين لأهل الحديث ، والكلام للمعتزلة ، والكذب

(١) انظر مختصر الصواعق ص ٤٧١ . وسوف يأتي الحديث والكلام عنه .

(٢) عبد الله بن المبارك :

هو عبد الله بن المبارك بن واضح ، أبو عبد الرحمن الحنظلي ، مولاهم التركي ، المروزي ، ثقة ثبت فقيه ، عالم جواد مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير . مات سنة ١٨١ هـ .

انظر : التاريخ الكبير ٢١٢/٥ ، الجرح والتعديل ١٧٩/٥ ، تاريخ بغداد ١٥٢/١٠ ، الكاشف ١٢٣/٢ ، تذكرة الحفاظ ١٧٤/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨ - ٤٢١ ، تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥ ، تقريب التهذيب ٤٤٥/١ .

للمرافضة^(١)، والحيل لأهل الرأي ، وسوء الرأي والتدبير لآل بني فلان^(٢).
قال القاضي عياض رحمه الله :

"رحم الله سلفنا من الأئمة المرضيين ، والأعلام السابقين ، والقادة الصالحين ، من أهل الحديث وفقهائهم ، قرنا بعد قرن ، فلولا اهتبالهم بنقله وتوفرهم على سماعه وحمله ، واحتسابهم في إذاعته ونشره ، وبحثهم عن مشهوره وغريبه ، وتنخيلهم لصحيحه من سقيمهم لضاعت السنن والآثار ، ولاختلط الأمر والنهي ، وبطل الاستنباط والاعتبار ، كما اعتري من لم يعتن بها ، وأعرض عنها بتزيين الشيطان ذلك له من الخوارج^(٣) والمعتزلة وضعفة أهل الرأي ، حتى انسل أكثرهم عن الدين ، وأتت فتاويهم ومذاهبهم مختلفة القوانين ، وذلك لأنهم اتبعوا السبل وعدلوا عن الطريق ، وبنوا أمرهم على

(١) المرافضة :

اسم يطلق على كل من تبرأ من الشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكذلك على كل من تبرأ من الصحابة .

وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ، وهم مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه ، وإن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوتها في غيرهم .

انظر : مقالات الإسلاميين ٨٩/١ ، الملل والنحل ١٥٤/١ ، ١٥٥ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(٣) الخوارج :

هم الذين خرجوا من جيش أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد وقعة صفين ، ورفضوا التحكيم وقالوا له : لم حكمت الرجال لاحكم إلا لله . وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان فقاتلهم على رضى الله عنه ، وتكونت منهم فرق شتى يجمعهم القول بالتبرئ من عثمان رضى الله عنه . وتكفير أصحاب الكبائر ، والخروج على الإمام إذا خالف السنة .

انظر : الملل والنحل ١١٤/١ - ١١٥ .

غير أصل وثيق . {أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار} الآية "(١).

وقال ابن أبي العز في فضلهم وتخريهم :

"وكانوا بحيث لو قتلوا لم يساحوا أحداً في كلمة يتقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك ، وقد نقلوا هذا الدين إلينا ما نقل إليهم ، فهم ترك (٢) الإسلام وعصابة الإيمان ، وهم نقاد الأخبار وصيارفة الأحاديث .

فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم ، وعرف حالهم ، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه . ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ، ما ليس لغيرهم به شعور "(٣).

هكذا عرف علماؤنا فضل أهل الحديث وشرفهم وسمو منزلتهم بين أهل العلم كافة ، وكيف لا يكونون كذلك وهم الذين دعا لهم رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بنضارة الوجه فقال :

"نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع "(٤).

وكيف تكون طريقتهم فاسدة وهم الذين جعلهم الله أوعية لحديث نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو أشرف العلوم وأعظمها منزلة بعد كتاب الله عز وجل ، وإنما شرف أهل الحديث بشرفه وعظموا بين علماء الأمة لعظمة الحديث وفضله .

(١) الاماع ص ٧ .

والآية هي ١٠٩ من سورة التوبة.

(٢) ترك : جمع تريكة . وهي بيضة الحديد . انظر : القاموس المحيط ص ١٢٠٧ .

شبههم بالبيضة لأنهم حماة الإسلام والذابون عنه .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٥٦ .

(٤) سبق تخريجه . انظر ص : ١٢

يقول الإمام الشافعى رحمه الله :

"فإذا كان موجوداً في العامة وفي أهل الكذب الحالات يصدقون فيها الصدق الذى تطيب به نفس المحدثين . كان أهل التقوى والصدق في كل حالاتهم أولى أن يتحفظوا عند أولى الأمور بهم أن يتحفظوا عندها ، في أنهم وضعوا موضع الأمانة ، ونصبوا أعلاماً للدين ، وكانوا عالمين بما ألزمهم الله من الصدق في كل أمر ، وأن الحديث في الحلال والحرام أعلى الأمور وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظنة ، وقد قدم إليهم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء لم يقدم إليهم في غيره ، فوعد على الكذب على رسول الله النار" (١).

فلا يطعن فيهم إلا من جهل مقامهم ، وعلو منزلتهم ، وليس ذلك بغريب على من جهل شرف العلم الذى حملوه ، والتضحية التى بذلوها ، والأمانة التى حفظوها ، والخير الذى قدموه .

قال الرامهرمزي :

"فمن عرف للإسلام حقه ، وأوجب للرسول حرمة أكبر أن يحتقر من عظم الله شأنه ، وأعلى مكانه ، وأظهر حجته ، وأبان فضيلته ، ولم يرتق بطعنه إلى حزب الرسول وأتباع الوحي ، وأوعية الدين ، وتقلد الأحكام والقرآن ، الذين ذكرهم الله عز وجل في التنزيل ، فقال : {والذين اتبعوهم بإحسان} (٢)(٣)

وكيف يقدح فيهم بإكثارهم من الحديث وتعدد طرقه وتلك محمداً يحمدون عليها لامسبة يذمون بها ، وهذا دليل حبهم لحديث النبى صلى الله عليه وسلم وحرصهم على حفظه ، وقد كان أحدهم يقطع الفيافي والقفار ، ويترك المال والولد والأوطان بحثاً عن حديث واحد ، ليحفظ به على الأمة دينها ، وينفع به أمة الإسلام .

(١) الرسالة ص ٣٩٤ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠٠

(٣) المحدث الفاصل ص ١٦٠ ، وانظر الكفاية ص ٦ .

يقول الامام الرامهرمزي رحمه الله مخاطباً أهل الحديث ، محذراً اياهم مما يعيرون به :

"فتمسكوا - جبركم الله - بحديث نبيكم صلى الله عليه وسلم وتبينوا معانيه ، وتفقهوها به ، وتأدبوا بآدابه ، ودعوا مابه تعيرون من تتبع الطرق وتكثير الأسانيد ، وتطلب شواذ الأحاديث ، ومادلسه المجانين ، وتبلبل فيه المغفلون ، واجتهدوا في أن توفوه حقه من التهذيب والضبط والتقويم ، لتتشرفوا به في المشاهد ، وتنطلق ألسنتكم في المجالس ، ولا تحفلوا بمن يعترض عليكم حسداً على ما آتاكم الله من فضله ، فإن الحديث ذكر لا يحبه إلا الذكران ، ونسبه لا يجهل بكل مكان ، وكفى بالمحدث شرفاً أن يكون اسمه مقروناً باسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكره متصلاً بذكره وذكر أهل بيته وأصحابه" (١).

وتكثير الطرق وجمعها له فائدة عظيمة تقصر عنها عقول المعتزلة . وذلك أن جمع الطرق هو سبيل لمعرفة العلة (٢) في الحديث المعلن (٣) ، وهو نوع من أجل علوم الحديث وأشرفها وأدقها ، ولا يتمكن منه إلا أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب . وهو وسيلة إلى معرفة الحديث المتواتر .

(١) المحدث الفاضل ص ١٦١ .

(٢) العلة : سبب غامض خفى قادح في الحديث ، مع أن الظاهر السلامة منه . انظر : تدريب الراوى ٢٥٢/١ ، الباعث الحثيث ص ٦٢ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٩٩ .

(٣) المعلن :

هو الحديث الذى اطلع فيه على علة قادحة ، مع أن ظاهره السلامة منها .

انظر : شرح غيبة الفكر ص ٨٣ ، تدريب الراوى ٢٥٢/١ ، الباعث الحثيث ص ٦٢ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٩٩ .

ولذا قال ابن المديني^(١) رحمه الله : "الباب إذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه" (٢).

وأما ما نقله عبد الجبار عن بعض أئمة الحديث من أقوال زاعماً أنها تدل على ذم طلب الحديث وتعلمه ، فهي لا تؤيده فيما ذهب إليه ، لأن أهل العلم وجهوها توجيهها يناسب ما عرف من أحوال أولئك القوم ، وما علم من شدة حرصهم على تحمل الحديث وروايته ، وحث طلبه العلم على تعلمه وحفظه . فشعبة الذى يحمل قوله عبد الجبار مالا يحتمله هو القائل : "إني لأذكر الحديث فيفوتني فأمرض" (٣).

وقال له الثورى : "يا شعبة أنت أمير المؤمنين فى الحديث" (٤).

وقال الخطيب البغدادى :

"وليس يجوز لأحد أن يقول : كان شعبة يثبط عن طلب الحديث . وكيف يكون كذلك ، وقد بلغ من قدره أن سمى أمير المؤمنين فى الحديث ؟ كل ذلك لأجل طلبه له واشتغاله به . ولم يزل طول عمره يطلبه حتى مات على غاية الحرص فى جمعه . لا يشتغل بشيء سواه ، ويكتب عمن دونه فى السن والإسناد ، وكان من أشد أصحاب الحديث عناية بما سمع ، وأحسنهم

(١) ابن المديني :

هو على بن عبد الله بن معمر بن نجيح ، السعدى مولاهم ، أبو الحسن بن المديني البصرى ، ثقة ثبت إمام ، أعلم أهل عصره بالحديث وعلمه . قال البخارى : ما استصغرت نفسى إلا عند على . قال شيخه بن عيينة : يلومونى على حب ابن المديني ، والله لأتعلم منه أكثر مما تعلم منى . وقال شيخه ابن مهدي : على بن المديني أعلم الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر : الجرح والتعديل ١٩٣/٦-١٩٤ ، الكاشف ٢٨٨/٢-٢٨٩ ، تقريب التهذيب ٣٩/٢-٤٠ .

(٢) انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح ٧١١،٧١٠/٢ ، تدريب الراوى ٢٥٣،٢٥١/١ .

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١١٥ .

(٤) الكامل فى ضعفاء الرجال ٧١/١ ، شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١١٥ ، سير أعلام النبلاء ٢٢٤/٧ .

اتقاناً لما حفظ "(١).

ومأثله عبد الجبار عنه فيحمل على خوفه على نفسه أن لا يكون قد قام بحق الحديث ، والعمل به ، فخشى أن يكون ذلك حجة عليه (٢).

قال الذهبي بعد ذكره لكلمة شعبة السابقة :

"كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا ،
يود أن ينجو كفافاً" (٣). وما قيل في قول شعبة يقال في قول أبي إسحاق
الفزاري . فليس فيما قيل دلالة على ذم الحديث أو الطعن فيمن طلبه .
٢ - الحديث المتواتر :

لقد قسم بعض العلماء الأخبار المقبولة عنه صلى الله عليه وسلم في
أمور الدين إلى أربعة أقسام :

أحدها : متواتر لفظاً ومعنى .

الثاني : متواتر معنى وإن لم يتواتر في اللفظ .

الثالث : أخبار مستفيضة (٤) متلقة بالقبول بين الأمة .

الرابع : أخبار آحاد (٥).

ومنهم من قسمه إلى : متواتر ومشهور (٦) وآحاد .

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١١٥ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١١٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١٣/٧ .

(٤) الخبر المستفيض :

هو في الاصطلاح : مرواه ثلاثة فأكثر - في كل طبقة - ولم يبلغ حد التواتر .
ويشترط فيه أن يستوى طرفاً لإسناده . وقيل في تعريفه غير ذلك .

انظر : شرح نخبة الفكر ص ١٤ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٢٣ .

(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٧٠ .

(٦) الخبر المشهور :

المشهور في الاصطلاح هو مرواه ثلاثة فأكثر - في كل طبقة - ولم يبلغ حد
التواتر .

وأما في غير الاصطلاح يقصد به ما اشتهر على الألسنة من غير شروط تعتبر .

انظر : تيسير مصطلح الحديث ص ٢٣-٢٤ ، وانظر شرح نخبة الفكر ص ١٤ .

ومنهم من قسمه إلى متواتر وآحاد^(١).

ومن المتيقن أن الصحابة ماكانوا يفرقون بين المتواتر والآحاد في الأخبار^(٢)، ولكنه تقسيم اصطلاح عليه فيما بعد وأقره العلماء .
فأما الحديث عن المتواتر فقد تبين لنا موقف أهل الاعتزال منه ، وكيف جوز النظام وقوع الكذب فيه وأبو الهذيل وضع له من الشروط مايؤيد به عقائد الاعتزال . وهو وإن كان في مرتبة عندهم أفضل من حديث الآحاد إلا أنه مع ذلك عرضة للتأويل والرد متى ماخالف عقولهم .
وأما علماء السلف لم يضعوا الحديث المتواتر تحت طائلة البحث لأنه ليس من مباحث علم الإسناد ، الذي يبحث فيه عن صحة الحديث أو ضعفه ليعمل به أو يترك ، بل يجب العمل به من غير بحث^(٣). ولذا لم يختلفوا في أنه قطعى الثبوت^(٤). يفيد العلم اليقيني الذي يضطر الإنسان إليه بحيث لايمكنه دفعه^(٥).

يقول أبو محمد بن حزم رحمه الله في شأن الخبر المتواتر :

"وهو ما نقلته كافة بعد كافة حتى تبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا خبر لم يختلف مسلمان في وجوب الأخذ به ، وفي أنه مقطوع على غيبه لأن بمثله عرفنا أن القرآن هو الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا صحة مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا عدد ركوع كل صلاة ، وعدد الصلوات ، وأشياء كثيرة من أحكام الزكاة ، وغير ذلك مما لم يبين في القرآن تفسيره ... إن البرهان قائم على صحته ... وإن الضرورة والطبيعة توجبان قبوله ، وإن به عرفنا ما لم نشاهد من البلاد ، ومن كان

(١) انظر : أصول الحديث ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٢) انظر : رد شبهات الاحاد ص ٣٢

(٣) انظر : شرح نخبه الفكر ص ١٢ ، أصول الحديث ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٤) انظر : الباعث الحثيث ص ٣٥ ، أصول الفقه وابن تيمية ٢٤٩/١ ، المسودة في

أصول الفقه ص ٢٣٣ ، إرشاد الفحول ص ٤٧ .

(٥) انظر : شرح نخبه الفكر ص ١١ ، مختصر الصواعق ص ٤٧٠ .

قبلنا من الأنبياء والعلماء والفلاسفة والملوك والوقائع والتوالييف ، ومن أنكر ذلك كان بمنزلة من أنكر ما يدرك بالحواس الأول ولا فرق . ولزمه أن لا يصدق بأنه كان قبله زمان ولأن أباه وأمه كانا قبله ولأنه مولود من امرأة" (١).

ولا يشترط للتواتر عدد معين كما زعم أبو الهذيل وغيره ، بل الحق ما ذكره والد شيخ الإسلام (٢) في قوله : "ولا يعتبر في التواتر عدد محصور ، بل يعتبر ما يفيد العلم على حسب العادة في سكون النفس إليهم وعدم تأني التواطؤ على الكذب منهم ، إما لفرط كثرتهم ، وإما لصلاحهم ودينهم ونحو ذلك" (٣).

لذا لم تتفق كلمة العلماء في شرط عدد معين لنقله التواتر . وسلفنا الصالح رحمهم الله لم يتوقفوا في قبول الحديث المتواتر والاحتجاج به في جميع أبواب الدين من عقائد وأحكام وغير ذلك ، بل لم يبحشوا في إسناده ومتمنه لأنه ليس موضعاً للبحث والتنقيب ، بل يضطر المرء إلى قبوله اضطراراً . وهذا موقف نابع عنه طائفة الاعتزال فإنهم ردوا كثيراً من الأحاديث المتواترة وأنكروها كالأحاديث الواردة في عذاب القبر والشفاعة ورؤية الرب سبحانه وتكليمه عباده يوم القيامة وغير ذلك (٤) ، والتي سلمت عندهم من الرد لم تسلم من التحريف والتأويل كما سيتبين من ثنايا البحث.

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١٠٤/١ .

(٢) هو عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني شهاب الدين أبو المحاسن وأبو أحمد ، ولد بجران سنة ٦٢٧هـ . سمع من والده وغيره ، وكان من أعيان الحنابلة ، عنده فضائل وفنون وياشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية ، وله تعاليق وفوائد ، وصنف في علوم عديدة ، توفي بدمشق سنة ٦٨٢هـ .

انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٣١٠/٢ ، ٣١١ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١٣ .

(٣) المسودة في أصول الفقه ص ٢٣٥ .

(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٧٠ .

٣ - حديث الآحاد :

(أ) تعريفه وأنه لا يعد من السنة .

تناول الإمام ابن حزم رحمه الله أوجه النقل عند المسلمين ، فبين نقلهم لكتاب ربهم ، وذكر أنه ليس عند اليهود ولا عند النصارى في هذا النقل شيء أصلاً ، ثم تعرض لنقل الحديث المتواتر الذى نقلته كافة عن مثلها حتى يبلغ الأمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس عند اليهود والنصارى كذلك من هذا النقل شيء أصلاً . ثم قال :

"والثالث ما نقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبى صلى الله عليه وسلم يخبر كل واحد منهم باسم الذى أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان على أن أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقول نقل الكواف إما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وإما إلى الصاحب وإما إلى التابع وإما إلى إمام أخذ من التابع ، يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن . والحمد لله رب العالمين . وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها وأبقاه عندهم غرضاً جديداً على قديم الدهور منذ أربعمئة عام وخمسين عاماً فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال يرحل فى طلبه من لا يحصى عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة ويواظب على تقييده من كان الناقد قريباً منه قد تولى الله تعالى حفظه عليهم . والحمد لله رب العالمين . فلاتفوتهم زلة فى كلمة فما فوقها فى شيء من النقل إن وقعت لأحدهم ولا يمكن لفاسق أن يقحم فيه كلمة موضوعة ولله تعالى الشكر" (١).

وقد عني ابن حزم رحمه الله بنقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ إلى النبى صلى الله عليه وسلم حديث الآحاد الذى وقف منه المعتزلة ذلك الموقف المشين . وأوردوا الشبه من حوله .

وماعرفوه به لم يكن هو التعريف الذى عرفه به علماء الحديث رحمهم الله ، وارتضوه .

فخير الآحاد عند علماء الحديث هو ما رواه واحد أو أكثر ولم يجمع شروط المتواتر (١).

وأما أهل الاعتزال إنما عرفوه بذلك التعريف الخاطئ لكى يتسنى لهم رده والقدح فيه وعدم الاحتجاج به ، وحتى يسقطوا بذلك جملة عظيمة من الأحاديث الصحيحة التى تعارض ما ابتدعوه فى دين الله عز وجل من بدع برىء منها الإسلام .

وأما قولهم إنه لا يعد من السنة فقد سبق أن بينت أن السنة ترادف الحديث عند المحدثين ، والحديث يشمل أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته (٢)، وحديث الآحاد لا يخرج عن ذلك .

(ب) زعمهم أنه لا يحتج به مطلقا فى أمور الدين .

هذا زعم واه ، وقول مناف للحق والصواب ، ولعل المعتزلة جهلوا أو تناسوا أن خبر الآحاد أصل من أصول الدين وليس سائر الأصول أولى بالقبول منه (٣).

ولو ترك الاحتجاج به لتهافت أركان الشريعة الإسلامية ، واندثر الحق وغاب الهدى ، وأصبح للباطل صولته ، وللضلال سلطته .

والأدلة شاهدة من كتاب الله عز وجل وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقوال السلف ، بل وإجماعهم على الاحتجاج ، وقبول الاستدلال به ، وهى كثيرة لا تحصى .

وسوف نورد منها ما يناسب المقام ، ويتضح به السبيل ، وتستبين به الحجة .

(١) انظر : شرح نخبه الفكر ص ١٩ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٢٢ ، أصول الحديث ص ٣٠٢ .

(٢) انظر ص ٧٠٦ .

(٣) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١/ ١١٧ .

أولاً : القرآن الكريم .

(١) قال تعالى :

{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}{(١)} .

أورد الإمام البخارى رحمه الله هذه الآية في ترجمة أول باب من كتاب أخبار الآحاد ليدلل بها على جواز العمل به والقول بأنه حجة (٢) . ولفظ "طائفة" في الآية يتناول الواحد فما فوقه ولا يختص بعدد معين . وذلك منقول عن ابن عباس وغيره (٣) .

فقد أوجب الله بهذه الآية على كل فرقة أن تقبل نذارة النافر منها في تبليغهم الدين ، وحذرها من مخالفته ، ولو كان النافر واحداً (٤) .
(٢) قوله تعالى :

{ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} . في قراءة أخرى "فتثبتوا" (٥) .

ففى الآية دلالة على أن العدل إذا جاء بخبر فالحجة قائمة بخبره ، ولا يلزم التثبت فيه ، بل يجب قبوله في الحال . أما إن كان فاسقاً فقد أمرنا بالتثبت في خبره (٦) . وكذلك إذا جهلنا حاله .
(٣) قوله تعالى :

{ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك}{(٧)} .

(١) سورة التوبة : آية ١٢٢

(٢) انظر : صحيح البخارى ١٣٢/٤ ، فتح البارى ٢٣٣/١٣ .

(٣) انظر المرجع السابق ٢٣٤/١٣ .

(٤) انظر : الإحكام لابن حزم ١١٢، ١٠٩/١ ، مختصر الصواعق المرسله ص ٤٩٧ .

(٥) سورة الحجرات : آية ٦ . وانظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى أبى طالب ٣٩٤/١ ، النشر في القراءات العشر لابن الجزرى ٢٥١/٢ .

(٦) انظر : الإحكام في أصول الأحكام ١١١/١ ، مختصر الصواعق المرسله ص ٤٩٦ ، فتح البارى ٢٣٤/١٣ ، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ص ٥٠ .

(٧) سورة المائدة : آية ٦٧

فقد أمر صلى الله عليه وسلم بتبليغ الدين للناس كافة ، فلو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة إلى الكل ضرورة ولتعذر خطاب الجميع مشافهة ، وتعذر إرسال عدد التواتر إليهم^(١) ، والتبليغ باق إلى يوم القيامة ، والحجة قائمة به^(٢).

ثانيا : السنة النبوية .

(١) عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
"نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ... " الحديث^(٣).

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

"فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها إمرأاً يؤديها والإمرأ واحد . دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه ، لأنه إنما يؤدي عن حلال ، وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة في دين ودنيا"^(٤).

(٢) روى البخارى بسنده إلى عبد الله بن عمر قال :

"بيننا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة"^(٥).

(١) انظر : فتح الباري ٢٣٥/١٣ .

(٢) انظر : الأحكام في أصول الأحكام ١٢٤/١-١٢٥-١٢٨-١٣١ .

(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ١٢

(٤) الرسالة ص ٤٠٢-٤٠٣ . وانظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٥٠١ .

(٥) صحيح البخارى ، في كتاب الصلاة (٨) ، باب ماجاء في القبلة (٣٢) ، ١٠٥/١ .

وأخرجه بالفاظ مقاربة في كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة البقرة (٢) ، باب {وماجعلنا القبلة التي كنت عليها} الآية (١٤) ، وباب {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب} الآية (١٦) ، وباب {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه} الآية (١٧) ، وباب {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام} الآية (١٩)، (٢٠) ،

والحجة في هذا الحديث بينة ظاهرة ، فإن أهل قباء كانوا على قبلة فرض الله عليهم التوجه لها ، وهى بيت المقدس ، فتحولوا عنها بخير الذى قال لهم إن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يستقبل الكعبة ، فلو لم تكن الحجة قائمة بخبره ماتركوا القبلة التى كانوا عليها ، وهى فرض عليهم (١).

(٣) وروى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

"كنت أسقى أبا طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شراباً من فضيخ وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : يا أنس ، قم إلى هذه الجرار فاكسرها . قال أنس : فقممت إلى مھراس (٢) لنا فضربتھا بأسفلھ حتى انكسرت" (٣).

فأبو طلحة ومن معه قبلوا خبر المخبر لهم وهو واحد ، فى تحريم ماكان حلالاً عندهم ، وأكد أبو طلحة ذلك بإتلاف الجرار وهى مال ، وإراقة الخمر وهى سرف ، فلو لم يكن الخبر عندهم حجة لما أقدم على ذلك (٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

= وأخرجه فى كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى إجازة خير الواحد (١) ، ١٣٤-١٣٣/٨ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد (٥) ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٢) برقم ٥٢٦ ، ٣٧٥/١ .

(١) انظر : الرسالة ص ٤٠٧ ، مختصر الصواعق المرسله ص ٤٩٦ ، فتح البارى ٢٣٧/١٣

(٢) المھراس : صخرة أو حجر منقور كالخوض ، يسع كثيراً من الماء ، يتوضأ فيه ، ولايقدر على تحريكه .

انظر : الفائق ١٠٢/٤ ، النهاية فى غريب الحديث ٢٥٩/٥ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى اجازة خير الواحد (١) ، ١٣٤/٨ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى كتاب الأشربة (٣٦) ، باب تحريم الخمر (١) برقم ١٩٨٠ ، ١٥٧٢/٣ .

(٤) انظر : الرسالة ص ٤١٠ ، مختصر الصواعق المرسله ص ٥٠٢ .

"وإن من جملة ماورد في بعض طرقه "فوالله ماسألوا عنها ولاراجعوها بعد خبر الرجل" (١) وهو حجة قوية في قبول خبر الواحد لأنهم أثبتوا به نسخ الشيء الذي كان مباحاً حتى أقدموا من أجله على تحريمه والعمل بمقتضى ذلك" (٢).

(٤) وروى بسنده إلى مالك بن الحويرث قال :

"أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شعبة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا - أو قد اشتقنا - سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال : ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها ولاأحفظها - وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم" (٣).

(١) أخرج هذه الرواية مسلم في صحيحه . ولفظ الحديث :

قال عبد العزيز بن صهيب : سألوا أنس بن مالك عن الفضيخ؟ فقال : "وما كانت لناخمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ . إني لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا . إذ جاء رجل فقال : هل بلغكم الخبر؟ قلنا : لا . قال : فإن الخمر قد حرمت . فقال : يأنس أرق هذه القلال . قال : فما راجعوها ولاسألوا عنها ، بعد خبر الرجل * . في الكتاب والباب السابقين ١٥٧١/٣ .

(٢) فتح الباري ٢٣٨/١٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء في إجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٢/٨ - ١٣٣ .

وأخرج نحوه في كتاب الأذان (١٠) ، باب من قال ليؤذن في السفر مؤذن واحد (١٧) ، ١٥٤-١٥٥ ، وفي باب الأذان للمسافر (١٨) ١٥٥/١ ، وفي باب اثنان فما فوقهما جماعة (٣٥) ، ١٦٠/١ ، وفي باب إذا استووا في القراءة فليؤمهم أكبرهم (٤٩) ، ١٦٧/١ ، وفي باب المكث بين السجدين (١٤٠) ، ١٩٩/١ .

وفي كتاب الجهاد (٥٦) ، باب سفر الاثنين (٤٢) ، ٢١٥/٣ .

وبلفظ مقارب في كتاب الأدب (٧٨) ، باب رحمة الناس بالبهايم (٢٧) ، ٧٧/٧ ، وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب في كتاب المساجد (٥) ، باب من أحق بالإمامة (٥٣) برقم ٦٧٤ ، ٤٦٥-٤٦٦ .

فقد أمر صلى الله عليه وسلم كل واحد من هؤلاء الشبهة أن يعلم أهله وأن يأمرهم بشرائع الإسلام التي علمهم إياها ، فلو أن خبر الآحاد لا تقوم به حجة ما كان لهذا الأمر من معنى (١).

(٥) روى الشافعى بسنده إلى عطاء بن يسار :

" أن رجلاً قبل امرأته وهو صائم ، فوجد من ذلك وجداً شديداً ، فأرسل امرأته تسأل عن ذلك ، فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين ، فأخبرتها فقالت أم سلمة : إن رسول الله يقبل وهو صائم . فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شراً وقال : لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما شاء . فرجعت المرأة إلى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها فقال رسول الله : ما بال هذه المرأة ، فأخبرته أم سلمة ، فقال : ألا أخبرتها أنى أفعل ذلك ؟ فقالت أم سلمة : قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شراً ، وقال : لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما يشاء ، فغضب رسول الله ، ثم قال : "والله إني لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده" .

قال الشافعى رحمه الله بعد إيراد الحديث :

"في ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : "ألا أخبرتها أنى أفعل ذلك" دلالة على أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله ، لأنه لا يأمرها بأن تخبر عن النبي إلا وفي خبرها ما تكون الحجة لمن أخبرته ، وهكذا خبر امرأته إن كانت من أهل الصدق عنده" (٢).

(١) انظر : الحديث حجة بنفسه ص ٥٢ .

(٢) الرسالة ص ٤٠٤-٤٠٦ ، ورقم الحديث ١١٠٩ .

والحديث أخرجه مالك في الموطأ بلفظ مقارب مرسلًا في كتاب الصيام (١٨) ، باب ماجاء في الرخصة في القبلة للصائم (٥) ورقم ١٣ ، ٢٩١/١-٢٩٢ . وأخرج عبد الرزاق في مصنفه نحوه مرسلًا باب القبلة للصائم برقم ٨٤١٢ ، ١٨٤/٤ .

وقد صحح الحافظ ابن حجر إسناده عبد الرزاق . انظر فتح الباري ١٥١/٤ . وأخرج نحوه الإمام أحمد في المسند من طريق عبد الرزاق ٤٣٤/٥ . قال الهيثمي "رجال أحمد رجال الصحيح" . مجمع الزوائد ١٧٠/٣ . وقال الشيخ أحمد محمد شاكر : "وهو كما قال" . الرسالة ص ٤٠٥ الهامش .

والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصر . وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله إلى ملوك الأرض المجاورين لبلاد العرب وكانوا آحاداً وأمرهم بتعليم من أسلم شرائع الدين وألزم كل ملك بقبول ما أخبره به الرسول كما بعث كثيراً من أصحابه إلى جهات متعددة ليعلموا الناس وليقيموا شعائر الإسلام . فبعث معاذاً إلى اليمن ، وأباموسى إلى زبيد ، وأبا بكر على موسم الحج ، وأتبعه بعلى ، وبعث علياً قاضياً إلى اليمن ، وأبا عبيدة إلى نجران ، وبعث أميراً إلى كل جهة أسلمت ، وبعث إلى كل طائفة معلماً يعلمهم دينهم ، ويبلغهم أحكام الشرع ، وكانت الحجة قائمة بتبليغ كل واحد من هؤلاء على من بلغهم ، وهم ملزمون بقبول ما أمرهم به (١).

قال الشافعى رحمه الله :

"ولم يكن رسول الله ليبعث إلا واحداً الحجة قائمة بخبره على من بعثه إليه ، إن شاء الله" (٢).

وقال الحافظ :

"وهو استدلال قوى لثبوت خبر الواحد من فعله صلى الله عليه وسلم لأن خبر الواحد لو لم يكن قبوله ما كان في إرساله معنى" (٣).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتى بالفتيا ويحكم بالحكم لمن حضره من أصحابه ، وإن الحجة قائمة على سائر من لم يحضره بنقل من حضره وهو واحد واثنان وأكثر (٤).

(١) انظر : الرسالة ص ٤١٣ فما بعدها ، الأحكام في أصول الأحكام ١١٠/١ ، خبر

الواحد وحجيته ص ١١٠ .

(٢) الرسالة ص ٤١٥ .

(٣) فتح البارى ٢٣٤/١٣ .

(٤) انظر : الأحكام في أصول الأحكام ١١٤/١ .

وقد أجمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم وسلف الأمة بل والأمة بأسرها على قبول خبر الواحد الثقة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى حدث متكلموا المعتزلة بعد المائة فخالفوا الإجماع (١). وقد نقل جماعة من العلماء هذا الإجماع (٢).

وأما ماأثاره أهل الاعتزال من شبه اعتقدوا أنها تدل على عدم قبول خبر الواحد ، فهي شبه واهية لا تؤيد مذهبوا إليه ، والإجابة عنها واضحة جلية .

فتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في خبر ذى اليدين لظنه خلاف ماأخبر به ، واستبعد انفراده بمعرفة ذلك دون من حضره من الجمع الغفير ، ولذا قال له : «لم أنس ولم تقصر الصلاة» وهذا في ظنه صلى الله عليه وسلم ، ولايكلف الإنسان بقبول خبر مع ظنه عدم صدقه ، فلما وافقه غيره ارتفع الوهم عنه ، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجب خبره (٣).

وتوقف أبى بكر رضى الله عنه في خبر المغيرة في ميراث الجدة لم يكن منه ردأ لخبر الآحاد ، وإنما قصد الاستظهار بشهادة غيره معه ، وذلك لزيادة الثبوت والاحتياط ، فلما شهد محمد بن مسلمة أنه سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم لم يتردد أبوبكر رضى الله عنه في العمل بخبر المغيرة (٤). وشهادة محمد بن مسلمة لم ترفع الخبر عن كونه خبر آحاد .

(١) انظر : المرجع السابق ١/١١٣-١١٤ .

(٢) انظر : الرسالة ص ٤٥٣ ، المسودة ص ٢٣٨ ، فتح البارى ١٣/٢٣٤ ، إرشاد الفحول ص ٤٩ .

(٣) انظر : فتح البارى ١٣/٢٣٧ ، السنة ومكائنها في التشريع الإسلامى ص ١٧٠ ، حديث الآحاد وحجيته ص ١٠٨-١٠٩ .

والحديث سبق تخريجه . انظر ص : ٩٥ ، ٩٦

(٤) انظر : تدريب الراوى ١/٧٣ ، السنة ومكائنها في التشريع ص ١٧٠ ، حديث الآحاد وحجيته ص ١٠٩ .

والخبر سبق تخريجه . انظر ص : ٩٦

وقد قبل أبو بكر خبر عائشة في قدر كفن النبي صلى الله عليه وسلم (١).

وأما عمر رضى الله عنه فإن أبا موسى أخبره بالحديث عقب إنكاره عليه فأراد عمر التثبت والاحتياط سداً للذريعة لئلا يكون الناس كلما توجه لأحدهم لوم وضع حديثاً يرفع به اللوم عن نفسه ، ولذا قال عمر رضى الله عنه لأبي موسى : "أما إني لم أتهمك ، ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله" (٢)(٣). وتعزيد أبي سعيد لأبي موسى لا يخرج الحديث عن دائرة حديث الآحاد (٤).

وقد قبل عمر رضى الله عنه خبر الضحاك بن سفيان في "تورث المرأة من دية زوجها" (٥).

(١) روى البخارى بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على أبي بكر رضى الله عنه فقال : في كم كفنتم النبي صلى الله عليه وسلم؟ قالت : في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة ... الحديث .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب موت يوم الاثنين (٩٤) ، ١٠٦/٢ . هذه الرواية أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب ، باب كيف الاستئذان برقم ٥١٨٤ ، ٣٤٧/٤ .

(٣) قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "صحيح الإسناد" . صحيح سنن أبي داود ٩٧٤/٣ وأخرجها مالك في الموطأ ، كتاب الاستئذان (٥٤) ، باب الاستئذان (١) ، ٩٦٤/٢ . انظر : الرسالة ص ٤٣٤-٤٣٥ ، فتح البارى ٢٣٥/١٣ ، تدريب الراوى ٧٣/١ ، السنة ومكانتها في التشريع ص ١٧٠-١٧١ ، حديث الآحاد وحجته ص ١٠٩ .

(٤) انظر : فتح البارى ٢٣٥/١٣ ، السنة ومكانتها في التشريع ص ١٧١ .

(٥) روى أبوداود بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : كان عمر بن الخطاب يقول : "الدية للعاقلة ، ولاترث المرأة من دية زوجها شيئاً" ، حتى قال له الضحاك بن سفيان : "كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها" ، فرجع عمر .

سنن أبي داود ، كتاب الفرائض ، باب في المرأة ترث من دية زوجها برقم ٢٩٢٧ . ١٣٠-١٢٩/٣ .

قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "صحيح" . صحيح سنن أبي داود ٥٦٥/٢ =

وقبل خبر عبد الرحمن بن عوف في "أمر الطاعون" (١)، وقبل غير ذلك من أخبار الآحاد (٢).

فالصحابة رضوان الله عليهم لم يتوقفوا في الاحتجاج بخبر الآحاد والعمل به ، بل أجمعوا على قبوله كما سبق ، وتوقف بعضهم أحيانا لبعض الأسباب ، ليس توقفا عن العمل به .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله :

"وعلى الجملة فلم يأت من خالف في العمل بخبر الواحد بشيء يصلح للتمسك به ، ومن تتبع عمل الصحابة من الخلفاء وغيرهم وعمل التابعين فتابعيهم بأخبار الآحاد وجد ذلك في غاية الكثرة بحيث لا يتسع له إلا مصنف

= وأخرج نحوه الترمذى في سننه في كتاب الديات (١٤) ، باب ماجاء في المرأة هل ترث من دية زوجها (١٩) ، برقم ١٤١٥ .

وقال : "هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم" ١٩/٤ . وفي كتاب الفرائض (٣٠) ، باب ماجاء في ميراث المرأة من دية زوجها (١٨) برقم ٢١١٠ ، ٣٧١/٤ .

وابن ماجه في كتاب الديات (٢١) ، باب الميراث من الدية (١٢) برقم ٢٦٤٢ ، ٨٨٣/٢ .

وأحمد في المسند ٤/٤٥٢ .

(١) روى مسلم بسنده إلى عبيد الله بن عامر بن ربيعة أن عمر خرج إلى الشام . فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام . فأخبره عبد الرحمن بن عوف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه . وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" فرجع عمر بن الخطاب من سرغ . وعن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله ، أن عمر إنما انصرف بالناس من حديث عبد الرحمن بن عوف .

صحيح مسلم ، كتاب السلام (٣٩) ، باب الطاعون (٣٢) ، ١٧٤٢/٤ .

والحديث أخرجه البخارى في صحيحه مطولاً من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، كتاب الطب (٧٦) ، باب ما يذكر في الطاعون (٣٠) ، ٢١/٧ .

وأخرجه مسلم كذلك عن ابن عباس ، في الكتاب والباب السابقين برقم ٢٢١٩ ، ١٧٤٠/٤-١٧٤١ .

(٢) انظر : فتح البارى ١٣/٢٣٥ .

بسيط ، وإذا وقع من بعضهم التردد في العمل به في بعض الأحوال فذلك لأسباب خارجة عن كونه خبر واحد من رتبة في الصحة أو تهمة للراوى أو وجود معارض راجح أو نحو ذلك" (١).

والإمام الشافعى رحمه الله يضع لنا القاعدة الصحيحة في قبول الأخبار وردّها فيقول :

"فلا يجوز عندى على عالم أن يثبت خبر واحد كثيراً ويحل به ويحرم ويرد مثله إلا من جهة أن يكون عنده حديث يخالفه ، أو يكون ماسمعه ومن سمع منه أو وثق عنده ممن حدثه خلافه ، أو يكون ممن حدثه ليس بحافظ ، أو يكون متهماً عنده ، أو يتهم من فوقه ممن حدثه ، أو يكون الحديث محتملاً لمعنيين ، فيتأول فيذهب إلى أحدها دون الآخر ... فإن لم يسلك واحداً من هذه السبل فيعذر ببعضها ، فقد أخطأ خطأ لا عذر فيه عندنا والله أعلم" (٢).

فالشافعى لم يورد فيما ذكر رد الحديث بكونه آحاداً ، أو رده بالعقل ، بل اعتبر ذلك من الخطأ الذى لا يعذر فيه صاحبه .

وأما امتناعهم عن روايته والاحتجاج به بعلّة أنه قد يقع فيه الكذب والخطأ والسهو والنسيان والتغيير والتبديل ، فذلك زعم واه وحجة داحضة يمكن أن يجاب عنها بعدة أوجه :

الأول : لا يجوز أن يكون الخبر الذى تعبد الله به الأمة ، وتعرف به إليهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كذباً وباطلاً ، لأنه من حجج الله على عباده ، وحجج الله لا يمكن أن تكون كذباً أو باطلاً (٣).

وقد قال سبحانه : {هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} (٤)

(١) إرشاد الفحول ص ٤٩ .

(٢) الرسالة ص ٤٥٨-٤٥٩ .

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٧٩ .

(٤) سورة الفتح : آية ٢٨ ، سورة الصف : آية ٩

فلا بد أن يحفظ الله حججه وبياناته لئلا تبطل تلك الحجج والبيانات (١).

الثاني : لا يمكن أن يختلط الحق بالباطل ولا يتميز ، فالفرق بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ووحى الملك ووحى الشيطان أظهر من أن يشتبه أحدهما بالآخر ، بل الفرق بينهما كما بين الليل والنهار ، والضوء والظلام ، ولكن إنما يعرف ذلك من كان له عناية بمحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته .

وأما الذين عميت بصائرهم وأبصارهم فليس بمستنكر أن يشتبه عليهم الحق والباطل كما اشتبه عليهم الليل والنهار ، فقد جعل الله للحق نوراً كنور الشمس يظهر للبصائر المستنيرة ، وألبس الباطل ظلمة كظلمة الليل . قال معاذ بن جبل رضى الله عنه :

"تلق الحق ممن قاله ، فإن على الحق نوراً" (٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

"لما أظلمت القلوب وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال ، التبس عليها الحق بالباطل ، فجوزت على أحاديثه الصحيحة التي رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذباً ، وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلقة التي توافق أهواءها أن تكون صدقاً فاحتجت بها" (٣).

الثالث : لقد تكفل رب العالمين بحفظ دينه كله ، وإظهاره على الأديان كافة ، ولذلك فضح الله من كذب على رسوله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته .

(١) انظر : المرجع السابق ص ٤٨٤ ، شرح الطحاوية ص ٣٥٥ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٧٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٧٩ .

قال سفيان بن عيينة^(١): "ماستر الله أحداً يكذب في الحديث".
وقال عبد الله بن المبارك: "لو هم رجل أن يكذب في الحديث
لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب"^(٢).

ولذا كشف لنا جهابذة الحديث ونقاده عن أسماء الكذابين وفضحوهم
وأخرجوا الأحاديث المكذوبة وبينوها، وألفت الكتب في ذلك، فلا يعجز
طالب للحق أن يقف على حكم أى حديث ليعرف درجته من الصحة أو
الضعف أو الوضع.

الرابع: لا يمكن لأحد أن يدعى أن رواة الحديث معصومون عن الخطأ
أو الغلط أو السهو، ولكن متى وقع ذلك فلا بد أن يعرف ويبان، وأن
يقام دليل على بيانه^(٣).

وقد هيا الله لذلك علماء الحديث وجهابذة النقاد الذين ينخلون
الأحاديث نخلاً، ويكشفون مابها من خطأ وسهو وزلة، قاصدين بذلك وجه
الله والدار الآخرة، وحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن
تشوبها شائبة أو تكدرها كدرة.

(١) سفيان بن عيينة:

هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولا هم، أبو محمد، الكوفي
ثم المكي، الأعور، أحد الأعلام، ثقة حافظ فقيه إمام حجة، إلا أنه تغير
حفظه بآخرة، وربما دلس ولكن عن الثقات.

روى عن الزهري وعمر بن دينار وكان أثبت الناس فيه، وعنه أحمد، ومن
شيوخه الأعمش وابن جريج. مات في رجب سنة ١٩٨هـ.

انظر: الجرح والتعديل ٢٢٥/٤-٢٢٧، الكاشف ٣٧٩/١، تقريب التهذيب
٣١٢/١.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٨٥، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٥٦، ٣٥٥.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ص ٥٠١، ٥٠٠.

(ج) زعمهم أنه لا يحتج به إذا خالف العقل :

سبق أن بينا في التمهيد^(١) أن الحديث الصحيح لا يخالف العقل الصريح بحال من الأحوال ، ومتى ما وقعت مخالفة بين نص وعقل ، فيأمر أن يكون النص غير صحيح أو أن يكون العقل واهماً فيما ذهب إليه خطأ فيما ظنه ، وحينئذ يصبح معارض النص عبارة عن شبه وأوهام لاحقيقة لها من الصحة فلا يرد النص بسببها .

(د) زعمهم بأن خبر الآحاد لا يحتج به في العقيدة لأن الاعتقاد يبنى على اليقين لا الظن وخبر الآحاد يفيد الظن .
وفرقوا بين الاعتقاد والعمل في الاستدلال به .
فانه يجاب عليهم في ذلك بعدة أوجه :

أولاً : الأدلة من الكتاب والسنة جاءت على العموم والإطلاق في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والنهي عن عصيانه ، وذلك يشمل العقيدة والأحكام ، فلا استثناء للعقيدة ، فهي داخلة في العموم ، وتخصيص الأحكام دونها تخصيص بدون مخصص وهو باطل . من تلك الأدلة قوله تعالى :
{وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}^(٢) . فقوله "أمراً" يشمل كل أمر سواء كان في العقيدة أو الأحكام .

وقوله تعالى : {وما آتاكم الرسول فخذوه}^(٣) ، هو أيضاً على عمومته^(٤) .

وقوله سبحانه : {وما كان المؤمنون لينفروا كافة ... الآية}^(٥) .

(١) انظر ص : ٣١ فما بعدها

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٦

(٣) سورة الحشر : آية ٧

(٤) انظر : الحديث حجة بنفسه ص ٤٦ .

(٥) سورة التوبة : آية ١٢٢

نصت الآية على تعلم الدين ، وذلك ليس خاصاً بالأحكام بل هو يشملها ويشمل العقيدة ، بل هي الأهم ، ولولا أن الحجة تقوم بحديث الآحاد في العقائد والأحكام ماحض الله الطائفة على التبليغ حضاً عاماً معللاً بإياه بقوله "لعلهم يحذرون" الصريح في أن العلم يحصل بإنذار الطائفة . فالآية نص في أن خبر الواحد حجة في التبليغ عقيدة وأحكاماً^(١).

ومثل الآية حديث معاذ رضى الله عنه عندما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وأمره بأن يدعوهم في أول ما يدعوههم إليه "أن يوحدوا الله" وهو من أقوى الحجج في أن حديث الآحاد حجة في العقائد والأحكام^(٢).

ثانياً : إن الاحتجاج به في العقائد والأحكام هو الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام لا خلاف في ذلك^(٣). بل لم يزل الصحابة والتابعون ومن تبعهم وأهل السنة على الاحتجاج به في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام ولم ينقل عن أحدهم خلاف في ذلك^(٤).

وأهل الحديث لا يفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث العقائد، ولا يعرفه أيضاً أحد من الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم ولا عن أحد من أئمة الإسلام ، وإنما يعرف ذلك عن أهل البدع ومن تبعهم^(٥). بل الإجماع منعقد على وجوب الأخذ به في العقائد والأحكام قبل الخلاف في المسألة^(٦).
ثالثاً : التفريق بين العقائد والأحكام تفريق بين أمرين متلازمين لأن العقيدة تتضمن حكماً ، والحكم يتضمن عقيدة ، بل التفريق في ذلك أمر

(١) انظر : المرجع السابق ص ٥٠، ٤٩ .

(٢) انظر : الأدلة والشواهد ص ٤٥، ٤٤ ، والحديث سبق تخريجه انظر ص : ٨٢

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٥٠٩ ، أصول الفقه وابن تيمية ص ٥٦٥ .

(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٥٢٥ .

(٦) انظر : لوامع الأنوار ١/ ١٩ ، الأدلة والشواهد ص ٧٩ .

مبتدع حادث لادليل عليه البتة (١). بل هو فلسفة دخيلة على الإسلام لاعهد لسلف هذه الأمة بها (٢).

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله :

"وبهذا تعلم أن ماأطبق عليه أهل الكلام ومن تبعهم أن أخبار الآحاد لاتقبل فى العقائد ولايثبت بها شىء من صفات الله زاعمين أن أخبار الآحاد لاتفيد اليقين وأن العقائد لابد فيها من اليقين باطل لايعول عليه . ويكفى من ظهور بطلانه أنه يستلزم رد الروايات الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم بمجرد تحكيم العقل" (٣).

رابعاً : القول بأن "حديث الآحاد لاتثبت به عقيدة ، هو قول فى حد ذاته عقيدة ، فما الدليل على صحته؟" بل هو مجرد دعوى لأساس لها . ومثله يرد فى الأحكام دعك عن العقيدة (٤).

وهذا قول يحمل بين طياته مؤامرة تسعى للنيل من عقائد الإسلام الحقة التى حملها سلف هذه الأمة ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً ، بل والفتك بها بحجة أنها أسست على شفا جرف هار من الظن والتخمين ، والظن لايعنى من الحق شيئاً (٥).

والظن المعاب هنا هو الذى بمعنى الشك والحرص والتخمين ، وهذا لايؤخذ به فى الأحكام فكيف يؤخذ به فى العقائد ، وهو الذى نعه الله على المشركين بقوله : {إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون} (٦). وبقوله : {إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس} (٧).

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٥١٥، ٥١٦، ٥٢٥ ، الأدلة والشواهد ص ٤٥-٤٦، ٨٩

(٢) انظر : الحديث حجة بنفسه ص ٥٥، ٤٨ .

(٣) مذكرة أصول الفقه ص ١٠٥ .

(٤) انظر : الحديث حجة بنفسه ص ٤٩ .

(٥) انظر : الأدلة والشواهد ص ٤ .

(٦) سورة الأنعام : آية ١١٦ ، سورة يونس : آية ٦٦

(٧) سورة النجم : آية ٢٣

فالله أنكره عليهم إنكاراً مطلقاً لم يخصه بعقيدة دون حكم ، بل قد صرحت بعض الآيات بأن الإنكار يشمل القول به في الأحكام أيضاً ، وذلك في قوله سبحانه : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا - فهذا عقيدة - ولا حرماً من شيء - وهذا حكم - كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} (١).

وأما الظن الذى تفيده أحاديث الآحاد-على قول من يقول بذلك-إنما هو الظن الراجح لا المرجوح الذى عابه الله على المشركين لأنه مبنى على اتباع الهوى والحرص والتخمين فهو أولى بالذم . وأما الراجح فقد مدحه الله فى أكثر من آية . كقوله سبحانه : {إني ظننت أنى ملاق حسابه . فهو فى عيشة راضية} (٢) ، وقوله فى وصف المؤمنين : {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون} (٣).

ومن هنا يتضح خطأ أهل الاعتزال الذين فسروا الظن الذى تفيده أحاديث الآحاد بظن المشركين ، وهو زعم لا دليل عليه (٤).

والقول بأن أحاديث الآحاد تفيد الظن ليس موضع اتفاق بين العلماء بل الخلاف بينهم قائم فى ذلك ، فجمهور الأصوليين على أنه يفيد الظن ، وذهب جمهور أهل الحديث وأهل الظاهر وجماعة من العلماء على أنه يفيد العلم اليقيني ، وذهب جماعة آخرون على أنه يفيد العلم إذا احتف بالقرائن (٥).

(١) انظر : الحديث حجة بنفسه ص ٤٧ ، الأدلة والشواهد ص ١٦ .

والآية هى ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) سورة الحاقة : آية ٢٠ ، ٢١ .

(٣) سورة البقرة : آية ٤٦ .

(٤) انظر : الأدلة والشواهد ص ٢٢ .

(٥) انظر : مذكرة أصول الفقه ص ١٠٣ ، الباعث الحثيث ص ٣٥-٣٧ ، خبر الواحد

وحجيته ص ٩٢ ، ٧٣ .

والذى يترجح من أقوال العلماء وتطمئن له النفس أن حديث الآحاد متى ثبتت روايته ولم يكن فيه طعن فإنه يفيد العلم اليقيني^(١).
قال الشيخ ناصر حفظه الله :

"والحق الذى نراه ونعتقد أنه كل حديث آحادى صحيح تلقته الأمة بالقبول من غير نكير منها عليه ، أو طعن فيه ، فإنه يفيد العلم واليقين ، سواء كان فى الصحيحين أو فى غيرهما .

وأما ما تنازعت الأمة فيه ، فصححه بعض العلماء وضعفه آخرون فإنما يفيد عند من صححه الظن الغالب فحسب . والله أعلم"^(٢).
والأدلة السابقة فى وجوب العمل تدل دلالة واضحة على إفادته للعلم ، إذ العمل بموجبها فرع ثبوت العلم بها^(٣).
ويقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله :

"والحق الذى ترجحه الأدلة الصحيحة ماذهب إليه ابن حزم ومن قال بقوله ، من أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعى سواء كان فى أحد الصحيحين أم فى غيرهما . وهذا العلم اليقيني علم نظرى برهاني ، لا يحصل إلا للعالم المتبحر فى الحديث العارف بأحوال الرواة والعلل .

وهذا العلم اليقيني النظرى يبدو ظاهراً لكل من تبحر فى علم من العلوم ، وتيقنت نفسه بنظرياته ، واطمأن قلبه إليها . ودع عنك تفريق المتكلمين فى اصطلاحاتهم بين العلم والظن ، فإنما يريدون بهما معنى آخر غير ما نريد"^(٤).

(١) انظر : الأحكام فى أصول الأحكام ١/١٠٨، ١١٩ ، أصول الفقه وابن تيمية ٥٦١/٢-٥٦٢ .

(٢) الحديث حجة بنفسه ص ١٥ .

(٣) انظر : أصول الفقه وابن تيمية ٥٦٢/٢ .

(٤) الباعث الحثيث ص ٣٧ .

وأهل الاعتزال إذ زعموا أن أحاديث الآحاد لا تفيد علماً فإنما تحدثوا عن أنفسهم أنهم لم يستفيدوا منها ذلك ، فهم صادقون فيما أخبروا به عن أنفسهم ، وذلك لا يقدح في حصول العلم لغيرهم من أهل الحديث .
قال شيخ الإسلام رحمه الله :

"فإن ماتلقاه أهل الحديث وعلماءؤه بالقبول والتصديق فهو محصل للعلم مفيد لليقين ، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين ، فإن الاعتبار في الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به دون غيرهم ، كما لم يعتبر في الإجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها دون المتكلمين والنحاة والأطباء ، وكذلك لا يعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلمه ، وهم علماء أهل الحديث العالمون بأحوال نبيهم ، الضابطون لأقواله وأفعاله ، المعتنون بها أشد من عناية المقلدين بأقوال متبوعيههم" (١).

(هـ) ماذهب إليه الجبائي من اشتراط العدد في قبول الحديث يرد عليه بوجهين :

الأول : إن اشتراط العدد لقبول الحديث لم يصرح به أحد من المحدثين (٢).

الثاني : إن الجبائي قاس الرواية على الشهادة وهذا مذهب باطل بإجماع من يعتد به من العلماء (٣).

والفروق بين الرواية والشهادة فروق ظاهرة لا تخفى على أهل العلم ، من ذلك :

(١) الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالكذب على غيره ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

(١) مختصر الصواعق ص ٤٨٣-٤٨٤ ، وانظر ص ٤٧٢، ٤٨٦ .

(٢) انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح ٢٣٨/١ .

(٣) انظر : مذكرة أصول الفقه ص ١١١ .

- "إن كذباً على ليس ككذب على أحد" (١)، لأنه لو كذب عليه ولم يظهر لزم من ذلك إضلال الخلق ، وهذا بخلاف مايقع في خبر الشاهد.
- (٢) الخبر عنه صلى الله عليه وسلم لا بد من اشتراط الثقة في رواته (٢).
- (٣) إن الله تعالى تكفل بحفظ الدين ، ولم يتكفل بحفظ دمائنا وفروجنا وأبشارنا وأموالنا في الدنيا ، بل إن كثيراً من ذلك يؤخذ بغير وجه حق . كما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار" (٣).
- (٤) رواية المرأة كرواية الرجل وليس شهادتها كشهادته . ورواية النساء مقبولة في الدماء والحدود ونحو ذلك ولا تقبل شهادتهن في ذلك . والشهادة في الزنا لا بد فيها من أربعة بخلاف الرواية . إلى غير ذلك من الفوارق التي لانزاع فيها بين أهل العلم (٤).

- (١) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة في كتاب الجنائز (٢٣) ، باب ما يكره من النياحة على الميت (٣٤) ، ٨١/٢ .
- وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث المغيرة أيضاً في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، برقم ٤ ، ١٠/١ .
- (٢) انظر : الأدلة والشواهد ص ٨٠ .
- (٣) انظر : الإحكام في أصول الأحكام ١٣١/١-١٣٢ .
- والحديث أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أم سلمة ، كتاب الأحكام (٩٣) ، باب موعظة الإمام للخصوم (٢٠) ، ١١٢/٨ .
- وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب الشهادات (٥٢) ، باب من أقام البينة بعد اليمين (٢٧) ، ١٦٢/٣ .
- وفي كتاب الحيل (٩٠) ، باب (١٠) ، ٦٢/٨ .
- وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب الأقضية (٣٠) ، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة (٣) ، برقم ١٧١٣ ، ١٣٣٧/٣-١٣٣٨ .
- (٤) انظر : مذكرة أصول الفقه ص ١١١ ، وانظر إلى فوارق أخرى بين الرواية والشهادة في الرسالة للإمام الشافعى ص ٣٧٣ .

والذى دفع أهل الاعتزال إلى رد أخبار الآحاد وعدم الاحتجاج بها فى كثير من الأمور التى قرروها بعقولهم وجعلوها عقيدة يدينون الله بها ويوالون عليها ويعادون عليها . ذلك أن أخبار الآحاد تتعارض مع ماقرروه فى نظرياتهم العقدية تلك التى كانت من إفرازات عقولهم وشبهات أذهانهم . وسوف أتناول أبرز الأمور التى يتضح من خلالها موقفهم من حديث الآحاد .

(١) صفات الله تعالى .

إن أول من يذكر عنه أنه تكلم في صفات الله تعالى في الإسلام وابتدع القول بنفيها وتعطيلها هو الجعد بن درهم^(١)، ثم أخذ عنه ذلك تلميذه الجهم بن صفوان^(٢) الترمذى ، وتولى كبر نشر تلك المقالة فكثر أتباعه .

فلما ظهرت المعتزلة أخذت عن جهم قوله في نفى الصفات^(٣) .
وقد أجمع المعتزلة على نفى صفات الله تعالى الأزلية ، سواء منها ما كان من صفات الذات^(٤) ، أو صفات الأفعال^(٥) .

(١) الجعد بن درهم :

هو مؤدب مروان الحمار . من الموالي . يعد في التابعين . زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى ، وابتدع القول بخلق القرآن ، وكان زنديقاً . قتله خالد القسرى يوم النحر .

انظر : ميزان الاعتدال ٣٩٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٣٣/٥ ، البداية والنهاية ٣٥٠/٩ ، لسان الميزان ١٠٥/٢ ، الأعلام ١٢٠/٢ .

(٢) الجهم بن صفوان :

هو أبو محرز الراسبي ، مولاهم ، السمرقندى ، الكاتب المتكلم ، الضال المبتدع ، رأس الجهمية ، كان ينكر الصفات ، ويقول بخلق القرآن ، وإن الله في الأمكنة كلها ، والإيمان عقد بالقلب ، وإن تلفظ بالكفر . قتل بمرور في عام ١٢٨ هـ بعد أن زرع شرأعظيماً .

انظر : تاريخ الطبرى ٢٢٠/٧ ، الكامل في التاريخ ٣٤٢/٥ - ٣٤٤ ، ميزان الاعتدال ٤٢٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٢٦-٢٧ ، الأعلام ١٤١/٢ .

(٣) انظر : الملل والنحل ص ٨٦ مع الهامش ، جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامى ص ٧٢-٧٣ .

(٤) الصفات الذاتية :

هى الصفات الأزلية الثابتة لله تعالى التى لاتنفك عنه كصفة النفس والعلم والحياة والقدرة والسمع . انظر : الكواشف الجليلة ص ٤٢٩ .

(٥) الصفات الفعلية :

هى الصفات الثابتة لله تعالى التى تتعلق بالمشيئة والقدرة ، وهى قديمة النوع حادثة الآحاد كصفة الاستواء والتزول والضحك والمجىء .

انظر : الكواشف الجليلة ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

وزعموا بأنه ليس له سبحانه علم ، ولا قدرة ، ولا حياة ، ولا سمع ، ولا بصر ، ولا غير ذلك من الصفات (١).

واتفقوا على أن صفاته سبحانه هي إثبات لذاته (٢). كما اتفق جمهورهم على أن الله تعالى عالم ، قادر ، حي ، بذاته ، لا يعلم ، وقدرة ، وحياة ، هي صفات ومعاني قائمة به (٣).

وكانت هذه المقالة في مبدئها غير ناضجة ، وكان واصل بن عطاء (٤) يشرع فيها على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة (٥).

والذى دفعهم إلى نفى صفات الله تعالى ، الخوض في ذلك بعقولهم والاعتماد عليها في معرفة الله سبحانه وصفاته (٦).

ولذا شرطوا في إثبات الصفة لله أن تكون معقولة ليصح إثباتها لله تعالى ، لأن إيراد الدلالة على إثبات الشيء فرع على كونه معقولاً في نفسه (٧).

والاستدلال بالسمع على ذلك غير ممكن (٨).

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص ١١٤ ، في العقيدة الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٣) انظر المرجع نفسه ص ٣٩٩ .

(٤) واصل بن عطاء :

هو واصل بن عطاء الغزال ، أبو حذيفة ، مولى بني ضبة أو بني مخزوم ، ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة ، رأس المعتزلة ، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ، تنسب إليه الطائفة الواصلية . له تصانيف . منها : "أصناف المرجئة" ، "المنزلة بين المنزلتين" ، "معاني القرآن" . مات سنة ١٣١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١١٧/٦ ، ميزان الاعتدال ٣٢٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٥-٤٦٥ ، لسان الميزان ٢١٤/٦ ، شذرات الذهب ١٨٢/١ ، الأعلام ١٠٨/٨-١٠٩ .

(٥) انظر : الملل والنحل ٤٦/١ .

(٦) انظر : المحيط بالتكليف ص ٣٠-٣٣ ، ٣١ .

(٧) انظر المرجع السابق ص ١١٠ .

(٨) انظر : شرح الأصول ص ٢٠١ .

وبالتالى لايجوز عندهم الاحتجاج بأحاديث الآحاد فى هذا الباب لأنه لااعتماد عليها ههنا ، وإنما فارس الميدان فى هذا المقام هو العقل فلامنافس له البتة ولامشارك له . ولازم ذلك أن يرد كل حديث مهما كانت صحته قام بمعارضة عقولهم فى إثبات صفة لله تعالى .

ولما كان الاعتماد على العقول فى إثبات صفات الله تعالى عند المعتزلة سولت لهم عقولهم شبهتين بهما عطلوا صفات الخالق وجردوه عنها :
الأولى : إن من أثبت لله صفة قديمة فقد قال بتعدد القدماء ، لأن صفاته لو شاركته فى القدم لشاركته فى الألوهية ، وأدى ذلك إلى تعدد القديم سبحانه (١) .

قال عبد الجبار :

"فالقديم تعالى لو استحق هذه الصفات (الحياة - العلم - القدرة - الوجود - ...) لمعان قديمة لوجب أن تكون مثلاً لله تعالى" (٢) .
وقال :

"فلو كان له علم قديم لوجبت مماثلته له فى كل صفة ، لأن الاشتراك فى صفة من صفات الذات يوجب الشركة فى سائرهما ويوجب المماثلة" (٣) .
الثانية : إن إثبات تلك الصفات يلزم منه أن يكون الله جسماً محدثاً كما تقتضيه حجة العقل (٤) .

وقد علل عبد الجبار ذلك بقوله :

"ومن جملة ماينفى عنه تعالى أن يكون بصفة الجواهر والأجسام ، والأصل فى ذلك أن الكلام فى نفى الجسمية على الحقيقة كالوجه فيه ، أنه إذا كان كذلك لم يكن بد من تحيزه ، فإنه إذا لم يكن كذلك لم ينفصل عن غيره ، وإذا كان متحيزاً وجب أن لاينفصل تحيزه عن كونه كائناً فى جهة ،

(١) انظر : الملل والنحل ١/٤٤-٤٦ .

(٢) شرح الأصول ص ١٩٧ .

(٣) المحيط بالتكليف ص ١٨٠ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص ١٥٣ .

وقد مضى الكلام فى أنه لا يكون الكائن كائناً فى جهة إلا لمعنى محدث والقول بأنه جسم يعيده إلى أنه محدث ، ... ومما يدل على هذا أيضاً أن الدلالة قد دلت على أن الأجسام متماثلة ، وإذا ثبت تماثلها لم يصح إلا أن يستوى الكل فى استحقاق الصفة الذاتية^(١).

فالصفات التى تطلق ألفاظها على البشر لا يجوز أن تطلق على الله سبحانه وتعالى لأنه يستوى عندئذ الكل فى استحقاق هذه الصفات ، ويلزم من ذلك مماثلة الله للبشر وتشبيهه بهم ، وبالتالي يؤدى إلى أن يكون الله جسماً كالأجسام .

قال عبد الجبار :

"لو كان الله عالماً بعلم لكان يجب فى علمه أن يكون مثلاً لعلمنا"^(٢).
وقال :

"فكل ما كان مما لا يجوز إلا على الأجسام ، فيجب نفيه عنه تعالى"^(٣).
لأنه لو كان حياً ب حياة وقادراً بقدرة لوجب أن يكون سبحانه جسماً محلاً للأعراض^(٤).

والموحد لله هو الذى ينفى عنه مشابهة الأجسام .

قال عبد الجبار :

"تمام التوحيد لا يكون إلا بأن تنفى عن الله شبه الأجسام"^(٥).
وإثبات الصفات لله تشبيهه لله بخلقها ، وحال صاحبه أشد من حال من يعبد الأصنام^(٦).

وأهل السنة المثبتون لصفات الله تعالى مشبهة ، غير موحدين لله ، ولا يعرفون ربهم ، لأنهم وصفوه بالأعضاء والزوال والاستواء ويلزم من

(١) المحيط بالتكليف ص ١١٨ .

(٢) شرح الأصول ص ٢٠١ .

(٣) المحيط بالتكليف ص ٢٠٠ .

(٤) انظر : شرح الأصول ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٥) المحيط بالتكليف ص ٣٧ .

(٦) انظر : فضل الاعتزال ص ١٥٢ .

ذلك أن يكون جسماً (١).

وأما آيات القرآن الكريم التي تثبت صفات الله تعالى فهي آيات متشابهة كما يزعمون ، فيجب أن تأول لموافقة الأدلة القاطعة وهي أدلة العقول ، لأنها موهمة للتشبيه ، ولأنها محتملة الدلالة ، وأما العقل فلا احتمال في دلالاته . وما وقع التشبيه في الأمة إلا بسبب التعلق بالآيات المتشابهة وترك تأويلها على ما يوافق دليل العقل والآيات المحكمة (٢).

قال عبد الجبار :

"إذا ورد في القرآن آيات تقتضي بظاهرها التشبيه ، وجب تأويلها ، لأن الألفاظ معرضة للاحتمال ، ودليل العقل بعيد عن الاحتمال" (٣).
ويورد أبو الحسين عدداً من آيات الصفات ثم يقول :
"فكل هذه الآيات وما أشبهها من الآيات ، فإنما يريد عز وجل ذاته ، لأن ثم نفساً ووجهاً ويدا ، وعينا ويمينا سواء" (٤).
منهج السلف في صفات الله والرد على المعتزلة :

الكلام عن صفات الله عز وجل له أهمية عظيمة بالنسبة للفرد المسلم وذلك لأن الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان لا يتحقق إلا إذا وصف الله سبحانه بما يستحقه من صفات الكمال اللائقة به ، ونعوت الجلال التي تعرف العبد بربه تعالى . بل لا يكون العبد موحداً لله إلا إذا عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأقر بذلك ، إذ الإقرار بأسماء الله وصفاته تحقيق لأحد أقسام التوحيد الثلاثة (٥) التي لا ينفك بعضها عن بعض . ولما كانت أسماء الله وصفاته بهذه الأهمية كثر ذكرها في كتاب الله عز وجل وفي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر : فضل الاعتزال ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٣) المحيط بالتكليف ص ٢٠٠ .

وانظر : شرح الأصول ص ٢١٢ ، فضل الاعتزال ص ١٤٩، ١٥٢ .

(٤) رسائل العدل ص ١١٥ .

(٥) وهي توحيد : الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

ولوضوح هذا التوحيد لم يقع خلاف بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، ولم يتنازع اثنان منهم في أمر واحد منه ، بل الجميع كانوا على اتفاق تام بالإقرار به والتسليم بما جاء في القرآن والحديث منه .
يقول ابن القيم رحمه الله :

"وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة ، من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً ، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً ، ولا ضربوا لها أمثالاً ، ولم يدفعوا في صدورهم وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً ، وأجروها على سنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عشرين ، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه" (١).

وقد ظلت القرون الخيرة تنهج نهج صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات صفات الله والإقرار بها إلى أن نجم التجهم في الأمة وابتدع القول بنفى صفات الله ، فاحتضن أهل الاعتزال تلك المقالة وجعلوها عقيدة يدينون الله بها (٢).

وأما أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة فإنهم أثبتوا لله تعالى ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من أسمائه الحسنى

(١) أعلام الموقعين ٤٩/١ ، وانظر : لوايح الأنوار ٦/١ .

(٢) انظر : الملل والنحل ص ٨٦ مع الهامش .

وصفاته العليا من غير تحريف (١)، ولا تعطيل (٢)، ولا تكييف (٣)، ولا تمثيل ، كما نفوا عنه ما لا يليق به من صفات النقص التي نفاه عن نفسه سبحانه ونفاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنديين في ذلك إلى قوله سبحانه : {ليس كمثله شيء} (٤) إثبات لصفات الله بالتمثيل . {وهو السميع البصير} تنزيه لله عن صفات النقص بلا تعطيل (٥).

يقول الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله :

"أصحاب الحديث ، حفظ الله أحياءهم ، ورحم أمواتهم ، يشهدون لله بالوحدانية ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة . ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماوردت الأخبار الصحاح به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويشبتون لله جل جلاله ما أثبتته لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله

(١) التحريف : هو التغيير . القاموس المحيط ص ١٠٣٣ .

وفي الاصطلاح هو تغيير ألفاظ أسماء الله وصفاته ومعانيها . وهو قسمان : تحريف لفظ : كتحرير اليهود لقوله تعالى "وقولوا حطة" فقالوا : "حنطة" . وتحريف معنى : كتفسير المبتدعة لصفة الغضب بإرادة الانتقام . انظر : الكواشف الجليلة ص ٨٦ .

(٢) التعطيل : هو التفريغ والإخلاء ، وترك الشيء ضياعا .

القاموس المحيط ص ١٣٣٥ .

والمراد به هنا : نفى صفات الله تعالى ، وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها دون بعض .

انظر : الكواشف الجليلة ص ٨٧ .

(٣) التكيف : من الكيف وهو القطع .

انظر : القاموس المحيط ص ١١٠١ .

والمراد به هنا القطع بحقيقة صفات الله ، وتعيين كنهها ، وأن لها حقيقة معلومة .

انظر : الكواشف الجليلة ص ٨٩ .

(٤) سورة الشورى : آية ١١

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٣٧٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٨٤، ١٠٨-١٠٩ ،

لوامع الأنوار ١/٩٤، ٩٧، ١١٦، ١٢٨، ١٢٩ ، إيضاح الدليل ص ٣٩ ، شرح لمعة

الاعتقاد ص ٢٢ .

صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه ، فيقولون إنه خلق آدم بيده كما نص سبحانه عليه في قوله عز من قائل : {يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي} (١) ، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين ، أو القوتين ، تحريف المعتزلة الجهمية ، أهلهم الله ، ولا يكيّفونهما بكيف ، أو تشبيهما بأيدي المخلوقين ، تشبيه المشبهة (٢) خذلهم الله ، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكليف ، ومن عليهم بالتعريف والتفهم ، حتى سلكوا سبل التوحيد والتزيه ، وتركوا القول بالتعليل والتشبيه ، واتبعوا قول الله عز وجل : {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} (٣)(٤) .

وهناك بعض القواعد المهمة التي يتضح من خلالها منهج السلف في صفات الله عز وجل . من ذلك :

(١) القول في الصفات كالقول في الذات :

فإذا كان لله سبحانه ذات حقيقية لا تماثل ذوات المخلوقين ، فذاته متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر صفات الخلق .

فما يقال عن ذاته سبحانه يقال عن صفاته ، إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات يحتذى حذوه (٥) .

(١) سورة ص : آية ٧٥

(٢) المشبهة :

هم الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، فيقولون له وجه كوجه المخلوق ويد كيد المخلوق ونحو ذلك . ومنهم من يزعم أن معبودهم جسم ذو أبعاد ، محدودة . انظر : مقالات الإسلاميين ١٠٦/١-١٠٧ ، الملل والنحل ١٠٣/١-١٠٥ ، منهاج السنة النبوية ٥٢٣،٥٢٢/٢ ، الكواشف الجليلة ص ٨٩ .

(٣) سورة الشورى : آية ١١

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٧٥ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ١٦٧،٢٥/٣ ، تلييس الجهمية ٧٦/١ ، الكواشف الجليلة ص ٤٣٠،٢٣٠ .

(٢) القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر (١):

فإثبات صفة لله تعالى يلزم منه إثبات بقية الصفات ، ونفى صفة واحدة يلزم منه نفى بقية الصفات ، إذ لا فرق بين صفة وصفة . وإن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض لا يستقيم له دليل لامن الشرع ولا من العقل (٢).

(٣) الاتفاق في الأسماء لا يقتضى التساوى في المسميات :

فالله سبحانه سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات مختصة به لا يشركه فيها غيره ، كما سمي بعض مخلوقاته بأسماء ووصفهم بصفات تختص بهم ، فلا يلزم من اتفاق الأسماء والصفات تماثل مسماهما (٣).

فإن الله سبحانه أخبرنا عن الجنة وما فيها من أصناف المطاعم والملابس والمساكن ، وأن فيها لبناً وعسلاً وخمراً ، ولحماً وحريراً وذهباً وفضة ، وفاكهة وقصوراً ، وهى موافقة لأسماء الحقائق الموجودة فى الدنيا وليست مماثلة لها ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : "ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء" . فإذا كان بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله ، وكلاهما مخلوق ، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم من مباينة المخلوق للمخلوق (٤).

وهذه الروح التى خلقها فىنا وصفت بصفات عدة ، فهى تصعد من سماء إلى سماء ، وتقبض من البدن ، وتسل كما تسل الشعرة من العجينة ، وهى موجودة حية ، ومع ذلك لا يدرك كنهها أحد . فإذا كانت متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها للمخلوقات ، وهى مخلوقة ، فالخالق عز وجل أولى فى مباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحق من الأسماء والصفات (٥).

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٧/٣ .

(٢) انظر : الكواشف الجلية ص ٢٣٠ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١٠/٣ ، الكواشف الجلية ص ٤٢٨-٤٢٩ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢٨/٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٨٨ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣٣، ٣١/٣ .

(٤) الله سبحانه له المثل الأعلى فلا يجوز أن يقاس على غيره بقياس تمثيل يستوى فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمول يستوى أفراده في حكمه ولكن يستعمل في حقه قياس الأولى ، والمثل الأعلى ، وهو أن كل ما تصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به ، وكل ما ينزه عنه المخلوق فالخالق منزّه عنه .

فالله يثبت له من صفات الكمال ما يليق به ، وهو متصف بها على وجه لا يماثلها فيها أحد^(١).

وبعد هذه القواعد المهمة التي يتضح من خلالها منهج سلفنا الصالح في صفات الله عز وجل ، نتبع ما أثاره المعتزلة من شبه حول الصفات ، مع بيان ردها وعدم صحتها .

إن السمة البارزة التي يتسم بها أهل الاعتزال والجهمية وجميع الفرق المنحرفة عن المنهج السوي في صفات الله جل وعلا ، هذا النفي أي نفي صفاته سبحانه ، الذي جعلوا منه منهجاً لهم يدينون الله به ويوحدونه من خلاله ، وهم أبعد ما يكونون عن توحيده سبحانه لأنهم بهذا النفي المبتدع عطلوا صفات رب العالمين وجردوه منها ، فوقعوا بذلك في الإلحاد الذي حذر الله منه في قوله : {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون}^(٢). فإن من الإلحاد أن تعطل أسماء الرب سبحانه عن معانيها وأن تجحد حقائقها ، وذلك من أعظم الإلحاد فيها عقلاً ولغة وشرعاً وفطرة^(٣). ولادليل معهم يستندون إليه في هذا النفي ، بل هو أمر حادث مبتدع في دين الله^(٤).

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٢٧/١-٣٢٨ ، شرح الطحاوية ص ١١٩ ، لوامع الأنوار ٢١٦/١-٢١٧ ، الكواشف الجلية ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٨٠ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار ١٢٨/١ .

(٤) انظر : موافقة صحيح المنقول ١٨٩/١ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"الصواب عند السلف والأئمة وجماهير المسلمين أنه لا يجوز النفي إلا بدليل كالإثبات ، فكيف ينفي بلا دليل مادل عليه دليل : إما قطعى وإما ظاهرى ؟ بل كيف يقال ما لم يقم دليل قطعى على ثبوته من الصفات يجب نفيه ، أو يجب القطع بنفيه ، ثم يقال فى القطعى إنه ليس بقطعى . فهذه المقدمات الفاسدة هى وسائل الجهل والتعطيل وتكذيب المرسلين" (١).

فنفيهم لصفات الله مخالف لظاهر النصوص التى تدل على إثباتها ، ومخالف لطريقة سلف الأمة ونهجهم (٢).

بل ذلك مخالف لما جاء به رسل الله وأنبيأؤه عليهم السلام ، فإنهم جاءوا بإثبات مفصل ، ونفى مجمل ، فأثبتوا الأسماء والصفات لله على طريق التفصيل ونفوا عنه مماثلة المخلوقات على طريق الإجمال ، وأما المعتزلة ومن على نهجهم عكسوا الأمر فجاءوا بنفى مفصل ، وإثبات مجمل ، فيقولون : ليس كذا ، ليس كذا (٣).

وهؤلاء النفاة لصفات الله لم يفهموا منها إلا ما هو لائق بالمخلوق ، ولم تتسع عقولهم للفرق الشاسع بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، فشرعوا فى نفيها عن الله ، فجمعوا بين شرين هما التمثيل والتعطيل . فلما وقع فى أذهانهم تمثيل صفات الله بصفات خلقه ، وأن إثباتها يقتضى ذلك ، لجأوا إلى نفيها عن الله فوقعوا فى التعطيل (٤). وظنوا أن قوله تعالى : { ليس كمثله شئ } (٥) مستنداً لهم ، وأنه يشفع لهم فيما ذهبوا إليه ، وتناسوا عجز الآية الذى يحوى أبلغ رد عليهم . وذلك قوله تعالى : { وهو السميع البصير } ،

(١) بيان تلبيس الجهمية ٧٩/١ .

(٢) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ١٣ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٥٣/٢ ، لوامع الأنوار ١٣٠، ١٢٩/١ .

(٤) انظر : طريق الهجرتين ص ٢٣٥-٢٣٦ ، لوامع الأنوار ٩٤/١ .

(٥) سورة الشورى : آية ١١

فألله نفى في الآية مماثلة لصفاته لصفات المخلوقات ، ثم أثبت لنفسه ما يليق به من الصفات (١). وهذا هو الواجب في صفاته : أن يوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تشبيه ولا ينفى عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فإن ذلك تعطيل . فالآية ردت بصدورها على من شبه وردت بعجزها على من عطل (٢). وليس في قوله تعالى : { ليس كمثله شيء } دلالة على نفى الصفات ، بل هي دالة على إثباتها ووصف الله بها .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

"قوله تعالى : { ليس كمثله شيء } وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها ، وإلا فلو أريد بها نفى الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه ، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل فلان لامثل له وليس له نظير ولاشبيه ولا مثيل ، أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها ، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فأت أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه ، فقوله { ليس كمثله شيء } من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته" (٣).

زعمهم أن الصفات لا تثبت إلا بالعقل ، وأن العقل هو الذي يلجأ إليه في إثبات كل صفة لله تعالى .

يجاب على ذلك :

إن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، والمراد بذلك أنها تتلقى من طريق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز بها ما ورد في الكتاب والسنة .

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٥٦-٣٥٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٥٢٠ .

(٣) حادي الأرواح ص ٢١٨ .

ولذا قال السلف رضوان الله عليهم : لانصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولانسميه إلا بما سمي به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم (١).

وقد نزه الله نفسه عما يصفه به العباد ، إلا بما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه : {سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين} (٢).

فنزّه نفسه سبحانه في الآية عما يصفه به الكافرون ، ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفردّه بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد (٣).

وأما العقل فلا تثبت به أسماء الله وصفاته ، لأن العقل لا يمكنه أن يدرك ما يستحقه الله سبحانه من الأسماء والصفات ، فوجب الوقوف على الشرع ، ولأن تسمية الله أو وصفه بما لم يسم أو يصف به نفسه ، أو إنكار ما سمي أو وصف به نفسه جناية في حقه تعالى ، فيجب سلوك الأدب في ذلك (٤).

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

"لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر ، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الروية والفكر" (٥).

والعقل السليم لا يدل على نفى صفات الله ، بل هو دال على إثباتها ، وإن كانت لا تثبت به ، لأنه دال على أن الذي يفعل أكمل من الذي لا يقدر

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/١٤٨ ، شرح الطحاوية ص ٢١٨ ، لوامع الأنوار

٣٨/١ الهامش ، ١/١٣٤ ، الكواشف الجلية ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الصفات : آية ١٨٠-١٨٠

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧١-٧٢ .

(٤) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ٩ .

(٥) مناقب الشافعي ص ٨١٤

على الفعل ، وأن فعله سبحانه الذى يتعلق بنفسه والذى يتعلق بخلقه هو كمال (١).

وبالتالى العاقل إذا تمعن فى أدلة نفاة الصفات وتدبرها تمام التدبر ، وأعطائها حقها من النظر العقلى السليم ، علم بالعقل فساد تلك الأدلة وثبوت تقيضها (٢).

الجواب عن الشبهة الأولى : وهى زعمهم بأن إثبات الصفات يؤدى إلى تعدد القدماء .

هذا الزعم منهم قول مجمل يتضح مع التفصيل والبيان وهو شأن السلف فى الألفاظ المجملة . فإن أراد المعتزلة بذلك تعدد آلهة خالقة للمخلوقات مع الله سبحانه فهذا قول مستحيل . وإن قيل بتعدد معان وصفات لله سبحانه فذلك جائز ، ولا يلزم من تعدد الصفات تعدد الذات الموصوفة بهذه الصفات (٣).

قال السفاريني :

"المحذور فى تعدد القدماء المغايرة ونحن نمنع تغاير الذات مع الصفات والصفات بعضها مع بعض فينتفى التعدد والتكثر ، ولئن سلم مازعموا من تعدد القدماء فالممتنع تعدد القدماء إذا كانت ذوات مستقلة لاتعدد ذات وصفات لها" (٤).

وكل من الذات والصفات ملازم للآخر (٥). فالذات الموصوفة لاتنفك عن الصفات أصلاً ، ولا يمكن وجود ذات خالية عن الصفات (٦). والذات المجردة عن الصفات كالعلم والقدرة لاحقيقة لها فى الخارج ولاهى الله .

(١) انظر : الكواشف الجلية ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/١٤٨ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٥٤١-٥٤٢ .

(٤) لوامع الأنوار ١/٢١٧ .

(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٥٤١ .

(٦) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٣٣٦ .

والله هو الذات الموصوفة بالصفات اللازمة لها ، واسم الله يتضمن الذات والصفات ، ولم يطلق السلف على الصفات أنها غير الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" (١). وثبت في الصحيح الحلف بعزة الله (٢)، وعمر الله (٣)، فالحلف بذلك ليس حلفاً بغير الله (٤).

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى كتاب النذور والأيمان (٢١) ، باب ماجاء فى كراهية الحلف بغير الله (٨) برقم ١٥٣٥ ، وقال : "هذا حديث حسن" . ٩٤/٤ .
وأحمد فى المسند بألفاظ مقاربة من حديث ابن عمر ٤٧/١ ، ٨٧-٨٦، ٦٩، ٣٤/٢ ، ١٢٥ .

والحاكم فى المستدرک عن ابن عمر . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبى ٢٩٧/٤ .
وأخرجه فى مواضع أخرى بألفاظ مقاربة ٥٢، ١٨/١ .
وعبد الرزاق فى المصنف بلفظ مقارب عن ابن عمر ، باب الأيمان ، ولا يحلف إلا بالله برقم ١٥٩٢٦ ، ٤٦٧/٨-٤٦٨ ، وأورده الشيخ ناصر الدين الألبانى فى صحيح الجامع وقال : صحيح . ٢٨٢/٥ . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٧١-٦٩/٥ ، حديث رقم ٢٠٤٢ .

(٢) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الغسل (٥) ، باب من اغتسل عريانا (٢٠) ، ٧٤/١ كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الفرقان (٢٥) ، باب قوله {الذين يحشرون على وجوههم} الآية (١) ، ١٤/٦ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب الصراط جسر جهنم (٥٢) ، ٢٠٦/٧ ، كتاب الأيمان (٨٣) ، باب الحلف بعزة الله (١٢) ، ٢٢٤/٧-٢٢٥ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وهو العزيز الحكيم} من حلف بعزة الله وصفاته (٧) ، ١٦٧-١٦٦/٨ .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١) ، حديث رقم ١٨٢ ، ١٦٦/١ ، كتاب صفات المنافقين (٥٠) ، باب يحشر الكافر على وجهه (١١) حديث رقم ٢٨٠٦ ، ٢١٦١/٤ .

(٣) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الشهادات (٥٢) ، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً (١٥) ، ١٥٦/٣ ، كتاب الإيمان (٨٣) ، باب قول الرجل لعمر الله (١٣) ، ٢٢٥/٧ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٩٨، ٩٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومن تدبر كلام هؤلاء وجدهم مضطرين إلى إثبات الصفات ، وأنهم لا يمكنهم أن يفرقوا بين قولهم وقول المثبتة بفرق محقق ، لأنهم أثبتوا كونه تعالى حيا وكونه عالما وكونه قادرا ولا يجعلون هذا هو هذا ولا هذا هو هذا ، ولا هذه الأمور هذه الذات ، فقد أثبتوا معاني زائدة على الذات المجردة ، فقولك (١) "أثبتوا قدما كثيرة" لفظ مجمل يوهم أنهم أثبتوا آلهة غير الله في الأزل ، وأثبتوا مع الله غيره ، وهذا بهتان عليهم . وإنما أثبتوا صفات قائمة به ... فهل ينكر هذا إلا مخذول مسفسط ، واسم "الله" يتناول الذات المتصفة بالصفات ، ليس هو اسما للذات المجردة" (٢).

الجواب عن الشبهة الثانية : وهي زعمهم أن إثبات الصفات يلزم منه أن يكون الله سبحانه جسما كالأجسام .

وهذه شبهة طالما دندن بها المبتدعة من أهل الاعتزال وغيرهم لتنفير الناس عن وصف الله بما يليق به من صفات . وقد اعتاد هؤلاء أن يبتدعوا ألفاظا ومعاني ويجعلوها أصلا معقولا محكما عندهم ، يجب اعتقاده والبناء عليه ، ثم نظروا في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فحملوا مافيهما على ماأصلوه ، فتأولوا مارأوا تأويله ، وحكموا بالتشابه على ما عجزوا عن تأويله (٣).

ومن تلك الألفاظ لفظ الجسم . وأول من تكلم به نفيا وإثباتا هم طوائف من الشيعة والمعتزلة (٤).

ورموا كل من أثبت صفة لله عز وجل بأنه مجسم وذلك عن طريق اللزوم ، لأنهم يزعمون أن الصفات لا تقوم إلا بجسم ، وذلك جريا على اصطلاحهم في معنى الجسم وهو كل ما يشار إليه ، خلافا للمعهود في اللغة ،

(١) المخاطب بذلك ابن مطهر صاحب كتاب "منهاج الكرامة" الذي رد عليه شيخ الإسلام في كتاب منهاج السنة .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) انظر بيان تلبيس الجهمية ٥٢٣/١ .

(٤) انظر المرجع السابق ٥٤/١ .

فإن الجسم فى اللغة هو البدن ، ويلزم من قولهم ذلك أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وفطر الله عليه عباده وأقره سلف الأمة وأئمتها من صفات الله تجسماً^(١).

ولفظ الجسم لفظ مجمل لا يتضح معناه إلا عند التفصيل ، فقد يراد به المركب الذى كانت أجزاؤه مفرقة فجمعت ، أو ما يقبل التفريق والانفصال أو المركب من مادة وصورة ، أو المركب من الأجزاء المفردة التى تسمى الجواهر المفردة ، والله متزه عن ذلك . وكذلك يطلق على ما كان متفرقا فاجتمع ، أو ما يقبل التفريق والتجزئة ، أو غير ذلك من التركيب الممتنع عنه .

وقد يراد بالجسم ما يشار إليه أو ما يرى أو ما تقوم به الصفات ، والله سبحانه يرى فى الآخرة وتقوم به الصفات ويشار إليه عند الدعاء بالأيدى والأوجه والقلوب والأعين ، وهذا معنى ثابت بصحيح المنقول وصریح المعقول ، ولا يستطيع من نفاه أن يقيم على نفيه دليلاً ، وأما لفظ الجسم فبدعة فى نفيه وإثباته لله تعالى . فليس فى كتاب الله سبحانه ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا جاء عن أحد من سلف الأمة وأئمتها إطلاق لفظ الجسم فى صفات الله تعالى لانفياً ولا إثباتاً^(٢).

ولذا لما ناظر أبو عيسى محمد بن عيسى بر غوث^(٣) الإمام أحمد وألزمه التجسيم ، أجابه الإمام أحمد بأن هذا اللفظ لا يدرى مقصود المتكلم به ، وليس له أصل فى الكتاب والسنة والإجماع ، فلا يجوز لأحد أن يلزم

(١) انظر المرجع السابق ٦٢٥/١-٦٢٦ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٨٦ ، بيان تلبيس الجهمية ٥٥٠/١ .

(٣) محمد بن عيسى :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى الجهمى ، بر غوث ، رأس البدعة ، وأحد من كان يناظر الإمام أحمد وقت المحنة . من تصانيفه : "كتاب الاستطاعة" ، "كتاب المقالات" ، "كتاب الاجتهاد" . مات سنة ٢٤٠هـ وقيل ٢٤١هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٠ .

الناس بالنطق به ولا يبدلوه ، وقال له : "إني أقول هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وبين أنه لا يقول بأنه جسم أو ليس بجسم ، لأن ذلك بدعة محدثة ، وليس ذلك من الحجج الشرعية التي يجب إجابة من دعا إلى موجبها ، لأن الناس إنما عليهم أن يجيبوا من دعاهم إلى مادعا إليه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا إلى قول مجمل مبتدع لا يعرف إلا بعد الاستفصال (١).

يقول شيخ الاسلام رحمه الله :

"وإذا قدر أن المعارض أصر على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفيها بألفاظه الاصطلاحية المحدثه ، مثل أن يدعى أن ثبوت الصفات ومباينة المخلوقات يستحق أن يسمى في اللغة تجسيماً وتركيباً ونحو ذلك ، قيل له : هب أنه سمى بهذا الاسم ، فنفيك له إما أن يكون بالشرع ، وإما أن يكون بالعقل ، أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الأسماء في حق الله ، لا بنفى ولا إثبات ، ولم ينطق أحد من سلف الأمة وأئمتها في حق الله تعالى بذلك ، لانفياً ولا اثباتاً ، بل قول القائل : إن الله جسم أو ليس بجسم ، أو جوهر أو ليس بجوهر ، أو متحيز أو ليس بمتحيز ، أو في جهة أو ليس في جهة ، أو تقوم به الأعراض والحوادث أو لا تقوم به ، ونحو ذلك ، كل هذه الأقوال محدثة بين أهل الكلام المحدث ، لم يتكلم السلف والأئمة فيها ، لا بإطلاق النفي ولا بإطلاق الإثبات ، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام الذين يتكلمون بمثل هذا النوع في حق الله تعالى نفياً وإثباتاً . وإن أردت أن نفى ذلك معلوم بالعقل ، وهو الذي تدعيه النفاة ، ويدعون أن نفاهم المعلوم بالعقل عارض نصوص الكتاب والسنة . قيل له : فالأمور العقلية المحضة لا عبرة فيها بالألفاظ ، فالمعنى إذا كان معلوماً إثباته بالعقل لم يجز

(١) انظر : موافقة صحيح المنقول ١٧٧/١ - ١٧٨ .

وانظر : منهج السلف في بيان الألفاظ المجملة كالجسم في : بيان تلبيس الجهمية ١٨٩، ١٨٥، ١٨٤/١ ، موافقة صحيح المنقول ٤٧٨، ٣٩٧، ١٠٠، ٥٤، ٤٧، ٤٦/١ ، لوامع الأنوار ١٨٣، ١٨٢/١ الهامش .

نفيه ، لتعبير المعبر عنه بأى عبارة عبر بها ، وكذلك إذا كان معلوماً انتفاؤه بالعقل لم يجز إثباته ، بأى عبارة عبر بها المعبر ، وبين له العقل ثبوت المعنى الذى نفاه ، وسماه بألفاظه الاصطلاحية ... " (١).

ونفى الجسم عن الله مع أن السلف لا يقولون بإثباته ليس فيه دليل على مذهب نفاة الصفات ، بل وليس فيه دليل على تنزيه الله سبحانه عن شىء من النقائص ، لأن من نفى الصفات على أن إثباتها يستلزم التجسيم ، لابد أن يثبت شيئاً يلزمه فيه ما ألزمه غيره فيما نفاه . وبالتالى المعتزلة الذين يثبتون الأسماء لله وينفون عنه الصفات ، ويقولون ليس بجسم مع أن ذلك ليس معقولاً عندهم ، جاز لمن يثبت الصفات أن يلزمهم بأن الموصوف بها ليس بجسم ، لأنه لافرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ، فما يقال فى مسمى الأسماء يقال فى موصوف الصفات (٢).

وأما القول بأن إثبات الصفات يلزم منه إثبات الجسمية ، ويلزم من ذلك أن يكون الله فى جهة وأن يكون متحيزاً .

الكلام فى الجهة والتحيز سبق بيانه قريباً فى الكلام عن الألفاظ المجملة (٣)، وهى التى لم يأت فى الشرع لها نفى أو إثبات . ومثل الجهة والتحيز لفظ الجسم والجوهر والعرض والمركب والمنقسم وغير ذلك من الألفاظ المبتدعة . والبدعة فى نفيها كالبدعة فى إثباتها إن لم تكن أعظم ، لأن المثبت أثبت ما أنشأته النصوص ، والنافى عارض بها النصوص ، ورد على من خالف موجبها (٤).

وقد ذم السلف هذه الألفاظ لما بها من الاشتباه ولبس الحق ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : " يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويلبسون على

(١) موافقة صحيح المنقول ١٨٣/١ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٠/٣ ، موافقة صحيح المنقول ١٠٩/١-١١٠ .

(٣) انظر ص ١٥٠ .

(٤) انظر موافقة صحيح المنقول ١٨٨/١ .

جهال الناس بما يشبهون عليهم" (١). كما أنها عرضة للاحتتمالات ، فهى تحوى معانى باطلة لاتليق بالله تعالى كما أنها تحوى معانى حقّة ، وهذا بخلاف الألفاظ الشرعية فإن معانيها صحيحة سالمة من الاحتمالات ، ولذا لايجوزالعدول عنها . حتى لايثبت معنى فاسد فى حالة التعلق بالألفاظ المجملّة (٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينا قاعدة عظيمة فى هذه الألفاظ . فيقول :

"والأصل فى هذا الباب أن الألفاظ نوعان :

مذكور فى كتاب الله وسنة رسوله ، وكلام أهل الإجماع ، فهذا يجب اعتبار معناه ، وتعليق الحكم به ، فإن كان المذكور به مدحا استحق صاحبه المدح ، وإن كان ذما استحق الذم ، وإن أثبت شيئا وجب إثباته ، وإن نفى شيئا وجب نفيه ، لأن كلام الله حق ، وكلام رسوله حق ، وكلام أهل الإجماع حق ... ومن دخل فى اسم مذموم فى الشرع كان مذموما ، كاسم الكافر والمنافق والملحد ونحو ذلك ، ومن دخل فى اسم محمود فى الشرع كان محمودا ، كاسم المؤمن والتقى والصديق ، ونحو ذلك ، وأما الألفاظ التى ليس لها أصل فى الشرع فتلك لايجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفى على معناها ، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع والألفاظ التى تعارض بها النصوص هى من هذا الضرب ، كلفظ "الجسم" و"الحيز" و"الجهة" و"الجوهر" و"العرض" فمن كانت معارضته بمثل هذه الألفاظ لم يجز له أن يكفر بخالفه ، إن لم يكن قوله مما يبين الشرع أنه كفر ، لأن الكفر حكم شرعى متلقى عن صاحب الشريعة ، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ماكان خطأ فى العقل يكون كفرا فى الشرع ، كما أنه

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ص ١٠٠ .

وكلام الإمام أحمد فى كتابه : الرد على الجهمية والزنادقة ص ٨٥ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢١ .

ليس كل ما كان صواباً في العقل تجب في الشرع معرفته" (١).
وقد كان السلف يطلبون الاستفصال في معناها ، لأن عدم الاستفصال
يوقع في الجهل والضلال والقيـل والقال (٢).
فإن كان المعنى صحيحاً قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص
، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد (٣).
ونضرب مثلاً لاستفصال السلف في الألفاظ المجملة بلفظ "الجهة"
ليتضح منه منهجهم في الاستفصال .
فإنهم يقولون "إن لفظ "الجهة" قد يراد به أمر موجود وقد يراد به
أمر معدوم ، فإذا أريد الأول أمكن أن يقال إن كل جسم في جهة ، وإذا
أريد الثاني امتنع أن يكون كل جسم في جهة .
فمن قال : الباري في جهة وأراد بها أمراً موجوداً فكل ماسواه مخلوق
له في جهة بهذا التفسير ، فهذا مخطيء ، وإن أراد بالجهة أمراً عديمياً - وهو
فوق العالم - وقال إن الله فوق العالم فقد أصاب ، وليس فوق العالم موجود
غيره ، فلا يكون سبحانه في شيء من الموجودات (٤).
وأما الزعم بأن الأجسام متماثلة ، وتماثلها يؤدي إلى استوائها في
استحقاق الصفات .

فهو زعم لا أساس له من الصحة ، ولا حجة فيه ، وليس أحد من
العقلاء يقول بأن كل جسم يماثل الآخر ، وليس في اللغة التي جاء بها
القرآن إطلاق "لفظ المثل" على كل جسم ، ولا يقال : إن السماء مثل
الأرض . والشمس والقمر والكواكب مثل الجبال . والجبال مثل الأنهار (٥).

(١) موافقة صحيح المنقول ١٨٤/١ - ١٨٥ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٨٨ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٨ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١١٧ .

(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٨٨/١ .

بل قد تتساوى كثير من الأشياء في الأسماء وتباين في مسمياتها وصفاتها .

وأما زعمهم أن إثبات الصفات تشبيه لله بخلقه :
فهو زعم أكثر من ذكره أهل الاعتزال وقذفوا كل من أثبت صفة لله بأنه مشبه لله بخلقه ، كما رموه من قبل بالتجسيم ، وذلك لضيق عقولهم وعجزها عن إدراك معاني صفات الله تعالى ، وإدراك الفرق الشاسع بينها وبين صفات المخلوقين ، وتقاصرت بهم عقولهم التي اغتروا بها فلم تعلو بهم إلى الفهم الصحيح الذي وصلت إليه عقول السلف الصالح من قبل ، لما استنارت بنور الوحي ، واستضاءت بضوئه . ولم تعرف فلسفة اليونان ، وحثالة أذهانهم إلى تلك العقول طريقاً ، وأما التي لبس عليها الشيطان ، ومزج ماعندها بشبه أعداء الإسلام ، أنى لها أن تعرف الحق ويستبين لها الطريق ؟.

والمراد بالتشبيه إثبات مشابه لله فيما يختص به من حقوق أو صفات ، وهو صنو التمثيل الذي يراد به إثبات مماثل لله فيما يختص به أيضاً من حقوق وصفات ، وكلاهما كفر وشرك بالله لما تضمننا من نقص في حق الله تعالى (١).

والتمثيل قد جاء نفيه عن الله تعالى في أكثر من موضع كقوله تعالى : { ليس كمثله شيء } (٢) ، وقوله : { هل تعلم له سمياً } (٣) ، وقوله : { ولم يكن له كفواً أحد } (٤) ، وقوله : { فلا تجعلوا لله أنداداً } (٥) ، وقوله : { فلا تضربوا لله الأمثال } (٦) (٧).

(١) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ١٩ .

(٢) سورة الشورى : آية ١١

(٣) سورة مريم : آية ٦٥

(٤) سورة الإخلاص : آية ٤

(٥) سورة البقرة : آية ٢٢

(٦) سورة النحل : آية ٧٤

(٧) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٥٨٧ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١١٠ .

وأما لفظ التشبيه فلم يرد نفيه أو إثباته في الكتاب أو السنة لأنه من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى إيضاح وتفصيل ، فقد يراد به مجاء نفيه في القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته .

وقد يراد به عدم إثبات شيء من الصفات اللائقة بالله تعالى لأن العبد موصوف بها (١).

وهذا الأخير هو الذي يعنيه أهل الاعتزال عند إطلاقهم لفظ التشبيه . ولكن قد ورد ذم التشبيه والمشبهة في كلام السلف رضوان الله عليهم قال نعيم بن حماد (٢):

"من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه" . وقال إسحاق بن راهويه (٣):

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٨-٩٩ .

(٢) نعيم بن حماد :

هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي ، أبو عبد الله المروزي ، نزيل مصر ، حافظ ، فقيه ، عارف بالفرائض . صدوق يخطئ كثيراً . روى عن أبي حمزة السكري ، وإبراهيم بن سعيد . وعنه البخاري مقروناً ، والدارمي ، وحمزة الكاتب . مات سنة ٢٢٨هـ على الصحيح .

انظر : الجرح والتعديل ٨/٤٦٣-٤٦٤ ، الكاشف ٣/٢٠٧ ، تقريب التهذيب ٣٠٥/٢ .

(٣) إسحاق بن راهويه :

هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي ، أبو محمد بن راهويه ، المروزي ، الإمام عالم خراسان ، ثقة حافظ مجتهد ، قرين الإمام أحمد ، ذكر أبو داود أنه تغير قبل موته بيسير . روى عن جرير ، والداروردي ، ومعتز ، وعنه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود وغيرهم . له مسند . مات سنة ٢٣٨هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٢/٢٠٩-٢١٠ ، الكاشف ١/١٠٦ ، تقريب التهذيب ١/٥٤ .

"من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم لأنه وصف بصفاته ، وإنما هو استسلام لأمر الله ولما سن الرسول" (١).

وقال أبو حنيفة رحمه الله : "لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه... وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا" (٢).

وهم لا يريدون بنفى التشبيه نفى الصفات ، ولا يصفون به من أثبت الصفات ، وإنما يريدون بذلك أن الله لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله كما قال أبو حنيفة رحمه الله (٣). والمشبهة الذين ذمهم هم الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، وذكروا أن المشبه هو الذى يقول : بصرى كبصرى ، ويد كيدى ، وقدم كقدمى (٤). وهذا أحد نوعى التشبيه ، لأن التشبيه فى الحقيقة نوعان :

أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهو الذى يتعب أهل الكلام فى رده وبيان بطلانه ، وأهله فى الناس أقل من أهل النوع الثانى .

ثانيهما : تشبيه المخلوق بالخالق ، كعباد المشايخ ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والطيور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هم الذين أرسل الله لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له (٥).

والتشبيه إنما قام فى مصادمة نفى الصفات وتعطيلها . وهما مرضان من أمراض القلوب ، فإن أمراض القلوب نوعان :

-
- (١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٢/٢ .
 - وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٧-١١٨ .
 - (٢) شرح الفقه الأكبر لأبى منصور الحنفى ص ١٠٣-١١٢ ، شرح ملا على القارى على الفقه الأكبر ص ٣٢-١٥ .
 - (٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٨-١١٩ .
 - (٤) انظر بيان تلبيس الجهمية ١٠٩، ٥١/١ .
 - (٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٧ .

مرض شهوة كالذى فى قوله تعالى : {فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض} (١).

ومرض شبهة كالذى فى قوله سبحانه : {وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم} (٢). وهذا أردأ من مرض الشهوة ، والنفى والتشبيه من شبه الصفات ، وشبه النفى أردأ من شبه التشبيه ، لأن النفى رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، بينما التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما كفر بالله تعالى (٣).

وأهل السنة متفقون على إثبات صفات الله من غير تشبيه أو تمثيل لها بصفات خلقه ، كما أنهم متفقون على تنزيه الله عن صفات النقص من غير تعطيل ، لأن دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل ، وذلك لقوله تعالى : {ليس كمثله شىء} ردأ على من مثل ، {وهو السميع البصير} ردأ على من عطل (٤). وقد قال الإمام الطحاوى رحمه الله : "ومن لم يتوق النفى والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه" (٥).

وقال ابن أبى العز رحمه الله :

"وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين ، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه . والمعطل يعبد عدماً والمشبّه يعبد صنماً ... وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً ، بل صفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به" (٦).

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٢

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٥

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢١٦-٢١٧ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٠٨-١٠٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٠

(٥) متن العقيدة الطحاوية ص ١٠ .

(٦) شرح الطحاوية ص ١٨٨ .

فالله منزّه عن مشاركة العبد في خصائصه ، وإذا اشتركا في الأسماء والصفات فهذا المشترك مطلق كلى في الذهن لا وجود له في الخارج ، والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه ، فإذا سمي الله بهذه الأسماء كان مسمّاها معيناً مختصاً به ، وإذا سمي العبد بها كان مسمّاها مختصاً به (١).
فالاتفاق في الأسماء لا يقتضى التساوى في المسميات كما سبق ذكره في قواعد السلف (٢).

ومن هنا يتبين لك ضلال كل من المشبهة والمعطلة ، فإن المشبهة أحسنوا في إثبات صفات الله ولكنهم أساءوا بزيادة التشبيه ، فضلوا ، وإن المعطلة أحسنوا في تنزيه الله عن التشبيه بخلقه ، ولكن أساءوا في نفى المعانى الثابتة لله فضلوا . والحق ما دل عليه كتاب الله الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذى لا انحراف ولا اعوجاج فيه (٣).
وقد وقع المعتزلة في أربعة أنواع من المحاذير :

- (١) كونهم مثلوا مافهموه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظنوا أن مدلول النصوص هو التمثيل .
- (٢) جنوا على النصوص بتعطيل معانيها الإلهية اللائقة بالله ، وظنوا ظناً سيئاً بالله ورسوله حيث اعتقدوا أن الذى يفهم من كلامها هو التمثيل الباطل .
- (٣) أنهم نفوا تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم ، فكانوا بذلك معطلين لما يستحقه الرب من صفات .
- (٤) وصفوا الرب سبحانه بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات والمعدومات ، فعطلوا بذلك صفات كماله ، وجمعوا بين التمثيل والتعطيل ، فأصبحوا ملحدين في أسمائه وآياته (٤).

(١) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٨٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٢، ١٠٣
(٢) انظر ص : ١٤١
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٤٨/٣ - ٤٩ .

وأما زعمهم بأن إثبات الصفات تشبيه وذلك مناف للتوحيد ، لأن تمام التوحيد يكون بنفى مشابهة الله للخلق .

وهذا من تسمية الأمور بغير مسمياتها ، ومن تلبيس الباطل بالحق . فانهم فسروا التوحيد تفسيراً لم يدل عليه كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها^(١). بل هو أمر مبتدع باطل فى الشرع والعقل واللغة^(٢).

فإن التوحيد الذى جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب يتناول التوحيد فى العلم والقول وهو وصف الله ما يستحق من صفات الكمال ونعوت الجلال ، ونفى النقص عنه ، والتوحيد فى الإرادة والعمل ، وهو أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئاً فى عبادته ، كما دل على ذلك سورتا الإخلاص والكافرون ، فالأولى فى التوحيد العلمى ، والثانية فى التوحيد العملى^(٣).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

"وأما تفسير التوحيد بما يستلزم نفى الصفات أو نفى علوه على العرش ، بل يستلزم نفى ما هو أعم من ذلك فهو شىء ابتدعته الجهمية لم ينطق به كتاب ولا سنة ولا إمام ، وكذلك جعل التشبيه ضد التوحيد ، وتفسير التشبيه بما فيه إثبات الصفات ، هو أيضاً باطل ، فإن التوحيد نقيضه الإشراف بالله تعالى ، والتمثيل له بخلقه وإن كان ينافى التوحيد فليس المراد بذلك ما يسمونه هم تشبيهاً"^(٤).

ومن هنا يتبين أن قولهم "إن تمام التوحيد يكون بنفى مشابهة الله للخلق" الذى يقصدون به نفى الصفات وتعطيلها ، إنما هو نقض للتوحيد ، ونفى له . بل من تمام التوحيد أن يوصف الله بما وصفه به نفسه من صفات

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/١٣٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ١/٤٧٨ .

(٣) انظر : موافقة صحيح المنقول ١/٢١١ ، بيان تلبيس الجهمية ١/٤٧٩ .

(٤) بيان تلبيس الجهمية ١/١٣٣ .

الكمال وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم دون تحريف أو تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل (١).

وأما زعمهم أن أهل السنة مشبهة لإثباتهم الصفات وأنهم لا يعرفون التوحيد ولا يعرفون ربهم .

يجاب على ذلك بأن المعتزلة إنما أطلقوا ذلك على أهل السنة نسبة لا اعتقادهم الفاسد في ربهم سبحانه الذي جردوه من صفاته وعطلوه منها (٢). وذلك لضلال عقولهم التي حجبها الباطل عن رؤية الحق ، فاختلفت عندها الموازين ، وغشيتها ظلام دامس ، فرأت الحق باطلاً والباطل حقاً.

ورميهم أهل السنة بأنهم مشبهة ، من أبرز الأدلة وأقوى الحجج على نفيهم لصفات الله تعالى ، لأنه مامن أحد ينفي شيئاً من صفات الله إلا ويسمى المثبت لها مشبهاً (٣).

قال أبو زرعة الرازي (٤) رحمه الله :

"المعطلة النافية الذين ينكرون صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكذبون بالأخبار الصحاح التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفات ويتأولونها بآرائهم المنكوسة على موافقة ما اعتقدوا من الضلالة وينسبون روايتها إلى التشبيه ، فمن نسب الواصفين ربهم تبارك وتعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من غير تمثيل ولا تشبيه

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ٢١١/١ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار ٢١٦/١ .

(٣) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٠٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٨ .

(٤) أبو زرعة الرازي :

هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، أبو زرعة الرازي ، أحد الأعلام . إمام حافظ ، ثقة مشهور . قال ابن راهويه : "كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل" . مات سنة ٢٦٤ هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٣٢٤/٥ - ٣٢٦ ، تاريخ بغداد ٣٢٦/١٠ - ٣٣٧ ، الكاشف

٢٣٠/٢ ، تذكرة الحفاظ ٥٥٧/٢ - ٥٥٩ ، تقريب التهذيب ٥٣٦/١ .

إلى التشبيه فهو معطل ناف ويستدل عليهم بنسبتهم إليهم إلى التشبيه أنهم معطلة نافية ، كذلك كان أهل العلم يقولون منهم : عبد الله بن المبارك ، ووكيعة بن الجراح " (١) (٢) .

وقد نقل الإمام اللالكائي رحمه الله عن إسحق بن راهويه وأبي حاتم (٣) نحو كلام أبي زرعة (٤) .

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني رحمه الله :
"وعلمة أهل البدع شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتقارهم لهم ، وتسميتهم إليهم حشوية (٥) ، و"جهلة" و"ظاهرة" ومشبهة اعتقاداً منهم في أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها بمعزل عن العلم ، وأن العلم ما يلقى الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة ،

(١) وكيعة بن الجراح :

هو وكيعة بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أبو سفيان الكوفي ، ثقة حافظ عابد . قال عنه الذهبي : وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ . مات سنة ١٩٧ هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٣٧/٩ ، تاريخ بغداد ٤٦٦/١٣-٤٨١ ، تذكرة الحفاظ ٣٠٦/١ ، الكاشف ٢٣٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤٠/٩-١٦٨ ، تهذيب التهذيب ١٢٣/١١ ، تقريب التهذيب ٣٣١/٢ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١٨٧/١ ، بيان تلبيس الجهمية ١٠٥/١-١٠٦ .

(٣) أبو حاتم :

هو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي ، أبو حاتم الرازي ، أحد الحفاظ ، قال موسى بن إسحاق الأنصاري : مارأيت أحفظ منه . مات سنة ٢٧٧ هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٢٠٤/٧ ، تاريخ بغداد ٧٣/٢-٧٧ ، تذكرة الحفاظ ٥٦٧/٢-٥٦٩ ، الكاشف ١٨/٣ ، تهذيب التهذيب ٣١/٩-٣٤ ، تقريب التهذيب ١٤٣/٢ .

(٤) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٢/٢-٥٣٣ .

(٥) الحشوية :

هو لفظ لا يدل على شخص معين ولا على مقالة معينة ، ولذا أطلق عدة إطلاقات من ذلك : إطلاقه على العامة الذين هم حشو الناس . وعلى المجسمة الذين يصفون الله بالجسمية ، وعلى الذين لا يرون البحث في آيات الصفات . وفرق المبتدعة تطلقه على أهل السنة الذين يشبّهون صفات الله تعالى .
انظر : منهاج السنة ٥٢٠/٢-٥٢١ مع الهامش .

ووساوس صدورهم المظلمة ، وهو اجس قلوبهم الخالية عن الخير العاطلة ، وحجبهم بل شبههم الداحضة الباطلة، بل {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} (١)، {ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء} (٢) (٣).

وأهل السنة متفقون جميعاً على تنزيه الله عن مماثلة الخلق ومشابھتهم ، وأما المشبهة فهم الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه (٤). وأما قولهم بأن التشبيه وقع في الأمة نتيجة للتعلق بالآيات المتشابهة التي توهم التشبيه - يعنون بذلك آيات الصفات - والتي يجب أن تأول لتوافق دليل العقل والآيات المحكمة .

فهو قول نتج من قصور فهم المعتزلة للآيات المتشابهة في كتاب الله ، والآيات المحكمة . أضف إلى ذلك تحريفهم النصوص وتعطيلهم لها بحجة أن ذلك تأويل سائغ .

ولكى ينكشف هذا الزعم ويزول مابه من لبس لابد من بيان المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى . وهل آيات الصفات تعد من المتشابه؟ ثم نخرج بعد ذلك إلى بيان التأويل ومايجوز منه وما لايجوز . وهل نصوص الصفات تخضع للتأويل كما يزعم أهل الاعتزال؟

أما المحكم والمتشابه في كتاب الله فعلى نوعين :

النوع الأول : هو الأحكام العام والتشابه العام :

فقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم ، كما وصفه بأنه متشابه .

وذلك في قوله : {الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} (٥) .

(١) سورة محمد : آية ٢٣

(٢) سورة الحج : آية ١٨

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١٠٦/١ . "صبيحة إسماعيل" ص ١٠٦ ، الجزء ١٠ ، دار إسماعيل المكي ، ١٣٨٠ هـ - ١٣٨١ هـ

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٠٨ .

(٥) سورة هود : آية ١

وقال تعالى : {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني} (١).
فإحكامه هنا : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره ، والرشد
من الغي في أوامره .

والمراد بالتشابه هنا : تماثل الكلام وتناسبه ، وهو ضد الاختلاف
المذكور في قوله تعالى : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً} (٢).

فلا تجد فيه أمراً ونقيضه ، ولانهيأً ونقيضه ، وإنما يشبه بعضه بعضاً
ويصدق بعضه بعضاً .

وهذا التشابه العام لا ينافي الإحكام العام ، بل هو مصدق له (٣).
النوع الثاني : الإحكام الخاص والتشابه الخاص .

فإن الله وصف بعض القرآن بأنه محكم ، كما وصف بعضه بأنه
متشابه ، فقال تعالى :

{هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب
وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة
وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به
كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب} (٤).

فالمحكم هنا بخلاف المتشابه ، وهو الذى لا التباس فيه ولا احتمال
لوضوحه ، وأما المتشابه فهو المشتبه بغيره المحتمل الملتبس .

ويتعين معنى التشابه هنا على موضع الاختلاف فى الوقوف على الآية .
فجمهور سلف الأمة وخلفها على أن الوقف على قوله تعالى : {وما يعلم
تأويله إلا الله}.

فعلى هذا فإن الله قد استأثر بعلم التشابه ولا يعلمه أحد سواه .

(١) سورة الزمر : آية ٢٣

(٢) سورة النساء : آية ٨٢

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٥٩/٣ - ٦١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٤ .

(٤) سورة آل عمران : آية ٧

وجاء عن ابن عباس ومجاهد أن الراسخين في العلم معطوف على اسم الله وأنهم داخلون في علم المتشابه .
وعند التحقيق نجد أنه لامنافاة بين القولين .

فمراد الجمهور بالمتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ، هو الذى طوى الله غيبه عن جميع الخلق مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور . فهذا لا يعلمه أحد من الخلق .

ومراد ابن عباس ومجاهد بالمتشابه المتشابه النسبى الإضافى الذى يشته على بعض الناس دون بعض ، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم مايزيل عنهم هذا الاشتباه (١).

وعلى هذا فمن أطلق على آيات الصفات وأحاديثها بأنها من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ، يستفصل في مراده . فإن أراد حقائقتها وكيفياتها فذلك قول صحيح لأنه لا أحد يعلم كنه صفات الله وكيفياتها إلا هو .

وإن أراد بذلك معانيها فإن الراسخين في العلم يعرفون معانيها ويفرقون بين صفة وأخرى ، فالسمع ليس هو البصر ، والعلم ليس هو القدرة ، فإن السلف لا يفوضون معانى صفات الله ، وإنما يفوضون كيفياتها .

وهكذا قال مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى : {الرحمن على العرش استوى} (٢). قال : "الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" .

فبين أن الاستواء معلوم ، أى معناه في اللغة ، وكيفية ذلك مجهولة فلا يعلمها إلا الله سبحانه (٣).

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٩/٤-١٨ ، مجموع الفتاوى ٣/٦٢،٥٥،٥٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٣-٢١٤ .

(٢) سورة طه : آية ٥

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٥٨-٦٥،٥٩-٦٦ ، وانظر ١٨١/٢ الهامش .

وأما التأويل فقد صار بتعدد الاصطلاحات يستعمل في ثلاثة معان : أحدها : هو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله . وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقتزن به ، وهذا الذى عناه من تكلم في تأويل نصوص الصفات . الثانى : التأويل بمعنى التفسير . وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن جرير ونحوه ، ومرادهم بذلك بيان الكلام ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، ويحمد منه ما كان حقاً ويرد ما كان باطلاً .

الثالث : التأويل فى كتاب الله وسنة رسوله وهو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام . فتأويل الخبر هو عين المخبر به . وتأويل الأمر هو عين المأمور به . قال تعالى : {هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق} (١) . وقوله تعالى : {هذا تأويل رؤياى من قبل} (٢) إلى غير ذلك من الآيات .

وفى السنة ما جاء عن عائشة رضى الله عنها : "كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثّر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لى" يتأول القرآن (٣) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكره لأنواع التأويل

السابقة :

(١) سورة الأعراف : آية ٥٣

(٢) سورة يوسف : آية ١٠٠

(٣) انظر : المرجع السابق ٥٥/٣-٥٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣ .

والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأذان (١٠) ، باب التسييح والدعاء فى السجود (١٣٩) ، ١٩٩/١ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة النصر (١١٠) ، باب (٢) ، ٩٣/٦ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصلاة (٤) ، باب ما يقال فى الركوع والسجود (٤٢) برقم ٤٨٤ ، ٥٠/١ .

"وأما التأويل المذموم والباطل ، فهو تأويل أهل التحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ، ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ، ويدعون أن في ظاهره من المحذور ماهو نظير المحذور اللازم فيما أثبتوه بالعقل ، ويصرفونه إلى معاني هي نظير المعاني التي نفوها عنه ، فيكون مانفوه من جنس ما أثبتوه ، فإن كان الثابت حقاً ممكناً كان المنفى مثله ، وإن كان المنفى باطلاً ممتنعاً كان الثابت مثله" (١).

فهذا في الحقيقة ليس تأويلاً وإنما هو تحريف للنصوص عن معانيها ، وصرفها عن مدلولاتها ، وإن سموا ذلك تأويلاً تزويناً للباطل وزخرفة له ، وقد ذم الله المزخرفين للباطل في قوله : {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً} (٢). وقد صيروا لفظ التأويل مستعملاً في غير معناه الأصلي (٣).

والذى دفعهم إلى ذلك ظنهم الفاسد إن ظاهر نصوص الصفات يفيد التشبيه وهو كفر وضلال ، فيجب صرفها عن هذا الظاهر .

وهذا نتج لقصور فهمهم وقلة علمهم كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

فمعاذ الله أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يفيد الضلال والكفر ، بل كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو الحق ولا يدل إلا على حق ، ومحال أن يدل على باطل أو ضلال ، وليس المعاني الفاسدة ظاهره ولا مقتضاه (٤).

(١) مجموع الفتاوى ٦٧/٣ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١١٢

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٣ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢١٥ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كمال بيانه وفصاحه لسانه وحسن تعبيره عن المعاني ، وكمال معرفته وعلمه ، وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلق ، يستحيل عليه أن يخاطبهم بشيء وهو لا يريد منهم ما يدل عليه خطابه ، بل يريد منهم أمراً بعيداً يدل عليه كدلالة الألفاظ والأحاجي ، ويوقع الأمة بذلك في أودية التأويلات وشعاب الاحتمالات . سبحانك هذا بهتان عظيم .

فيستحيل عليه صلى الله عليه وسلم أن يريد من كلامه ما يحمله عليه المحرفون للكلم عن مواضعه ، المتأولون له تأويلاً باطلاً . وأن يكون كلامه من جنس الألفاظ والأحاجي (١).

وقد فتحوا بذلك باب شر عظيم على أمة الإسلام ، دخلت من خلاله أنواع من الضلالات والبدع ، وذلك لما سوغوا صرف القرآن عن دلالة المفهومة بغير دليل شرعي . ولم يحددوا الضابط فيما يجوز تأويله مما لا يجوز؟ فإن زعموا أن الضابط العقل ، ومادل على استحالة أولناه . ولكن ماهو العقل الذي يرجع إليه عند تأويل النصوص عن ظواهرها؟ هل هو عقل القرمطي (٢) الباطني الذي يزعم به بطلان ظواهر الشرع ، أم هو عقل الفيلسوف الذي يزعم به بطلان حشر الأجساد ، أم هي عقولكم يا أهل الاعتزال التي تزعمون بها نفى صفات الله ورؤيته؟

(١) انظر : طريق الهجرتين ص ٢٣٥ .

(٢) القرمطي :

نسبة إلى القرامطة . وهي حركة باطنية هدامة ، اعتمدت التنظيم السري العسكري . ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وحقيقتها الإلحاد والشيوعية والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية . سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذي نشرها في سواد الكوفة سنة ٢٧٨ هـ .

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٩٥ .

فتسليط العقول على نصوص الوحي بالتأويلات التى لاضابط لها ،
ولادليل عليها يلزم منه محذوران عظيمان :

الأول : عدم الإقرار بشيء من معانى الكتاب والسنة واستنفاذ الجهد
فى بحوث طويلة يقررها العقل ، والعقول مختلفة متباينة ، وكل يدعى أن
الحق مذهب إليه عقله ، فيؤول الأمر إلى الحيرة .

الثانى : يستحيل على القلوب أن تجزم بشيء تعتقده مما جاء به الرسول
صلى الله عليه وسلم ، لأن ظاهر ذلك غير مراد . فتعزل نصوص الوحي عن
الدلالة والإرشاد ، وتصبح تابعة بعد أن كانت متبوعة وتهوى من مقام
الاعتماد لتكون فى موضع الاعتقاد كما يفعل بها أهل التأويل الذين قدموا
العقل على التنزيل، وهل ذلك إلا فتح لباب الزندقة (١)(٢) .

أما زعمهم بأن المراد بالآيات التى ذكرت فيها الصفات ، ذات الله تعالى .

يلزمهم من هذا الزعم أمران :

الأول : وجود ذات بغير صفات .

وهذا أمر يستنكره كل عاقل ، لأنه لا توجد ذات مجردة عن الصفات، إلا
وجوداً ذهنياً لا حقيقة له فى الخارج، فالذات المستلزمة للصفة لا توجد إلا وهى
متصفة بالصفة (٣) .

(١) الزندقة :

الزندقة تطلق ويراد بها عدة معان ، فقد كانت تطلق على أتباع " مانى " ثم
أطلقت على الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا النبوات ، ثم على
من أسر الكفر وأظهر الإسلام ، فتكون مرادفة للنفاق ، ثم اتسع هذا اللفظ فشمل
أهل المجون والخلاعة وكل ما كان فيه خروج عن الدين بالقول والعمل .
وكل اتجاهات الزنادقة تلتقى فى هدف واحد وهو الوقوف فى وجه الإسلام .
النفاق والزندقة وأثرهما فى مواجهة الدعوة الإسلامية : ص : ٣٥ .
وانظر : لسان العرب : ١٤٧/١ ، مجموع الفتاوى : ٦٣/٥ ، فتح البارى :
٢٧١-٢٧٠/١٢ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ص ٥٠٩/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٩٨ .

الثانى : إن الله هو الذات المجردة عن الصفات .

وهذا قول باطل ، والحق خلافه ، لأن الله تعالى ذكره هو الذات الموصوفة بالصفات اللازمة ، ولا يتناول اسم الله ذاتا مجردة عن الصفات أصلا ، لأنه لا يمكن وجود ذلك أبدا ، ولذا قال الإمام أحمد رحمه الله فى مناظرته للجهمية :

"لأنقول الله وعلمه ، والله وقدرته ، والله ونوره ، ولكن نقول : الله بعلمه وقدرته ونوره : هو إله واحد" (١).

وعند التحقيق تجد أن هؤلاء مضطرين لإثبات صفات لله تعالى ، لأنهم أثبتوا كونه حيا ، وكونه عالما ، وكونه قادرا ، ولا يجعلون هذا هو هذا ، ولا هذا هو هذا ، ولا هذه الأمور هى الذات ، فأثبتوا بذلك معانى زائدة على الذات المجردة (٢).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم بتصرف ٧٩١/٢-٧٩٢ ، وانظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٩٩ .

وقول الإمام أحمد فى كتابه الرد على الجهمية والزنادقة ص ١٣٣-١٣٤ .

(٢) منهاج الاعتدال بتصرف ص ٩٧ .

(٢) رؤية الله تعالى :

لقد أجمعت المعتزلة على القول بنفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ، وقد نص المعتزلة أنفسهم على هذا الإجماع ، كما أشارت كثير من كتب الفرق إليه (١).

وزعموا أن القول بإثباتها قول حادث ومبتدع بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته (٢).

ولقد خيم طاغوت التجسيم على أذهان المعتزلة فأروا في إثبات الرؤية حصوله فنفوها كما نفوا إثبات الصفات بمثل ذلك .

يقول عبد الجبار :

"لأحد يدعى أنه يرى الله سبحانه إلا من اعتقده جسماً مصوراً بصورة مخصوصة ، أو يعتقد فيه أنه يحل في الأجسام" (٣).

فكل ما يقع عليه البصر إنما هو محدود ضعيف ، محوى ، محاط به ، له كل وبعض ، وفوق وتحت ، ويمين وشمال ، وأمام وخلف ، ولا يمكن أن يوصف الله بذلك لأن ذلك من صفات الأجسام ، والله ليس بجسم (٤). فمن أثبتها فقد انغمس في وحل التشبيه وتغطى بدثاره (٥). وبالتالي يتبع إثباتها لوازم باطلة - على رأيهم - يقول القاضي عبد الجبار :

"إن إثبات الرؤية يؤدي إلى حدوثه ، وإلى حدوث معنى فيه ، وإلى تشبيهه بخلقه ، وإلى تجويره في حكمه ، وإلى تكذيبه في خبره ، لأن الشيء إنما يرى إذا كان مقابلاً ، أو حالاً في المقابل ، وهذه من صفات الأجسام ، فيجب أن يكون القديم تعالى جسماً ، وإذا كان جسماً يجب أن يكون محدثاً

(١) انظر : المغنى ١٣٩/٤ ، باب ذكر المعتزلة ص ٦ ، مقالات الإسلاميين ٢٣٨/١ ، الفرق بين الفرق ص ١١٤-١١٥ ، الملل والنحل ٤٥/١ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص ١٥٨ .

(٣) المغنى ٩٩/٤ .

(٤) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص ٧٠ ، قصيدة الصاحب ص ٥٦ .

(٥) انظر : المحيط بالتكليف ص ٢٠٨ ، فضل الاعتزال ص ١٩٦-١٩٧ .

لأن الأجسام لا تخلو من المعاني المحدثة فيؤدي إلى حدوثه ، وكذلك إذا كان جسماً تجوز عليه الحاجة ، وتجوز عليه الزيادة والنقصان ، وإذا جازت عليه الحاجة جاز أن يجور في حكمه ، ويكذب في خبره ، تعالى عن ذلك ، فإذا كان إثبات الرؤية لله تعالى يؤدي إلى كل هذه المحالات ، فيجب أن ينفي عنه على ما نقوله "(١)".

وتطاول بعضهم فكفر من قال برؤية الله ، لأنه مشبه لله بخلقه والمشبه كافر (٢).

وليس هذا منتهى قولهم في نفى الرؤية ، بل زعموا أنه يستحيل أن يرى نفسه ، لأنه يستحيل في ذاته أن يرى ، فذاته لا ترى (٣). وهل يرى غيره؟ فهذا موضع اختلاف بينهم ، أجازة قوم ومنعه آخرون (٤).

كما اختلفوا في رؤيته بالقلوب ، فقال أبو الهذيل وأكثر المعتزلة : نرى الله بقلوبنا بمعنى أنا نعلمه بقلوبنا ، وأنكر بعضهم ذلك (٥).

وقد صرحوا بأن إثبات الرؤية لا يمكن الاستدلال عليه بالسمع ، أى بالقرآن والسنة ، لأن الاستدلال بذلك يبنى على أنه تعالى عدل حكيم لا يظهر المعجز على الكذابين ، ومن لا يقول بذلك فلا يمكنه الاستدلال بالسمع على شيء أصلاً (٦). بل "لاسمع ورد مصرحاً بأنه سبحانه يرى بالأبصار" (٧)، "ولا في كتاب الله جل وعز ذكر الرؤية فكيف يصح أن يدعى أنه تعالى سمى نفسه بأنه يرى ، أو ورد السمع به" (٨).

(١) شرح الأصول ص ٢٧٦ .

(٢) انظر : الانتصار ص ٥٥ .

(٣) انظر : المغنى ٩٤/٤ - ٩٥ ، قصيدة الصاحب ص ٥٦ .

(٤) انظر : الفرق بين الفرق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين ٢٣٨/١ .

(٦) انظر : شرح الأصول ص ٢٦٢ .

(٧) المغنى ١٣٧/٤ .

(٨) المرجع السابق ١٣٨/٤ .

ولذا كان عمدة أدلتهم في نفى الرؤية العقل ، وإن كانوا قد اتبعوا ذلك بأدلة عقلية .

ولهم طريقان عقليان في ذلك . بينهما القاضى عبد الجبار فقال :
"أحدهما دليل المقابلة ، والثانى دليل الموانع .

١ - فتحريير الأول : "إن من شأن أحدنا أن لا يرى إلا إذا كانت له حاسة صحيحة ، ولايكفى ذلك دون أن يكون المرئى مقابلاً لحاسته ، إن كان إنما يراه بلاواسطة ، أو يقابل ماقابل حاسته إن كان يرى بواسطة هي المرأة ، وكانت هذه القضية لازمة وواجبة في الرأى بحاسة ، لأنه مهما حصل الشرطان صح كونه رائياً ، ومهما فقدوا أو فقد أحدهما امتنعت الرؤية . ومعلوم أن القديم يرى الجوهر ولا يقابله ، فإذا ثبتت هذه الجملة ، وكان من حق الرأى هنا أن لا يرى إلا ما هو مقابل لنا ، وكانت هذه القضية فيه تعالى ممتنعة ، فيجب أن تمتنع الرؤية" (١).

٢ - وتحرير الثانى : إن المنع من الرؤية إنما يصح على من يجوز أن يكون رائياً ، بأن يكون حياً لا آفة به ، وحاسته صحيحة ، و المرئى موجود ، فحينئذ يرد عليه من رؤية هذا المرئى منع ، والموانع أجمع راجعة إلى ما هو من تمام الحاسة ، وهو الشعاع الذى لابد من حصوله مع المرئى على وجه مخصوص ، ولا يحدث ذلك إلا مع الأجسام ، والله تعالى ليس بجسم فامتنعت رؤيته لذلك أيضاً (٢).

وخلاصة ما ذكر إن الشئ إنما يرى إذا كان مقابلاً ، أو حالاً في المقابل ، أو في حكم المقابل وهذه من صفات الأجسام (٣).

أو يوجد رأى ومرئى ولأمانع من حدوث الرؤية ، والموانع ترجع إلى الشعاع الذى هو من صفات الأجسام ، والله ليس بجسم ، فتمتنع الرؤية .

(١) المحيط بالتكليف ص ٢٠٩-٢١٠ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢١٠-٢١١ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص ٢٧٦ .

فهذا عن طرقهم العقلية وأما النقلية فقد استدلوا بأدلة لتأييد ماسبق .
من ذلك :

(١) قوله تعالى :

{لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير}{(١)}.

والدلالة من الآية على وجهين :

الأول : إن الإدراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية ، فلاحال يعقل للإنسان إذا أدرك الشيء ورآه إلا حالة واحدة ، وهو كونه رائياً له . ولا يجوز في اللغة أن يراد بالإدراك إلا الرؤية بالبصر ، ولذلك يجريان في النفي والإثبات على حد واحد ، وقد نفى عن نفسه إدراك الأبصار وذلك نفى لرؤيتها . والنفي ههنا عام من غير توقيت ، فيجب أن يقطع على أن المراد بذلك في كل حال لافرق بين الدنيا والآخرة .

الثاني : أنه سبحانه مدح نفسه بنفى الإدراك عنها ، مدحاً يرجع إلى ذاته ، فإثبات الإدراك له لا يكون إلا نقصاً وذمماً لأنه نفى ما تمدح الله به ، وصفة النقص لا تجوز في حقه سبحانه وتعالى في الدنيا ولا في الآخرة . فلهذا يجب أن لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة (٢).

وقد عد المعتزلة هذه الآية من الآيات المحكمة التي يجب أن تحمل بقية الآيات التي زعموا أنها متشابهة عليها (٣).

وخلاصة وجهي الاستدلال بالآية :

الأول : إن الإدراك المقرون بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية وقد نفى ، والنفي عام في جميع الأوقات والأزمان .

الثاني : إن الله تمدح بكونه لا يرى - على فهمهم - وما كان عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله عنه (٤).

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) انظر : المغني ٤/١٤٦، ١٥٠ ، شرح الأصول ص ٢٣٣ ، المحيط ص ٢١٢ ، متشابه القرآن ص ٢٥٥ ، شرح قصيدة الصاحب ص ٥٤ .

(٣) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص ١٠٧ .

(٤) رؤية الله تعالى ص ٣٥ .

(٢) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}{(١)}.

ولهم عدة أوجه في الاستدلال بالآية :

الأول : قوله تعالى : "لن تراني".

إن الله أنكر على موسى طلبه فغيره أولى بالإنكار ، لأن الرؤية تضمن

المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم .

فإن قيل : كيف طلب موسى عليه السلام رؤية الله وهو من أعلم

الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز . ومن ذلك تعالىه عن الرؤية ؟

الجواب : بأنه ما طلب ذلك إلا لبيكت الذين طلبوا رؤية الله عندما

قالوا : "أرنا الله جهرة" فأنكر عليهم ذلك ، وبين لهم أنه خطأ ، ولكنهم

تمادوا في لجاجهم وأصرروا على طلب الرؤية ، فأراد موسى أن يسمعوا النص

من عند الله باستحالة ذلك فقال له "لن تراني" فإذا سمعوه تيقنوا وانزاح

عنهم مادخلهم من شبه ، فطلب موسى عبارة عن ترجمة عن مقترحهم

وحكاية عن قولهم (٢).

وقال عبد الجبار :

"إنه التمس من الله تعالى أن يعرفه نفسه ضرورة بقوله "رب أرني

أنظر إليك" لأن الرؤية قد تنطلق على المعرفة ، فكأنه قال : عرفني نفسك

باضطرار لأكون من الشبه أبعد ، وإلى السكون والطمأنينة أقرب ، وأراد أن

يظهر تعالى من الآيات العظيمة ما عنده تحصل هذه المعرفة ، فذكر نفسه في

قوله : "أنظر إليك" وإنما أراد الآيات التي يحدثها ، فقال تعالى : "لن تراني"

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٣

(٢) انظر : الكشف ٨٩/٢ - ٩٠ .

مبيناً له أن مع التكليف لا يجوز أن يعرفه باضطرار^(١).
 الثانى : إن "لن" تفيد تأكيد النفى الذى تعطيه "لا" ، لأن "لا" تنفى
 المستقبل . وذلك كقوله : {لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له} (٢)، فقوله
 "لاتدركه الأبصار" نفى للرؤية فيما يستقبل ، وقوله "لن ترانى" تأكيد وبيان
 لأن المنفى مناف لصفاته (٣).

وقد طرح الزمخشري فى هذا الموضع سؤالاً : "فإن قلت كيف اتصل
 الاستدراك فى قوله {ولكن انظر الى الجبل} بما قبله؟
 أجاب قائلًا : "اتصل به على معنى إن النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن
 عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت
 الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية
 لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره كأنه عز وعلا حقق عند
 طلب الرؤية مأمثله عند نسبة الولد إليه فى قوله : {وتخر الجبال هداً أن
 دعوا للرحمن ولداً} (٤)(٥).

ويؤيد ماذهب إليه الزمخشري فى أن "لن" تفيد التأييد القاضى عبد
 الجبار فيقول :

"يدل ظاهره - أى قوله "لن ترانى" - على أنه لا يراه أبداً ، لأن
 النفى على هذا الوجه يوجب ذلك فى اللغة ، كقوله تعالى : {فإن لم تفعلوا
 ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس} (٦) إلى ما شاكله" (٧).

(١) متشابه القرآن ص ٢٩٤ .

(٢) سورة الحج : آية ٧٣

(٣) انظر : الكشف ٨٩/٢ - ٩٠ .

(٤) سورة مريم : آية ٩٠-٩١

(٥) انظر المرجع السابق ٨٩/٢ - ٩٠ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٤

(٧) المغنى ١٦٩/٤ - ١٧٠ .

ويقول : "فأما شيوخنا رحمهم الله ، فقد استدلوا بهذه الآية على أنه تعالى لا يرى ، لأنه تعالى قال : "لن تراني" وذلك يوجب نفى رؤيته تعالى في المستقبل أبداً ، فإذا صح ذلك من موسى وجب مثله في الأنبياء والمؤمنين" (١).

الثالث : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً} .

زعم الزمخشري أن ذلك تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه ويسويه بالأرض (٢).

واستفاض عبد الجبار في بيان وجه الدلالة فذكر أن الله نفى أن يراه موسى عليه السلام وأكد ذلك بأن علقه باستقرار الجبل ، وقد جعل الجبل دكاً منبهاً بذلك على أن رؤيته لا تقع لتعليقه بإياها بأمر وجد ضده على طريق التباعد المشهور عند العرب ، فهم يؤكدون الشيء بما يعلم أنه لا يقع على جهة التباعد كقول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى

وصار القار كاللبن الحليب

وكقوله تعالى : {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط} (٣).

ثم جعل الله الجبل دكاً مبيناً به انتفاء استقراره وفي ذلك دليل على أن الرؤية لا تقع (٤).

وقد أورد عبد الجبار اعتراضاً حول معنى قول الله تعالى : {فلما تجلى ربه للجبل} ، قال فيه :

(١) متشابه القرآن ص ٢٩٦ .

(٢) انظر : الكشف ٩١/٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٠

(٤) انظر : المغنى ١٦١/٤-١٦٢ ، متشابه القرآن ص ٢٩٦-٢٩٧ .

"والمراد بقوله : {فلما تجلى ربه للجبل} ، فلما أظهر من آياته وقدرته ما أوجب أن يصير دكاً . وقد يقال تجلى بمعنى جلى ، كما يقال : حدث وتحدث ، ولذلك قال في الساعة : {لا يجليها لوقتها إلا هو} (١) ، وظاهر جلى وتجلي : هو الإظهار ، فيجب أن يحمل على إظهار القدرة ، يبين ذلك أنه تعالى علق جعله الجبل دكاً بالتجلي ، ولو أراد به تجلى ذاته لم يكن لذلك معنى ، لأنه لو كان الجبل يجب أن يصير دكاً ، أو أراد : تجلى بمعنى المقابل فلو يجب أن لا يستقر له مكان ، بل كان يجب في العرش أن يصير دكاً ، وأن يكون بهذه الصفة أحق .

ولو كان في الحقيقة تجلى الجبل ، بمعنى أنه أظهر وزال الحجب ، لكان من على الجبل يراه أيضاً ، فكان لا يصح مع ذلك قوله : "لن تراني" وكان لا يصح أن يعلق نفى الرؤية بأن لا يستقر الجبل ، والمعلوم أنه لا يستقر بأن ينكشف ويرى ، لأن ذلك في حكم أن يجعل الشرط في أن لا يرى ما يوجب أن يرى ، وذلك متناقض" (٢).

وقال : "فأما التجلى فإنما يصح أن يتعلق به من يزعم أنه تعالى جسم يجوز عليه الانتقال ، فأما من لا يقول بذلك ويقول إنه لا كالأجسام ، وأنه ليس بمؤلف فتعلقه بهذا الظاهر ، وإن أطلق هذا القول فيه تعالى ، لا يصح" (٣).

الرابع : قوله تعالى : {وخر موسى صعقاً} .

قال الزمخشري : "وخر موسى صعقاً" من هول مارأى .. ومعناه خر مغشياً عليه غشية كالموت ، وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يلکزونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة؟ (٤)

(١) سورة الأعراف : آية ١٨٧

(٢) متشابه القرآن ص ٢٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٧ .

(٤) الكشف ٩١/٢ .

الخامس : قوله تعالى : {قال سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين} .
قال الزمخشري : "في قوله تعالى : "قال سبحانه" أى أنزهك مما لا يجوز
عليك من الرؤية وغيرها . "تبت إليك" : من طلب الرؤية . "وأنا أول
المؤمنين" : بأنك لست بمردى ولا مدرك بشيء من الحواس .
ثم يورد سؤالاً فيقول : "فإن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته
فمم تاب موسى ؟"

قلت : من إجراءات تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على
لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى . فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية
فى هذه الآية ، وكيف أرفج الجبل بطالبيها وجعله دكاً وكيف أصعقهم ،
ولم يخل كلمه من نفيان ذلك مبالغة فى إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه
ملتجأً إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال "أنا أول المؤمنين"
ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا
هذه العظيمة مذهباً ولا يغرّنكم تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم .
والقول ماقال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة

وجماعة حمر لعمرى موكفة (١)

قد شبهوه بخلقهم وتخوفوا

شنع الورى فتستروا بالبلكفة (٢)

ثم أورد المعتزلة أحاديث وآثاراً زعموا أنها تدل على نفى الرؤية منها :

(١) ماروى عن سمرة بن جندب أنه قال :

سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نرى ربنا فى الآخرة ؟

(١) موكفة : من الوكف : محرّكة . وهو الميل والجور ، والعيب والإثم .

القاموس المحيط ص ١١١٣ .

(٢) الكشف ٩١/٢ - ٩٢ .

ويعنى بالبلكفة : قول أهل السنة : بلا كيف .

قال : فانتفض فسقط ولصق بالأرض وقال : "لا يراه أحد ولا ينبغي لأحد أن يراه" (١).

(٢) مناسب لعائشة :

"إنها سمعت بأن القوم يقولون : بأن الله يرى ، فقالت : لقد قف شعري مما قلتموه ، ودفعت ذلك بقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} (٢).

وأما موقفهم من أدلة الإثبات اقتصر على ذكر مثالين أحدهما من القرآن والآخر من السنة .
المثال الأول :

قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة} (٣).

ولهم أوجه في صرف دلالتها :

(١) إن ظاهرها يقتضى التشبيه فيجب تأويلها (٤).

(٢) إنها من المتشابه الذى يجب أن يأول لكى يتفق مع الآيات المحكمة

التي تنفى الرؤية كقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار} (٥).

ولهم أوجه في تأويلها :

قال عبد الجبار :

"وقوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} لا يدل ظاهره على

أنه تعالى يرى من وجوه :

(١) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص ٥٤ .

ولم أقف على هذا الحديث فى شيء من كتب أهل العلم . وهو مناهض للآيات والأحاديث التي تثبت رؤية الله فى الآخرة . ولا يبعد وضعه .

(٢) فضل الاعتزال ص ١٥٩ .

وسوف يأتي تخريج حديث عائشة والكلام عنه .

(٣) سورة القيامة : آية ٢٢ - ٢٣

(٤) انظر : المحيط بالتكليف ص ٢٠٨ .

(٥) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص ١٠٨ .

أحدها : أنه تعالى ذكر أنها ناظرة إلى ربها ، والنظر غير الرؤية ، لأنه إذا علق بالعين فالمراد طلب الرؤية ، كما إذا علق بالقلب ، فالمراد طلب المعرفة ، ولذلك يقول القائل : نظرت إلى الشيء فلم أره ، ونظرت إليه حتى رأيته ، فلذلك نعلم باضطرار أن الناظر ناظر ولانعلمه رائيّاً إلا بخبره . ولذلك أضافت العرب النظر لإضافات ، فجعلت منه نظر الراضى والغضبان ... إلى غير ذلك ، ولم تضاف الرؤية على هذا الحد ، وإذا كان النظر غير الرؤية - لما ذكرناه - فكيف يدل الظاهر على أنهم يرون الله ؟

ومتى قالوا : إذا ثبت بالظاهر أنه ينظر إليه ، وجب أن يكون مما يصح رؤيته ، قلنا : هذا يؤدي إلى أن يكون جسماً في جهة مخصوصة ، لأن النظر هو تقليب الحدقة نحو الشيء التماساً لرؤيته وهذا لا يصح إلا والمطلوب رؤيته في جهة مخصوصة ، وذلك يوجب أنه جسم ، تعالى الله عن ذلك ! ولهذا قلنا : إنه تعالى لما خلق النظر بنفسه ، وعلمنا أن ذلك لا يصح فيه ، وجب أن يكون المراد به الثواب ، لأن الحكم الذى يقتضيه الاسم إذا لم يصح فيما علق به ، وجب أن يكون المراد غيره ، كقوله تعالى : { واسأل القرية } ^(١) . إلى غير ذلك من وجوه المجاز .

والثانى : أنه تعالى وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وقد علمنا أن هذه اللفظة تفيد الجملة ، لأن الناظر هو الإنسان دون بعضه ، كما أنه العالم والقادر والفاعل ، فإذا صح وكان الإنسان يوصف على أنه ناظر على وجه فيراد به الانتظار ، وقد يراد به تقليب الحدقة طلباً للرؤية ، وقد يراد به التفكير بالقلب طلباً للمعرفة ، فليس فى الظاهر - إذن - دلالة على ما قاله القوم وهو محتمل له ولغيره .

والثالث : أنه تعالى أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان ، لا البعض المخصوص ، ولذلك وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وذلك يليق بها دون الأبعاض ، ولذلك قال من بعد : { وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة } ^(٢) ، فوصفها بالظن الذى لا يليق بالوجه . فإذا صح ذلك وجب كون

(١) سورة يوسف : آية ٨٢

(٢) سورة القيامة : آية ٢٤، ٢٥

الكلام مجملًا ، لأن الجملة إذا وصفت بأنها ناظرة ، لم يفهم أن المراد به الرؤية " (١) .

وقالوا : إن المراد بها ليس النظر بالأحداق ولكن النظر إلى ثوابه ومأعد لأوليائه ، فيكون قد حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : {واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها} (٢) . وقال الزمخشري :

"اختصاصه بنظرهم - أى المؤمنين - إليه لو كان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى تريد معنى التوقع والرجاء . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه" (٣) .

وقال أبو على الجبائى :

"إن" إلى "ههنا ليست حرف جر لكنها اسم وهى واحدة الآلاء وهى النعم فهى فى موضع مفعول ومعناه نعم ربها منتظرة" (٤) .

المثال الثانى :

قوله صلى الله عليه وسلم : "سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر" (٥) .

قعد عبد الجبار قاعدة عامة تكشف موقف المعتزلة من أحاديث الرؤية فقال :

(١) متشابه القرآن ص ٦٧٣-٦٧٤ .

(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص ٢١٣ ، شرح قصيدة الصاحب ص ٥٤-٥٥ . والآية هى ٨٢ من سورة يوسف .

(٣) الكشاف ١٦٥/٤ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣/٣ .

(٥) سوف يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .

"ومما يتعلقون به أخبار مروية عن النبي صلى الله عليه وآله ، وأكثرها يتضمن الجبر والتشبيه ، فيجب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله ، وإن قال فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوى حذف الحكاية ونقل الخبر" (١).

ثم تناول الحديث السابق مبينا بأنه أشق وأعظم ما يمسك به من يثبت الرؤية ، وقد حاول دفعه وردّه بأجوبة :
أحدها : إنه يتضمن الجبر والتشبيه ، لأن القمر لا يرى إلا مدوراً عالياً منوراً ، ولا يجوز أن يرى الله على هذا الحد . فلا بد من القطع على أن هذا الخبر كذب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لم يقله ، وإن قاله فإنما هو حكاية عن قوم .

الثانى : إنه يروى عن قيس بن أبى حازم (٢) عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم طعن فى قيس من وجهين :
الوجه الأول : إنه كان يرى رأى الخوارج . ودليله على ذلك أنه قال - أى قيس - : "منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول : انفروا إلى بقية الأحزاب - يعنى أهل النهروان - (٣) دخل بغضه قلبى" . فقال عبد الجبار : "ومن دخل بغض أمير المؤمنين قلبه ، فأقل أحواله أن لا يعتمد على قوله ولا يحتج بخبره" .

الوجه الثانى : قيل إنه خولط فى عقله آخر عمره ، والكتبة يكتبون عنه كعادتهم فى حال عدم التمييز ، ولاندرى أن هذا الخبر رواه وهو صحيح العقل أو مختلط .

(١) شرح الأصول ص ٢٦٨ .

(٢) تأتى ترجمته والكلام عنه .

(٣) النهروان :

موضع واسع بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

كان بها وقعة مشهورة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب مع الخوارج .

انظر : معجم البلدان ٣٢٤/٥ ، مرصد الإطلاع ١٤٠٧/٣ .

الثالث : لو صح وسلم فهو خير آحاد ، وخير الواحد لا يقتضى العلم ،
ومسألة الرؤية طريقها القطع والثبات .

الرابع : إنه معارض بأخبار رويت ، منها :
مارواه أبو قلابة عن أبي ذر أنه قال : قلت للنبي : "هل رأيت ربك" ؟
فقال : "نور هو ، أنى أراه" .
أى أنور هو ؟ كيف أراه؟ (١)

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
"لن يرى الله أحد في الدنيا ولا في الآخرة" (٢)(٣).
الخامس : إن المراد بالرؤية في الحديث العلم وليست الرؤية البصرية.
قال عبد الجبار :

ثم نتناوله نحن على وجه يوافق دلالة العقل ، فنقول المراد به سترون
ربكم يوم القيامة ، أى ستعلمون ربكم يوم القيامة كما تعلمون القمر ليلة
البدر . وعلى هذا قال : لاتضامون في رؤيته ، أى لاتشكون في رؤيته فعقبه
بالشك ، ولو كان بمعنى رؤية البصر لم يجز ذلك . والرؤية بمعنى العلم مما نطق
به القرآن ، وورد به الشعر" (٤).

وقال الزمخشري :

"سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر" بمعنى ستعرفونه معرفة
جلية هى في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى" (٥).
فحمل الرؤية على المعرفة بينما حملها عبد الجبار على العلم .

(١) سوف يأتي تخريج الحديث والكلام عنه .

(٢) لم أقف عليه في شيء من كتب أهل العلم . وهو معارض للآيات والأحاديث
الصحيحة التي تدل على رؤية الله في الآخرة ولا يبعد أن يكون موضوعا من قبل
أهل الاعتزال .

(٣) انظر : شرح الأصول ص ٢٦٨-٢٧٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(٥) الكشف ٩٢/٢ .

موقف السلف من رؤية الله ، والجواب على شبه المعتزلة :
لقد اتفق سلف هذه الأمة وأئمتها من أهل السنة والجماعة على أن الله سبحانه يرى في الدار الآخرة ، يراه المؤمنون رؤية حقيقية تليق به سبحانه وتعالى من غير إحاطة ولا كيفية .

كما اتفقوا على أنه لا يراه أحد بعيني رأسه في الدنيا ، وذلك لقوله تعالى لموسى { لن تراني } (١) ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت " (٢) . وهي وإن كانت جائزة عقلاً وليست بمستحيلة إلا أن البشر لا يطيقون رؤيته في هذه الدار لعجز أبصارهم وضعفها . ولذا من ادعى رؤية الله في الدنيا بعيني رأسه فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة . وهو ضال (٣) .

وإنما الخلاف في رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل بعينه في الدنيا ، فأثبت ذلك قوم ونفاه آخرون . والصحيح أنه لم يره بعينه لقوله في حديث أبي ذر : " نور أنى أراه " . وفي رواية " رأيت نوراً " (٤) . وموضوع رؤية الله في الآخرة من أشرف مسائل أصول الدين ، وهي أعظم أنواع النعيم الذي خص الله به أوليائه وحرمه أعداءه .

-
- (١) سورة الأعراف : آية ١٤٣
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٣٠/٢ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٠٨ .
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، من حديث بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كتاب الفتن وأشراط الساعة (٥٢) ، باب ذكر ابن صياد (١٩) برقم ٢٩٣١ ، ٢٢٤٥/٤ .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٣٨٩/٣ ، بيان تلبيس الجهمية ٣٥٨/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٥ ، لوامع الأنوار ٢٨٥/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٥٥/٧ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢٣٠/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، رؤية الله تعالى ص ١٣٠ .
والحديث : أخرجه مسلم في صحيحه بروايته . كتاب الإيمان (١) ، باب في قوله عليه السلام : " نور أنى أراه " ، وفي قوله : " رأيت نوراً " (٧٨) برقم ١٧٨ ، ١٦١/١ .

قال السفاريني رحمه الله :

"ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدراً وأعلاه وأعلاه خطراً وأمرأً ، وهى الغاية القصوى والنهاية العظمى التى شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون واتفق الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون وأئمة السلف والدين على ثبوتها فى دار القرار من غير شك ولا إنكار وإنما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والاعتزال" (١). وقد تضافرت على إثباتها أدلة الكتاب والسنة ، وأجمع على ذلك سلف الأمة (٢).

وهذه بعض النصوص التى تدل على إثباتها من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال سلفنا الصالح .

(أ) القرآن الكريم :

(١) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} (٣).

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة :

أحدها : إنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه مالا يجوز عليه ، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال .

الوجه الثانى : إن الله سبحانه لم ينكر عليه سؤاله ولو كان محالاً لأنكره عليه . ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف

(١) لوامع الأنوار ٢/٢٤١ .

وانظر : حادى الأرواح ص ٢١٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٩ .

(٢) انظر : حادى الأرواح ص ٢١٢ ، لوامع الأنوار ٢/٢٤١ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٥٠، ٤٩ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٤٣

يحيى الموتى لم ينكر عليه . ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله . ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال : {إني أعظك أن تكون من الجاهلين} (١).

الوجه الثالث : إنه أجابه بقوله : "لن تراني" ولم يقل لا تراني ولا أنى لست برئى ، ولا تجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله . وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الوجه الرابع : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني} . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار فكيف بالبشر الضعيف الذى خلق من ضعف .

الوجه الخامس : إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه وليس هذا بمتنع في مقدوره ، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته . بل لو كانت محالاً لكان ذلك نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام . الوجه السادس : قوله سبحانه وتعالى : {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً} وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبياؤه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ فأعلم سبحانه وتعالى موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف .

الوجه السابع : إن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم (٢).

(١) سورة هود : آية ٤٦

(٢) حادى الأرواح ص ٢١٢-٢١٣ بتصرف .

وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١-١٩٢ .

- (٢) قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة} (١).
 قال ابن عباس : "تنظر إلى وجه ربها عز وجل" .
 وقال الحسن (٢): "نظرت إلى ربها فنضرت بنوره" .
 وقال عكرمة (٣): "إلى ربها ناظرة" . تنظر إلى ربها نظراً!
 وذكر اللالكائي رحمه الله أنه قد قال بذلك جماعة من التابعين ،
 واستدل بالآية على جواز الرؤية مالك والشافعي رحمهما الله (٤).
 وهو قول المفسرين من أهل السنة (٥).
 قال الإمام ابن كثير رحمه الله : "{وجوه يومئذ ناضرة} من النضارة
 أى حسنة بهية مشرقة مسرورة . {إلى ربها ناظرة} : أى تراه عياناً" (٦).

(١) سورة القيامة : آية ٢٢، ٢٣

(٢) الحسن :

هو الحسن بن أبى الحسن البصرى ، واسم أبيه : يسار ، الأنصارى ، مولا هم ،
 ثقة فقيه ، فاضل ، مشهور ، كان يرسل كثيراً ويدلس .
 روى عن عمران بن حصين ، وأبى موسى ، وابن عباس . وعنه ابن عون
 ويونس . مات سنة ١١٠ هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٤٠/٣-٤٢ ، الطبقات الكبرى ١٥٦/٧ ، تذكرة الحفاظ
 ٦٦/١ ، الكاشف ٢٢٠/١ ، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢ ، تقريب التهذيب ١٦٥/١ .
 (٣) عكرمة :

هو عكرمة بن عبد الله ، مولى ابن عباس ، أصله بربرى ، ثقة ثبت ، عالم
 بالتفسير ، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ، ولا يثبت عنه بدعة . روى عن ابن
 عباس ، وعائشة ، وأبى هريرة . وعنه إبراهيم النخعى ، والشعبى ، وخلق . مات
 سنة ١٠٧ هـ وقيل بعدها .

انظر : طبقات ابن سعد ٢٨٧/٥ ، الجرح والتعديل ٧/٧ ، تذكرة الحفاظ ٩٥/١ ،
 ميزان الاعتدال ٩٣/٣ ، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ ، تقريب التهذيب ٣٠/٢ .

(٤) انظر : شرح اعتقاد أهل السنة ٤٦٤/٢ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٠ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٥٠/٤ .

(٣) قوله تعالى :

{للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} (١).

الحسنى : هى الجنة ، والزيادة : هى النظر إلى وجه الله الكريم ، بذلك فسرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعون وأئمة السلف رضى الله عن الجميع .

روى مسلم بسنده إلى صهيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل . ثم تلا هذه الآية : {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} (٢).

قال ابن القيم رحمه الله :

"ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التى هى الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة وقدر زائد عليها" (٣).

(٤) قوله تعالى : {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} (٤).

جاء عن على وأنس رضى الله عنهما أن المزيد هو النظر إلى وجه الله تعالى (٥).

(١) سورة يونس : آية ٢٦

(٢) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤٥٥/٢ فما بعدها ، الاعتقاد ص ٧٦، ٧٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٣٠/٨ ، حادى الأرواح ص ٢١٤-٢١٥ ، تفسير القرآن العظيم ٤١٤/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٠ .

والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٨٠) برقم ١٨١ ، ١٦٣/١ .

(٣) حادى الأرواح ص ٢١٥ .

(٤) سورة ق : آية ٣٥

(٥) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤٦٩/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٢١/١٧ ، حادى الأرواح ص ٢١٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٠ .

- (٥) قوله تعالى : {وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً} (١).
قال الرازي : "فإن إحدى القراءات في هذه الآية في "ملكاً" بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى ، وعندى أن التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها" (٢).
(٦) قوله تعالى : {واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه} (٣).
وقوله تعالى : {تحييتهم يوم يلقونه سلام} (٤).
وقوله تعالى : {فمن كان يرجو لقاء ربه} (٥).
وقوله تعالى : {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله} (٦).
أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحى الذى سلم من العمى والممانع اقتضى المعاينة والرؤية (٧).
(٧) قوله تعالى : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} (٨).
قال الزجاج : "في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ، ولولا ذلك ماكان في هذه الآية فائدة ، ولاخصت منزلة الكفار بأنهم محجوبون".
وقال مالك بن أنس في هذه الآية : "لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه".

(١) سورة الإنسان : آية ٢٠

(٢) التفسير الكبير ١٣١/١٣ .

وانظر : رؤية الله تعالى ص ١٠٠ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٢٣

(٤) سورة الأحزاب : آية ٤٤

(٥) سورة الكهف : آية ١١٠

(٦) سورة البقرة : آية ٢٤٩

(٧) حادى الأرواح ص ٢١٣-٢١٤ بتصرف . وانظر : الاعتقاد ص ٧٦ .

(٨) سورة المطففين : آية ١٥

وقال الشافعى : "لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا" (١).

وجمهور المفسرين ذهبوا إلى تفسير حجب الكفار عن ربهم بالمنع من رؤيته يوم القيامة (٢).
(ب) أدلة السنة :

أما الأحاديث الصحيحة التى تدل على رؤية الله فى الآخرة فهى كثيرة متوافرة بلغت حد التواتر ، فى الصحاح والسنن والمسانيد ، وقد اعتنى بجمعها أئمة كالدارقطنى وأبى نعيم وأبى بكر الآجرى وغيرهم (٣). وقد رواها عن النبى صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين صحابياً (٤)، ونص على تواترها جماعة من الأئمة (٥).

من تلك الأحاديث :

(١) روى البخارى بسنده إلى جرير قال :

"كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦١/١٩ .

(٢) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢٦٦/٢ فما بعدها ، الاعتقاد ص ٨٣ ، حادى الأرواح ص ٢١٦ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٤٨٥، ٤٨٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٤٩ ، رؤية الله تعالى ص ٢٢٢ .

(٣) انظر بيان تلبيس الجهمية ٣٤٨/١ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٤ .

(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٤٨/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٦٢ ، حادى الأرواح ص ٢١٩ ، تفسير القرآن العظيم ٢/١٦٢ ، ٤/٤٥٠، ٤٨٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٣ ، رؤية الله تعالى ص ٢٢٢ .

الشمس فافعلوا" (١).

وفي رواية عنه رضى الله عنه قال : "قال النبي صلى الله عليه وسلم :
إنكم سترون ربكم عياناً" (٢).

(٢) وروى بسنده إلى أبي هريرة :

" أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا :
لا يارسول الله ، قال فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا
لا يارسول الله. قال : فإنكم ترونه كذلك ... الحديث (٣).

(٣) وروى بسنده إلى أبي موسى الأشعري :

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما
وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم

(١) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وجوه يومئذ
ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٧٩/٨ .

وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب المواقيت (٩) ، باب فضل صلاة العصر (١٦) ،
١٣٨/١ ، وفي باب فضل صلاة الفجر (٢٦) ، ١٤٣/١ ، وفي كتاب التفسير (٦٥) ،
تفسير سورة ق ، (٥٠) ، باب وسيح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب
(٢) ، ٤٨/٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ،
باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٣٧) ، برقم ٦٣٣ ، ٤٣٩/١ .
(٢) هذه الرواية أخرجه البخارى في صحيحه ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله
تعالى {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٧٩/٨ .

(٣) صحيح البخارى في الكتاب والباب السابقين ١٧٩/٨ .
وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب الرقاق (٨١) ، باب الصراط جسر جهنم (٥٢) ،
٢٠٥/٧ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١)
برقم ١٨٢ ، ١٦٣/١ - ١٦٤ .

وأخرج نحوه في كتاب الزهد والرقائق (٥٣) برقم ٢٩٦٨ ، ٢٢٧٩/٤ - ٢٢٨٠ .

إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" (١).

(ج) آثار السلف :

وأما الآثار التي وردت عن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم في إثبات رؤية الله جل ذكره في الآخرة للمؤمنين فهي أكثر من أن تذكر ، ويكفيها في هذا المقام أن نشير إلى بعضها ، وفي القليل ما يغني عن الكثير .

(١) قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

"من كذب بالرؤية فهو زنديق" . وقال : "نؤمن بها أي الرؤية وأحاديثها ونعلم أنها حق فنؤمن بأن الله يرى ، نرى ربنا يوم القيامة لانشك فيه ولا نرتاب" . وقال : "من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر بالله ، وكذب بالقرآن ، ورد على الله أمره ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل" (٢).

(٢) قال الأوزاعي رحمه الله :

"إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهماً وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده أوليائه حين يقول : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} فجدد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده أوليائه" (٣).

(٣) قال الربيع بن سليمان (٤):

(١) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٨٥/٨ .

وأخرجه في كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الرحمن (٥٥) ، باب قوله : {ومن دونهما جنتان} (١) ، ٥٦/٦ ، إلا أنه قال : "رداء الكبير" .

وأخرجه بنحوه كذلك في التفسير ، باب {حور مقصورات في الخيام} (٢) ، ٥٦/٦ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٨٠) برقم ١٨٠ ، ١٦٣/١ .

(٢) لوامع الأنوار ٢٤٦/٢ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٠٣/٢ .

(٤) الربيع بن سليمان :

هو الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادى ، أبو محمد المصرى المؤذن ، صاحب الشافعى . ثقة فقيه . روى عن عبد الله بن وهب والشافعى وأبى صالح . وعنه أبو داود والنسائى وابن ماجه . مات سنة ٢٧٠ هـ .

"حضرت محمد بن إدريس الشافعى وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها :
ما تقول فى قول الله تبارك وتعالى : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ
لمحجوبون}؟" (١)

قال الشافعى : "فلما أن حجبا هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل
على أنهم يرونه فى الرضا".

قال الربيع : قلت : يا أبا عبد الله وبه نقول؟

قال : "نعم وبه أدين الله ، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله
لما عبد الله تعالى" (٢).

مما سبق من أدلة يتبين لنا أن رؤية الله عز وجل فى الآخرة ثابتة
للمؤمنين دون الكفار (٣)، وإن كان الخلاف قائماً بين العلماء فى رؤية الكفار
له فى الموقف (٤).

وأما ما أثارته المعتزلة من شبه زاعمة أنها تنفى بها رؤية الله يوم
القيامة ، فهى شبه واهية لاتنهض لمقاومة ماسبق من أدلة ، وقد انقض عليها
علماء السلف رضوان الله عليهم فكشفوا عوارها فتساقطت أمامهم شبهة تلو
الأخرى ، وتهاوت ، وبان الحق ناصعاً أبيض لالبس فيه ولاغموض .
وهذا بيان ذلك :

زعمهم بأن القول بها حادث بعد الرسول صلى الله عليه وسلم
والصحابه . زعم باطل وقول منكر مخالف للحقيقة والواقع ، فالآيات السابقة
شاهدة على إثباتها ، وتلك الأحاديث المتواترة التى نصت صراحة على

= انظر : الجرح والتعديل ٤٦٤/٣ ، تذكرة الحفاظ ٥٨٦/٢ ، طبقات الشافعية
١٣٩، ١٣٢/٢ ، تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣-٢٤٦ ، تقريب التهذيب ٢٤٥/١ .

(١) سورة المطففين : آية ١٥

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٠٦/٢ . وانظر مناقب الشافعى ٤١٩/١ .

(٣) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ٥٠ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٦ .

وقوعها ، وانعقد على ذلك إجماع السلف رضى الله عنهم . بل القول
ينفيها هو البدعة والإحداث في الدين .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومسألة الرؤية كانت من أكبر المسائل الفارقة بين السنة المثبتة وبين
الجهمية حتى كان علماء أهل الحديث والسنة يصفون الكتب في الإثبات
ويقولون "كتاب الرؤية" و "الرد على الجهمية" وكذلك الأحاديث التي تنكرها
الجهمية من أحاديث الرؤية وما يتبعها ، ويعدون من أنكر الرؤية معطلاً" (١).
دعواهم أنه لا يراه إلا من اعتقده جسماً وشبهه بخلقه وما يلزم ذلك من
لوازم باطلة - على رأيهم - .

إن التجسيم والتشبيه من الأمور التي رانت على أذهان أهل الاعتزال
وخيمت على عقولهم حتى حجت عنهم نور الحق ، فظلموا في ظلام دامس ،
ولذلك كلما سطعت أمام أبصارهم أنوار الأدلة التي تثبت الكمال لله
كنصوص الرؤية سارعوا إليها محاولين إطفاءها بحجة أنها تجسيم وتشبيه ،
والعلة في ذلك عجز عقولهم عن الخلاص من وحل التجسيم وتنشئة التشبيه ،
وقد سبق بيان ذلك في حديثنا عن الصفات (٢).

فقد انطلق المعتزلة في نفى الرؤية من قاعدة التجسيم والتشبيه كما نفوا
من قبل الصفات بذلك ، وما أجيبوا به هنالك يجابون به هنا .

ونفيهم للرؤية عن الله لا تنزيه لهم فيه ، بل تنزيه الله يكون بإثبات
صفات الكمال له ونفى ما يضادها ، وإثبات الرؤية له سبحانه صفة كمال ،
ونفيها عنه تعطيل ، لأن المعدوم لا يرى (٣).

قال الطحاوى رحمه الله :

(١) بيان تلبيس الجهمية ٣٤٩/١ .

(٢) انظر ص : ١٤٨ فما بعدها .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٢ .

"ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم ، إذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية - بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه" (١).

وهاهو شيخ الإسلام رحمه الله ينبرى لمقارعة المعتزلة مستخدماً سلاح العقل الذى يدعوه ، وإن كان البون شاسعاً بين عقل استنار بضوء النصوص وبين عقول غطتها ظلم الشبهات . وقد فند رحمه الله لوازمهم التى ألصقوها بمن يثبت الرؤية . يقول :

"ومن أراد أن يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلا يلتزم لفظاً بدعياً ولا يخالف دليلاً عقلياً ولا شرعياً ، فإنه يسلك طريق أهل السنة والحديث والأئمة الذين لا يوافقون على إطلاق الإثبات ولا النفى ، بل يقولون : ماتصفون بقولكم "إن كل جسم مرئى" ؟ فإن فسروا ذلك بأن كل مرئى يجب أن يكون قد ركب مركب ، أو أن يكون متفرقاً فاجتمع ، أو أنه يمكن تفريقه ، ونحو ذلك ، منعوا هم المقدمة الأولى ، وقالوا : هذه السموات مرئية مشهورة ، ونحن لانعلم أنها كانت متفرقة مجتمعة ، وإذا جاز أن يرى ما يقبل التفريق فما لا يقبله أولى بإمكان رؤيته .

وإن قالوا مرادنا أن المرئى لا بد أن يكون معائناً تجاه الرأى ، وما كان كذلك فهو جسم . ونحو هذا الكلام ، قالوا لهم : الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قال : "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر" ، وقال "هل تضامون فى رؤية الشمس صحواً ليس دونها سحب" ؟ قالوا : لا . قال "هل تضامون فى رؤية القمر ليس دونه سحب" ؟ قالوا : لا . قال : "فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر" (٢) ، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية ، لا المرئى بالمرئى ...

(١) متن العقيدة الطحاوية ص ١٠ .

(٢) سبق تخريجه ١٠ النظر من : ١٩١

فهذه النصوص يصدق بعضها بعضاً ، والعقل أيضاً يوافقها ، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته ، فوق سمواته ، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ولا مجانس له محال في بديهة العقل ، فإذا كانت الرؤية مستلزمة لهذه المعاني فهذا حق ، وإذا سميت أنتم هذا قولاً بالجهة وقولاً بالتجسيم لم يكن هذا القول نافياً لما علم بالشرع والعقل ، إذا كان معنى هذا القول - والحال هذه - ليس منتفياً لا بشرع ولا بعقل" (١).

زعمهم أنه لا يرى نفسه لأن ذاته لا ترى ، واختلافهم في رؤيته لغيره . لقد أفرط المعتزلة في النفي حتى وصل بهم الأمر إلى أن يعطلوا الله سبحانه من أن يرى نفسه أو يراه غيره ، أو يرى غيره ، وإن كان بعضهم أثبت أنه يرى غيره ولا يرى نفسه . ولكن من وصف بأنه لا يرى ماذا يكون حكمه؟ أليس هو الأعمى؟ تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً ، ومن وصف بأنه لا يرى أيكون ذلك مدحاً في حقه أم ذماً ، ويكون صفة كمال أم نقص؟ فقولهم هذا في النفي أدى بهم إلى التعطيل ثم هو تشبيه لله بالمعدوم (٢).

لقد وصف الله نفسه بأنه يرى في أكثر من آية ولم يخص ولم يستثن فقال لموسى وهارون عليهما السلام : {قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} (٣)، وقال سبحانه : {ألم يعلم بأن الله يرى} (٤)، وقال سبحانه : {وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم} (٥). بل عاب الأصنام التي لا تصلح أن تكون آلهة لأنها لا تسمع ولا تبصر ، فقال على لسان إبراهيم عليه السلام : {يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً} (٦).

(١) موافقة صحيح المنقول ١٩٠/١ - ١٩١ .

(٢) انظر : رؤية الله تعالى ص ١٢٠، ١٢١ .

(٣) سورة طه : آية ٤٦

(٤) سورة العلق : آية ١٤

(٥) سورة الشعراء : آية ٢١٨ - ٢١٩

(٦) سورة مريم : آية ٤٢

وجعل عدم الرؤية نوعاً من العذاب الذى ينال الكفار يوم القيامة فقال : { ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً } (١).

والآيات فى هذا المقام كثيرة جداً ، عميت عنها أبصار أهل الاعتزال وعقولهم ، فلم يهتدوا إليها .

أما إنكار بعضهم رؤيته بالقلوب . فهو أمر انفرد به المعتزلة ولم يشاركهم فيه غيرهم .

ولم يؤثر عن غير المعتزلة خلاف فى رؤيته تبارك وتعالى بالقلوب ، فلو أن القلوب لم تعرفه وتحبه لما ذلت له وعبدته وحده دون سواه ، وكلما زادت معرفة القلب له ازدادت العبادة والطاعة والانقياد له تبارك وتعالى (٢).

وكون قلوب المعتزلة لم تعرف الله ولم تره ، فهذا إخبار عن حالهم ، وهو أمر يختص بهم ليس لهم الحق فى أن يعمموه على غيرهم .

وأما تفسيرهم للرؤية بالعلم أو زيادته ، فهذا فى الحقيقة تعطيل للرؤية التى ثبتت بالنصوص والإجماع والتى علم جوازها بدلائل العقول ، بل المعلوم بدلائل العقول امتناع وجود موجود قائم بنفسه لا يمكن تعلقها به (٣). دعواهم أنه لا يمكن الاستدلال عليها بالسمع لأن ذلك يبنى على العقل ولم يرد دليل سمعى مصرح بإثباتها . هذه دعوى خالفهم فيها أكثر العقلاء ، وليس فى العقل ما يحيلها (٤).

وكلام السلف والأئمة كثير جداً فى تقرير وجودها بالسمع وجوازها بالعقل وأن نفيها يلزم منه التعطيل ، لأنه إذا كان موجوداً جازت رؤيته ، لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود دون المعدوم ، والله أحق بالوجود وكماله ، بل وجوده هو الوجود الواجب ، وله الكمال التام فى جميع الأمور

(١) سورة الإسراء : آية ٩٧

(٢) رؤية الله تعالى ص ١٧٤ بتصرف .

(٣) بيان تلييس الجهمية ٣٦٠/١ بتصرف .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ .

الوجودية المحضة ، فهو أحق بأن تجوز رؤيته لكمال وجوده (١).
فالعقل لا يمنع جواز رؤية الله كما أن نصوص الشرع جاءت مصرحة
بإثباتها خلافاً لمزاعم المعتزلة (٢).

وأما أدلتهم التي زعموا أنها تنفي الرؤية فالرد عليها كما يلي :
ونبدأ بأدلتهم العقلية ، لأن فارس الميدان هنا هو العقل كما كان
دوماً ، فلما زاحم له ، ولامعارض ، وقد اعتمدوا من جهته على طريقين في
نفيتها ، كلاهما ينحدر ليصب في مصب الجسمية والتشبيه ، إذ العقل عندهم
مكبل ومقيد بشبح التجسيم فلا خلاص له منه ، وقد أوصد أمامه المنافذ
وأخذ بتلايبه ، فلامفر له منه ، ولا نجاة .

وخلاصة ماذكروا في دليلي العقل :

(١) إن الشيء إنما يرى إذا كان مقابلاً ، أو حالاً في المقابل ، أو في حكم
المقابل ، وهذه من صفات الأجسام . وهي ممتنعة في حق الله لأنه
ليس بجسم .

(٢) لكى تصح الرؤية لابد من وجود رأى ومرئى ولا توجد موانع من
حدوث الرؤية بينهما . والموانع ترجع إلى الشعاع الذى هو من صفات
الأجسام ، والله ليس بجسم فتمتنع رؤيته لذلك .
أما الإجابة عن الأول :

فإنه يستحيل في العقول أن تثبت رؤية حقيقية عياناً بغير مقابلة
ولاجهة ، لأن ذلك من لوازم الرؤية . وقد أثبت رسول الله صلى الله عليه
وسلم رؤية الله مشبهاً إياها برؤية الشمس والقمر فقال : "إنكم سترون ربكم
كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته" (٣) الحديث .

(١) انظر : بيان تلييس الجهمية ١/٣٥٨، ٣٧٥ .

(٢) انظر : رؤية الله تعالى ص ٢١٦-٢١٧ .

(٣) الحديث سبق تخريجه انظر ص : ١٩١ .

فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئى بالمرئى ، ونحن إنما نرى الشمس والقمر من فوقنا وبمقابلة ، وكذا المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة من فوقهم عياناً . فهو سبحانه إنما يرى من جهة العلو (١).

والجهة لفظ مجمل لم يرد نفيها ولا إثباتها فلها حكم الألفاظ المجملة ، وهو التفصيل ، وقد سبق بيان ذلك (٢). يقول ابن أبى العز رحمه الله :

"وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئى بالمرئى ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه .

وإلا فهل تعقل رؤية بلامقابلة؟ ومن قال : يرى لافى جهة فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابراً لعقله وفى عقله شيء ، وإلا فإذا قال يرى لأمام الرأى ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته ، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة . ولهذا التزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية ، وقالوا : كيف تعقل رؤية بلامقابلة، بغير جهة؟

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة : أتريد بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عدمياً؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً كان التقرير : كل ما ليس فى شيء موجود لا يرى ، وهذه المقدمة ممنوعة ، ولا دليل على إثباتها بل هى باطلة ، فإن سطح العالم يمكن أن يرى ، وليس العالم فى عالم آخر . وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً ، فالمقدمة الثانية ممنوعة ، فلانسلم أنه ليس فى جهة بهذا الاعتبار" (٣).

(١) انظر : بيان تلبس الجهمية ٣٥٩/١ ، حادى الأرواح ص ٢٥٢ ، وانظر : موافقة صحيح المنقول ١٩١/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٦٢ ، رؤية الله تعالى ص ٦١ .

(٢) انظر ص ١٥٠٠ فما بعدها .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٥ .

وأما الإجابة عن الدليل الثانى ، فإن مما لاشك فيه أن القول بخروج شعاع من العين ، أو وروده إليها ، أو مايقع للنفس من حالة خاصة عند مقابلة العين للمرئى سبب للرؤية ، وخالق الأسباب والمسببات إنما هو الله تعالى ، والأسباب التى تحصل بها الرؤية ليست فاعلة ، إنما هى أسباب لها ، مخلوقة لله تعالى ، كما قال تعالى : {والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها} (١) ، فأحياء الأرض إنما يكون بوجود الماء المخلوق المنزل ، والفاعل الحقيقى إنما الله الذى أوجد الأسباب ومسبباتها ، لاالسبب المباشر وحده (٢).

ثم لايلزم من وجود مذكروه من موانع امتناع الإبصار ، ولامن امتناعها وجوده .

ومثال مايؤيد ذلك :

رؤية الجسم الكبير من البعد صغيراً فإن كانت الرؤية لجميع أجزائه ، وجب ألا يرى صغيراً ، وإن لم ير شيئاً من أجزائه ، وجب ألا يرى . وإن رى بعض أجزائه دون بعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى الموانع أو عدمها سواء لزم عدم الوجوب أو الامتناع (٣).

والمعتزلة إنما قاسوا أمور الآخرة بأمور الدنيا فنفوا وقوع الرؤية فى الآخرة اعتماداً على عدم وقوعها فى الدنيا . فجعلوا موانع وقوعها فى الدنيا موانع لوقوعها فى الآخرة.

وهذا قياس عقلى محض ، وهو باطل ، لأن الحياة الأخرى أمرها يباين الحياة الدنيا . وقد سبق الإشارة إلى ذلك (٤).

ولذا نجد أن السلف قالوا يجواز وقوعها ، مع حكمهم بعدم الوقوع فى الدنيا ، وأجمعوا على حصول ذلك فى الآخرة .

(١) سورة النحل : آية ٦٥

(٢) رؤية الله تعالى ص ٢٠ بتصرف .

(٣) انظر : الأربعين فى أصول الدين للرازى ص ٢١٥ ، رؤية الله تعالى ص ٦٨ .

(٤) انظر ص : ١٤١

قال الشاطبي رحمه الله :

"رؤية الله في الآخرة جائزة ، إذ لا دليل في العقل يدل على أنه لا رؤية إلا على الوجه المعتاد عندنا ، إذ يمكن أن تصح الرؤية على أوجه صحيحة ليس فيها اتصال أشعة ولا مقابلة ولا تصور جهة^(١) ، ولا فضل جسم شفاف ولا غير ذلك ، والعقل لا يجزم بامتناع ذلك بديهية ، وهو إلى القصور في النظر أميل ، والشرع قد جاء بإثباتها فلامعدل عن التصديق"^(٢).

والله سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا لأن أبصار الخلق تعجز عن رؤيته فيها لضعفها وعجزها لاامتناع رؤيته ، فهذه الشمس إذا حذق الرائي بصره فيها عجز عن رؤيتها لضعفه عن ذلك وليس لامتناع رؤيتها .

فعدم وقوع الرؤية في الدنيا لا يمنع من وقوعها في الآخرة .

ثم إن المعتزلة في الحقيقة إنما قاسوا الله سبحانه بخلقه فأجروا عليه أحكامهم ، وهذا هو التشبيه الذي وصموا غيرهم به ، وأرادوا أن يفروا منه فعطلوا الله عن ما يستحقه من الكمال الذي من بينه الرؤية .

هذا عن أدلتهم العقلية التي اعتمدوا عليها اعتماداً كلياً في الاستدلال فنفوا بها رؤية الله تعالى ، وهى لاتصلح للاحتجاج ، وقد وضح من الرد ضعفها ، ومعارضة أدلة العقول السليمة لها .

وأما أدلتهم النقلية التي لجأوا إليها لتأييد ماسبق من شبه عقلية لاتدل على ماذهبوا إليه من نفى الرؤية في الآخرة . ومن المعلوم أن أدلة النقل عندهم تابعة لامتبوعة ، وهم إنما يفرون إليها إذا ألجأتهم الضرورة لذلك واعتقدوا أن فيها مايؤيد مزاعمهم ، وإلا دفعوا في صدورهم بالرد والتأويل المتعسف .

(١) قوله "ولامقابلة" خلاف ما جاء عن السلف لأنه لا رؤية إلا بمقابلة كما سبق ذكره ،

والجهة فيها تفصيل سبق بيانه أيضا . انظر ص ١٥٠٠ ها بعدها

(٢) الاعتصام ٣٣٠/٢ .

فمما استدلوأ به ولا حجة لهم فيه :

(١) قوله تعالى :

{لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} (١).

ولهم وجهان فى الاستدلال بها كما مر فى العرض ، وخلاصتهما :

الأول : إن الإدراك المقرون بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية وقد نفى

والنفى عام فى جميع الأوقات والأزمان .

الثانى : إن الله تمدح بكونه لا يرى - على فهمهم - وما كان عدمه مدحاً

كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله عنه .

والجواب عن الوجه الأول :

ليس الإدراك هو الرؤية ، وإنما هو قدر زائد على الرؤية ، لأن

الإدراك هو الإحاطة بالشئ ، والله يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به

علماً ، قال تعالى : {فلما تراءى الجمعان ، قال أصحاب موسى إنا لمدركون

قال كلا إن معى ربى سيهدين} (٢). فنفى موسى عليه السلام الإدراك مع

إثبات الترائى بينهم ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك ، فقوله سبحانه

وتعالى : {لاتدركه الأبصار} يدل على غاية عظمتة وأنه أكبر وأجل من أن

يدرك بحيث يحاط به ، وليس فى ذلك نفى لرؤيته ، بل فى الآية دليل عليها

لأن تخصيص الإدراك وهو الإحاطة بالنفى ، يقتضى أن مطلق الرؤية ليس

بمنفى . وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم (٣).

الجواب عن الوجه الثانى :

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) سورة الشعراء : آية ٦١-٦٢

(٣) انظر : بيان تلبس الجهمية ١/٥٥٣-٥٥٤ ، حادى الأرواح ص ٢١٧ ، شرح العقيدة

الطحاوية ص ١٩٣، ١٩٨ ، وانظر مع ذلك : الاعتقاد ص ٧٦ ، الفصل فى الملل

٣-٢/٣ ، مجموع الفتاوى ٣/٣٦-٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ٢/١٦٢ ، فتح

البارى ٤٢٦/١٣ .

إن الله عز وجل ذكر هذه الآية في سياق المدح لنفسه سبحانه وتعالى ومن المعلوم أن المدح لا يكون إلا بالصفات الثبوتية ، وأما النفي أو العدم المحض لا يكون فيه مدح إلا إذا تضمن أمراً ثبوتياً ، كمدحه سبحانه وتعالى نفسه بنفى السنة والنوم المتضمن كمال قيوميته ، فلو أن المنفى في الآية هو الرؤية لما كان في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك لأن المعدوم لا يرى . وإنما المدح في كونه تعالى أنه يرى لأن الرؤية صفة كمال لانقاص، ولكنه لعظمته وأنه أكبر من كل شيء فلا يدرك ولا يحاط به (١).
(٢) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} (٢).

ومختصر أوجه استدلالهم من الآية :

الأول : قوله : "لن تراني" .

أنكر على موسى طلبه فغيره أولى بالإنكار .

وطلب موسى إنما كان تبكيتاً للذين طلبوا الرؤية فقالوا : {أرنا الله جهرة} (٣) فبين لهم استحالة ذلك بقوله : {لن تراني} أو طلبه لمعرفة الله ضرورة فأجابه بقوله : {لن تراني} ليبين له أن مع التكليف لا يجوز أن يعرفه باضطراب .

الثاني : إن "لن" تفيد تأييد النفي ، مثل قوله تعالى : {لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له} (٤).

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٥٤/١ ، مجموع الفتاوى ٣/٣٦-٣٧ ، حادي

الأرواح ص ٢١٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٢-١٩٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٤٣

(٣) سورة النساء : آية ١٥٣

(٤) سورة الحج : آية ٧٣

وكقوله تعالى : {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس} (١) الآية .

فقوله : "لن ترانى" تأكيد للنفى فى قوله : {لاتدركه الأبصار} (٢).

الثالث : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً}.

فإنه تعالى علق الرؤية باستقرار الجبل وهو مستحيل ، فدل على استحالتها.

والمراد بالتجلى : إظهار آياته وقدرته للجبل ، وليس تجلى ذاته ، لأنه يلزم من ذلك أن يندك العرش ، وأن يراه من على الجبل .

الرابع : {وخر موسى صعقاً} .

أى مغشياً عليه كغشية الموت ، ولكزته الملائكة لطمعه فى رؤية ماهو مستحيل عليه.

الخامس : قوله تعالى : {سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}.

أى أنزهك مما لايجوز عليك من الرؤية ، وأتوب إليك من طلبها وإجراء تلك المقالة العظيمة على لسانى من غير إذن منك ، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئى .

ويجاب على هذه الأوجه بالآتى :

الوجه الأول :

إن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ولم يطلبها لغيره وذلك فى قوله : {رب أرنى أنظر إليك} (٣)، ولم يطلب عليه السلام شيئاً مستحيلاً ، إنما طلب ماهو جائز فى العقل ، لأنه لا يظن بكليم الله ورسوله وأعلم الناس

(١) سورة البقرة : آية ٢٤

(٢) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٣) انظر : الإنصاف لابن المنير مطبوع مع الكشف ٨٩/٢ .

في وقته بربه أن يطلب ما لا يجوز عليه ، بل ذلك محال (١). وقول الله له "لن تراني" : أى في الدنيا لأن بصر موسى عليه السلام لا يحتمل رؤية الله في هذه الدنيا وهذا بخلاف حكم الآخرة (٢).

ثم ان تبكيت موسى عليه السلام لبني إسرائيل ليس لأنهم طلبوا ماهو مستحيل في حق الله بل إنما طلبوا ذلك تعنتاً وعناداً وإنكاراً للإيمان بنبوة موسى عليه السلام .

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

"إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله عز وجل على طريق الإنكار لنبوة موسى ، وترك الإيمان به حتى يروا الله ، لأنهم قالوا : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} (٣)، فلما سألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموسى عليه السلام حتى يريهم الله سألهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن يتزل عليهم كتاباً من السماء (٤) من غير أن يكون ذلك مستحيلاً ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله حتى يتزل عليهم من السماء كتاباً" (٥).

وقال ابن المنير رحمه الله :

"إن الله تعالى أخبر أنها - أى الرؤية - لا تقع في دار الدنيا ، والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٥٥/٧ ، زاد المسير ١٧٤/٣ ، شرح العقيدة

الطحاوية ص ١٩١ ، لوامع الأنوار ٢٨٥/٢ .

(٢) انظر : الرد على الجهمية للدارمي ص ٥٦،٥٥ ، زاد المسير ١٧٤/٣ ، فتح الباري

٤٢٦/١٣ .

(٣) سورة البقرة : آية ٥٥

(٤) وذلك في قوله تعالى : {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد

سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة} . سورة النساء : آية ١٥٣

(٥) الإبانة في أصول الديانة ص ١٥ .

وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ، ثم ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} (١)، ألا ترى أن قولهم {لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً} (٢) إنما سألوا جائزاً ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه " (٣) .

ثم الزعم بأنه عليه السلام إنما طلب النظر إلى آية عظيمة أو إلى قدرة الله لكي يتعرف من خلال ذلك على الله ، إنما زعم باطل وادعاء لادليل عليه ، بل هو مخالف لقوله تعالى "أنظر اليك" .

قال القرطبي رحمه الله :

"ولا يجوز الحمل على أنه أراد أنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ، لأنه قال "إليك" ، و"قال لن ترانى" . ولو سأل آية لأعطاه الله ماسأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقد كان لموسى عليه السلام فيها مقنع عن طلب آية أخرى ، فبطل هذا التأويل " (٤) .

الوجه الثانى :

دعواهم أن "لن" تفيد تأييد النفس على الدوام ، وأن ذلك ينفى رؤية الله فى الآخرة. دعوى فاسدة ، لأن "لن" لا تفيد النفس على الدوام ولو قيدت بالتأييد فكيف إذا أطلقت؟ قال سبحانه : {ونادوا يامالك ليقض علينا ربك} (٥) فقد تمنوا الموت بعد قوله تعالى : {ولن يتمنوه أبدا} (٦). فلو كانت

(١) سورة البقرة : آية ٥٥

(٢) سورة الإسراء : آية ٩٠

(٣) الإنصاف لابن المنير على هامش الكشاف ٨٩/٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ .

(٥) سورة الزخرف : آية ٧٧

(٦) سورة البقرة : آية ٩٥

تفيد النفي على الدوام مع اقترانه بالتأييد لتناقض الكلام^(١). لأن التأييد قد يراد به التأييد المقيّد أو التأييد المطلق ، فالمقيّد كالتأييد بمدة الحياة كقولك والله لا أكلمه أبداً ، والمطلق كقولك والله لا أكفر بربي أبداً^(٢).

قال ابن مالك مبيناً خطأ المعتزلة فيما ذهبوا إليه :

ومن رأى النفي بـلن مؤبداً فقوله اررد وسواه فاعضدا^(٣)

وقال صاحب النحو الوافي :

"لن : وهو حرف يفيد النفي بغير دوام ولا تأييد إلا بقريئة خارجة عنه فإذا دخل على المضارع نفي معناه في الزمن المستقبل المحض - غالباً - نفياً مؤقتاً يقصر أو يطول من غير أن يدوم ويستمر ، فمن يقول : لن أسافر ، أو لن أشرب ، أو لن أقرأ غداً ، أو نحو هذا ، فإنما يريد نفي السفر - أو غيره - في قابل الأزمنة مدة معينة ، يعود بعدها إلى السفر ونحوه ، إن شاء ، ولا يريد النفي الدائم المستمر في المستقبل ، إلا إن وجدت قريئة مع الحرف "لن" تدل على الدوام والاستمرار ، يدل على هذا قوله تعالى : {فلن أكلم اليوم إنسياً}^(٤). فلو كانت "لن" تفيد تأييد النفي في المستقبل المحض الخالص لوقع التعارض بينها وبين كلمة "اليوم" في الآية ، لأن اليوم محدد معين ، وهى غير محددة ولا معينة ، ولوقع التكرار المريب في قوله تعالى : {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً}^(٥) ، فما فائدة كلمة أبداً التى تدل على التأييد إن كانت "لن" تدل عليه؟

أما التأييد في قوله تعالى : {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له}^(٦). فبسبب قريئة خارجية ، هى العلم القاطع المستمد

(١) انظر : بدائع الفوائد ٩٦/١-٩٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٢ .

(٢) بدائع الفوائد ٩٧/١ بتصرف .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٢ .

(٤) سورة مريم : آية ٢٦

(٥) سورة البقرة : آية ٩٤-٩٥

(٦) سورة الحج : آية ٧٣

من المشاهدة الصادقة الدائمة" (١).

وأما استدراك الزمخشري في قوله : "ولكن انظر إلى الجبل" يأتي بيانه في الوجه الذي يليه .
الوجه الثالث :

إن الله علق وقوع الرؤية باستقرار الجبل وذلك ممكن وجائز وليس بممتنع ، وماعلق على الممكن فهو ممكن ، ولو كانت محالاً لما علقها على الممكن وإنما كان يعلقها على محال ، كأن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام (٢).

ومن ذلك أن الله علق دخول الكفار الجنة بمستحيل في قوله : {حتى يلج الجمل في سم الخياط} (٣)، فدل على استحالة دخولهم فيها ، وهذا بخلاف الرؤية (٤).

وما ذكره عبد الجبار من استدراكات حول قوله تعالى : {فلما تجلى ربه للجبل} ، يجاب عليها بالآتي :

قوله "تجلى" قال القرطبي : "معناه ظهر من قولك جلوت العروس أى أبرزتها ، وجلوت السيف : أبرزته من الصداً جلاء فيهما" (٥).

لقد تجلى الله للجبل وظهر له وأراد بذلك أن يضرب مثلاً لموسى عليه السلام بما هو أقوى من بنيته وأثبت ، فإن استقر الجبل وثبت لرؤيته فسوف يراه موسى ، ولكن الجبل مع قوته لم يطق رؤية الله تعالى فمن باب أولى موسى عليه السلام (٦).

(١) النحو الوافي ٢٩٩/٤ .

(٢) انظر : حادى الأرواح ص ٢١٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١-١٩٢ ، الإنصاف ٩١/٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٠

(٤) انظر : زاد المسير ١٧٤/٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ ، وانظر مادة جلى في القاموس المحيط ص ١٦٤٠-١٦٤١ .

(٦) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ .

وأما القول بأن المراد بالتجلى إظهار القدرة فهذا تأويل مخالف لنص الآية ومخالف لما جاء عن جمهور المفسرين في أن المراد بالتجلى الظهور . وقول عبد الجبار : "لو أراد به تجلى ذاته لم يكن لذلك معنى" .

الصواب خلافه فلو لم يرد تجلى ذاته لم يكن لذلك معنى ، لأن موسى عليه السلام لم يطلب رؤية القدرة وإنما طلب رؤية الذات ، وقد رأى موسى عليه السلام كثيراً من آثار قدرته تعالى .

وقوله : "لو أراد تجلى بمعنى المقابلة لوجب أن لا يستقر له مكان بل كان يجب في العرش أن يصير دكاً ، وأن يكون بهذه الصفة أحق" . قول ضعيف جداً ، لأن الله سبحانه قد خلق العرش لهذا الشأن وجعل فيه من القوة والتحمل ما يصمد لذلك ، ومثله الكرسي والحجاب .

وقوله : "ولو كان في الحقيقة تجلى للجبل ، بمعنى أنه أظهر وزال الحجب ، لكان من على الجبل يراه أيضاً ، فكان لا يصح مع ذلك قوله : "لن ترانى" وكان لا يصح أن يعلق نفى الرؤية بأن لا يستقر الجبل ، والمعلوم أنه لا يستقر بأن ينكشف ويرى ، لأن ذلك في حكم أن يجعل الشرط في أن لا يرى ما يوجب أن يرى ، وذلك متناقض" .

ويجاب على ذلك بالآتي :

قال سبحانه : {وَإِذْ يَرْيَكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّمَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} (١) .

فإذا جاز أن يقلل الكثير في العين الصحيحة جاز مع صحتها وارتفاع الموانع أن نراه سبحانه .

فيحق القول بحصول تجلى ذاته للجبل ووجود مانع من رؤيته لما سواه ، لأنه قد قضى بأنه لا يرى في الدنيا . ولاتناقض فيما يزعمه لأن الشرط في الرؤية وعدمها استقرار الجبل وعدمه لا الانكشاف ، وهذا ظاهر (٢) .

(١) سورة الأنفال : آية ٤٤

(٢) رؤية الله تعالى ص ٨٧-٨٩ بتصرف .

الوجه الرابع :

إن موسى عليه السلام لما رأى الجبل صار دكاً وقع مغشياً عليه من هول مارأى ، ولم يمت بدليل قوله تعالى : { فلما أفاق } والإفاقة لا تكون إلا عن غشى (١).

وقيل إنه رأى الله فلذلك خر صعقاً ولكن في ذلك ضعف (٢) مع مخالفته لقوله "لن ترانى".

وأما ما ذكره الزمخشري من حكاية لكز الملائكة لموسى أجاب عن ذلك ابن المنير فقال :

"فهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد . والوجه التورط بالغلط على ناقلها ، وتزييه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى صفى الله وكليمه بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب" (٣).

وقد سبق بيان أن موسى عليه السلام لا يطلب مستحيلاً على الله لا يجوز ، وذلك لمعرفة بربه (٤).

الوجه الخامس :

لقد ذكر العلماء أقوالاً فيما تاب منه موسى عليه السلام : أحدها : عن سؤاله الرؤية .

الثانى : الإقدام عن المسألة قبل الإذن فيها .

الثالث : اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا (٥).

ويمكن أن يجمع بين هذه الأقوال : بأن موسى عليه السلام سأل ربه

الرؤية لاعتقاده بجواز وقوعها في الدنيا وأنها ليست بمستحيلة ، ولكن الله

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢/٢٤٥ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٨ ، رؤية الله تعالى ص ٤٦ .

(٣) الإنصاف على هامش الكشف ٢/٩١ .

(٤) انظر ص : ١٨٥

(٥) زاد المسير ٣/١٧٤ بتصرف .

عز وجل بين له أنه لا يمكنه أن يراه في الدنيا لعدم استطاعته ذلك ، عندئذ سبح الله ونزهه عن أن يرى في الدنيا ، وتاب عن سؤاله ذلك بغير إذن من الله ثم بين بأنه أول المؤمنين المعتقدين بأنه لا يرى في الدنيا .
قال ابن كثير رحمه الله :

"قال سبحانه " تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات) .. (وأنا أول المؤمنين) أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه (١).
وقال ابن المنير رحمه الله :

"... وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقدم علمه وخبره عن الخلف .

وأما التوبة في حق الأنبياء ، فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون متزهاً مبرأ من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل" (٢).

فتوبة موسى عليه السلام لم تكن عن معصية بإجماع الأمة ، لأن الأنبياء معصومون ، إضافة إلى أن الرؤية جائزة كما هو منهج أهل السنة والجماعة (٣).

وأما قول الزمخشري : "ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولا يغرنكم تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم . والقول ماقال بعض العدلية فيهم". فذكر الآيات السابقة .

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٤٥ .

(٢) الإنصاف على هامش الكشاف ٩١/٢-٩٢ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٩ .

هذا القول من الزمخشري عظيمة من عظمائه التي سود بها كتابه ،
وشهد بها على نفسه أنه ليس من أهل السنة والجماعة ، فبئس القول وبئست
الشهادة .

والمعتزلة أولى بالذم ، لأنهم خاضوا في دين الله بعقولهم وأهوائهم ،
فأولوا آيات كتاب ربهم وردوا أحاديث نبيهم ثم لم يقفوا عند ذلك الحد
حتى حملوا على أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وجند الإيمان فرموهم
بكل داهية وشبهة ، فياعجباً من هؤلاء الذين انغمسوا في ظلمات البدع
والضلال {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} (١).

ورحم الله ابن المنير الذي كال لهم الصاع صاعين ، فقال :
وجماعة كفروا برؤية ربهم

حقاً ووعد الله مالن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل

عدلوا بربهم فحسبهموا سفه

وتلقبوا الناجين كلا إنهم

إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه (٢)

(١) سورة الكهف : آية ١٠٤

(٢) الإنصاف على هامش الكشف ٩٢/٢ .

الجواب على شبهاتهم حول أدلة إثبات الرؤية :

المثال الأول : قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (١).

واعتراضات أهل الاعتزال على هذه الآية تتلخص فيما يأتي :

أن ظاهرها يقتضى التشبيه ، وأنها من المتشابه ، فيجب أن تأول ، ثم

أولوها بالآتي :

(١) النظر غير الرؤية وهو طلب الرؤية .

والمراد في الآية النظر إلى الثواب كقوله : {واسأل القرية} (٢)، فحذف

المضاف .

(٢) النظر يطلق على معاني :

فيراد به طلب الرؤية والانتظار ويراد به التفكير بالقلب . وهو محتمل في

الآية لهذه المعاني .

(٣) أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان لا البعض المخصوص .

ففى الكلام إجمال لأن الجملة إذا وصفت بأنها ناظرة لم يفهم أن

المراد به الرؤية.

(٤) المراد بالنظر : التوقع والرجاء .

(٥) المراد بـ"إلى" واحدة الآلاء وهى النعم .

ويجاب على ذلك بالآتي :

أولا : زعمهم أن ظاهرها يقتضى التشبيه ، وأنها من المتشابه ، تلك

شنشنة طالما سمعناها من أخزم (٣)، فإن أصحاب البدع والأهواء إذا وقفوا

على النصوص التى تخالف بدعهم صراحة ضربوا وجوهها بهذين الدائين ،

التشبيه والمتشابه ، وحاشا نصوص الكتاب والسنة أن يفيد ظاهرها التشبيه ،

وقد سبق إيضاح ذلك فى الحديث عن الصفات بما لا يحتاج إلى مزيد (٤)

(١) سورة القيامة : آية ٢٢، ٢٣

(٢) سورة يوسف : آية ٨٢

(٣) هذا مثل يضرب فى قرب الشبه . مجمع الأمثال للميدانى ١٥٥/٢ - ١٥٦ .

وانظر كتاب الأمثال لأبى عبيد ص ١٤٤ مع الهامش .

(٤) انظر ص ١٥٤ فما بعدها .

وموضوع المتشابه والمحكم سبق بيانه أيضا^(١)، والأمر ليس مطلقا على عواهنه فكلما جاء أحد إلى نص ما فوجده خلاف مراده أو جهل تفسيره ، أو قامت شبهة في ذهنه رماه بأنه متشابه وأنه يدل على التشبيه ، فلو كان الأمر كذلك ماسلم لنا نص من النصوص لافي جانب التوحيد ولا النبوات ولا المعاد ، ولبطل الاستدلال بها على جميع أمور الدين ، ولفتح الباب على مصراعيه للزنادقة وأعداء الإسلام فانتهكوا حرمة نصوص الوحي وأبدلوا الحق باطلاً والهدى ضلالاً .

ثانياً : إن هذه الآية من أقوى الأدلة على إثبات رؤية الله في الآخرة فإذا سلط عليها أهل الاعتزال معاول التأويل والتحريف فغيرها من باب أولى أن يحرف ويأول .

يقول ابن القيم رحمه الله في هذه الآية :

"وأنت إذا جرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداء صريحاً أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة ، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلاً فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها ، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك ، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص ، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا"^(٢).

وقال ابن أبي العز : "هكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم . وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية ...

(١) انظر ص : ١٦٢ فما بعدها .

(٢) حادى الأرواح ص ٢١٨-٢١٩ .

وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ، ورفضت الروافض ،
وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، إلا بالتأويل الفاسد؟" (١)

فتأويل المعتزلة لهذه الآية هو تحريف لكلام الله عن مواضعه ، لأن
التأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة ، والفساد المخالف له ،
فكل تأويل لم يدل عليه سياق النص ، ولامعه قرينة تقتضيه فهو ليس مراد
الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم (٢).

والذى يستعجب له الإنسان ويستغرب جرأة هؤلاء المعتزلة على
النصوص ، فإنه يسهل على أحدهم أن يحرف النص ويأوله تأويلاً فاسداً ثم
يزعم أن ذلك مراد الله ، وأنه التفسير الصحيح الذى لا تفسير غيره .

ورحم الله الإمام الطحاوى الذى يقول :

"والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب
ربنا {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} ، وتفسيره على ما أراد الله تعالى
وعلمه ، وكل ما جاء فى ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله
عليه وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لاندخل فى ذلك متأولين
بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل
ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه" (٣).

وأما الجواب على تأويلات المعتزلة التى صرفوا بها مراد الله من الآية
يقال لهم فى ذلك :

(١) قولكم إن المراد فى الآية النظر إلى الثواب ، قول فاسد جداً ، وحمل
للكلام على غير ظاهره الذى وضع له فى اللغة من غير دليل يدل على
ذلك (٤).

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٩٨ .

(٣) متن العقيدة الطحاوية ص ١٠ .

(٤) انظر : الفصل فى الملل ٣/٣ .

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

"ثواب الله عز وجل غيره تعالى ، والله تعالى قال : {إلى ربها ناظرة} ولم يقل إلى غيره ناظرة ، والقرآن على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة ، وإلا فهو على ظاهره ، ألا ترى أن الله عز وجل لما قال صلوا لي واعبدوني لم يجز أن يقول قائل : إنه أراد غيره ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال : {إلى ربها ناظرة} لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة ، ثم يقال للمعتزلة : إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله عز وجل {إلى ربها ناظرة} إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة ، فلم ماجاز لغيركم أن يقول إن قول الله عز وجل : {لاتدركه الأبصار} ^(١) أراد بها لاتدرك غيره ولم يرد أنها لاتدركه وهذا مالا يقدر على الفرق فيه" ^(٢).

(٢) قولهم إن النظر يطلق على معاني ، وهو محتمل في الآية لهذه المعاني . يقال لهم : لاشك إن النظر له عدة معاني واستعمالات على حسب صلاته وتعديه ، فإن عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله : {انظرونا نقتبس من نوركم} ^(٣) ، وإن عدى بغى فمعناه التفكير والاعتبار كقوله : {أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض} ^(٤) ، وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله : {انظروا إلى ثمره إذا أثمر} ^(٥) ^(٦).

قال ابن القيم : "وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بإلى خلاف حقيقته وموضوعه ، صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) الإبانة في أصول الديانة ص ١٣ .

(٣) سورة الحديد : آية ١٣

(٤) سورة الأعراف : آية ١٨٥

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٩

(٦) حادى الأرواح ص ٢١٩ بتصرف . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٠ .

نفس الرب جل جلاله "(١).

قال البيهقي رحمه الله :

"قال الله عز وجل : {وجوه يومئذ} يعنى يوم القيامة ، "ناصرة" يعنى مشرقة ، "إلى ربها ناظرة" وليس يخلو النظر من وجوه : إما أن يكون الله عز وجل عنى به نظر الاعتبار كقوله : {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت} (٢)، أو يكون عنى به نظر الانتظار كقوله : {ما ينظرون إلا صيحة واحدة} (٣)، أو يكون عنى نظر التعطف والرحمة كقوله : {لا ينظر إليهم} (٤)، أو يكون عنى الرؤية كقوله : {ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت} (٥).

ولا يجوز أن يكون الله سبحانه عنى بقوله "إلى ربها ناظرة" نظر التفكير والاعتبار لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار وإنما هى دار اضطرار ، ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، **لأنه** ليس فى شىء من أمر الجنة انتظار لأن الانتظار معه تنقيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ... ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجوه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه ، كما قال تعالى : {قد نرى تقلب وجهك فى السماء} (٦)، وأراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء ، ولأنه قال : "إلى ربها ناظرة" ونظر الانتظار لا يكون مقروناً بإلى لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا فى نظر الانتظار "إلى" ألا ترى أن الله عز وجل لما قال : {ما ينظرون إلا صيحة واحدة} (٧) لم يقل "إلى" إذ كان معناه الانتظار ، وقالت بلقيس فيما أخبر الله عنها : {فناظرة به يرجع

(١) حادى الأرواح ص ٢١٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٩ .

(٢) سورة الغاشية : آية ١٧

(٣) سورة يس : آية ٤٩

(٤) سورة آل عمران : آية ٧٧

(٥) سورة محمد : آية ٢٠

(٦) سورة البقرة : آية ١٤٤

(٧) سورة يس : آية ٤٩

المرسلون} (١)، فلما أرادت الانتظار لم تقل "إلى" ، قلنا : ولا يجوز أن يكون الله سبحانه أراد نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر وهو أن معنى قوله : "إلى ربها ناظرة" أنها رائية ترى الله عز وجل " (٢). (٣) لم يرد بذكر الوجوه جملة الإنسان ، لأنه لا دليل يدل على ذلك ، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الوجوه على جملة الإنسان .

فالأولى في ذلك حمل الأمور على معهودها في اللغة ما لم يمنع من ذلك نص أو إجماع أو ضرورة ، ولم يأت نص ولا إجماع ولا ضرورة تمنع ماذكرنا في معنى النظر (٣).

فذكر الوجوه في الآية لأن بها العينين اللتين يكون بهما النظر . (٤) قولهم المراد : التوقع والرجاء .

أجيب على ذلك بما ذكر في جواب الوجه الثاني .

(٥) قولهم : إن المراد بذلك واحدة الآلاء وهي النعم .

أجاب عن ذلك الإمام ابن حزم رحمه الله بوجهين :

"أحدهما : إن الله تعالى أخبر أن تلك الوجوه قد حصلت لها النضرة وهي النعمة، والنعمة نعمة ، فإذا حصلت لها النعمة فبعيد أن ينتظر ما قد حصل لها وإنما ينتظر ما لم يقع بعد .

والثاني : تواتر الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم ببيان أن المراد بالنظر هو الرؤية لاماتأوله المتأولون" (٤).

(١) سورة النمل : آية ٣٥

(٢) الاعتقاد ص ٧٤-٧٥ .

(٣) الفصل في الملل ٣/٣-٤ بتصرف .

(٤) المرجع السابق ٣/٣ .

المثال الثاني :

روى البخارى بسنده إلى قيس بن أبى حازم عن جرير قال : "كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا" (١).

وقد رد المعتزلة على الحديث بأوجه يمكن أن نلخصها فى الآتى :

- (١) إنه يتضمن الجبر والتشبيه .
- (٢) يجب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله بل هو كذب عليه .
- (٣) إن قاله فإنما قاله على سبيل الحكاية .
- (٤) مروى عن قيس بن أبى حازم وهو مطعون فيه من وجهين :
(أ) إنه كان يرى رأى الخوارج .
(ب) إنه خولط فى عقله آخر عمره .
- (٥) إنه خبر آحاد لا يقتضى العلم والرؤية طريقها القطع .
- (٦) إنه معارض بأخبار :
(أ) عن أبى ذر أنه قال :
قلت للنبي : "هل رأيت ربك" ؟ فقال : "نور هو ، أنى أراه" . أى :
أنور هو ؟ كيف أراه ؟" (٢).
- (ب) عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يرى الله أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة" .
- (٧) المراد بالرؤية فى الحديث العلم أو المعرفة وليست رؤية البصر .
وبجواب على مذكروا بما يأتى :

(١) سبق تخريج الحديث . انظر ص ١٩١

(٢) سبق تخريجه . انظر ص ١٨٤

(١) زعمهم أنه يفيد التشبيه :

يرد عليه نص الحديث فقد قال صلى الله عليه وسلم : "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر" فلم يشبه الله عز وجل بالقمر ، وإنما شبه رؤيته برؤية القمر ، فكاف التشبيه دخلت على "ما" المصدرية أو الموصولة بترون التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذى هو الرؤية . فيكون بذلك قد شبه الرؤية بالرؤية لا المرئى بالمرئى (١).

(٢) زعمهم بوجوب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله وأنه كذب عليه ، يجاب عنه بما يلى :

أولاً : لقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وأجمع الصحابة والذين من بعدهم على إثبات رؤية الله فى الآخرة للمؤمنين (٢).

ثانياً : إن الأحاديث التى دلت على ثبوت الرؤية تبلغ حد التواتر أخرجها أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد واعتنى بجمعها أئمة من العلماء كالدارقطنى وأبى نعيم الأصبهاني وأبى بكر الأجرى وغيرهم الكثير (٣). قال الحافظ ابن حجر :

"جمع الدارقطنى طرق الأحاديث الواردة فى رؤية الله تعالى فى الآخرة فزادت على العشرين ، وتتبعها ابن القيم فى حادى الأرواح فبلغت الثلاثين وأكثرها جياذ ، وأسند الدارقطنى عن يحيى بن معين (٤) قال :

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ١/١٩١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ .

(٢) انظر : شرح النووى على مسلم ٣/١٥ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٣٤٨ .

وقد نص على تواتر أحاديث الرؤية جماعة من العلماء . انظر :

مجموع الفتاوى ٣/٣٩٠ ، حادى الأرواح ص ٢١٩، ٢٥١ ، تفسير القرآن العظيم ٢/١٦١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٣ .

(٤) يحيى بن معين :

هو يحيى بن معين بن عون الغطفاني مولاهم ، أبو زكريا البغدادي ، ثقة حافظ مشهور . إمام الجرح والتعديل . روى عن ابن المبارك ، وهشيم ، وابن عيينة . وعنه الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وخلق . مات بالمدينة سنة ٢٣٣ هـ . =

"عندى سبعة عشر حديثاً فى الرؤية صحاح" (١).

ثالثاً : لقد تلقى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان وسلف الأمة وأئمتها أحاديث الرؤية بالقبول وعدم الإنكار ، واتفق عليها أهل السنة والجماعة (٢).

وقد ذكر النووى رحمه الله أنه رواها نحواً من عشرين صحابياً (٣)، وعد ابن القيم رحمه الله من رواها فبلغوا سبعة وعشرين رجلاً من الصحابة رضى الله عنهم (٤). بل لم يرو عن أحد منهم نفى حديث منها ، فكانوا على إثباتها مجتمعين متفقين (٥).

قال على بن المدينى : "سألت عبد الله بن المبارك عن رؤية الله تعالى فقال : ما حجب الله عز وجل أحداً إلا عذبه، ثم قرأ : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون} (٦). قال : الرؤية .

فقلت له يا أبا عبد الله : إن عندنا قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث : إن الله يتزل إلى سماء الدنيا ، وأهل الجنة يرون ربهم ، فحدثنى بنحو عشرة أحاديث فى هذا ، وقال : أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين ، والتابعون أخذوه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمن أخذوه؟" (٧)

= انظر : الطبقات الكبرى ٣٥٤/٧ ، الجرح والتعديل ١٩٢/٩ ، تاريخ بغداد

١٨٧-١٧٧/١٤ ، تذكرة الحفاظ ٤٢٩/٢-٤٣١ ، ميزان الاعتدال ٤١٠/٤ ، الكاشف

٢٦٩-٢٦٨/٣ ، تهذيب التهذيب ٢٨٨-٢٨٠/١١ ، تقريب التهذيب ٣٥٨/٢ .

(١) فتح البارى ٤٣٤/١٣ .

(٢) انظر : الفصل فى الملل ٤/٣ ، مجموع الفتاوى ٣٩١/٣ ، فتح البارى ٤٢٦/١٣ .

(٣) انظر : شرح النووى على مسلم ١٥/٣ .

(٤) انظر : حادى الأرواح ص ٢١٩ .

(٥) انظر : الاعتقاد ص ٨٢ .

(٦) سورة المطففين : آية ١٥-١٧ .

(٧) لوامع الأنوار ٢٤٥/٢ .

قال عباد بن العوام (١): قدم علينا شريك (٢) فقلنا : إن قوماً ينكرون هذه الأحاديث : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، والرؤية ، وما أشبه هذه الأحاديث ! فقال : "إنما جاءنا بهذه الأحاديث من جاءنا بالسنن في الصلاة والزكاة والحج وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث" (٣).

قال حنبل (٤): قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد - في الرؤية . قال : "أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر وكلما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر" (٥).

وقال ابن القيم رحمه الله في أحاديث الرؤية :

(١) عباد بن العوام :

هو عباد بن العوام بن عمر الكلابي مولا هم ، أبو سهل الواسطي ، ثقة . حدث عن أبي مالك الأشجعي ، وابن عون ، وأبي إسحاق الشيباني . وعنه الإمام أحمد وعمرو الناقد وغيرهم . مات سنة ١٨٥هـ أو بعدها.

انظر : تاريخ بغداد ١١/١٠٤-١٠٥ ، تذكرة الحفاظ ١/٢٦١ ، تهذيب التهذيب ٥/٩٩ تقريب التهذيب ١/٣٩٣ .

(٢) شريك :

هو شريك بن عبد الله النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ، ثم الكوفة أبو عبد الله ، صدوق ، يخطيء كثيراً ، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة ، وكان عادلاً فاضلاً عابداً ، شديداً على أهل البدع . مات سنة ١٧٧هـ أو ١٧٨هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٤/٣٦٥ ، تاريخ بغداد ٩/٢٧٩ ، ميزان الاعتدال ٢/٢٧٠ تذكرة الحفاظ ١/٢٣٢ ، تهذيب التهذيب ٤/٣٣٣ ، تقريب التهذيب ١/٣٥١ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/٥٠٤ .

(٤) حنبل :

هو حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد ، أبو علي الشيباني ، ابن عم الإمام أحمد وتلميذه ، إمام ، حافظ ، ثقة ، مصنف .

سمع سليمان بن حرب ، وأبي نعيم ، والحميدى . وعنه ابن صاعد ، وأبو بكر الحلال وآخرون . مات سنة ٢٧٣هـ .

انظر : تاريخ بغداد ٨/٢٨٦-٢٨٧ ، تذكرة الحفاظ ٢/٦٠٠-٦٠١ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٥١-٥٣ .

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/٥٠٧ .

"فإن الذى جاء بهذه الأحاديث هو الذى جاء بالقرآن والشرعة ،
والذى بلغها هو الذى بلغ الدين ، فلا يجوز أن يجعل كلام الله ورسوله
عضين^(١) بحيث يؤمن ببعض معانيه ويكفر ببعضها ، فلا يجتمع فى قلب العبد
بعد الاطلاع على هذه الأحاديث وفهم معناها إنكارها والشهادة بأن محمداً
رسول الله أبداً"^(٢).

(٣) قول عبد الجبار :

"وإن قال فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوى حذف الحكاية ونقل
الخبر".

هذه مجرد دعوى لاتستند على دليل ، ولم ترد فى رواية من روايات
الحديث المتعددة ، فإنها لو كانت صحيحة لذكرت ولو مرة واحدة فى طريق
من طرقه فدل ذلك على بطلانها^(٣).

(٤) وأما طعنهم فى قيس بن أبى حازم ، فإنه يرد عليه بالآتى :

أولاً : إن قيساً رحمه الله من ثقات رواة الحديث وقد وثقه جهابذة
العلماء ، وإليك طرفاً من أقوالهم فيه :

وصفه الذهبي رحمه الله فقال :

"العالم الثقة الحافظ أبو عبد الله البجلي ... أسلم وأتى النبى صلى الله
عليه وسلم ليبياعه فقبض نبى الله وقيس فى الطريق ، ولأبيه أبى حازم صحبة
وقيل : إن لقيس صحبة ، ولم يثبت ذلك ، وكان من علماء زمانه ؛

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله :

"ماكان بالكوفة أحد أروى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم من قيس بن أبى حازم".

وقال أبو داود رحمه الله :

(١) عضين : أى مجزأً مفرقاً .

انظر : القاموس المحيط ص ١٦٩٢ .

(٢) حادى الأرواح ص ٢٥٢ .

(٣) انظر : رؤية الله تعالى ص ٢٣١ .

"أجود التابعين إسناداً قيس".

وقال يحيى بن معين رحمه الله :

"قيس بن أبي حازم أوثق من الزهري ، ومن السائب بن يزيد".
وكذا وثقه غير واحد^(١).

ثانياً : أخرج له البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم^(٢). ولو كان مطعوناً فيه لما أخرج له أصحابا الصحيحين في أصولهما .

ثالثاً : حديث قيس السابق أخرجه البخاري في صحيحه ، ويكفي ذلك لصحته وتوثيق روايته ، وهو القائل : "مأدخلت في كتاب الجامع إلا ماصح"^(٣).

رابعاً : لم ينفرد قيس عن جرير رضي الله عنه بذكر الرؤية وإنما تواترت الأحاديث عن جمع من الصحابة منهم أبو سعيد وأبو هريرة وأنس وصهيب وبلال وغير واحد^(٤).

خامساً : إن قيساً رحمه الله لم يكن يحمل على علي رضي الله عنه كما يدعى عبد الجبار ، بل المشهور عنه أنه كان يقدم عثمان عليه^(٥). وهذا قول جمهور أهل السنة وكافة أهل الحديث والفقهاء فإنهم يقدمون عثمان على علي رضي الله عنهما ، وفي ذلك قول ابن عمر "كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم"^(٦). فلم يأت قيس بمكرر من القول حتى يكون سبباً

(١) سير أعلام النبلاء ٤/١٩٨-٢٠٠ .

(٢) انظر : تقريب التهذيب ٢/١٢٧ .

(٣) انظر : تدريب الراوي ٢/٩٨ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢/١٦١ ، وقد سبق بعض تلك الأحاديث ١٠ نظراً ص: ١٩٠ مباحثها .

(٥) انظر : سير أعلام النبلاء ٤/١٩٩ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٦٢) ،

باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ، ٤/١٩١ .

وانظر : تدريب الراوي ٢/٢٢٣ .

للطعن فيه .

(٥) قولهم بأنه خبر آحاد ، وهو لا يقتضى العلم ، والرؤية طريقها القطع والثبات .

كونه خبر آحاد وخبر الآحاد لا يقتضى العلم ، هذه شبهة باطلة ، استوفيت الإجابة عنها من قبل (١).

وأما كون الرؤية طريقها القطع والثبات ، هذا ليس بلازم لأن أحاديث الآحاد الصحيحة كافية في إثبات العقائد ، إضافة إلى ما سبق ذكره من أن أحاديث الرؤية تواترت تواتراً معنوياً . فبطلت بذلك شبهة أهل الاعتزال من جميع الأوجه .

(٦) زعمهم بأنه معارض بأخبار رويت منها :

(أ) مارواه أبو قلابة عن أبي ذر أنه قال : قلت للنبي : "هل رأيت ربك؟" فقال : "نور هو ، أنى أراه" أى أنور هو؟ كيف أراه؟

(ب) عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يرى الله أحد في الدنيا ولا في الآخرة".

ويجاب عن ذلك بما يلي :

(٩) بالنسبة لرواية أبي ذر :

أخرجها مسلم رحمه الله عن أبي ذر بطريقين : قال صلى الله عليه وسلم في الرواية الأولى : "نور أنى أراه" ، وفي الثانية : "رأيت نوراً" (٢). قال النووي :

"أما قوله صلى الله عليه وسلم "نور أنى أراه" فهو بتنوين نور وبفتح الهمزة فى أنى وتشديد النون وفتحها وأراه ، بفتح الهمزة ، هكذا رواه جميع الرواة فى جميع الأصول والروايات ومعناه : حجاب نور فكيف أراه ، قال الإمام أبو عبد الله المازرى رحمه الله : الضمير فى أراه عائد على الله

(١) انظر ص : ١٢٨ فما بعدها .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ١٨٤

سبحانه وتعالى ومعناه أن النور معنى من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الراى وبينه . وقوله صلى الله عليه وسلم : " رأيت نوراً " معناه : رأيت النور فحسب ولم أر غيره " (١) . ولكن عبد الجبار لم تطب لنفسه رواية الحديث كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أبت بدعته إلا أن تحمله على تحريفها ثم تفسيرها تفسيراً يلائم تلك البدعة .

وحديث أبى ذر لا يعارض حديث جرير السابق ، لأن حديث أبى ذر يتعلق بموضوع رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج ، فإنه نفى صلى الله عليه وسلم أن يكون قد رأى ربه بعينى رأسه ، والذي منعه من ذلك النور وهو الحجاب المذكور فى رواية أبى موسى رضى الله عنه عندما قال :

"قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : "إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور [وفى رواية "النار"] لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " (٢) .

فقول النبي صلى الله عليه وسلم : "فأنى أراه؟" أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته؟ (٣)

(٤) وأما رواية جابر فإنها لم ترو بهذا اللفظ عن أحد من أئمة الحديث . وإنما الذى ورد عند مسلم : من حديث الدجال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت" (٤) .

(١) شرح النووى على مسلم ١٢/٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب فى قوله عليه السلام : "إن الله لا ينام" (٧٩) برقم ١٧٩ ، ١٦١/١ - ١٦٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٧ .

(٤) الحديث سبق تخريجه . انظر ص ١٨٤ .

فزيادة "ولافى الآخرة" زيادة منكرة لم ترد فى الحديث ، بل هى موضوعة أريد بها مناهضة الأدلة الثابتة فى إثبات الرؤية ، فأمثالها لا يجوز أن تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم (١).

والذى يعجب له الإنسان من هؤلاء المعتزلة أنهم يطعنون فى الثابت من الأحاديث بل والمتواتر منها إذا خالفت بدعتهم بينما يلجأون إلى الموضوع والضعيف من الأحاديث للاستشهاد به على باطلهم ، وما ذلك إلا للهوى الذى أعمى أبصارهم عن رؤية الحق ، وعقولهم عن الهدى ، فانقلبت عندهم الموازين واختلطت عليهم الأمور ، فأصبح الضلال هدى والباطل حقاً ، وهكذا أصحاب البدع والأهواء ، فإنهم يحدثون البدع أولاً فإذا استقرت فى أذهانهم بحثوا لها عما يسندها من أدلة لا يعبأون بصحتها أو ضعفها ، أو من قالها ، وإن وجدوا ما يخالف تلك البدع من أدلة صحيحة لووا أعناقها فحرفوها وبدلوها وزادوا ونقصوا فيها لتكون حجة لهم لا عليهم . والسلامة أن يعافيك الله مما ابتلاهم به .

(٧) قولهم : "المراد بـ"سترون ربكم" : ستعلمون ربكم أو تعرفون ربكم ، ولذا قال : "لاتضامون" أى لاتشكون .

والجواب على ذلك :

أولاً : لاشك إن "ترى" تكون بصرية وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك . ولا يخلو الكلام من وجود قرينة تخلص المعنى المراد .

والقرينة فى الحديث قوله : "سترون ربكم كما ترون القمر" .

وفى الرواية الأخرى : "كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحب" . فدل على أن المراد بها "ترى" البصرية (٢).

(١) انظر : رؤية الله تعالى ص ٢٣٤، ٢٣٥ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ .

ثانياً : إن " ترى " العلمية تنصب مفعولين بخلاف البصرية .

قال ابن التين :

"... إن الرؤية بمعنى العلم تتعدى لمفعولين تقول : رأيت زيداً فقيهاً أى علمته ، فإن قلت : رأيت زيداً منطلقاً لم يفهم منه إلا رؤية البصر ، ويزيده تحقيقاً قوله فى الخبر : "إنكم سترون ربكم عياناً" لأن اقتران الرؤية بالعيان لا يحتمل أن يكون بمعنى العلم" (١).

ثالثاً : قوله : "تضامون" . قال النووى : "بتشديد الميم وتخفيفها فمن شددھا فتح التاء ومن خففها ضم التاء ، ومعنى المشددة : هل تضامون وتتلففون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى المخففة : هل يلحقكم ضم وهو المشقة والتعب" (٢).

فتفسير عبد الجبار للضم بمعنى الشك لا يستقيم .

قال الإمام الدارمى رحمه الله :

"وهذا التفسير - أى تفسير "تضامون" بمعنى تشكون - مع ما فيه من معاندة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو محال خارج عن المعقول ، لأن الشك فى ربوبية الله زائل عن المؤمن والكافر يوم القيامة فكل مؤمن وكافر يومئذ يعلم أنه ربهم لا يعترئهم فى ذلك شك فيقبل الله ذلك من المؤمنين ، ولا يقبله من الكافرين ، ولا يعذرهم بمعرفتهم ويقينهم به فى ذلك اليوم فما فضل المؤمن على الكافر يوم القيامة .. فى معرفة الرب ؟ إذ مؤمنهم وكافرهم لا يعترئهم فى ربوبيته شك" (٣).

قال ابن حزم :

"ومحال أن تكون هذه الرؤية رؤية القلب لأن جميع العارفين به تعالى يرونه فى الدنيا بقلوبهم وكذلك الكفار فى الآخرة بلا شك" (٤).

(١) فتح البارى ٤٢٦/١٣ ، وانظر فى ذلك : النحو الوافى ١٨-١٤/٢ .

(٢) شرح النووى على مسلم ١٨/٣ .

(٣) رد الدارمى عثمان بن سعيد ضمن عقائد السلف ص ٤١٤ .

(٤) الفصل فى الملل ٤/٣ .

وأما قول عبد الجبار :

"مانسب لعائشة إنها سمعت بأن القوم يقولون : بأن الله يرى ، فقالت : لقد قف شعري مما قلتموه ، ودفعت ذلك بقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} (١).

يجاب عن ذلك بالآتي :

أولاً: ذكره لحديث عائشة الصحيح بصيغة التمریض "نسب" مخالف للقاعدة العلمية عند المحدثين ، فإنهم يوردون الأحاديث الصحيحة بصيغة الجزم (٢).

ثانياً: لقد حرف عبد الجبار رواية عائشة رضي الله عنها ليتسنى له الاستدلال بها على نفى الرؤية في الآخرة .

والحديث كما رواه مسلم في صحيحه بسنده إلى مسروق (٣) قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ماهن؟ قالت من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل {ولقد رآه بالأفق المبين} (٤) ، {ولقد رآه نزلة أخرى} (٥). فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) انظر : تدريب الراوى ١٢٠/١ .

(٣) مسروق :

هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي ، أبوعائشة ، الكوفي ، ثقة فقيه عابد ، مخضرم . يروى عن أبي ، وعمر ، وعائشة . وعنه الشعبي ، وإبراهيم النخعي ، وأبو وائل . مات سنة ٦٢ هـ وقيل ٦٣ هـ .

انظر : الطبقات الكبرى ٧٦/٦ ، تاريخ بغداد ٢٣٢/١٣ ، تذكرة الحفاظ ٤٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٦٩-٦٣/٤ ، تهذيب التهذيب ١٠٩/١٠ ، تقريب التهذيب ٢٤٢/٢ .

(٤) سورة التكوير : آية ٢٣

(٥) سورة النجم : آية ١٣

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنما هو جبريل لم أره على الصورة التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} ..."(١) الحديث .
ثالثاً : إن عائشة رضی الله عنها لم تنف رؤية الله في الآخرة ، وإنما نفت أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه في الدنيا كما هو ظاهر من سياق الرواية .

ونفى عائشة رضی الله عنها لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم لله سبحانه في الدنيا بعيني رأسه هو القول الراجح عند أهل العلم وعليه جمهور أهل السنة ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت"(٢) ، ولحديث أبي ذر رضی الله عنه "نور أنى أراه"(٣)(٤) .

ولا يلزم من ذلك عدم رؤيته في الآخرة .

-
- (١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معنى قول الله عز وجل : {ولقد رآه نزلة أخرى} (٧٧) برقم ١٧٧ ، ١٥٩/١ .
وأخرج البخاري نحوه مختصراً في كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب إذا قال أحدكم آمين (٧) ، ٨٤،٨٣/٤ .
وبنحوه في كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة ق (٥٣) ، باب (١) ، ٥٠/٦ .
وأخرجه مختصراً أيضاً في كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً} (٤) ، ١٦٦/٨ .
(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ١٨٤
(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ١٨٤
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢/٢٣٠ ، رؤية الله تعالى ص ٥٤،٥٣ .

(٣) أفعال العباد :

هذا موضوع له علاقة وصلة وثيقة بموضوع قضاء الله وقدره . وأول من يذكر عنه أنه تحدث في قدر الله تعالى معبد الجهني^(١)، ثم تبنى قوله واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد^(٢)، ودعوا الناس إلى ذلك^(٣).

وقد توسعت المعتزلة بعد ذلك في موضوع القدر حتى جعلوه أصلاً من أصولهم الخمسة وأسموه بالعدل ، وتمدحوا بالتسمية به .

وقد عرفوا العدل بأنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يختاره ، ولا يخل بما هو واجب عليه ، وأن أفعاله كلها حسنة^(٤).

وقد زعموا أن العقل هو الذي قادهم إلى ذلك ودفعهم إليه .

وأما نصوص الكتاب والسنة فلا دخل لها في شأن العدل .

قال عبد الجبار :

"فأما الكلام في العدل فالعقل يدل عليه ، وذلك لأنه تعالى إذا كان عالماً بالقبيح وغنياً عنه ، لأن الحاجة إنما تصح على من يشتهي ويتغذى

(١) معبد الجهني :

هو معبد بن عبد الله بن عويم ، وقيل : عكيم - الجهني . البصري . أول من قال بالقدر في زمن الصحابة بالبصرة . وكان عالماً مع بدعته . صدوق في الحديث . قتل سنة ٨٠ هـ .

انظر : التاريخ الكبير للبخاري ٣٩٩/٧ ، الجرح والتعديل ٢٨٠/٨ ، المجروحين ٣٦،٣٥/٣ ، ميزان الاعتدال ١٤١/٤ ، سير أعلام النبلاء ١٨٥/٤-١٨٧ ، تقريب التهذيب ٢٦٢/٢ .

(٢) عمرو بن عبيد : هو عمرو بن عبيد بن باب ، التميمي مولاهم ، أبو عثمان البصري ، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها ، وأحد الزهاد . كان داعية إلى بدعته . واتهمه جماعة . مات سنة ١٤٣ هـ وقيل ١٤٤ هـ .

انظر : المجروحين ٧١-٦٩/٢ ، تاريخ بغداد ١٦٢/١٢-١٧٨ ، ميزان الاعتدال ٢٨٠-٢٧٣/٣ ، سير أعلام النبلاء ١٠٦-١٠٤/٦ ، تهذيب التهذيب ٣٠/٨ ، تقريب التهذيب ٧٤/٢ .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص ١١٩ .

(٤) انظر : شرح الأصول ص ٣٠١، ١٣٢ .

وتصح عليه الزيادة والنقصان ، ومن هذا حاله لا يجوز أن يختار القبيح ،
ولولا ذلك لما حصل الثقة بكلامه وقوله "(١)".

وقد دفعهم ذلك إلى نفى قدر الله تعالى وعدم إثباته .
قال عبد الجبار :

"والذين يثبتون القدر هم المجبرة (٢)، فأما نحن فإننا ننفيه وننزه الله
تعالى عن أن تكون الأفعال بقضائه وقدره" (٣).

وماورد من أخبار الآحاد دالاً على ذلك ضرب من ضروب الخطأ ،
الذى يعلم بروايته أنه ارتكب عظيماً (٤).

والقول بأن الله لا يفعل القبيح ولا يختاره وهو ما عرفوا به العدل هي
القاعدة التي انطلقوا منها في نفيهم لخلق أفعال العباد وتقديرها وإرادتها من
قبل الله تعالى زعماء منهم بأن ذلك تنزيه لله سبحانه (٥).

وهذه مقدمة نخلص من خلالها إلى عرض موقف المعتزلة من خلق
أفعال العباد وإرادتها .

أولاً : خلق أفعال العباد .

لقد أجمعت المعتزلة على أن أفعال العباد ليست من خلق الله
تعالى (٦). طاعات كانت أم معاصي . وحجتهم أنها من القبائح والله لا يفعل
القبيح (٧).

(١) فضل الاعتزال ص ١٤١ ، وانظر : المحيط بالتكليف ص ٢٣٤، ٢٥٩ .

(٢) المجبرة : أو الجبرية : مشتقة من الجبر ، وهو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته
إلى الرب تعالى . وهم أصناف : فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً
ولا قدرة على الفعل أصلاً . والمتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة .
انظر : الملل والنحل ٨٥/١ ، التعريفات ص ٤٠ .

(٣) شرح الأصول ص ٧٧٦ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص ١٩٤ .

(٥) انظر : شرح الأصول ص ٧٧٦ .

(٦) انظر : باب ذكر المعتزلة ص ٦ ، الفرق بين الفرق ص ١١٤-١١٥ .

(٧) انظر : المحيط بالتكليف ص ٢٨٧ .

وهى حجة عقلية إذ السمع لا يصح أن يكون دليلاً في هذا المقام (١).
وقد يعترض معترض بأن المعاصى قبائح ولكن مآبال الطاعات تطوى
من أن تكون خلقاً لله بهذه الحجة العقلية؟
يجيب على ذلك عبد الجبار بقوله :

"قد صح أن أفعال العباد قبائح ، وقد صح بما تقدم في دليل العدل أنه
تعالى لا يختار فعل القبيح ، فيجب أن يكون حادثاً من جهته ، وإذا لم يكن
بد من محدث له ، فليس إلا أن العبد هو الذى يحدثه ... ولا فرق بين ذلك في
الأفعال الحسنة أو القبيحة فالجميع لا يخلقه الله ، لأن الأفعال الحسنة قد
يصح وجودها على وجه فتقبح وعلى وجه آخر فتحسن" (٢).

ومن ثم لا يليق أن يوصف الله سبحانه وتعالى بأنه خالق للخير والشر
والذين يقولون ذلك هم الذين قل تمييزهم (٣).
وقد أيدوا دليلهم العقلى بشبه عقلية ونقلية :
الشبه العقلية :

الأولى : لو كانت خلقاً لله تعالى لم تكن عملاً للعباد ، تقف عليه
أحوالهم ، وتوجد وتنتهى بحسب اختيارهم وإرادتهم لا كالألوان
والصور (٤).

الثانية : وجود الأمر ببعضها والنهى عن بعض ، والمدح على بعض
والذم على بعض ، والثواب على بعض والعقاب على بعض . فلو كانت خلقاً
لله ما حسن شيء مما سبق . فإثبات خلق الله لها يوجب نفي الأحكام
السابقة ، ويلزم من ذلك أن يكون الله ظالماً جائراً (٥).

(١) انظر : شرح الأصول ص ٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) المحيط بالتكليف ص ٣٦٦-٣٦٧ .

(٣) انظر : فضل الاعتزال ص ١٧٩ .

(٤) انظر : شرح الأصول ص ٧٧١، ٧٧٨-٧٧٩ ، المحيط بالتكليف ص ٣٤٠ ، شرح

قصيدة الصاحب بن عباد ص ٦٠-٦١ .

(٥) انظر : فضل الاعتزال ص ١٦٩-١٧٠ ، شرح الأصول ص ٣٤٥ ، المحيط بالتكليف

ص ٣٤٠ ، شرح قصيدة الصاحب ص ٦١ .

الشبه الثقيلة :

وهى تذكر على أنها موافقة لأدلة العقل السابقة ومقررة لها ، لأنها تفرد للاستدلال بها ، لأن ذلك متعذر (١).

(١) {ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت} (٢).

فالباطل المتفاوت ليس من خلق الله .

(٢) {صنع الله الذى أتقن كل شىء} (٣).

الكفر والظلم وغيرهما ليست من خلقه ، لأنها ليست بمقتنة ولا محكمة

ولا حسنة .

(٣) {وما أصابك من سيئة فمن نفسك} (٤).

{قل هو من عند أنفسكم} (٥).

{حسداً من عند أنفسهم} (٦).

{وما هو من عند الله} (٧).

فهذه الأمور قد لحقت العبد من جهته لا من جهة الله فدل على أنها

ليست من خلقه .

(٤) قوله تعالى : "تفعلون" ، "تصنعون" ، "وتعلمون" ، "وتكسبون" ،
و"تخلقون إفكاً" (٨).

وفى ذلك إضافة الفعل إلى العبد بأقوى وجوه الإضافة .

(٥) {كيف تكفرون بالله} (٩).

(١) انظر : شرح الأصول ص ٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) سورة الملك : آية ٣

(٣) سورة النمل : آية ٨٨

(٤) سورة النساء : آية ٧٩

(٥) سورة آل عمران : آية ١٦٥

(٦) سورة البقرة : آية ١٠٩

(٧) سورة آل عمران : آية ٧٨

(٨) سورة العنكبوت : آية ١٧

(٩) سورة البقرة : آية ٢٨

{ومامنع الناس أن يؤمنوا} (١).

وفى هذا الزام للعبد وتوبيخ وذم له ، وتقريع له بالنعم وعدها عليه (٢).

(٦) {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} (٣).

{وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء} (٤).

(٧) {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (٥).

فخلقهم للعبادة ولم يخلقهم للمعصية .

(٨) {وكل شيء فعلوه في الزبر} (٦).

فقال : فعلوه ولم يقل فعله . وقال في فعله : {الله خالق كل شيء} (٧)، أى كل شيء يكون ولم يقل خلق فعلهم (٨).
ثانيا : إرادة الأفعال .

قسموا الإرادة إلى قسمين :

(١) إرادة حتم وجبر ، كخلق السموات والجال .. الخ

(٢) إرادة أمر ، ومعها تمكين كالأمر بالبر والإحسان .

فمكن الله عباده لفعل ذلك بما أعطاهم من استطاعات وآلات للاختيار ولم يلزمهم بالطاعات جبراً ، ولا صرفهم عن المعاصى قسراً (٩).

(١) سورة الكهف : آية ٥٥

(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص ٣٧٩ .

(٣) سورة النحل : آية ٩٠

(٤) سورة الأعراف : آية ٢٨

(٥) سورة الذاريات : آية ٥٦

(٦) سورة القمر : آية ٥٢

(٧) سورة الزمر : آية ٦٢

(٨) انظر : رسائل العدل ص ٧١-٧٢ .

(٩) انظر : رسائل العدل ص ١٨٣-١٨٥ ، المحيط بالتكليف ص ٢٨٧ .

ثم فصلوا في إرادة الله لتلك الأفعال ، فإن كانت طاعات فإنه يريدونها ويعين عليها ، وإن كانت معاصي فإنه لا يريدونها ولا يشاؤها ولا يعين عليها ، وإن كانت مباحات أو أفعال غير المكلفين ، فهو لا يريدونها ولا يكرهها^(١).
ودليلهم العقلي على ذلك :

أما الطاعات فلأن كراهة الحسن قبيحة ، وأما المعاصي فلأن إرادة القبيح قبيحة ، وأما المباحات وأفعال غير المكلفين فلإفادة من إرادتها أو كرهها^(٢).

وأيدوا ذلك بشبه عقلية ونقلية :

الشبه العقلية :

- (١) لو أرادها ما كان فعلها خطأ ولا معصية ، لأن المعقول من الطاعة فعل مأراداه المطاع ، والمعصية فعل ما كرهه المعصى^(٣).
- (٢) لا يجوز أن يكون الله مريداً للمعاصي ، لأنه وجب حينئذ أن يكون محباً لها راضياً عنها ، لأن الإرادة والمحبة والرضا من باب واحد^(٤).
- (٣) لو كان يريدونها لكان العاصي معذوراً عند الله ، لأنه فعل ما يريد الله ، موافقاً لقضائه وقدره ، ولا يوجد حينئذ عاصي على الأرض لأن الكل يسعى بقضائه وقدره .
- والقول بأنه خلق قوماً للجنة وقوماً للنار كذب وضلال^(٥).
- (٤) لو كان الله مريداً لها مانهاً عنها^(٦).
- (٥) لا يمكن أن يقضى على خلقه بمعصية ، ثم يعذبهم عليها ، بل ذلك محال وباطل .

(١) انظر : شرح الأصول ص ٧٧٨-٧٧٩ ، المحيط بالتكليف ص ١٠٩ .

(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص ١٠٩ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص ٦٢-٦٤ .

(٤) انظر : شرح الأصول ص ٧٧١ ، ٤٦٤ ، المحيط بالتكليف ص ٤٢٠ .

(٥) انظر : رسائل العدل ص ٩١ .

(٦) انظر : شرح الأصول ص ٤٦٣ .

ولكان الطائع والعاصي يجريان في طاعته ، ولم يكن المذنب أولى بالعقوبة من المهتدى (١).

وأما الشبه النقلية :

(١) قوله : {وما الله يريد ظلماً للعالمين} (٢).

وقوله : {وما الله يريد ظلماً للعباد} (٣).

وهذا نص في موضع الخلاف .

(٢) قوله : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً} (٤).

فيستحيل أن يكون مريداً لشيء كارهاً له (٥).

(٣) قوله : {والله لا يحب الفساد} (٦).

{ولا يرضى لعباده الكفر} (٧) (٨).

(٤) قوله : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا

ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل

هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا

تخرسون} (٩).

فقد أكذب الله المشركين في قولهم ، ونفى عن نفسه ما نسبوه إليه

بظلمهم (١٠).

(١) انظر : رسائل العدل ص ١٨٥، ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٨

(٣) سورة غافرة : آية ٣١

(٤) سورة الإسراء : آية ٣٨

(٥) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص ٦٢-٦٤ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٠٥

(٧) سورة الزمر : آية ٧

(٨) انظر : المحيط بالتكليف ص ٢٨٦ .

(٩) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(١٠) انظر : رسائل العدل ص ٧٢، ٧١ .

وأماموقفهم من أدلة الإثبات ، مثاله حديث احتجاج آدم وموسى عليها السلام^(١) ، فقد ردوا عليه بالآتي :

(١) هذا يوجب أن موسى كان قدرياً .

(٢) يوجب في كل كافر ومشرِك وفاجر أن لا يلام لأن ما آتاه كان مكتوباً عليه .

وبالتالى من تعلق به وبأمثاله من الأحاديث فهو جاهل ويجب أن يلصق به كل ذم ، وكل لقب مذموم^(٢) .

وجوب الإيمان بقدر الله تعالى والجواب على شبه المعتزلة :

الإيمان بقدر الله واجب ، وهو أحد أركان الإيمان الستة التى لا يتصف المؤمن بالإيمان إلا بتحقيقها كما قال صلى الله عليه وسلم : "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"^(٣) .

والإيمان به من تمام التوحيد ، كما قال ابن عباس : "هو نظام التوحيد" ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيدده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيدده^(٤) .

وهو سر الله فى خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد من عباد الله ، فإله أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضل وهدى ، وهو على كل شىء قدير ، وبكل أمر بصير^(٥) .

وأهل السنة والجماعة وحزب الله ورسوله هم أسعد الناس فى مسألة القدر من جميع الطوائف .

(١) يأتى الحديث والكلام عنه .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص ١٦٨ .

(٣) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ٥١ .

والحديث سبق تخريجه انظر : ص : ٩١

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ١١٣/٣ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٠ .

فإنهم يشبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ، ويشبتون مشيئته العامة ويزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويشبتون القدر السابق ، وأن العباد يعملون ما قدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له (١).

ولقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات قدر الله تعالى وهي تؤيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة . من ذلك :

(١) قال سبحانه وتعالى :

- {وخلق كل شيء فقدره تقديراً} (٢).
 وقال : {إنا كل شيء خلقناه بقدر} (٣).
 وقال : {وكان أمر الله قدراً مقدوراً} (٤).
 وقال : {الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى} (٥).
 روى مسلم بسنده إلى يحيى بن يعمر (٦) قال :

- (١) شفاء العليل ص ١١٤-١١٥ بتصرف .
 وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٨/٢ ، جامع الرسائل ١٢٩/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٠ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٠ .
 (٢) سورة الفرقان : آية ٢
 (٣) سورة القمر : آية ٤٩
 (٤) سورة الأحزاب : ٣٨
 (٥) سورة الأعلى : آية ٢-٣
 (٦) يحيى بن يعمر :

هو يحيى بن يعمر أبو سليمان العدواني البصري ، نزيل مرو وقاضيه ، ثقة فصيح وكان يرسل ، روى عن أبي ذر ، وعائشة وأبي هريرة . وعنه قتادة ، وعطاء الخراساني ، وآخرون . مات سنة ١١٥ هـ . وقيل غير ذلك .

انظر : الجرح والتعديل ١٩٦/٩ ، تذكرة الحفاظ ٧١/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٤١/٤-٤٤٣ ، تهذيب التهذيب ١٧١/٤ ، تريب التهذيب ٣٦١/٢ .

كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري^(١) حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته^(٢) أنا وصاحبي أهدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون^(٣) العلم - وذكر من شأنهم - وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ، قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني برىء منهم وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال صدق ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

(١) حميد بن عبد الرحمن :

هو حميد بن عبد الرحمن الحميري البصري ، ثقة فقيه . روى عن أبي هريرة وأبي بكر الثقفي وابن عمر . وعنه عبد الله بن بريدة ، ومحمد بن سيرين وقتادة . انظر : الجرح والتعديل ٢٢٥/٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٩٣/٤-٢٩٤ ، تهذيب التهذيب ٤٦/٣ ، تقريب التهذيب ٢٠٣/١ .

(٢) اكتنفته أنا وصاحبي : أي أحطنا به من جانبيه .

النهاية في غريب الحديث ٢٠٥/٤ .

(٣) يتقفرون العلم : أي يتطلبونه . المرجع السابق ٩٠/٤ .

الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال صدقت . قال فأخبرني عن الإحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربنتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" (١). والأحاديث في إثبات القدر كثيرة جداً في الصحيحين وغيرها عن جماعة من الصحابة (٢).

والإيمان بالقدر لا يتم إلا بأربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن الله عالم بكل ما يكون جملة وتفصيلاً بعلم سابق ، لقوله تعالى : {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير} (٣).

الثاني : إن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء لقوله تعالى {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} (٤). أي قبل أن خلق الخليقة .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرضه على الماء" (٥).

(١) الحديث سبق تخريجه انظر ص: ٩١

(٢) انظر : صحيح البخارى ، كتاب القدر (٨٢) ، باب (١) ، باب جف القلم على علم الله (٢) ٢١٠/٧ ، وباب كان أمر الله قادراً مقدوراً (٤) ، ٢١١/١ .

صحيح مسلم ، كتاب القدر (٤٦) ، باب كيفية الخلق الآدمي (١) ، حديث رقم ٢٦٤٣ ، ٢٠٣٦/٤ ، وحديث رقم ٢٦٤٧ ، ٢٠٣٩/٤ ، وحديث رقم ٢٦٤٨ ، ٢٠٤٠/٤ ، وباب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) ، حديث رقم ٢٦٥٢ ، ٢٠٤٢/٤ ، حديث رقم ٢٦٥٣ ، ٢٠٤٤/٤ ، وباب كل شيء بقدر (٤) ، حديث رقم ٢٦٥٥ ، ٢٠٤٥/٤ .

(٣) سورة الحج : آية ٧٠

(٤) سورة الحديد : آية ٢٢

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو في كتاب القدر (٤٦) ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) برقم ٢٦٥٣ ، ٢٠٤٤/٤ .

الثالث : إنه لا يكون شىء فى السموات والأرض إلا بإرادة الله ومشيئته الدائرة بين الرحمة والحكمة ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من شاء بحكمته ، لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وسلطانه وهم يسألون . وما وقع من ذلك فهو مطابق لعلم الله السابق ولما كتبه فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى {إنا كل شىء خلقناه بقدر} (١) ، {فمن يرد الله أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً} (٢) . فأثبت وقوع الهداية والضلال بإرادته .

الرابع : إن كل شىء فى السموات والأرض مخلوق لله تعالى لا خالق غيره ولا رب سواه ، لقوله تعالى : {وخلق كل شىء فقدره تقديرًا} (٣) . وقال على لسان إبراهيم : {والله خلقكم وماتعملون} (٤) (٥) .

وقد تناول العلماء من أهل السنة شبه المعتزلة السابقة فى موضوع القدر وأفعال العباد ففندوها وأوضحوا بطلانها لأنها لم تبين على نصوص الشرع وإنما بنيت على العقول القاصرة العاجزة فجاءت مخالفة للنصوص ، مناهضة لها ، ويتضح ذلك فيما يلى :

قولهم فى تعريف العدل : إن الله لا يفعل القبيح ولا يختاره ولا يخل بما هو واجب عليه ، وإن أفعاله كلها حسنة . وعلى ذلك دل العقل كما يرون .

(١) سورة القمر : آية ٤٩

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥

(٣) سورة الفرقان : آية ٢

(٤) سورة الصافات : آية ٩٦

(٥) شرح لمعة الاعتقاد ص ٥١-٥٣ بتصرف .

وانظر : شفاء العليل ص ٦٦ .

إن المعتزلة لما خاضوا بعقولهم في شرع الله تعالى ، بعيدة عن هدى النصوص ، قذفت لهم تلك العقول بما يسمى بالتحسين والتقييح العقلي ووجوب الأصلح على الله الذي كان علته وسببه قياسهم لأفعال الله سبحانه على أفعال العباد ، فحسنوا منه ما يحسن منهم ، وقبحوا منه ما يقبح منهم وأوجبوا عليه ما يجب عليهم وحرموا عليه ما يحرم عليهم وسموا ذلك عدلاً ، وما ذلك إلا تشبيهه لله بخلقه في أفعاله . فهم في الحقيقة مشبهة الأفعال . والله سبحانه لا يقاس بنا في أفعاله ، فليس ماوجب أو حرم علينا يجب ويحرم عليه ، وليس ماحسن أو قبح منا يحسن أو يقبح منه (١).

فهو سبحانه منزّه عن فعل القبائح ، لا يفعل السوء ولا السيئات ، مع أنه سبحانه خالق كل شيء : أفعال العباد وغيرها . والعبد إذا فعل القبيح المنهى عنه كان قد فعل سوءاً وظلماً وقبيحاً وشرّاً ، والرب قد جعله فاعلاً لذلك ، وذلك منه سبحانه عدل وحكمة وصواب ووضع للأشياء في مواضعها ، فخلقه سبحانه لما فيه نقص أو عيب للحكمة التي خلقه لها هو محمود عليه ، وهو منه عدل وحكمة وصواب وإن كان في المخلوق عيباً ، ومثل ذلك موجود في مفعول المخلوقين ، فإن الصانع إذا أخذ الخشبة المعوجة والحجر الرديء واللينة الناقصة فوضعها في موضع يليق بها ويناسبها كان ذلك منه عدلاً ، واستقامة وصواباً وهو محمود ، وإن كان في تلك عوج وعيب هي به مذمومة ، ومن أخذ الخبث فجعلها في المحل الذي يليق بها كان ذلك حكمة وعدلاً ، وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها ، ومن وضع العمامة على الرأس والنعلين في الرجلين فقد وضع كل شيء موضعه ، ولم يظلم النعلين إذ هذا محلها المناسب لهما ، فهو سبحانه لا يضع شيئاً إلا في موضعه ، فلا يكون إلا عدلاً ، ولا يفعل إلا خيراً ، فلا يكون إلا محسناً جواداً رحيماً ، وهو سبحانه له الخلق والأمر (٢).

(١) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٤٨ ، مفتاح دار السعادة ص ٤٩-٥٢ ، شرح

العقيدة الطحاوية ص ٤٤٨ .

(٢) جامع الرسائل ١٣٠/١ بتصرف .

والله يختص بحكمة لا يشاركه فيها غيره ، ولهذا يحسن منه ما يقبح من المخلوقين لانتفاء تلك الحكمة في حقهم ، مثال لذلك يحسن منه مدح نفسه والثناء عليها ويقبح من أكثر خلقه ذلك . ويليق به الكبرياء والعظمة ويقبح ذلك من خلقه كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم إنه حكى عن الله تعالى أنه قال : "العز إزاره ، والكبرياء رداؤه . فمن ينازعني عذبتة" (١).

كما يحسن منه إمامة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بأنواع المحن ويقبح ذلك من الخلق ، فليس بين الله وخلقه جامع يوجب أن يحسن منه ما حسن منهم ويقبح منه ما قبح منهم (٢).

والعقول وإن كانت تقف على حسن بعض الأمور وقبحها في الجملة فهي قاصرة عن اكتساب المعقولات بأسرها عاجزة عن الاهتداء إلى المصلحة الكلية الشاملة لنوع الإنسان تفصيلاً ، فوجب من حيث الحكمة أن يكون بين الناس شرع يحملهم على الإيمان بالغيب جملة ويهديهم إلى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلاً ، فيحملهم على التوجه إلى الخير المحض والإعراض عن الشر المحض استبقاء لنوعهم واستدامة لنظام العالم (٣).

وأما إيجاب شيء على الله أو تحريمه عليه ، فإن جمهور العلماء ذهبوا إلى أنه سبحانه إنما أمر عباده بما فيه صلاحهم ونهاهم وحذرهم عما فيه فسادهم ، وأرسل لهم الرسل للمصلحة العامة ، وإن كان في إرسالهم ضرر على بعض الناس ، ففيه حكم ، وإن كان في بعض ما يخلفه ضرر كالذنوب ، فلا بد من وجود الحكمة في ذلك والمصلحة التي لأجلها خلقه سبحانه (٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ، كتاب البر والصلة

(٤٥) ، باب تحريم الكبر (٣٨) ، برقم ٢٦٢٠ ، ٢٠٢٣/٤ .

(٢) انظر : لوايح الأنوار ١/٣٣٣ .

(٣) انظر : مفتاح دار السعادة ٢/٥٦، ١١٧، ١١٨ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٣ .

والله سبحانه قد يوجب على نفسه ويحرم بعض الأمور كقوله سبحانه :
 {كتب ربكم على نفسه الرحمة} (١)، وقوله : {وكان حقاً علينا نصر
 المؤمنين} (٢)، وفي الحديث : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي" (٣)، وهو
 لا يخل بما أوجبه أو حرمه على نفسه ، أما أن يوجب أو يحرم عليه الخلق
 بعقولهم فلا (٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :
 "وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى ، والتحریم بالقياس على خلقه ،
 فهذا قول القدريّة (٥)، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح
 المعقول ، وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء ومليكه ،
 وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئاً ، ولهذا
 كان من قال من أهل السنة بالوجوب ، قال : إنه كتب على نفسه ، وحرم
 على نفسه ، لأن العبد نفسه يستحق على الله شيئاً ، كما يكون للمخلوق
 على المخلوق ، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير ، فهو الخالق لهم ،
 وهو المرسل إليهم الرسل ، وهو الميسر لهم الإيمان ، والعمل الصالح ، ومن
 توهم من القدريّة والمعتزلة ونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس ما يستحقه
 الأجير على من استأجره فهو جاهل في ذلك.

(١) سورة الأنعام : آية ٥٤

(٢) سورة الروم : آية ٤٧

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضى الله عنه في
 كتاب البر والصلّة (٤٥) ، باب تحريم الظلم (١٥) ، برقم ٢٥٧٧ ، ١٩٩٤/٤ .

(٤) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٥/٢-٧٧٦ ، المنتقى من منهاج الاعتدال
 ص ٥٠، ٤٩ .

(٥) القدريّة :

هم الذين كانوا يخوضون في القدر ويذهبون إلى إنكاره ، ويزعمون أن كل عبد
 خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله .

انظر : التعريفات ص ٩٢ ، منهاج السنة النبوية ٩/١ الهامش .

وإذا كان كذلك لم تكن الوسيلة إليه إلا بما من به من فضله وإحسانه ، والحق الذى لعباده هو من فضله وإحسانه ، ليس من باب المعاوضة ولا من باب مأوجه غيره عليه ، فإنه سبحانه هو يتعالى عن ذلك" (١).

فالله لا يجب عليه فعل الأصلح والأأنفع لعباده خلافاً للمعتزلة ، لأنه يلزم من قولهم لوازم فاسدة مثل :

(١) إن القربات من النوافل صلاح ، فلو كان الصلاح واجباً ، لوجبت وجوب الفرائض .

(٢) إن خلود أهل النار فيها يجب أن يكون صلاحاً لهم والواقع خلافه .
(٣) إن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأأنفع وقد خلقه البارئ .
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً (٢).

نخلص من هذا إلى الإجابة عن شبه المعتزلة حول خلق الأفعال وإرادتها :

أولاً : خلق أفعال العباد .

زعمهم إن الله منزّه أن يكون خالقاً لأفعال العباد ، وإنما هم المحدثون لها .

الذى عليه أهل السنة والجماعة إن أفعال العباد خيرها وشرها ، طاعاتها ومعاصيها ، مخلوقة لله تعالى ، فهو سبحانه خالقهم وخالق حركاتهم وعباداتهم وإراداتهم ، منفرد بخلق ذلك ، لا خالق له سواه (٣).

وقد نقل الإمام اللالكائى رحمه الله إجماع الصحابة والتابعين والخالفين لهم من علما الأمة على أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله عز وجل طاعاتها ومعاصيها (٤).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٧/٢ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار ٣٢٩-٣٣٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٥/٢-١١٦ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٧، ٢٤٩ .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٤/٢ .

وهذا الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة ، وأقوال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم . وهذا طرف من ذلك :
(١) قال تعالى :

{الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل} (١).

وهذا على عموميه لا يخرج ولا يستثنى منه شىء من العالم ، أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته ، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته ، فإنه الخالق بذاته وصفاته وماسواه مخلوق له (٢).

قال البيهقى رحمه الله حول قوله تعالى : {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء} (٣). قال : "فنفى أن يكون خالق غيره ، ونفى أن يكون شىء سواه غير مخلوق ، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله سبحانه خالق بعض الأشياء دون جميعها وهذا خلاف الآية ، ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان ، فلو كان الله خالق الأعيان والناس خالقى الأفعال لكان خلق الناس أكثر من خلقه ، ولكانوا أتم قوة منه وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه" (٤).
(٢) قوله تعالى :

{والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنناً وجعل لكم سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم} (٥).

أخير سبحانه أنه جعل السراييل ، وهى الدروع والثياب المصنوعة ، ومادتها لاتسمى سراييل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم ، فإذا كانت مجعولة لله فهى مخلوقة له بجملتها ، صورتها ومادتها وهيأتها (٦).

(١) سورة الزمر : آية ٦٢

(٢) شفاء العليل ص ١١٧ بتصرف .

(٣) سورة الرعد : آية ١٦

(٤) الاعتقاد ص ٩١ .

(٥) سورة النحل : آية ٨١

(٦) شفاء العليل ص ١٢٠ بتصرف .

(٣) قوله تعالى :

{وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون}{(١)}.

فأخبر سبحانه أنه خالق الفلك المصنوع للعباد(٢).

(٤) قوله تعالى :

{أتعبدون ما تنتحتون. والله خلقكم وما تعملون}{(٣)}.

"ما" موصولة ، أى والله خلقكم وخلق معبوداتكم التى عملتموها بأيديكم ، فهى مخلوقة له وليست شريكة معه .

فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم ، ولا يقال المراد مادته ، فإن مادته غير معمولة لهم ، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم(٤).

(٥) قوله تعالى :

{وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق}{(٥)}.

فأخبر أن قولهم وسرهم وجهرهم خلقه ، وهو بجميع ذلك عليم(٦).

(٦) قوله تعالى : {وأنه هو أضحك وأبكى} ، {وأنه هو أمات وأحيا}{(٧)}.

قال البيهقى : "فكما كان مميتاً محيياً بأن خلق الموت والحياة كان مضحكاً مبكياً ، بأن خلق الضحك والبكاء ، وقد يضحك الكافر سروراً بقتل المسلمين وهو منه كفر ، وقد يبكى حزناً لظهور المسلمين وهو منه كفر ، فثبت أن الأفعال كلها خيرها وشرها صادرة عن خلقه وإحداثه إياها"(٨).

(١) سورة يس : آية ٤١-٤٢

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٣) سورة الصافات : آية ٩٥-٩٦

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٠ بتصرف .

(٥) سورة الملك : آية ١٣-١٤

(٦) الاعتقاد ص ٩٢ .

(٧) سورة النجم : آية ٤٣، ٤٤ .

(٨) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٧) روى البخارى بسنده إلى حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله يصنع كل صانع وصنعتة" (١).
قال البخارى رحمه الله :

"حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكذا همتهم مخلوقة" (٢).

وكون سبحانه خالقاً لأفعال العباد لا ينفى ذلك أن يكونوا فاعلين لها حقيقة ، فقد أخبر سبحانه أن العباد يفعلون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويصدقون ويكذبون فى مواضع جمّة . فأفعالهم مستندة إليهم وهم الفاعلون لها حقيقة وأنها تنسب إليهم وتضاف لهم وهى مفعولة لله حقيقة ومخلوقة له وليست فعلاً له ولا يتصف بأنه فاعلها ، لأن هنالك فرقاً بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، فهى فعل العباد ومفعولة له سبحانه (٣).
وإلى هذا أشار الطحاوى رحمه الله بقوله : "وأفعال العباد خلق لله وكسب من العباد" (٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"والتحقيق ما عليه أئمة السنة ، وجمهور الأمة ، من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، فأفعال العباد هى كغيرها من المحدثات

(١) خلق أفعال العباد برقم ١١٧ .

وأورده موقوفاً على حذيفة بلفظ : "إن الله خلق كل صانع وصنعتة ، إن الله خالق صانع الخرم وصنعتة" برقم ١١٨ ، ص ٣٩-٤٠ .

وأخرج المرفوع الحاكم فى المستدرک ولفظه : "إن الله خالق كل صانع وصنعتة" وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى ٣١/١-٣٢ وذكره الخطيب فى تاريخ بغداد من طريق البخارى ٣١/٢ .

والهيشمى فى مجمع الزوائد وقال : "رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد ابن عبد الله أبو الحسين بن الكردى وهو ثقة" . ٢٠٠/٧ .

والحديث إسناده صحيح . انظر : خلق أفعال العباد ص ٤٠ الهامش .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٦/٢، ١١٧، ١١٩، ١٢٠ ، المنتقى من منهاج الاعتدال

ص ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣ ، شفاء العليل ص ١١٥ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٧، ٤٤٤ .

(٤) متن العقيدة الطحاوية ص ١٧ .

المخلوقة ، مفعولة لله ، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعولة لله وليس ذلك نفس خلقه وفعله ، بل هي مخلوقة مفعولة ، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به ، ليست قائمة بالله ، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته ، وإنما يتصف بخلق وفعله ، كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته ، والعبد فاعل لهذه الأفعال ، وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة ، وهو فاعلها باختياره ومشئته ، وذلك كله مخلوق لله ، فهي فعل العبد وهي مفعولة الرب" (١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله مبيناً هذه القاعدة العظيمة في الفرق بين فعل الله وفعل العبد ، ومنشأً ضلال القدرية والجبرية في ذلك فقال : "قوله تعالى : {فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} (٢) ، وقوله : {وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} (٣) . وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه ، والتعادي والتباغض أثره ، وهو محض فعلهم . وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد . فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل الرب دون المتعادين والمتباغضين . والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة ، كما قال تعالى : {هو الذي يسيركم في البر} (٤) ، فالتسيير فعله ، والسير فعل العباد ، وهو أثر التسيير . وكذلك الهدى والضلال فعله ، والاهتداء والضلال أثر فعله ، وهما أفعالنا القائمة بنا ، فهو الهادي والعبد المهتدي ، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال . وهذا حقيقة وهذا حقيقة ، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان" (٥).

وقول المعتزلة في أفعال العباد يتضمن الإشراك والتعطيل لأنه يتضمن إخراج بعض الحوادث أن يكون لها فاعل ، وإثبات فاعل مستقل غير الله .

(١) مجموع الفتاوى ١١٩/٢ - ١٢٠ .

(٢) سورة المائدة : آية ١٤

(٣) سورة المائدة : آية ٦٤

(٤) سورة يونس : آية ٢٢

(٥) شفاء العليل ص ١٢٨ .

والتعطيل والشرك من شعب الكفر (١).

وأما زعمهم بأنه لا يوصف بأنه خالق للخير والشر .

يجاب عليه بإضافة إلى ما سبق ذكره :

إن الخير والشر هو بالنسبة للمقدور وعاقبته ، فإن منه ما يكون خيراً كالطاعات والصحة والغنى . ومنه ما يكون شراً كالمعاصي والمرض والفقر . أما بالنسبة لفعل الله فلا يقال إنه شر لقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء القنوت الذي علمه الحسن بن علي : "وقني شر ما قضيت" (٢).

(١) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٥٦ .

(٢) هو جزء من حديث دعاء القنوت .

أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب القنوت في الوتر برقم ١٤٢٥ ، ٦٣/٢ .

والترمذي في سننه ، كتاب الصلاة ، أبواب الوتر (٣) ، باب ما جاء في القنوت في الوتر (١٠) برقم ٤٦٤ . وقال : "هذا حديث حسن ، لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السعدى ... ولانعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في القنوت في الوتر شيئاً أحسن من هذا" . ٣٢٩، ٣٢٨/٢ .

والنسائي في سننه ، كتاب قيام الليل ، باب الدعاء في الوتر ٢٠٦/٣ .

وابن ماجه في سننه ، كتاب إقامة الصلاة (٥) ، باب ما جاء في القنوت في الوتر (١١٧) ، برقم ١١٧٨ ، ٣٧٢/١ .

والدارمي في سننه ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء في القنوت ٣٧٣-٣٧٤ . والبيهقي في سننه ، كتاب الصلاة ، باب دعاء القنوت ٢١٠، ٢٠٩/٢ .

وابن الجارود في المنتقى ، باب القنوت في الوتر ، برقم ٢٧٢ ، ص ١٠٤، ١٠٣ . وأحمد في مسنده ٢٠٠، ١٩٩/١ . وهو في المسند بتحقيق أحمد شاکر برقم

١٧١٨، ١٧٢٣، ١٧٢٧ . وقال : إسناده صحيح . ١٧١، ١٦٩، ١٦٧/٣ .

والحاكم في المستدرک وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ١٧٢/٣ .

وأورده الزيلعي في نصب الراية ١٢٥/٢-١٢٦ .

والحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير وذكر طرقة ٢٦٣-٢٦٦ .

والشيخ ناصر الدين الألباني في إرواء الغلیل برقم ٤٢٩ وذكر طرقة ومن أخرجه

من الأئمة . وقال عنه : صحيح ١٧٢/٢-١٧٥ .

وانظر، صحيح سنن أبي داود ٢٦٧/١ .

فأضاف الشر إلى ما قضاها لا إلى قضاها (١).

وقد أوضح شارح الطحاوية رحمه الله إضافة خلق الشر لله سبحانه أو نسبته إليه إيضاحاً تاماً ، وأزال ما يعلق بالأذهان من إشكال فقال : "فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم ، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه ، وهو من هذه الجهة شر . وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه . مثاله : إن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها خلقت في الأصل متحركة ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به ، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير وإنما تكون شراً بالإضافة ، لامن حيث هي حركة ، والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء في غير محله ، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً ، فعلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية ، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيراً في نفسها ، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به ، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها ، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه ، فإنه سبحانه لم يخلق شراً من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإن حكمته تأبى ذلك ، فلا يكون في جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه ، لامصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال ، فإنه سبحانه الخير كله بيديه ، الشر ليس إليه ، بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إليه لم يكن شراً ، فتأمل . فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً .

فإن قيل : لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشية؟

قيل : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير .

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك ، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة : الإيجاد والإعداد ، والإمداد . فإيجاد هذا خير ، وهو إلى الله ، وكذلك إعداده وإمداده ، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل ، وإنما إليه ضده " (١) .

وأما ما استدلوا به من شبه عقلية ونقلية زاعمين أنها تدل على عدم خلق الله لأفعال العباد طاعاتها ومعاصيها . يجاب عنها بالآتى :

(١) الشبه العقلية :

الدليل العقلى :

أفعال العباد قبائح والله لا يختار فعل القبيح .

وقد سبق الرد على هذا عند الحديث عن العدل (٢) .

والخلاصة : إن الفعل القبيح قبيح من الخلق لامن الله سبحانه ، كما

إنه ضار لهم لاله (٣) . فلا يقاس الله تعالى بخلقه فى ذلك .

وأيدوا دليلهم العقلى بأمرين :

الأول : لو كانت خلقاً لله لم تكن عملاً للعباد تقف عليه أحوالهم ،

وتوجد وتنتهى بحسب اختيارهم لا كالألوان والصور .

والجواب على ذلك :

إن أهل السنة لم ينفوا أن للعبد اختياراً وقدرة ومشئمة وعملاً ،

ولا يسمونه مجبوراً ، لأن المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله

سبحانه هو الذى جعل العبد مختاراً لما يفعله ، وهو سبحانه الذى خلقه

وخلق اختياره (٤) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٥-٢٥٦ ،

ولمزيد بيان انظر : جامع الرسائل ١٣١/٢ .

(٢) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .

(٣) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣٩ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٣/ ٣٧٤ .

فالعبد يفعل فعله حقيقة ، وإنه مريد ومختار له حقيقة ، وإضافته ونسبته إليه حقيقة . وإن ذلك وقع بمشيئة الله وقدرته سبحانه (١) وقدره العبد لها تأثير في إيجاد فعله لاستقلال ولا استبداد بل بالإعانة والإذن والتمكين من الله سبحانه وتعالى (٢) .

وأهل السنة متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر ، وأنه أعانه على الطاعة . قال تعالى : {ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} (٣) . وقال : {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} (٤) (٥) .
وأفعال العبد نوعان :

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته به ، فيكون صفة له ولا يكون فعلاً ، كحركات المرتعش .

ونوع يكون منه تقارنه قدرته واختياره . فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسباً له ، كالحركات الاختيارية (٦) .

فالنوع الأول لم يخلقه الله بتوسط قدرة العبد ومشيئته ، بخلاف النوع الثاني فإنه خلقه بتوسط مشيئة العبد وقدرته ، كما خلق غير ذلك من المسببات بوساطة أسباب آخر (٧) .

وبعد هذا يمكن أن نوفق بين كون فعل العبد مخلوقاً لله ، وكونه عملاً وكسباً للفاعل بأمرين :

١- إن فعل العبد من صفاته والعبد وصفاته مخلوقان لله تعالى .

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٧ .

(٢) انظر : لوايح الأنوار ٢٩٦/١ .

(٣) سورة الحجرات : آية ٧

(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٥

(٥) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣٤، ١٣٥ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٣ بتصرف .

(٧) انظر : مجموع الفتاوى ١٢٠/٢ .

٢- إن فعل العبد صادر عن إرادة قلبية وقدرة بدنية ولولاهما لم يكن فعلاً لله، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله تعالى ، وخالق السبب خالق للمسبب ، فنسبة فعل العبد إلى خلق الله له نسبة مسبب إلى سبب لانسبة مباشرة لأن المباشر حقيقة هو العبد ، فلذلك نسب الفعل إليه كسبباً وتحصيلاً ونسب إلى الله خلقاً وتقديراً ، فلكل من النسبتين اعتبار (١).
وأفعال العبد الاختيارية تكسبه صفات محمودة وصفات مذمومة بخلاف لونه وقصره فإنها لا تكسبه ذلك (٢).

الثاني : حسن الأمر والنهي وغيرهما من الأحكام .
فوجود الأمر ببعضها والنهي عن بعض ، والمدح على بعض والذم على بعض ، والثواب على بعض والعقاب على بعض . فلو كانت خلقاً لله ما حسن شيء مما سبق .

ويوجب ذلك أن لأمر ولانهي ولا تكليف ولا ثواب ولا عقاب، ويلزم أن يكون الله ظالماً جائراً . تعالى الله عن قولهم .
والجواب على هذا :

إن أهل السنة والجماعة متفقون على أن العبد مأمور منهي ، مثاب معاقب ، موعود متوعد ، والله خالقه وخالق فعله ، ولاتنافي وتناقض بين ذلك . ولم يقل أحد إن الله هو الذي يركع ، ويسجد ، ويقوم بالأوامر ويجتنب النواهي ، بل الأمة متفقة على أن العبد هو الذي يفعل ذلك (٣).
وهو إنما يفعل ذلك باختياره ومشيئته التي خلقها الله فيه .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(١) شرح لمعة الاعتقاد ص ٥٤-٥٥ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣١ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٦/٢ ، ١١٧ .

"إن عقلاء بنى آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه ، من أن العبد الحى يؤمر وينهى ، ويحمد ويذم على أفعاله الاختيارية ، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه لم يقبل ذلك منه ، فلو ظلم ظالم لغيره لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر"(١).

وجهة خلق الله وتقديره غير جهة أمره وتشريعه ، فإن أمره وتشريعه مقصودة ببيان ما ينفع العباد ، وما يضرهم. وخلقه وتقديره يتعلق به وبجملة المخلوقات ، فيفعل ماله فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه وإن كان فى ضمن ذلك مضرة لبعض الخلق . فهو سبحانه إذا قدر على العبد الكافر الكفر إنما قدره عليه لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، ثم إذا عاقبه على ذلك إنما عاقبه لاستحقاقه العقاب على فعله الاختيارى ولما فى ذلك العقاب من الحكمة والمصلحة العامة .

فإنه سبحانه إن أمر عباده بأمر إنما أمرهم بما ينفعهم وإن نهاهم عن نهى إنما نهاهم عما يضرهم ، فإن أعانهم على فعل المأمور فقد تمت نعمته وله فى ذلك حكمة ، وإن خذلهم ولم يعينهم حتى فعلوا الذنب فله فى ذلك حكمة أخرى وإن كان فى ذلك تألمهم ، وهم إنما يتألمون بأفعالهم التى تورثهم النعيم أو العذاب . وذلك الإيراث بقضاء الله وقدره ، ولا منافاة بين هذا وهذا .

وأما تلك الحكمة فليس على الناس معرفتها ، وإنما عليهم التسليم والطاعة واجتناب المعاصى(٢).

قال ابن القيم رحمه الله فى بيان قول هود عليه السلام : {إن ربى على صراط مستقيم}(٣) قال :

(١) المرجع السابق ١١٨/٢ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣٣، ١٣٤ .

(٣) سورة هود : آية ٥٦

"أى مع كونه مالكا قاهراً متصرفاً فى عباده ، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم . وهو العدل الذى يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه . فخبره كله صدق ، وقضاؤه كله عدل ، وأمره كله مصلحة ، والذى نهى عنه كله مفسدة ، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضلته ، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته" (١).

والله سبحانه وإنما يعذب العبد على فعله الاختيارى وذلك مستقر فى الفطر والعقول ولا يعد ذلك ظلماً ، لأنه لو قيل إن خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم ، ل قيل إن خلق السم ثم حصول الموت به ظلم ، فكما أن هذا سبب للموت فذلك سبب للعقوبة (٢).

والله جل وعلا عادل فى كل ما خلقه ، واضع للأشياء فى مواضعها وهو قادر على أن يظلم ، لكنه سبحانه منزّه عن الظلم فلا يفعل ، لأنه السلام القدوس المستحق للتزويه عن السوء (٣).

وهو سبحانه لو قدر أن يعذب أحداً لم يكن لأحد أن يمنعه عن ذلك كما قال : {قل فمن يملك من الله شيئاً} إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً (٤). ولكنه سبحانه إذا عذب أحداً فلا يعذبه إلا بحق لتعالیه عن الظلم (٥).

وكونه سبحانه لم يعن الكافر أو العاصى على الطاعة ومنعه من ذلك ، فليس فى ذلك ظلم ، لأن الظلم أن تمنع غيرك حقه ، وقد حرم الله ذلك على نفسه ، وأما إذا منع غيره ما ليس له فذلك عدل . فهو يتفضل على من يشاء

(١) الفوائد ص ٤٧ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣٠، ١٣١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٤ .

(٣) جامع الرسائل ص ١٢٩/١ بتصرف .

(٤) سورة المائدة : آية ١٧

(٥) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٤، ٥٣ .

ويمنع ذلك من يشاء كما قال : {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (١)، وقال : {لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (٢). وفي حديث تخصيص هذه الأمة بزيادة الأجر دون اليهود والنصارى ، قال :

"فهو فضلى أوتيته من أشاء" (٣)(٤).

والله جل ذكره قد مدح نفسه بنفى الظلم عنه فقال : {إن الله لا يظلم الناس شيئاً} (٥)، وقال : {وما أنا بظلام للعبيد} (٦). والآيات في ذلك كثيرة . وكونه من على المؤمن بالهداية دون الكافر فليس ذلك ظلماً فإنه بمن على من يشاء برحمته وفضله كما قال : {بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} (٧)، وقالت الأنبياء : {إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده} (٨)، فهو لا يضع العقوبة إلا في محلها ، وهو في ذلك عدل (٩).

قال ابن القيم رحمه الله :

-
- (١) سورة الحديد : آية ٢١
 - (٢) سورة الحديد : آية ٢٩
 - (٣) جزء من حديث أخرجه البخارى في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، كتاب المواقيت (٩) ، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (١٧) ، ١٣٩/١ ، وفي كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ١٤٥/٤ ، وفي كتاب التوحيد (٩٧) ، باب في المشيئة والإرادة (٣١) ، ١٩١/٨ ، وفي باب قول الله تعالى : {فأتوا بالتوراة فاتلوها} (٤٧) ، ٢١١/٨ .
 - (٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٢، ٢٤٣ .
 - (٥) سورة يونس : آية ٤٤
 - (٦) سورة ق : آية ٢٩
 - (٧) سورة الحجرات : آية ١٧
 - (٨) سورة إبراهيم : آية ١١
 - (٩) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٣٨ .

".. وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين - القدر ، والعدل - والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له ، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه ، وهو سبحانه وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغى على من شاء ، فذلك محض العدل فيه ، لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به ، وكيف ومن أسمائه الحسنى العدل ، الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق ، وهو سبحانه قد أوضح السبل ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأزاح العلل ، ويمكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول ، وهذا عدله ووقف من شاء بمزيد عناية ، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه ، فهذا فضله ، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله ، وخلى بينه وبين نفسه ، لم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه ، فقطع عنه فضله ، ولم يجرمه عدله ، وهذا نوعان :

أحدهما : ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه ، وإيثار عدوه في الطاعة ، والموافقة عليه ، وتناسى ذكره وشكره ، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه .

والثانى : أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ، ولا يشكره عليه ، ولا يثنى عليه بها ، ولا يحبه ، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله . قال تعالى : {وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين} (١) ، وقال : {ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم} (٢) ، فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية ، كان ذلك محض العدل ، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور ، كان ذلك عدلاً فيه ، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة " (٣) .

(١) سورة الأنعام : آية ٥٣

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٣

(٣) الفوائد ص ٤٨-٤٩ .

(٢) الشبه النقلية :

(١) قوله تعالى : {ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت} (١).

الباطل المتفاوت ليس من خلقه .

والجواب : لقد سبق بيان أن الخلق بخلاف المخلوق ، فخلق الله وهو فعله لا عيب فيه ولا نقص ، وقد يوجد العيب والنقص فى بعض مخلوقاته ، وذلك حكمة منه وعدل ووضع للأشياء فى مواضعها ، ولا ينفى ذلك خلقه لها .

(٢) قوله تعالى : {صنع الله الذى أتقن كل شىء} (٢).

الكفر والظلم وغيرهما ليس من خلقه ، لأنها ليست بمتقنة ولا محكمة ولا حسنة .

والجواب : هذه الآية كسابقتها فى بيان فعل الله ولا شك فى إحكامه وإتقانه .

قال القرطبى : "هذا من فعل الله وما هو فعل منه فهو متقن" (٣). وهذا بخلاف مفعول الله تعالى ، فإن أفعال العباد من مفعوله لا من فعله ، فالكفر والظلم وغيرهما هى من فعل العباد لا من فعل الله وإنما من مفعولاته سبحانه (٤).

والله إذ خلقها أحسن رتبته وإيقاعها فى النفوس والأجساد وإنما قبحت من الإنسان لا من خلقه لها سبحانه (٥).

{وما أصابك من سيئة فمن نفسك} (٦)، {قل هو من عند أنفسكم} (٧)،

(١) سورة الملك : آية ٣

(٢) سورة النمل : آية ٨٨

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٣ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٤ .

(٥) انظر : الفصل فى الملل ٦٦/٣ .

(٦) سورة النساء : آية ٧٩

(٧) سورة آل عمران : آية ١٦٥

{حسداً من عند أنفسهم} (١)، {وما هو من عند الله} (٢). فهذا قد لحق العبد من جهته لا من جهة الله فدل على أنها ليست بخلقه .
والجواب على هذا :

قوله تعالى : {وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} أى ما أصابك من نعمة تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم عليك بذلك وما أصابك من نقم تكرهها فبسبب ذنوبك وخطاياك (٣)، وليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية وإنما المراد النعم من خصب ورخاء ، والنقم من جذب وشدة (٤).

روى ابن جرير عن أبي صالح (٥) أنه قال : "وما أصابك من سيئة فمن نفسك" بذنبك وأنا قدرتها عليك" (٦).

قوله تعالى : {أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} إن الله على كل شىء قدير (٧).

والآية توجيه للمسلمين فيما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وقد قتلوا فى بدر من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، ولكن ما حل بهم يوم أحد إنما كان بسبب عصيانهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك

(١) سورة البقرة : آية ١٠٩

(٢) سورة آل عمران : آية ٧٨

(٣) المتنقى من منهاج الاعتدال ص ٣٨ بتصرف .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٨٦/٥ .

(٥) أبو صالح :

هو ذكوان بن عبد الله أبو صالح السمان الزيات ، مولى أم المؤمنين جويرية . كان يجلب الزيت والسمن إلى الكوفة . ثقة ثبت . روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وجماعة من الصحابة . وعنه ابنه سهيل والأعمش والزهرى . مات سنة ١٠١ هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٤٥٠/٣ ، تذكرة الحفاظ ٨٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٧، ٣٦/٥ ، تهذيب التهذيب ٢١٩/٣ ، تقريب التهذيب ٢٣٨/١ .

(٦) جامع البيان ١٧٦/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٥٢٨/١ .

(٧) سورة آل عمران : آية ١٦٥

لما خالف الرماة أمره لهم بالبقاء في أماكنهم^(١).

فما أصابهم من قتل فهي مصيبة قدرها الله عليهم بسبب معصيتهم .
والله خالق السبب والمسبب . وليس في الآية دلالة على أنهم خالقون
لأفعالهم .

قوله تعالى : {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم
كفاراً حسداً من عند أنفسهم}^(٢).

يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب
ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وماهم مشتملين عليه من الحسد
للمؤمنين مع علمهم بفضل نبيهم^(٣)، فليس في الآية دليل على أن
أهل الكتاب يخلقون حسدهم للمؤمنين ، فالحسد ليس مخلوقاً لهم وإنما هو
فعل من أفعالهم وأفعالهم تنسب لهم حقيقة لأنهم فعلوها وهي من خلق
الله . ولا منافاة بين فعلهم إياها وخلق الله لها . وقد سبق بيان هذا^(٤).

قوله تعالى : {وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من
الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله
ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}^(٥).

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله :

"فلا حجة لهم في هذا لأن أول الآية في قوم كتبوا كتاباً وقالوا هذا من
عند الله فأكذبهم الله تعالى في ذلك وأخبر أنه ليس منزلاً من عنده ولا مما
أمر به عز وجل ولم يقل هؤلاء القوم إن هذا الكتاب مخلوق فأكذبهم الله
تعالى في ذلك وقال تعالى إن ذلك الكتاب ليس مخلوقاً لله تعالى فبطل
تعلقهم بهذه الآية جملة . ولا شك عند المعتزلة وعندنا في أن ذلك الكتاب

(١) انظر المرجع السابق ٤٢٤/١، ٤٢٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٩

(٣) انظر المرجع السابق ١٥٣/١ .

(٤) انظر ص: ٢٤٩ فما بعدها .

(٥) سورة آل عمران : آية ٧٨

مخلوق لله تعالى لأنه قرطاس أو أديم ومداد وكل ذلك مخلوق بلا شك" (١).
 قوله تعالى : "تفعلون" ، "تعملون" ، "تصنعون" ، "وتكسبون"
 "وتخلقون إفكاً" (٢) وفي ذلك إضافة الفعل إلى العبد بأقوى وجوه الإضافة .
 والرد على هذا :

إن إضافة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إلى الله
 سبحانه خلقاً ومشئته ، فهو سبحانه الذى شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها
 وكسبوها حقيقة ، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقها لاستحال
 وقوعها منهم ، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم
 يقدر عليه ولا خلقه (٣).

وقوله : {وتخلقون إفكاً} .

يقول ابن حزم رحمه الله :

"إن لفظة الخلق مشتركة تقع على معنيين، أحدهما لله تعالى لا لأحد
 دونه ، وهو الإبداع من عدم إلى وجود ، والثانى الكذب فيما لم يكن أو
 ظهور فعل لم يتقدم لغيره أو نفاذ فيما حاول. وهذا كله موجود من الحيوان
 والله تعالى خالق كل ذلك" (٤).

وقد فسرت الآية بتفسيرين وذلك لتعدد المعانى للفظه "تخلقون" .
 قال الحسن : معنى "تخلقون" تنحتون . ويكون المعنى : إنما تعبدون
 أوثاناً وأنتم تصنعونها .

(١) الفصل فى الملل ٦٢/٣ - ٦٣ .

وانظر معنى الآية فى الجامع لأحكام القرآن ١٢١/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/١

(٢) سورة العنكبوت : آية ١٧

(٣) شفاء العليل ص ١١٨ - ١١٩ بتصرف .

(٤) الفصل فى الملل ٦٥/٣ .

وقال مجاهد (١): إلفك الكذب . ويكون المعنى : تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . أى وتكذبون الكذب (٢).

واختار ابن جرير المعنى الأول وذكره عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره (٣).

مألزم به العبد من التوبيخ والذم وماقرعه به من نعم وقرره عليه بقوله {كيف تكفرون بالله} (٤).

وقوله : {ومامنع الناس أن يؤمنوا} (٥).

والجواب :

فى الآيتين دليل على المذهب الحق وهو أن للعبد اختياراً وقدرة ومشية وأن فعله ينسب إليه حقيقة ولاينفى ذلك خلق الله لفعله واختياره وقدرته .

وقد بينت ذلك فيما سبق (٦).

قوله : {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} (٧)، وقوله : {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء} (٨).

(١) مجاهد :

هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، المخزومي مولا هم ، المكي ، ثقة إمام فى التفسير والعلم . روى عن أبى هريرة وابن عباس وسعد . وعنه قتادة وابن عون وسيف بن سليمان . مات سنة ١٠١ هـ . وقيل غير ذلك .

انظر : الجرح والتعديل ٣١٩/٨ ، الكاشف ١٢٠/٣ ، تذكرة الحفاظ ٨٦/١ ، تهذيب التهذيب ٤٢/١٠ ، تقريب التهذيب ٢٢٩/٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٥/١٣ ، تفسير أبى السعود ٣٤/٧ .

(٣) انظر : جامع البيان ١٣٧/٢٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٣ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٨

(٥) سورة الكهف : آية ٥٥

(٦) انظر ص : ٢٤٩ فما بعدها .

(٧) سورة النحل : آية ٩٠

(٨) سورة الأعراف : آية ٢٨

والجواب :

الآيتان في أمر الله للعباد بما ينفعهم وأنه لا يأمر إلا بما فيه خير للعباد ومصلحة ، وهذا من جهة التشريع وهى غير جهة الخلق والتقدير . وقد بينت ذلك من قبل^(١) فلاحجة فيهما للمعتزلة .

قوله : {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}^(٢) فخلقهم للعبادة لا للمعصية .

والجواب : قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره لأقوال السلف في تفسير الآية :

"ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب"^(٣).

فعلى هذا المعنى تكون الآية من باب الإخبار بأن الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله ، أو من باب الإنشاء أى أنه أمرهم بعبادته وحده لا شريك له . ثم منهم من يطيع ومنهم من يعصى ، وفى ذلك إثبات لاختيارهم وقدرتهم على الطاعة والمعصية ، ولا ينافى ذلك خلق الله لأعمالهم . وقد سبق تفصيله^(٤).

قوله تعالى : {وكل شىء فعلوه فى الزبر}^(٥) . فقال فعلوه ، ولم يقل فعله ، وقال فى فعله {الله خالق كل شىء}^(٦) أى كل شىء يكون ولم يخلق فعلهم .

(١) انظر ص: ٢٥٥ فما بعدها .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٣٨/٤ .

(٤) انظر ص: ٢٥٣ فما بعدها .

(٥) سورة القمر : آية ٥٢

(٦) سورة الزمر : آية ٦٢

الجواب :

أما الآية الأولى فهي دالة على مذهب أهل السنة في إثبات فعل العبد وأنه ينسب إليه حقيقة خلافاً للجبرية ، وكونه فاعلاً لفعله لا يدل على خلقه له ، وقد سبق بيان ذلك (١).

وأما الآية الثانية ففيها دلالة واضحة على تناقض أهل الاعتزال حيث عمموا الآية في كلام الله ، وخصصوها في أفعال العباد ، وقد أخطأوا في الموضوعين .

قال ابن أبي العز رحمه الله :

"قوله تعالى : {الله خالق كل شيء} : أى الله خالق كل شيء مخلوق ، فدخلت أفعال العباد في عموم كل . وما أفسد قولهم - أى المعتزلة - في إدخال كلام الله تعالى في عموم كل ، الذى هو صفة من صفاته ، يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً! وأخرجوا أفعالهم التى هى مخلوقة من عموم كل!! وهل يدخل في عموم كل إلا ما هو مخلوق؟ فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم ، ودخل سائر المخلوقات في عمومها" (٢).

فالآية حجة عليهم لالهم .

ثانيا : إرادة أفعال العباد :

إن كل ما يقع في الكون فهو بتقدير الله ومشيئته ، لامشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن ، ولا يكون في ملكه ما لا يشأه سبحانه (٣).

فمن شاء له الهداية اهتدى فضلاً منه ، ومن شاء له الغواية والضلال ضل وغوى ، عدلاً منه (٤). {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} (٥).

(١) انظر ص ٢٥٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٦ .

(٤) انظر المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٣

والأدلة على ذلك من كتاب الله كثيرة جداً . وهذه طائفة منها :

(١) قال تعالى :

{والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم} (١).

(٢) وقال سبحانه :

{وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين} (٢).

(٣) وقال تعالى :

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} (٣).

(٤) وقال تعالى :

{فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون} (٤).

(٥) وقال تعالى :

{ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} (٥).

(٦) وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

{ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون} (٦).

(١) سورة الأنعام : آية ٣٩

(٢) سورة الأنعام : آية ٣٥

(٣) سورة الأنعام : آية ١١١

(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٥

(٥) سورة يونس : آية ٩٩

(٦) سورة هود : آية ٣٤

(٧) وقال تعالى :

{ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} (١).

(٨) وقال تعالى :

{وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً} (٢).

(٩) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله :

{كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة} (٣) قال :
"إن الله سبحانه بدأ خلق بنى آدم مؤمناً وكافراً ثم قال : {هو الذى خلقكم
فمنكم كافر ومنكم مؤمن} (٤) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن
وكافر" (٥).

وقال فى قوله : {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} (٦) : "من شاء الله

له الإيمان آمن ، ومن شاء الله أن يكفر كفر وهو قوله : {وما تشاءون إلا
أن يشاء الله} (٧) (٨).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمه الله :

"والآيات فى هذه المعانى كثيرة تدل دلالة يشهد بها الكون والواقع أن
جميع الكائنات مفتقرات إلى ربها فى خلقها ورزقها وتديرها ، وأنه لا واسطة
بينه وبين الخلق ، فإرادته وقدرته العامتين الشاملتين خلق الموجودات كلها

(١) سورة السجدة : آية ١٣

(٢) سورة الإنسان : آية ٣٠

(٣) سورة الأعراف : آية ٢٩ - ٣٠

(٤) سورة التغابن : آية ٢

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٤٧/٢ .

(٦) سورة الكهف : آية ٢٩

(٧) سورة التكوين : آية ٢٩

(٨) المرجع السابق ٥٥١/٢ .

وبإرادته وقدرته حفظها ، وبإرادته وقدرته وحكمته سيرها ودبرها ، وبعنايته ورحمته وسعة علمه أعطى كل شيء خلقه وهداه لمصالحه المتنوعة ، واعتنى بتدبيره الخاص وسوق الأرزاق والمنافع والمصالح كلها إلى مفرداته ووكلياته ، والكون لله بانتظامه واتساقه واحتياج بعضه إلى بعض ، وارتباط بعضه ببعض ، وتعاونه المتنوع جميعه يشهد شهادة واضحة بالقدرة والإرادة التي لا يشذ عنها شيء ، والحكمة التي شملت جميع الكائنات والعلم المحيط (١) .

وهذا لا ينفي أن يكون للعبد مشيئة وإرادة ، فإن الله جعل العبد مريداً قادراً فاعلاً ، فله قدرة حقيقية وله مشيئة وإرادة ولكنها لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى كما قال سبحانه : {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} (٢) ، والله خالق العبد وخالق مشيئته وقدرته (٣) .

(١) الرياض الناضرة ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) سورة الإنسان : آية ٣٠

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٢/٢ ، ٣٧٤/٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣ ، لوامع الأنوار ٣١٤/١ .

الجواب على شبههم على عدم إرادة الله لأفعال العباد :

وقبل الإجابة على ما أوردوه من شبه عقلية ونقلية على عدم إرادة الأفعال لابد من بيان أنواع الإرادة في كتاب الله ، لأن منشأ الضلال عندهم من تسويتهم بين نوعي الإرادة ، فنفوا أن تكون المعاصي بقضاء الله وقدره بحجة أنها ليست محبوبة ولا مرضية له (١).

والذى عليه أهل السنة والجماعة أن الإرادة في كتاب الله نوعان :

(١) إرادة قدرية كونية خلقية ، وهى التى بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات كقوله تعالى : {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء} (٢)، وكقوله : {ولا ينفعكم نصحتى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} (٣)، وقوله : {ولكن الله يفعل ما يريد} (٤).

(٢) إرادة دينية أمرية شرعية ، وهى المتضمنة للمحبة والرضا . كقوله : {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} (٥)، وقوله : {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} (٦)، وقوله : {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} (٧).

والأولى يلزم وقوع المراد فيها ولا يلزم أن يكون محبوباً لله ، بخلاف الثانية فإنه يلزم فيها أن يكون المراد محبوباً له سبحانه ولا يلزم من ذلك

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥١ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥

(٣) سورة هود : آية ٣٤

(٤) سورة البقرة : آية ٢٥٣

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٦) سورة النساء : آية ٢٦

(٧) سورة الأحزاب : آية ٣٣

وقوعه (١). وهذا هو الفرق بين الإرادتين الذى ضل بسبب الخلط فيه طائفة أهل الاعتزال .

(١) الجواب على شبه العقلية :

١ - لو أرادها ماكان فعلها خطأ ولامعصية، لأن المفعول من الطاعة فعل ماأراداه المطاع، والمعصية فعل ماكرهه المعصى .
٢ - لايجوز أن يكون الله مريداً للمعاصى ، لأنه وجب حينئذ أن يكون محباً لها راضياً عنها ، لأن الإرادة والمحبة والرضا من باب واحد .
ويجاب على هذين بما سبق ذكره فى الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية .

والسلف رضى الله عنهم لم يقولوا بأن الله يحب المعاصى ويرضاها ، وإنما قالوا : إنه يبغضها ويكرهها ويسخطها وينهى عنها (٢).
وقد جاء ذلك صراحة فى الكتاب والسنة . قال سبحانه : {والله لا يحب الفساد} (٣)، وقال : {ولايرضى لعباده الكفر} (٤)، وقال عقب مانهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً} (٥)، وقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال" (٦).

(١) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٢٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٤ ، لوامع الأنوار ١٤٥/١ مع الهامش ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٥٦ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٢٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٣، ١١٤ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٥

(٤) سورة الزمر : آية ٧

(٥) سورة الإسراء : آية ٣٨

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث المغيرة بن شعبه ، كتاب الزكاة

(٢٤) ، باب قول الله تعالى {لايسألون الناس الحافاً} (٥٣) ، ١٣١/٢ ، وأخرجه

بلفظ مقارب فى كتاب الاستقراض (٤٣) ، باب ماينهى عن إضاعة المال (١٩) ،

٨٧/٣ ، وأخرجه فى كتاب الرقاق (٨١) ، باب مايكره من قيل وقال (٢٢) ،

وهى مع ذلك لا تخرج من مشيئة الله وقدره ، لأنه لو لم يريد لها كوناً ما وقعت ، لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما شاء وأراده كما قال : {وماتشاءون إلا أن يشاء الله} (١).

ولكن كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يجبه؟ فكيف تجتمع مشيئته فيه وبغضه له؟

أجاب على ذلك الإمام ابن أبى العز رحمه الله فقال :
"فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد لإرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره ، قد لا يكون مقصوداً لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته . ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواء الكريه ، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل ، إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوه . بل العاقل يكتفى فى إشار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وإن خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوقه" (٢).

= وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الأقضية (٣٠) ، باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة (٥) برقم ١٧١٥ ، ٣/١٣٤٠-١٣٤١ .

(١) سورة الإنسان : آية ٣٠

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٢-٢٥٣ .

وأما الطاعات فإنه سبحانه يحبها ويرضاها ولا يلزم من ذلك إرادتها ووقوعها وإعانة العبد على فعلها ، لأنه قد يستلزم حصول محبوب له أعظم من تلك الطاعة . وقد يتضمن وقوعها مفسدة هي أكره عنده سبحانه من محبته لتلك الطاعة . مثال ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين : {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} (١) ، فإن خروجهم للغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة ، ولكنه ثبطهم عنها ولم يعنهم عليها لما يترتب على خروجهم من مفسد عظيمة هي أكره عند الله من محبته لتلك الطاعة ، وهي قوله : {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين} (٢) .

فيحدث من فسادهم وسعيهم بالشر والفتنة بين المؤمنين واستجابة بعض المؤمنين إليهم ، من الشر ما هو أعظم من خروجهم للقتال ، فاقتضت حكمته أن أقعدهم (٣) . فله في عباده حكم قد تحفى على خلقه وهو بها عليم . وهذا بخلاف فعله سبحانه ، فإن محبته لما يريد أن يفعله ورضاه به يوجب وقوعه بمشيئته واختياره ، وكرهيته وبغضه له يمنع وقوعه منه مع قدرته عليه لو شاء ، وأما فعل العبد كما سبق فمحبته أو كراهيته له لا توجب وقوعه ولا امتناعه ، فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم وإن لم تكن محبته موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعاً إذ لم يحب فعله الذى هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ، ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم إذ لم يكره سبحانه خذلانهم وإضلالهم لما له في ذلك من الغايات المحبوبة التى فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم (٤) .

(١) سورة التوبة : آية ٤٦

(٢) سورة التوبة : آية ٤٧

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٤) انظر : مفتاح دار السعادة ص ١١١ .

(٣) زعمهم لو كان يريد لها لكان العاصي معذوراً عند الله ، لأنه فعل ما يريد الله ، موافقة لقضائه وقدره .
ويجاب على هذا :

إن العاصي ليس معذوراً على عصيانه لأن له قدرة ومشية وأنه مختار وليس بمجبور على أفعاله الاختيارية . فالله خلق للعبد اختياراً وإرادة (١) .
والاحتجاج بالقدر على الذنوب مما يعلم بطلانه بالعقل ، فالظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضاً ، فالاحتجاج به على فعل المعاصي باطل باتفاق الملل والعقلاء . ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش لم يحسن أن يلوم أحد أحداً ، ولأن يعاقب أحد أحداً . فلا عذر لأحد في ترك مأمور ولا فعل محذور بكون ذلك مقدرًا عليه ، بل لله الحجة البالغة على خلقه (٢) .
ومما يدل على عدم عذر العاصي على فعل المعصية الآتي :

١ - إن الله أضاف عمل العبد إليه وجعله كسباً له فقال : {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت} (٣) ، ولو لم يكن له اختيار في الفعل وقدرة عليه مانسب عمله إليه .

٢ - إن الله أمر العبد ونهاه ولم يكلفه إلا ما يستطيع لقوله تعالى : {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها} (٤) ، {فاتقوا الله ما استطعتم} (٥) ، ولو كان مجبوراً على العمل ما كان مستطيعاً على الفعل أو الكف لأن المجبور لا يستطيع التخلص .

٣ - إن كل واحد يعلم الفرق بين العمل الاختياري والإجباري وأن الأول يستطيع التخلص منه بخلاف الثاني .

(١) انظر : الفتاوى ٣/٣٧٤ .

(٢) انظر : المنتقى ص ١٣٠ .

(٣) سورة غافر : آية ١٧

(٤) سورة البقرة : آية ٢٨٦

(٥) سورة التغابن : آية ١٦

٤ - إن العاصي قبل أن يقدم على المعصية لا يدري ما قدر له وهو باستطاعته أن يفعل أو يترك، فكيف يسلك طريق الخطأ ويحتج بالقدر المجهول أليس من الأحرى أن يسلك الطريق الصحيح ويقول هذا ما قدر لي؟

٥ - إن الله أخبر أنه أرسل الرسل لقطع الحجة {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} (١)، ولو كان القدر حجة للعاصي لم تنقطع بإرسال الرسل (٢).

وزعمهم بأنه خلق قومًا للجنة وقومًا للنار كذب وضلال :
هذا رد صريح وتكذيب لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك منها :

مارواه أحمد بسنده إلى عبد الرحمن بن قتادة السلمي مرفوعاً : "إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي " ، قال : فقال قائل يارسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : "على مواقع القدر" (٣).

وروى بسنده إلى أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذى في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذى في كتفه اليسرى : إلى النار

(١) سورة النساء : آية ١٦٥

(٢) شرح لمعة الاعتقاد ص ٥٣، ٥٤ بتصرف .

(٣) مسند أحمد ١٨٦/٤ .

وأخرجه الحاكم في المستدرک بلفظ مقارب ، وقال : "هذا حديث صحيح قد اتفقا على الاحتجاج برواته عن آخرهم إلى الصحابة" . ووافقه الذهبي ٣١/١ .
وابن سعد في الطبقات الكبرى ٣٠/١ ، ٤١٧/٧ .
وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة ٧٧/١ ورقمه ٤٨ .

ولأبالي" (١).

فهذه الأحاديث لاتدل على الجبر كما يزعم أهل الاعتزال ، وتوجيه ذلك :

إن الله سبحانه ليس كمثله شيء لافي ذاته ولاصفاته ، فهو إذا قبض قبضة فهي بعلمه وعدله وحكمته ، فقبض باليمين على من علم أنه سيطيعه ، وقبض بالأخرى على من علم أنه سيعصيه ، فلم يقبض باليمنى أو الأخرى على من هو مستحق أن يكون من القبضة الأخرى لكمال عدله سبحانه ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة .

وليس في القبضتين دلالة على إجبار أصحابهما ، بل هو حكم منه تعالى بما يصدر من إيمان يستلزم الجنة أو كفر يقتضى النار ، والإيمان والكفر أمران اختياريان لا يكره الله أحداً من خلقه على واحد منهما كما قال : {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} (٢)(٣).

(١) مسند أحمد ٤٤١/٦ .

قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وإسناده صحيح" . المرجع السابق ٧٧/١ برقم ٤٩

وروى مسلم بسنده إلى عائشة أم المؤمنين قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار . فقلت : يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : "أو غير ذلك ياعائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم . وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم" . كتاب القدر (٤٦) ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦) برقم ٢٦٦٢ ، ٢٠٥٠/٤ . وهذا فى معنى الأحاديث السابقة.

وروى أحمد بسنده إلى أبى نضرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة يمينه فقال هذه لهذه ولأبالي ، وقبض قبضة أخرى - يعنى بيده الأخرى - فقال هذه لهذه ولأبالي ..." الحديث .

المسند ٧٨/٥ . قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وإسناده صحيح" . سلسلة الأحاديث الصحيحة ٧٨/١ برقم ٥٠ .

(٢) سورة الكهف : آية ٢٦

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٧٨/١-٧٩ بتصرف .

(٤) قولهم لو كان مريداً لها مانهى عنها .
الأمر والنهى إنما يتعلقان بالإرادة الشرعية لا الإرادة الكونية كما سبق بيانه (١).

(٥) قولهم : لا يمكن أن يقضى على خلقه بمعصية ، ثم يعذبهم عليها ، بل ذلك محال وباطل .

ويجب على هذا بأن الله سبحانه إنما يعذب العبد على فعله الاختيارى فهو إذا قدر على الكافر أو العاصى معصية قدرها لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، ثم إذا عاقبه على تلك المعصية إنما عاقبه لاستحقاقه ذلك العقاب على فعله الذى اختاره ، ولما فى ذلك العقاب من الحكمة والمصلحة العامة (٢).

والله سبحانه إذا قضى على أحد بالمعصية أو الغى ، فذلك محض عدل فيه ، لأنه وضع الإضلال والخذلان فى موضعه اللائق به .
والله جل فى علاه قد أقام الحجج على العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومكن لهم أسباب الهداية ، فإن أعان من شاء ووفقه إلى الطاعات فذلك فضله ، وإن خذل من شاء وحرمه توفيقه وخلق بينه وبين نفسه فذلك عدله (٣).

دخل عبد الجبار الهمداني على صاحب بن عباد (٤)، وعنده أبو إسحاق

(١) انظر ص: ٢٧٠ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٤ .

(٣) انظر : الفوائد ص ٤٨، ٤٩ .

(٤) صاحب بن عباد :

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني . الأديب الكاتب . الملقب بالصاحب لصحبته الملك مؤيد الدولة من صباه . كان شيعياً معتزلياً مبتدعاً . له تصانيف منها " الوزراء " ، " الكشف عن مساوىء شعر المتنبى " ، " عنوان المعارف وذكر الخلائف " . مات سنة ٣٨٥ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/٢٢٨-٢٣٣ ، سير أعلام النبلاء ١٦/٥١١-٥١٥ ، البداية والنهاية ١١/٣١٤-٣١٦ ، لسان الميزان ١/٤١٣-٤١٦ ، شذرات الذهب ٣/١١٣-١١٦ ، الأعلام ١/٣١٦ .

الإسفراييني^(١)، فلما رأى الأستاذ قال: "سبحان من تنزهه عن الفحشاء". فقال الأستاذ فوراً: "سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء"، فقال القاضي: "أيشاء ربنا أن يعصى؟" قال الأستاذ: "أيعصى ربنا قهراً؟" فقال القاضي: "أرأيت إن منعى الهدى وقضى على بالردى أحسن إلى أم أساء؟" فقال الأستاذ: "إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء". فبهت القاضي عبد الجبار^(٢).

ولو أراد الله أن يعذب من يشاء لم يكن لأحد من الخلق منعه، ولكنه سبحانه إذا عذب أحداً فلا يعذبه إلا بحق لكمال عدله وتنزهه عن الظلم^(٣).

(٢) الشبه النقليّة :

وأما استدلالهم بالآيات، فلامتمسك لهم فيها، لأنهم إنما نظروا إليها بعين واحدة، فتناقضت عندهم الأدلة واضطرب عليهم الفهم، وذلك شأن أهل البدع دائماً، فإنهم يأخذون جانباً من الأدلة ويزعمون أنه يؤيد بدعتهم ويغضون الطرف عن جانب آخر يكون فيه كشف بدعتهم وبيان بطلانها. وهكذا فعل أهل الاعتزال هنا، فإنهم أخذوا بعض الآيات التي ظنوا أنها تؤيد نفى إرادة الله لأفعال العباد وتركوا الآيات الصريحة التي تثبت

(١) أبو إسحاق الإسفراييني :

هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الإسفراييني الأصولي الشافعي الملقب بركن الدين. أحد المجتهدين، كان متكلماً، ثبتاً في الحديث. من تصانيفه: "الجامع" في أصول الدين، ورسالة في أصول الفقه. مات سنة ٥٤١٨ هـ.

انظر: الأنساب ٢٢٥/١، وفيات الأعيان ٢٨/١، سير أعلام النبلاء ٣٥٦-٣٥٣/١٧، البداية والنهاية ٢٤/١٢، طبقات السبكي ٢٥٦-٢٦٢/٤، الوافي بالوفيات ١٠٤-١٠٥/٦، شذرات الذهب ٢٠٩-٢١٠/٣، الأعلام ٦١/١.

(٢) طبقات الشافعية ٢٦١-٢٦٢/٤، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥١ الهامش.

(٣) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٤، ٥٣.

الإرادة لتلك الأفعال ، ولو جمعوا بين النصوص لبان لهم الحق واتضح لهم الطريق ، كما بان واتضح لأهل السنة والجماعة ففازوا بلزوم الصراط المستقيم ، والهدى القويم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم^(١).

فاستدلالم المعتزلة بالآيات التي تنفى الظلم عن الله كقوله : {وما الله يريد ظلماً للعباد}^(٢) ، {وما الله يريد ظلماً للعالمين}^(٣) على نفى تقدير المعاصي ، استدلال ساقط ، بعيد عن موطن الخلاف ، فالسلف رضوان الله عليهم نزهوا الله تعالى عن الظلم كما نزه نفسه عنه ، وحرمه على نفسه ، فالله لا يظلم ولا يضع أمراً في غير موضعه وذلك هو الظلم ، بل هو العدل في قوله وفعله وأمره ونهيه وثوابه وعقابه .

وقد سبق التفصيل في ذلك بحيث يغنى عن الإعادة مرة أخرى^(٤). وأما استدلالهم بقوله تعالى : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً}^(٥) ، وقوله : {والله لا يحب الفساد}^(٦) ، {ولا يرضى لعباده الكفر}^(٧) . فهذه الآيات وأمثالها إنما تخص الإرادة الشرعية التي لا يلزم وقوع مرادها ، وهي المتعلقة بالأوامر والنواهي ، وقد بين الفرق بينها وبين الإرادة الكونية التي هي ملزمة لوقوع مرادها^(٨). ولو أن المعتزلة فرقوا بين الإرادتين وفصلوا بينهما ماوقعوا في هذا الزيغ والضلال .

(١) سورة المائدة : آية ٥٤

(٢) سورة غافر : آية ٣١

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٨

(٤) انظر ص ٢٥٨ فما بعدها .

(٥) سورة الإسراء : آية ٣٨

(٦) سورة البقرة : آية ٢٠٥

(٧) سورة الزمر : آية ٧

(٨) انظر ص ٢٧٠ .

ولعل من أقوى ما يتمسكون به قوله تعالى : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} (١).

قال ابن أبي العز : "وقد أجيب على هذا بأجوبة ، من أحسنها : أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبتة ، وقالوا : لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك .

أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به . أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة ، والجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر . وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره . يشهد لذلك قوله تعالى : {كذلك كذب الذين من قبلهم} (٢). فعلم أن مرادهم التكذيب ، فهو من قبل الفعل ، من أين له أن الله لم يقدره؟ اطلع الغيب؟" (٣).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين ولم ينكر عليهم صدقاً ولا حقاً ، بل أنكر عليهم أبطل الباطل ، فإنهم لم يذكروا ماذكروه إثباتاً لقدره وربوبيته ووحدانيته وافتقاراً إليه وتوكلاً عليه

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٢) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٦-١٤٧ .

وانظر تفسير الآية في : زاد المسير ٩٩/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٢٨/٧-١٢٩ ،

تفسير القرآن العظيم ١٨٦/٢ ، فتح الباري ٤٤٩/١٣ .

واستعانة به ، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين ، وإنما قالوه معارضين لشرعه ودافعين به لأمره ، فعارضوا شرعه وأمره ، ودفعوه بقضائه وقدره ، ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر ، وأيضاً فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبته لما شاء ورضاه به وإذنه فيه ، فجمعوا بين أنواع من الضلال ، معارضة الأمر بالقدر ، ودفعه به ، والإخبار عن الله أنه يجب ذلك منهم ويرضاه حيث شاء وقضاه ، وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر" (١).

ثم قال : "وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله ، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاء منهم {قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين} (٢) ، فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه ، وبيان ما ينفعهم ويضرهم وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه ، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه" (٣).

موقفهم من أحاديث اثبات القدر :

ونمثل لذلك بحديث واحد وهو حديث احتجاج آدم وموسى ، وكيف رده أهل الاعتزال بحجج عقلية واهية ، وطعنوا في نحره بأنواع الشبه ، وهكذا شأنهم مع كل حديث يخالف بدعهم .

وسياق الحديث كما أورده الإمام البخارى بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومنى على أمر قدر الله

(١) شفاء العليل ص ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١٤٩

(٣) المرجع السابق ص ٣٧-٣٨ .

على قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى ثلاثاً" (١).
وقد ردوه بأمرين :

الأول : هذا يوجب أن موسى كان قدرياً .

الثاني : يوجب في كل كافر ومشرِك وفاجر أن لا يلام لأن ما آتاه كان مكتوباً عليه .

ثم زعموا أن من تعلق به وبأمثاله من الأحاديث فهو جاهل ويجب أن يلصق به كل ذم ، وكل لقب مذموم .
ويجاب عليهم بالآتي :

أولاً : هذا الحديث صحيح ثابت في كتب السنة بالاتفاق .

رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أبو هريرة وغيره ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه من طريق أبي هريرة رواه عشرة من التابعين ثم ذكرهم وذكر من خرج لهم من الأئمة (٢).

قال ابن القيم رحمه الله :

"وقد رد هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة ... وهذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته ، فإن هذا حديث صحيح متفق على صحته ، لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبيها قرناً بعد قرن وتقابله بالتصديق والتسليم ، ورواه أهل الحديث في كتبهم وشهدوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله ، وحكموا بصحته ، فما لأجهل الناس

(١) صحيح البخارى ، كتاب القدر (٨٢) ، باب تحاج آدم وموسى عند الله عز وجل (١١) ٢١٤/٧ .

وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب وفاة موسى وذكره بعد (٣١) ١٣١/٤ ، وفي كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (٣٧) ٢٠٣/٨ .

وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، كتاب القدر (٤٦) ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) برقم ٢٦٥٢ ، ٢٠٤٢/٤ - ٢٠٤٤ .

(٢) انظر فتح البارى ٥٠٦/١١ .

بالسنة ومن عرف بعداوتها وعداوة حملتها والشهادة عليهم بأنهم مجسمة ومشبهة حشوية وهذا الشأن؟ ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تخالف قواعدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة كما ردوا أحاديث الرؤية" (١).

ثانياً : ليس في الحديث احتجاج بالقدر على المعاصي كما يزعم المعتزلة . وآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر لأن أنبياء الله عليهم السلام من أعلم الناس بالله وبأمره ونهيه فلا يسوغ لأحدهم أن يعصى الله بالقدر ثم يحتج على ذلك (٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصي بالقدر ، فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس بذلك ، ويحتج به قوم نوح وعاد وثمود ، وسائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ولم يعاقب أحد . وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار شرعاً وعقلاً" (٣).

بل في الحديث إثبات لقدر الله السابق . وفيه حجة لأهل السنة في إثبات القدر وخلق أفعال العباد (٤).

قال ابن عبد البر رحمه الله :

"هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحق في إثبات القدر وأن الله قضى أعمال العباد فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق في علم الله" (٥).

(١) شفاء العليل ص ٢٩ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٣١ ، شفاء العليل ص ٣٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٧ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٨٤٨/٢ .

(٤) فتح الباري ٥١٢/١١ .

(٥) المرجع السابق ٥٠٩/١١ .

ثالثاً : وقد ذكر في احتجاج آدم بالقدر عدة أقوال المتجه منها قولان :
الأول : إنما لام موسى عليه السلام آدم عليه السلام على المصيبة التي
أخرجته وذريته من الجنة بسبب أكله من الشجرة ، فاحتج آدم بالقدر على
المصيبة لاعلى المعصية ، لأن العبد مأمور أن يحتج بالقدر عند المصائب
ويستغفر ويتوب عند المعاييب ، كما قال سبحانه : { فاصبر إن وعد الله حق
واستغفر لذنبك } (١).

وقال : { ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من
قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير } (٢).

وهذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية واستحسنه شارح الطحاوية (٣).

الثاني : إن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في
موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل
آدم ، ويضر الاحتجاج به في الحال والمستقبل ، بأن يرتكب فعلاً محرماً أو
يترك واجباً فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ،
فيبطل بالاحتجاج به حقاً ويرتكب باطلاً ، كما احتج به المصريون على
شركهم وعبادتهم لغير الله فقالوا : { لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا } (٤).
وخلاصة ذلك إن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر وإذا كان
اللوم واقعاً فلاحتجاج بالقدر باطل (٥).

وقال القرطبي :

-
- (١) سورة غافر : آية ٥٥
(٢) سورة الحديد : آية ٢٢
(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٤٨/٢ ، شفاء العليل ص ٣٨ ، المنتقى من منهاج
الاعتدال ص ١٣١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٧ .
(٤) سورة الأنعام : آية ١٤٨
(٥) شفاء العليل ص ٣٨ ، ٣٩ ، بتصرف .

"إنما غلبه بالحجة لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه على ذلك نوع جفاء كما يقال ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء ، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي حتى كأنه لم يكن فلا يصادف اللوم من اللائم حينئذ محلاً" .

قال الحافظ ابن حجر :

"وهو محصل ما أجاب به المازري وغيره من المحققين ، وهو المعتمد" (١) .

(١) فتح الباري ٥١٠/١١ .

وقول القرطبي موجود بمعناه في الجامع لأحكام القرآن ٢٥٦/١١ .

(٤) مرتكب الكبيرة :-

أمر مرتكب الكبيرة من الأمور التي دار حولها الجدل في عصر مبكر من عصور الإسلام الأولى . وقد كان للمعتزلة القسط الأكبر والنصيب الأوفر في تبني هذه المسألة ، وتقعيد القواعد لها، وإطلاق الأحكام على من تلبس بها ، حتى عدها بعض العلماء رأس مسائل المعتزلة التي عنوا بها ، وأنها كانت السبب في إطلاق اسم المعتزلة عليهم^(١).

والمعتزلة لا يعتمدون على نص من القرآن أو السنة في إطلاقهم الأحكام على صاحب الكبيرة ، وإنما اعتمادهم على العقل . قال عبد الجبار بعد ذكره لبعض الأحاديث التي تدل على خلود أصحاب الكبائر في النار :

"إنما نذكر هذه الأخبار ، وإن كان أكثرها أخبار آحاد ، ليعرف من قرأ كتابنا أن التمسك بالسنة طريقتنا ، وأن هؤلاء القوم إذا احتجوا بذلك فقد أخطأوا ، وإلا فطريقتنا في هذا الجنس ، تتعلق بأدلة قاطعة"^(٢).

فالعمدة عندهم العقل كما هو الحال دائماً ، وأما أحاديث الآحاد فلا مجال لها ههنا في الاحتجاج كما يزعمون .

ولقد عرفوا الكبيرة من الذنوب تعريفاً يلائم ما أطلقوه على صاحبها من أحكام ، ومهدوا به السبيل لكي يستوعب تلك الأحكام . فقالوا عنها : إن كل ما أتى فيه وعيد فهو كبيرة^(٣).

حكم صاحب الكبيرة في الدنيا :

إن صاحب الكبيرة في الدنيا لا يسمى كافراً ولا مؤمناً وإنما يسمى فاسقاً ، وتلك عندهم منزلة وسطى بين منزلة الإيمان ومنزلة الكفر ، ولذا أطلقوا عليها اسم المنزلة بين المنزلتين .

(١) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٠٢ .

(٢) فضل الاعتزال ص ١٥٦ .

وقد يتوهم من كلام عبد الجبار أنه يحتج بالسنة ، والأمر ليس كذلك .

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين ٣٣٢/١ .

والدليل العقلي على ذلك :

إنه لا يسمى كافراً لأن أحكام الكفار في الدنيا لا تجرى عليه ، فلا يمنع عن المناكحة والموارثة والدفن وغيرها . كما أنه لا يسمى مؤمناً لأنه بارتكابه الكبيرة استحق الذم واللعن والاستخفاف والإهانة ، وقد ثبت أن اسم المؤمن لمن يستحق المدح والتعظيم والمولاة^(١) .
وأول من نادى بالمتزلة بين المتزتين وأظهر القول بها واصل بن عطاء الغزال^(٢) .

وأصبحت هذه المسألة نواة لمذهب الاعتزال^(٣) . واجتمعت كلمتهم عليها^(٤) حتى بالغ أبو الحسين في تمجيدها وتعظيمها فقال :
" وهل يكون قول أوضح صواباً ولاأصح معنى من قول المعتزلة بالمتزلة بين المتزتين ، ولو كان شيء من الدين يعلم صوابه باضطرار لعلم قول المعتزلة بالمتزلة بين المتزتين باضطرار "^(٥) .
ولعل أيضاً مما دفعهم إلى هذا القول فهمهم لقضية الإيمان .
فالإيمان عندهم هو فعل جميع ما افترض الله على عباده ، وترك جميع ما نهى عنه^(٦) ، أو هو أداء الطاعات بما فيها من فرائض ونوافل ، واجتناب المقبحات ، وهو القول الصحيح المختار عندهم^(٧) .

-
- (١) انظر : شرح الأصول ص ١٣٩، ١٤٠، ٦٩٧، ٧٠١، ٧٠٢، ٧١٢ ، فضل الاعتزال ص ٣٥٠ ، الانتصار ص ١١٩ .
(٢) انظر : الملل والنحل ٤٨/١ ، موقف المعتزلة من السنة ص ٤٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٦ .
(٤) انظر : باب ذكر المعتزلة ص ٦ ، مقالات الإسلاميين ٣٣١/١ ، الفرق بين الفرق ص ١١٥ .
(٥) الانتصار ص ١١٩ .
(٦) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٥٠ .
(٧) انظر : شرح الأصول ص ٧٠٧ .
وانظر اختلافهم في تعريف الإيمان في مقالات الإسلاميين ٣٢٩/١ - ٣٣١ .

ومن هنا لا يستحق أحد اسم الإيمان إلا إذا قام بجميع الطاعات بما فيها من فرائض ونوافل ، واجتنب جميع المعاصي .
حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة :

وأما في الآخرة فإنهم حكموا عليه بالخلود في النار كالكافر، وإن كان حاله في العقاب دون الكافر ، فعقابه أخف ، ولكنه مع ذلك خالد مؤبد فيها (١).

دليلهم العقلي على ذلك :

قال عبد الجبار :

"إن العاصي لا يخلو حاله من أحد أمرين : إما أن يعفى عنه ، أو لا يعفى عنه ، فإن لم يعف عنه فقد بقي في النار خالداً ، وهو الذي نقوله ، وإن عفى عنه فلا يخلو إما أن يدخل الجنة أو لا ، فإن لم يدخل الجنة لم يصح ، لأنه لا دار بين الجنة والنار ، فإذا لم يكن في النار وجب أن يكون في الجنة لا محالة . وإذا دخل الجنة فلا يخلو ، إما أن يدخلها مثاباً ، أو متفضلاً عليه . لا يجوز أن يدخل الجنة متفضلاً عليه لأن الأمة اتفقت على أن المكلف إذا دخل الجنة فلا بد من أن يكون حاله متميزاً عن حال الولدان المخلدين وعن حال الأطفال والمجانين ، ولا يجوز أن يدخل الجنة مثاباً لأنه غير مستحق ، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح ، والله تعالى لا يفعل القبيح" (٢).

ومن هنا يتضح أن لهذه المسألة ارتباطاً وثيقاً بموضوع الوعد والوعيد الذي عده المعتزلة أصلاً من أصولهم ، وهو ينبثق من موضوع العدل الذي سبق بيانه وتوضيحه (٣).

(١) انظر : فضل الاعتزال ص ٢١٠، ٣٥٠ ، مقالات الإسلاميين ٣٣٤/١ ، الملل والنحل ٤٥/١ .

(٢) شرح الأصول ص ٦٦٦-٦٦٧ .

(٣) انظر موقف المعتزلة من السنة ص ٦٨ . وانظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .

فزعموا في تعريف الوعد والوعيد إن الله وعد المطيعين بالشواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لاحالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب ، والكذب قبيح والله لا يفعل القبيح (١). ولذا أوجبوا على الله أن يعذب العصاة ولا يعفو عنهم ، كما أوجبوا عليه أن يثيب الطائعين ، ولو لم يفعل الله ذلك لكان قبيحاً منه سبحانه وتعالى (٢).

وللمعتزلة البغدادية تفريق في نوعية الوجوب بالنسبة للمطيع والعاصي . فالعقاب عندهم أعلى حالاً من الشواب ، لأن الشواب لا يجب إلا من حيث الجود ، وليس هذا قولهم في العقاب ، فإنه يجب فعله في كل حال ولا يجوز أن يعفو الله عن العصاة بل يجب عليه أن ينزل بهم ما يستحقونه من عذاب لاحالة (٣).

وهذا العقاب يستحقه العاصي على طريق الدوام ، فهو لو لم يستحق على طريق الدوام لكان لا يحسن من الله أن يعذب الفاسق بالنار ويخلدهم فيها ، كما أن العقاب كالذم يشبتان في الاستحقاق معاً ويزولان معاً ، والفاسق يستحق الذم على طريق الدوام ، فكذلك يجب أن يستحق العقاب على طريق الدوام (٤).

ووعيد الله بالعقاب حق لا يجوز عليه الخلاف ولا الكذب ، لأن الله قد خوف بوعيد قاطع وليس تخويفاً ، ولو لم يفعله لما كان ذلك الوعيد صدقاً . ولا يجوز أن يكون خلفه كرمًا لأنه إن وجب ذلك في الفاسق وجب مثله في الكفار ، ومتى قيل في الكفار إنه يحسن منه وقوع الوعيد عليهم مع أن خلافه كرم ، فكذلك في الفاسق (٥).

(١) انظر : شرح الأصول ص ١٣٦ .

(٢) انظر : شرح الأصول ص ٦٤٧-٦٥٠ ، وانظر ص ٥٩٨، ٦١٤-٦١٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٤٤، ٦٤٥ .

(٤) انظر المصدر نفسه ص ٦٦٧ .

(٥) انظر : فضل الاعتزال ص ٢١١ .

بل من زعم أن خلف الوعيد كرم وأن الله يمكن أن يخلف في وعيده كفر ، لأنه أضاف القبيح إلى الله تعالى (١).

والتوبة عندهم لاتصح إلا إذا كانت من جميع المعاصي وأما إن تاب عن بعض ولم يتب عن البعض الآخر ، لم تستقم توبته . يقول عبد الجبار : "لاتصح التوبة عن بعض القبائح مع الإصرار على البعض وهو الصحيح من المذهب ، والذي يدل على صحته أن التوبة عن القبيح يجب أن تكون ندماً عليه لقبحه وعزماً على أن لايعود إلى أمثاله في القبح" (٢). ومادامت قد بقيت كبيرة واحدة فهي كافية في إسقاط جميع مآلديه من ثواب ، لأنه لاثواب البتة يستحقه الإنسان مع وجود الكبيرة (٣).

وقد استدلوا بأدلة الوعيد من القرآن والسنة فأيدوا بها حججهم العقلية في تخليد صاحب الكبيرة في النار ، ومن ذلك : قوله تعالى : {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين} (٤).

فألله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون في النار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً فيجب حمله عليهما ، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه ، فلما لم يبين دل على ما ذكرناه . وقوله تعالى : {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً} (٥).

وقوله : {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها} (٦).

(١) انظر شرح الأصول ص ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٩٤-٧٩٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٩١ ، مقالات الإسلاميين ٣٣٢/١ .

(٤) سورة النساء : آية ١٤

(٥) سورة الجن : آية ٢٣

(٦) سورة النساء : آية ٩٣

ووجه الاستدلال، إن من قتل مؤمناً متعمداً جازاه الله وعاقبه وغضب عليه ولعنه وذلك يؤيد خلوده في النار .

وقوله أيضاً : {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون} (١).

ووجه الدلالة : إن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعاً وهما مرادان بالآية ، ولو أراد الله أحدهما لبيّنه فلما لم يبيّنه دل على أنه أرادهما جميعاً .

وقوله سبحانه : {من يعمل سوءاً يجز به} (٢).

وقوله : {وإن الفجار لفي جحيم} (٣) (٤).

موقفهم من الآيات والأحاديث التي تعارض ما ذهبوا إليه :
ونمثل لذلك بآية وحديث :

الآية : قوله تعالى : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (٥).

يبين عبد الجبار أن المراد بقوله "ما دون ذلك" صفات المعاصي (٦).

الحديث : قوله صلى الله عليه وسلم : "فخرج من النار قوم بعدما أمتحشوا وصاروا فحماً وحمماً" (٧).

يبدأ عبد الجبار بإيراده بصيغة التضعيف روى .

ثم يقول :

"وجوابنا ، أن هذا الخبر لم تثبت صحته ، ولو صح فإنه منقول بطريق

الآحاد ، وخبر الواحد مما لا يوجب القطع ، ومسألتنا طريقها العلم فلا يمكن

(١) سورة الزخرف : آية ٧٤

(٢) سورة النساء : آية ١٢٣

(٣) سورة الانفطار : آية ١٤

(٤) شرح الأصول ص ٦٥٧-٦٦٣ بتصرف .

(٥) سورة النساء : آية ١١٦، ٤٨

(٦) انظر : فضل الاعتزال ص ١٥٤ .

(٧) يأتي تخريج الحديث والكلام عنه .

الاحتجاج به ... ثم إنا نعارضهم بأخبار رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب من جملتها قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا غمام ولا عاق" (١).

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم وهم :

١ - عبد الله بن عمرو بن العاص :

وحديثه أخرجه النسائي في سننه بلفظ : "لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر".

كتاب الأشربة ، باب الرواية في المدمنين في الخمر ٢٨٤/٨ .

والدارمي في سننه ، كتاب الأشربة ، باب في مدمن الخمر ١١٢/٢ .

وأحمد في المسند ٢٠١/٢ وزاد في رواية عنه : "ولا ولد زنية" ٢٠٣/٢ .

وابن حبان في كتاب الزكاة (١١) ورقمه ٣٣٨٤ ، ١٧٨/٨ .

وبالزيادة السابقة عند أحمد برقم ٣٣٨٣ ، ١٧٥/٨ - ١٧٦ "الإحسان" .

وعبد الرزاق في المصنف برقم ١٣٨٥٩ ، ٤٥٤/٧ ، وفيه الزيادة السابقة .

وابن خزيمة في التوحيد ص ٢٣٦-٢٣٧ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٠/٦ وفيه الزيادة .

والشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٨٥/٢ برقم ٦٧٣ ،

وصحيح الجامع . وقال صحيح ٢٢٨/٦ .

٢ - عبد الله بن عمر :

وحديثه أخرجه النسائي بلفظ مقارب لحديث ابن عمرو ، في كتاب الزكاة ، باب

المنان بما أعطى ٦/٥ .

وأحمد في المسند . وذكر بدل المنان : الديوث الذي يقر في أهله الخبث .

١٢٨،٦٩/٢ . وانظر ١٣٤/٢ .

٣ - أبو سعيد الخدري :

وحديثه أخرجه أحمد في المسند ٤٤،٢٨/٣ .

٤ - أنس بن مالك :

وحديثه في مسند أحمد أيضا ٢٢٦/٣ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٧/٥ .

٥ - أبو الدرداء :

وحديثه في مسند أحمد إلا أنه ذكر بدل المنان : مكذب بالقدر ٤٤١/٦ .

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد إلا أنه ذكر "مكذب بالقدر" بدل "مدمن خمر"

٢٠٦-٢٠٥/٧ .

وهذا يدفع ما احتجوا به في المسألة .

ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تردى من جبل فهو يتردى من جبل في نار جهنم خالداً مخلداً " (١).

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجرأ بها بطنه في نار جهنم خالداً أبداً " (١).

أو قوله أيضاً : " من يحتسى سماً يحتسى سماً في نار جهنم خالداً أبداً " (١).

إلى غير ذلك من الأخبار المروية في هذا الباب .

... إنا نتأول هذا الخبر ... على وجه يوافق الأدلة ، فنقول : إن المراد

يخرج من النار ، أى يخرج من عمل أهل النار قوم " (٢).

= ٦ - ابن عباس :

أورده الهيثمي في المجمع ٧٧/٥ .

٧ - مولى أبى قتادة :

وحديثه أخرجه الطحاوى في مشكل الآثار وفيه زيادة "ولاولد زنية" ٣٩٥/١ .

والحديث أخرجه عبد الرزاق في المصنف عن مجاهد مرسلًا ، وزاد فيه : ولا من أتى

ذات محرم ولا مرتد أعرابياً بعد هجرة . ورقمه ٢٠١٢٩ ، ١٣٦/١١ .

وأورده أبو نعيم في الحلية من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد ، وعبد الله بن

عمرو ، وابن عباس ، ومولى لأبى قتادة ، ومجاهد مرسلًا ، وذكر طريقه إلى هؤلاء

انظر ٣٠٧/٣ - ٣٠٩ .

ولم يرد لفظ النمام في شيء من رواياته .

(١) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

ولفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في

نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحصى سماً فقتل نفسه فسمه في

يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديده

في يده يجرأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً " .

في كتاب الطب (٧٦) ، باب شرب السم والدواء به (٥٦) ، ٣٢/٧ .

وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب للفظ البخارى مع تقديم وتأخير . في كتاب

الإيمان (١) ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٤٧) برقم ١٠٩ ، ١٠٣/١ - ١٠٤ .

(٢) شرح الأصول ص ٦٧٢ - ٦٧٣ .

مذهب السلف فى حكم صاحب الكبيرة والجواب عن شبه المعتزلة :
إن القول الأمثل فى تعريف الكبيرة ، ما ترتب عليها حد أو توعدها
عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب (١).

والمراد بصاحب الكبير هو أن يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة
بلاستحلال ويموت بلا توبة (٢).

والمذهب الحق الذى عليه أهل السنة والجماعة أن صاحب الكبيرة
مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فهم لا يخرجونه عن الإيمان بملاسته لكبائر
الذنوب . وهذا حكمه فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فهو تحت مشيئة الله عز
وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، مع القطع بأنه لا يخلد فى النار إلا
المشرك لقوله تعالى : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن
يشاء} (٣) (٤).

وهذا القول هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال
السلف الصالح رضوان الله عليهم .

أما الأدلة التى تدل على عدم خروجه من زمرة المؤمنين ، منها :
(١) قوله تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد
بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيئاً فاتباع بالمعروف وأداء إليه
بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب
أليم} (٥).

فلم يخرج الله تعالى القاتل من المؤمنين وجعله أخاً لولى القصاص
والأخوة هنا أخوة الدين بلاريب (٦).

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٠ .

(٢) لوامع الأنوار ٣٨٩/١ .

(٣) سورة النساء : آية ١١٦، ٤٨ .

(٤) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٢٠/١ ، مجموع الفتاوى ١٥٢، ١٥١/٣ ،

شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٠، ٣٦٩، ٣٢١ ، لوامع الأنوار ١/٣٦٨، ٣٧١، ٣٨٩، ٤١٠ ،

(٥) سورة البقرة : آية ١٧٨ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢١ .

(٢) قوله تعالى :

{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون}{(١)}.

فأثبت سبحانه أخوة الإيمان مع وجود القتال بينهم وهو من الكبائر ولو كان كفراً لانتفت الأخوة الإيمانية (٢).

(٣) روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه" (٣).

فثبت بهذا الحديث أن الظالم تكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه (٤).

وأما ما يدل من الأدلة على عدم خلود أصحاب الكبائر فى النار حاشا المشركين :

(١) قوله تعالى :

{إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}{(٥)}.

(١) سورة الحجرات : آية ٩، ١٠.

(٢) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص ٩٩ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب القصاص يوم القيامة (٤٨) ،

١٩٧/٧ ، وبلفظ مقارب فى كتاب المظالم (٤٦) ، باب من كانت عنده مظلمة عند

الرجل فحللها له (١٠) ، ٩٩/٣ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٢ بتصرف .

(٥) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦.

(٢) روى البخارى بسنده إلى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة" (١).

(٣) روى مسلم بسنده إلى أبي ذر قال :

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ ، قال : وإن زنى وإن سرق - ثلاثاً - ثم قال في الرابعة "على رغم أنف أبي ذر" .
قال : فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبي ذر (٢).

(١) صحيح البخارى ، فى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : { لما خلقت بيدي } (١٩) ، وهو جزء من حديث طويل فى شأن الشفاعة ١٧٣/٨ .
وبمعناه فى باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٣٦) ، ٢٠٠/٨-٢٠٢ .

وبلفظ مقارب فى كتاب الإيمان (٢) ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٣٣) ، ١٦/١ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظه وبمعناه فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٣ ، ١٨٢/١-١٨٤ .

(٢) صحيح مسلم فى كتاب الإيمان (١) ، باب تحريم الكبر وبيان (٣٩) برقم ٩٤ ، ٩٥/١ .
وأخرج نحوه فى كتاب الزكاة (١٢) ، باب الترغيب فى الصدقة (٩) بالرقم السابق ٦٨٧/٢-٦٨٩ .

وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ مقارب فى كتاب اللباس (٧٧) ، باب الثياب البيض (٢٤) ، ٤٣/٧-٤٤ ، وأخرج نحوه فى كتاب الجنائز (٢٣) ، باب فى الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١) ، ٦٩/٢ . وفى كتاب الاستئذان (٧٩) ، باب من أجاب بلبيك وسعديك (٣٠) ، ١٣٧/٧ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب المكثرون هم المقلون (١٣) ، ١٧٦/٧-١٧٧ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب كلام الرب مع جبريل (٣٣) ، ١٩٦/٨ .

قال النووي في شرحه للحديث :
 "قوله صلى الله عليه وسلم : "وإن زنى وإن سرق" فهو حجة لمذهب
 أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا
 منها وختم لهم بالخلود في الجنة" (١).
 والأدلة على عدم خلود صاحب الكبيرة في النار كثيرة جداً .
 والأحاديث في ذلك متواترة (٢).

وأما ما يدل على أنه تحت المشيئة؛ قوله تعالى في الآية السابقة : {إن
 الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (٣). وفي حديث عبادة
 ابن الصامت : أنه صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصاة من أصحابه :
 "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تقتلوا أولادكم
 ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن
 وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو
 كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا
 عنه وإن شاء عاقبه . فبايعناه على ذلك" (٤).

وأما أقوال أهل العلم فإننا نقتصر على قولين جامعين لإمامين جليلين
 أولهما الإمام الطحاوي إذ يقول :

(١) شرح النووي على مسلم ٩٧/٢ .

(٢) انظر الشفاعة . ص : ١٣٠ .

(٣) سورة النساء : آية ٤٨ ، ١١٦ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان (٢) ، باب (١١) ، ١٠/١ .

وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب وفود الأنصار إلى
 النبي صلى الله عليه وسلم (٤٣) ، ٢٥١/٤ ، وفي كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير
 سورة الممتحنة (٦٠) ، باب {إذا جاءك المؤمنات يبائعنك} (٣) ، ٦١/٦ - ٦٢ ، وفي
 كتاب الحدود (٨٦) ، باب توبة السارق (١٤) ، ١٨/٨ ، وفي كتاب الأحكام
 (٩٣) ، باب بيعة النساء (٤٩) ، ١٢٥/٨ .

وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة ، في كتاب الحدود (٢٩) ، باب الحدود
 كفارات لأهلها (١٠) برقم ١٧٠٩ ، ١٣٣٣/٣ - ١٣٣٤ .

"وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين . وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلهم ، كما ذكر عز وجل في كتابه : {ويغفر مادون ذلك لمن يشاء} (١) وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته . وذلك بأن الله تولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته . اللهم ياولى الإسلام وأهله ، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به" (٢).

والثاني : الإمام النووى رحمه الله فإنه قال :

"واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال ، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذى لم يبتلى بمعصية أصلاً فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلاً .. وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وجعله كالقسم الأول ، وإن شاء عذبه القدر الذى يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعى" (٣).

(١) سورة النساء : آية ٤٨ ، ١١٦

(٢) متن العقيدة الطحاوية ص ١٥ .

(٣) شرح النووى على مسلم ٢١٧/١ .

وأما شبه المعتزلة فيجواب عنها بما يلي :

(١) تعريفهم للكبيرة تعريف قاصر عن تحديد الكبيرة ، والحد يجب أن يكون جامعاً مانعاً .

ولذا يمكن أن يدخل في تعريفهم بعض الصغائر التي جاء فيها وعيد من الشارع ، ولذلك خص السلف وعيد صاحب الكبير بما ترتب عليه حد ، أو وعيد بالنار ، أو اللعنة أو الغضب (١) .

(٢) سلب الإيمان من العاصي من البدع القبيحة التي دل على خلافها القرآن والسنة وإجماع السلف رضوان الله عليهم (٢) .

والمعتزلة انما سلبوا إيمان الفاسق بناء على أن الأعمال عندهم شرط في صحة الإيمان ، وهذا بخلاف المعهود عن السلف فإن الأعمال عندهم شرط في كمال الإيمان . وهو الذي تؤيده النصوص (٣) .

فعصاة المسلمين وفساقهم معهم بعض الإيمان وأصله ، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة (٤) ، ولذا لا يعطون اسم الإيمان المطلق ولا يسلب عنهم مطلق الاسم . وأخوة الإيمان ثابتة لهم مع وجود المعاصي (٥) .

قال صلى الله عليه وسلم : "من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته" (٦) .

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٠، ٣٧٢ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ١٥١/٣ ، لوامع الأنوار ٤١٠/١ .

(٣) لوامع الأنوار ٤٠٥/١ بتصرف .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٣٧٥/٣ .

(٥) انظر المرجع السابق ١٥١/٣ .

(٦) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه ، كتاب الصلاة (٨) ، باب فضل استقبال

القبلة (٢٨) ، من حديث أنس بن مالك ١٠٢/١ . =

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله :

"ونسَمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين" (١).

وأدلة الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارق والقاذف لا يقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على أنه ليس بمرتد ولا يخرج من الإيمان بما فعل (٢).

والقول بخلوده فى النار من البدع أيضا المخالفة للكتاب والسنة واتفاق السلف رحمهم الله (٣).

وحكمهم عليه بالخلود فى النار يوم القيامة يلزم منه تكفيره فى الدنيا ، وقد صرح بذلك الخوارج ، والمعتزلة وإن لم يحكموا عليه بالتكفير إلا أن قولهم وقول الخوارج سواء والخلاف بينهم لفظى (٤).

(٣) إن إنفاذ الوعيد والوجوب على الله الذى دندن به المعتزلة وخلدوا به صاحب الكبيرة فى النار ، إنما هو أمر عقلى محض لاسند له من النصوص ولامن العقول السليمة .

فمن أين للعقول أن توجب وتحرم عليه سبحانه ، وكيف علمت أنه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل ، وأنه رضى عن فاعل ، وسخط على فاعل ؟ وهل ذلك إلا غيب عنا ، وإقحام للعقل فيما لا علم له ، وتجنى على نصوص الشرع ، وقياس لله بخلقه فى أفعاله .

= قال النووى رحمه الله :

"واتفق أهل السنة ... على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد فى النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق بالشهادتين" . شرح النووى على مسلم ١٤٩/١ .

(١) متن العقيدة الطحاوية ص ١٣ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢١، ٣٢٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٢١ ، لوامع الأنوار ٤١٠/١ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٢ .

وهل كلما حسن من الخلق حسن منه وقبح منهم قبح منه؟ أم هو القياس الفاسد أيضاً؟^(١)

وقد سبق بيان هذا في أفعال العباد^(٢)، والحجة العقلية عندهم واحدة فكما تمخض عنها من قبل خلق العباد لأفعالهم وعدم إرادتها من الله ، تمخض عنها ههنا خلود أصحاب الكبائر في النار ونفى الشفاعة عنهم فلا داعي للاعادة .

ولاشك إن الله وعد الطائعين بالشواب ، وأوعد العاصين بالعقاب ، وما وعد به عباده الطائعين لا بد من تحقيقه ، كرماءً منه سبحانه وفضلاً ، لأنه لا يخلف الميعاد كما ذكر^(٣).

وليس معنى ذلك أن العباد يستحقون دخول الجنة على ربهم بأعمالهم كما يزعم أهل الاعتزال ، بل إنما يدخلهم الجنة برحمته وفضله ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "لن يدخل أحداً عمله الجنة" ، قالوا : ولأنت يارسول الله؟ قال : "ولأنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمة ..." ^(٤) الحديث .

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ص ٥٢، ٥١ .

(٢) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٦/٢ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٣ . من ذلك قوله تعالى : {ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد} سورة آل عمران : آية ٩

وقوله تعالى : {ولا تخزننا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد} . سورة آل عمران : آية ١٩٤

وقوله سبحانه : {إن الله لا يخلف الميعاد} . سورة الرعد : آية ٣١

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، من حديث أبي هريرة في كتاب المرضى (٧٥) ، باب تمنى المريض الموت (١٩) ، ١٠/٧ ، وأخرجه بلفظ مقارب في كتاب الرقاق (٨١) ، باب القصد والمداومة على العمل (١٨) ، ١٨١/٧ - ١٨٢ . =

وذلك بخلاف الوعيد ، فإن خلفه مدح لازم ، ويجوز عليه سبحانه أن يخلف وعيده ، لأنه حقه ، فإخلافه له عفو وكرم وجود وإحسان . ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

انبئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول (١)

عن عبد الملك بن قريب الأصمعي (٣) قال : جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء (٤) فقال : يا أبا عمرو ، أيخلف الله وعده؟ قال : لا . قال : أفأرايت من وعده الله على عمل عقاباً أيخلف الله وعده؟

= وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى (١٧) برقم ٢٨١٦ من حديث أبي هريرة ، وبرقم ٢٨١٧ من حديث جابر وبرقم ٢٨١٨ من حديث عائشة رضی الله عنها ٢١٦٩/٤-٢١٧١ .

وانظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٧/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٨ . انظر : لوامع الأنوار ٣٧٠/١ . (١)

وبيت الشعر من قصيدة كعب بن زهير في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهو في شرح قصيدة كعب بن زهير ص ٢٤٨ ، وشرح ديوان كعب ص ١٩ . (٢) الأصمعي :

هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك أبو سعيد الباهلي ، الأصمعي البصري ، أحد الأعلام . لغوى لإخباري ، صدوق في الحديث ، سني ، روى عن ابن عون ، وسليمان التيمي ، ومسعر بن كدام . وعنه : يحيى بن معين وإسحاق بن إبراهيم الموصلي وجماعة آخرون . مات سنة ٢١٦هـ وقيل غير ذلك .

انظر : الجرح والتعديل ٣٦٣/٥ ، تاريخ بغداد ٤١٠/١٠-٤٢٠ ، ميزان الاعتدال ٦٦٢/٢ ، سير أعلام النبلاء ١٧٥/١٠-١٨١ ، تهذيب التهذيب ٤١٥/٦ ، تقريب التهذيب ٥٢١/١-٥٢٢ .

(٣) أبو عمرو بن العلاء :

هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان ، المازني النحوي ، القاري ، اسمه زبأن أو العريان . ثقة من علماء العربية . روى عن أنس ، ويحيى بن يعمر ، ومجاهد . وعنه شعبة ، وحماد بن زيد ، وأبو أسامة . مات سنة ١٥٤هـ .

انظر : تاريخ البخاري ٥٥/٩ ، تذهيب التهذيب ٢٢٥/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٧/٦-٤١١ ، تهذيب التهذيب ١٧٨/١٢ ، تقريب التهذيب ٤٥٤/٢ .

فقال أبو عمرو بن العلاء : من العجمة أتيت ، أبا عثمان ، إن الوعد غير الوعيد ، إن العرب لاتعد عاراً ولاخلفاً أن تعد شراً ثم لاتفعل ، ترى ذلك كرمأً وفضلاً ، إنما الخلف أن تعد خيراً ثم لاتفعل . قال : فأوجدني في هذا في كلام العرب . قال : نعم . أما سمعت قول الأول :

لا يرهب ابن العم ماعشت صولتي
ولاأختتي^(١) من صولة المتهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته

لمخلف إيعادي ومنجز موعدى^(٢)

هذا إضافة إلى ما ذكر من أمور تمنع من إنفاذ الوعيد .
يقول الإمام السفاريني رحمه الله :

"وعلى كل حال قد قام الدليل على ذكر الموانع من إنفاذ الوعيد بعضها بالإجماع وبعضها بالنص ، فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لامدفع لها ، الحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص ، فلاتعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها ، فلا بد من إعمال النصوص في الجانبين ، ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعة إعمالاً لأرجهما ، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما ، وبناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمرأً ، وقد جعل تعالى لكل ضد ضدّاً يدافعه ، ومانعاً يمانعه ، ويكون الحكم للأغلب منهما .

(١) أختتي : أى أتصاغر وانكسر .

انظر لسان العرب ، مادة (ختت) ٢٨/٢ .

(٢) أخبار عمرو بن عبيد ص ١٤ .

والبيتان لعامر بن الطفيل في ديوانه ص ٥٨ .
وسياقهما فيه :

لا يرهب ابن العم منى صولة	ولاأختتي من صولة المتهدد
وإني إن أوعدته أو وعدته	لأخلف إيعادي وأنجز موعدى

والحاصل والله أعلم كون المذنب الملى وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياها في مشيئة مولاه إن شاء عذبه وإن شاء عفاه ، وعلى كل حال خلود أهل التوحيد في النار من المحال فالصواب اجتنابه وعدم الالتفات إليه والتعويل على مذهب أهل الحق والركون إليه وبالله التوفيق" (١).

وزعمهم بأن التوبة لا تقبل إذا تاب عن ذنب وهو مصر على غيره ، زعم لا يصح ، بل الذى عليه أهل السنة خلاف ذلك .
قال النووى رحمه الله :

"وقد أجمع العلماء رضى الله عنهم على قبول التوبة مالم يغرر كما جاء في الحديث (٢)، وللتوبة ثلاثة أركان : أن يقلع عن المعصية ، ويندم على فعلها ، ويعزم أن لا يعود إليها ، فإن تاب من ذنب ثم عاد إليه لم تبطل توبته ، وإن تاب من ذنب وهو متلبس بآخر صحت توبته ، هذا مذهب أهل الحق وخالفت المعتزلة في المسألتين والله أعلم" (٣).

(١) لوامع الأنوار ٣٧١/١ .

وانظر في أسباب سقوط العقوبة شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٧-٣٣٠ .

(٢) روى الترمذى بسنده إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرر" .

سنن الترمذى ، كتاب الدعوات (٤٩) ، باب فضل التوبة والاستغفار (٩٩) برقم ٣٥٣٧ ، ٥١١/٥ .

وأخرجه ابن ماجه في سننه ، في كتاب الزهد (٣٧) ، باب في ذكر التوبة (٣٠) برقم ٤٢٥٣ ، ١٤٢٠/٢ .

والإمام أحمد في المسند ١٥٣، ١٣٢/٢ ، ٤٢٥/٤ . قال الشيخ أحمد محمد شاكر : "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر ١٦١، ١٧/٩ .

والحاكم في المستدرک . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبي ٢٥٧/٤ . وأورده: الهيثمى في مجمع الزوائد وقال : رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن - بن البيلماني - وهو ثقة . ٢٠١، ٢٠٠/١٠ .

والشيخ ناصر الدين الألبانى في صحيح الجامع . وقال حسن ١٥١/٢ .

(٣) شرح النووى على مسلم ٤٥/٢ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٤٨٤/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٧ ، لوامع الأنوار ٣٨٣/١ .

والقول بأن من فعل كبيرة حبط إيمانه ، هذا نوع من الظلم الذى نزه الله نفسه عنه كما قال سبحانه : {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} (١)(٢).

(٤) ما استدلوا به من الآيات فهى من نصوص الوعيد التى وجهها السلف توجيهاً يتفق ونصوص الوعد الأخرى التى غض عنها المعتزلة الطرف ، وهذا من شأن أهل البدع فإنهم يأخذون من النصوص ما يظنون أنه يوافق بدعهم ويتركون غيرها مما يخالف تلك البدع . وهكذا فعل أهل الاعتزال فى هذا المقام .

وقد ذكر العلماء توجيهات أربع فى هذه النصوص وأمثالها :
الأول : إن هذا فى حق المستحل .

الثانى : إن الاستدلال بنصوص الوعيد مبنى على العموم وليس فى اللغة ألفاظ عامة .

الثالث : هذا جزاؤه إن جازاه ، أى على إضمار الشرط .

الرابع : هذا وعيد وخلفه مدح لازم (٣).

والقول الثالث هو الذى تؤيده أقوال العلماء . قال الإمام النووى رحمه الله فى شرحه لحديث "ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" (٤) قال :

(١) سورة الزلزلة : آية ٧-٨

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٣٨ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار ٣٧٠/١ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب العلم (٣) ، باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم (٣٨) ، ٣٥/١ ، وفى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ١٤٥/٤ ، وفى كتاب الأدب (٧٨) ، باب من سمى بأسماء الأنبياء (١٠٩) ، ١١٨/٧ .

وأخرجه مسلم بألفاظ مقاربة فى مقدمة صحيحه ، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) برقم ٤٣٠٢ ، ١٠/١ .

وفى كتاب الزهد (٥٣) ، باب الثبوت فى الحديث (١٦) برقم ٣٠٠٤ ، ٢٢٩٩/٤ .

"هذا جزاؤه وقد يجازى به وقد يعفو الله الكريم عنه ولا يقطع عليه بدخول النار ، وهكذا سبيل كل ماجاء من الوعيد بالنار لأصحاب الكبائر غير الكفر فكلها يقال فيها هذا جزاؤه وقد يجازى وقد يعفى عنه ، ثم إن جوزى وأدخل النار فلا يخلد فيها بل لأبد من خروجه منها بفضل الله تعالى ورحمته ولا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ، وهذه قاعدة متفق عليها عند أهل السنة" (١).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله سبحانه : {ومن يقتل مؤمناً متعمداً} (٢) الآية . قال :

"فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف هذا جزاؤه إن جازاه ... ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه ، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون ذلك معارضاً من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ... وهذا أحسن مايسلك في باب الوعيد" (٣).

وأهل السنة متفقون على أن العاصي مستحق للوعيد المترتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص ، لا كما يقول المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، ولا ينفع مع الكفر طاعة .

وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ، ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة ، تبين لك فساد القولين ، ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى" (٤).

والخلود الذي جاء في الآيات لا يقتضى الدوام ، قال الله تعالى : {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد} (٥).

(١) شرح النووى على مسلم ٦٨/١ - ٦٩ .

(٢) سورة النساء : آية ٩٣

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٣٧/١ ، وانظر : الاعتقاد ص ١٢٤ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٢ بتصرف .

(٥) سورة الأنبياء : آية ٣٤

وقال سبحانه : {يحسب أن ماله أخلده} (١).

وفى قول زهير بن أبى سلمى :

ألا لأرى على الحوادث باقياً

ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا (٢)

وفى هذا دلالة على أن الخلد يطلق على غير التأييد ، فإن هذا يزول بزوال الدنيا . والعرب تقول : لأخلدن فلاناً فى السجن ، والسجن ينقطع ويزول ، وكذلك من سجن ، ومثله قولهم فى الدعاء : خلد الله ملكه وأبد أيامه (٣).

(٥) قولهم إن المراد فى قوله : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (٤) صغائر المعاصى .

ترده الآية ، فإن الله عز وجل لم يستثن من الذنوب سوى الشرك ، فدل ذلك على أن الغفران المعلق بالمشيئة شامل لجميع الذنوب كبائر كانت أو صغائر .

قال ابن جرير رحمه الله :

"قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه مالم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى" (٥).

وقد سبقت الأدلة على دخول صاحب الكبيرة سوى الشرك تحت المشيئة (٦).

(١) سورة الهمزة : آية ٣

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص ١٠٧ ، شرح ديوان زهير ص ٢٨٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٥/٥ بتصرف .

(٤) سورة النساء : آية ١١٦، ٤٨

(٥) جامع البيان ١٢/١ الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥/٥ .

(٦) انظر ص : ٢٩٧

وأما صغائر الذنوب فإنها تكفر بكثير من الأمور ، ومن ذلك اجتناب الكبائر كما قال سبحانه : {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً} (١).

أى : إذا اجتنبت كبائر الآثام التى نهيت عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة (٢).

وأما الحديث فقد أخرجه البخارى ومسلم بطرق عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظ البخارى : "أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون قد امتحشوا (٣) ، وعادوا حمماً (٤) ، فيلقون فى نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، أو قال : حمية السيل . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية (٥) . ولفظ مسلم مقارب له .

والجواب عما أثاروه من شبه حول الحديث :

(١) ذكر الحديث بصيغة التمريض روى لايتناسب مع صحته ، لأنها من صيغ التضعيف والحديث صحيح ثابت (٦).

(١) سورة النساء : آية ٣١

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/١ بتصرف

(٣) امتحشوا : أى احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم .

النهاية فى غريب الحديث ٣٠٢/٤ .

(٤) حمماً : أى صاروا سود الأجساد كالحمم وهو الفحم .

انظر المرجع السابق ٤٤٤/١ .

(٥) صحيح البخارى فى كتاب الرقاق (٨١) ، باب صفة الجنة والنار (٥١) ، ٢٠٢/٧ .

وبلفظ مقارب فى كتاب الإيمان (٢) ، باب تفاضل أهل الإيمان (١٥) ، ١١/١ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات الشفاعة

وإخراج الموحدين من النار (٨٢) برقم ١٨٤ ، ١٧٢/١ .

(٦) انظر : تدريب الراوى ١٢٠/١ ، ١٢١ .

(٢) قولهم : الحديث لم يثبت :

خلاف الحق ، بل الحديث صحيح ثابت اتفق على صحته الإمامان الجليلان البخارى ومسلم . فهو بذلك فى أعلى مراتب الصحيح (١).

(٣) قولهم : بأنه حديث آحاد لا يوجب القطع ، وإن المسألة طريقها العلم فلا يمكن الاحتجاج به .

الكلام عن حديث الآحاد وحجته سبق مستوفى (٢).

أضف إلى ذلك أن أحاديث خروج أهل الكبائر غير الشرك من النار متواترة ، فبطلت حجته من كل وجه .

(٤) زعمهم أنه معارض بحديث :

(أ) "لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا نمام ولا عاق" (٣).

لامعارضة بين الحديثين ، وذلك لأن السلف لهم جوابان فى معنى "لا يدخل الجنة" :

أحدهما : أنه محمول على من يستحل مع علمه بالتحريم فهذا كافر لا يدخل الجنة أصلاً .

والثانى : معناه جزاؤه أن لا يدخلها وقت دخول الفائزين إذا فتحت أبوابها لهم بل يؤخر ، ثم قد يجازى وقد يعفى عنه فيدخلها أولاً (٤).
(ب) "من تردى من جبل ... الحديث" (٥).

قال النووى رحمه الله فى شرح الحديث :

"وأما قوله صلى الله عليه وسلم "فهو فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً" فقليل فيه أقوال :

(١) انظر : المرجع السابق ، فى مراتب الصحيح وأقسامه ١٢٢/١ ، ١٢٣ .

(٢) انظر ص ، ١١٢ فما بعدها .

(٣) سبق تخريجه ص : ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٤) انظر : شرح النووى على مسلم ١٧/٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١١٣ .

(٥) سبق تخريجه ص : ٢٩٣ .

أحدها : أنه محمول على من فعل ذلك مستحلاً مع علمه بالتحريم فهذا كافر وهذه عقوبته .

والثاني : أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاوله لاحقيقة الدوام كما يقال : خلد الله ملك السلطان .

والثالث : أن هذا جزاؤه ولكن تكرم سبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يخلد في النار من مات مسلماً^(١).

وقد دلت الأحاديث على أن قاتل نفسه لا يخلد في النار ، من ذلك : حديث جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة ، قال : حصن كان لدوس في الجاهلية ، فأبى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم للذي ذخر الله للأنصار ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه فاجتوا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص^(٢) فقطع بها براحمه فشخت^(٣) يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطياً يديه ، فقال له : ماصنع بك ربك؟ فقال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالى أراك مغطياً يديك؟ قال : قيل لي : لن نصلح منك ماأفسدت ، فقصها الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم وليديه فاغفر^(٤).

(١) شرح النووى على مسلم ١٢٥/٢ .

(٢) مشاقص : جمع مشقص وهو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض .

انظر النهاية في غريب الحديث ٤٩٠/٢ .

(٣) شخت : أى سالت من الشخب وهو السيلان .

انظر المرجع السابق ٤٥٠/٢ .

(٤) الحديث : أخرجه مسلم في صحيحه ، في كتاب الإيمان (١) ، باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر (٤٩) برقم ١١٦ ، ١٠٨/١-١٠٩ .

قال النووي رحمه الله :

"ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة ، أن من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر ولا يقطع له بالنار بل هو في حكم المشيئة ، وقد تقدم بيان القاعدة وتقريرها ، وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي فإن هذا عوقب في يديه ، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر والله أعلم" (١).

(٥) زعمهم أن الحديث يجب أن يأول ليوافق الأدلة ثم أولوه .

يجاب على ذلك بالآتي :

أولاً : لا توجد أدلة تخالف الحديث كما يزعمون وإنما الأدلة جاءت تعضده وتؤيده وقد سبق ذكر طرف منها (٢).

ثانياً : التأويل يلجأ إليه إذا دعت الضرورة وقام دليل على ذلك ، فأين هي الضرورة التي دعت إلى تأويل الحديث عن ظاهره ، وإخراجه عن مراد النبي صلى الله عليه وسلم به ؟ بل ظاهر الحديث هو المراد وهو الذي تسنده الأدلة .

ثالثاً : مذكروه من تأويل وهو في الحقيقة تحريف للنص وإبطال لدلالته . وإيضاح ذلك :

قولهم يخرج من عمل أهل النار أو حكمهم هذا يكون صحيحاً في حالة تعلق الحكم بأمر الدنيا إذ هي دار العمل ، والحديث يتعلق بخروج صاحب الكبيرة من النار في الآخرة ، وفي الآخرة لا يقال يخرج من عمل أهل النار لأنه لا عمل هنالك ، وإنما هو العقاب أو الثواب ، فناسب الخروج من النار .

(١) شرح النووي على مسلم ١٣١/٢ - ١٣٢ .

(٢) انظر ص : ٢٩٥ فما بعدها .

(٥) الشفاعة :

إن تشبث أهل الاعتزال بوجوب تحقق الوعيد الذى ابتدعوه أدى بهم إلى نفي الشفاعة لأهل الكبائر يوم القيامة، وأنكروها أيما إنكار وصاحوا على القائل بها من كل حذب وصوب ورموه بكل سبة وداهية ، وليس لهم دليل يستندون إليه إلا بدعة تحقق الوعيد وما يتبعها من ذبول وحواشى . يقول ابن المنير فى تعليقه على الزحشرى :

"ما أنكرها - أى الشفاعة - القدرية إلا لايجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصى على المعصية إيجاباً عقلياً على زعمهم فهذه الحالة فى إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة" (١).

وهذا ما رددته شفاه أهل الاعتزال ، ونطقت به ألسنتهم .

يقول أبو على الجبائى :

"إن أهل النار إذا دخلوا النار ، لم يصح خروجهم منها ، لأنهم من أهل العقاب ، ولا يجوز مع ذلك أن يكونوا من أهل الثواب ، لأن ذلك كالمضاد ، لو تخلصوا بالشفاعة لم يخل حالهم إذا أدخلهم الله الجنة ، من أن يكون من أهل الثواب أو التفضل ، والعقل قد دل على أن لاثواب لهم ، والسمع قد دل على أن المكلف فى الجنة لا يجوز أن يكون بمنزلة أهل التفضل وأن يكون من خدم أهل الجنة ، فهذا أيضاً يمنع مما قالوه فى الشفاعة" (٢).

فالشفاعة للفساق الذين ماتوا على فسوقهم ولم يتوبوا لا تجوز ، بل مثالها مثال الشفاعة لمن قتل ولد الغير وظل يتربص للآخر حتى يقتله فكما أن هذا قبيح فهى قبيحة أيضاً (٣).

والنبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لصاحب الكبيرة ، ولا يجوز له ذلك لأن إثابة من لا يستحق الثواب قبيحة (٤).

(١) الإنصاف على هامش الكشف ١/١٥٢ .

(٢) فضل الاعتزال ص ٢٠٩ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص ٦٨٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٨٩ .

والفاسق إنما يستحق العقوبة على الدوام ، فكيف يخرج من النار بشفاعته صلى الله عليه وسلم (١).

وأهل النار يستحقون اللعن والغضب والسخط ، فكيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع فيهم ، لأن من حق الشافع أن يكون محباً وراضياً عن من يشفع له ، وهذا يستلزم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن شفع لهم - محباً لهم وراضياً عنهم وذلك لا يصح .
والشفاعة إنما تكون لأهل الثواب دون العقاب ، ولأولياء الله دون أعدائه ، وللمؤمنين دون أهل الكبائر . وهي إنما تكون بزيادة الثواب ، وذلك تفضلاً عظيماً من الله عليهم (٢).

وفائدتها بالنسبة للمؤمنين : رفع مرتبة الشفيع ، والدلالة على منزلته من المشفوع (٣).

يقول عبد الجبار :

"لا خلاف بين الأمة في أن شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة للأمة وإنما الخلاف في أنها تثبت لمن؟

فعندنا أن الشفاعه للتائبين من المؤمنين ، وعند المرجئة (٤) أنها للفساق من أهل الصلاة" (٥).

(١) انظر المصدر السابق ص ٦٨٩ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٩٨ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص ٦٨٩ .

(٤) المرجئة :

من الإرجاء وهو التأخير .

والمرجئة لقب أطلق على طائفة تؤخر العمل عن الإيمان ، بمعنى أنهم لا يدخلون العمل في مسمى الإيمان ، وقصروا الإيمان على المعرفة . وأكثرهم يرى أن الإيمان لا يتبعض ، ولا يزيد ولا ينقص ، وزعم بعضهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

انظر : مقالات الإسلاميين ١٣٢/١ ، الملل والنحل ١٣٩/١ فما بعدها .

(٥) شرح الأصول ص ٦٨٨ .

وقال الزمخشري :

"الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل ، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب . بدليل قوله تعالى : {ويزيدهم من فضله}"(١)(٢).

وقد تعلقوا ببعض الآيات التي ينفي ظاهرها الشفاعة ، وأما ما يشتهها فقد أغمضوا عيونهم وصموا آذانهم عنها إلا من تأويل (٣).

ومما استدلوا به :

قوله تعالى : {واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة} (٤).

يقول الزمخشري :

"فإن قلت هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلنا : نعم لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيح فعلم أنها لا تقبل للعصاة" (٥).

وقال في قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} (٦) الآية .

قال : "وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم حط الواجبات لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير" (٧).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : {مال للظالمين من حميم ولا شفيح يطاع} (٨).

ووجه الدلالة : إن الله قد نفى أن يكون للظالمين شفيح البتة ، فلو

كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيعاً للظلمة لكان لأجل وأعظم منه .

(١) سورة النساء : آية ١٧٣

(٢) الكشف ٣/٣٦٦ .

(٣) انظر موقف المعتزلة من السنة ص ٦٩ .

(٤) سورة البقرة : آية ٤٨

(٥) الكشف ١/٦٧ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٥٤

(٧) الكشف ١/١٥٢ .

(٨) سورة غافر : آية ١٨

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : {أفأنت تنقذ من في النار} (١)، وقوله : {ولا يشفون إلا لمن ارتضى} (٢)(٣).

وقوله تعالى : {ومال الظالمين من أنصار} (٤)، ولانصرة أعظم من أن يخلصهم من النار الدائمة، فإذا نفاها ثبت أن لاشفيع لهم .

وأما الأحاديث التي تثبت الشفاعة فقد أطلق عليها عبد الجبار حكماً عاماً وهو أن أكثرها مضطرب ، وما يعرف منها فهو ماروى "إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" (٥)(٦).

ثم أجاب عنه بأجوبة :

١ - إن هذا الخبر لم تثبت صحته أولاً ، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد عن النبي ، ومسألتنا طريقها العلم ، فلا يصح الاحتجاج به .

٢ - إنه معارض بأخبار رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم في باب الوعيد نحو قوله : "لا يدخل الجنة غلام ولا مدمن خمر ولا عاق" (٧)، وقوله : "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً" (٨).

فليس بأن يوجد بما أورده أولى من أن يوجد بما روينا ، فيجب اطراحها جميعاً ، أو حمل أحدهما على الآخر ، فنحمله على ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله فيكون :

-
- (١) سورة الزمر : آية ١٩
 - (٢) سورة الأنبياء : آية ٢٨
 - (٣) انظر : شرح الأصول ص ٦٨٩ .
 - (٤) سورة البقرة : آية ٢٧٠ ، آل عمران : آية ١٩٢ ، المائدة : آية ٧٢
 - (٥) سوف يأتي تخريج الحديث والكلام عنه .
 - (٦) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٩٨ .
 - (٧) الحديث سبق تخريجه انظر : ص ٢٩٢ ٦ ٢٩٣
 - (٨) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص ٢٩٣

"المراد به شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا ، فإن ما استحقه التائب من الثواب قد انخبط بارتكابه الكبيرة ، ولا ثواب له إلا مقدار ما قد استحقه بالتوبة فيه حاجة إلى نفع التفضل عليه^(١) .

الجواب على ما أثاروه من شبه :

إن الحديث عن الشفاعة فرع عن الحديث عن أهل الكبائر ، لأنها تتعلق بحكمهم في الآخرة .

والناس في الشفاعة ثلاث فرق ، طرفان ووسط :

فالمشركون والمبتدعة الغلاة من عباد القبور والمشايخ جعلوا من يعظمونهم شفعاء ووسطاء بينهم وبين الله سبحانه وصرفوا لهم من أجل ذلك شيئاً من العبادات .

والمعتزلة والخواارج أنكروا شفاعَةَ الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر .

وأما أهل السنة والجماعة فأقروا بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة غيره في أهل الكبائر^(٢) .

وقالوا : بأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد^(٣) .

والذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات الشفاعة هو الذي تؤيده أدلة الكتاب والسنة ، وعلى ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، بل والإجماع منعقد عليه قبل ظهور المبتدعة ، والعقل الصريح لا يحيل إثباتها^(٤) .

ويمكن أن نجمل شبه المعتزلة فيما يلي :

* الأحاديث في الشفاعة أكثرها مضطرب ، وما يعرف منها فهو ماروى

"إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"^(٥) ثم ردوه بالآتي :

(١) شرح الأصول ص ٦٩٠، ٦٩١ بتصرف .

(٢) وسوف تأتى بعض الأدلة على ذلك .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٢١/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٥ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ١/١١٦، ١٤٩، ١٥٤، ٣١٨ ، لوامع الأنوار ٢/٢٠٨، ٢١٨ .

(٥) سوف يأتي تخريجه والكلام عنه .

(أ) إنه لم تثبت صحته .

(ب) لو صح فهو خبر آحاد ومسألة الشفاعة طريقها العلم ، فلا يصح الاحتجاج به .

(ج) إنه معارض بأخبار أخرى :

١ - "لا يدخل الجنة نمام ولا مدمن خمر ولا عاق" (١).

٢ - "من قتل نفسه بحديدة ... الحديث" (٢).

فإما أن تطرح جميعاً أو يحمل أحدها على الآخر ، فنحمله على ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله .

ف نقول : "المراد به شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا".

وبالتالى لشفاعة لأهل الكبائر . والنبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع فيهم لأنه يلزم حينئذ أن يكون محباً لهم راضياً عنهم وذلك لا يصح لأنهم يستحقون اللعن والغضب والسخط . وإنما تكون الشفاعة للمؤمنين فقط لزيادة الثواب ، تفضلاً من الله عليهم لقوله : {ويزيدهم من فضله} (٣)، وفائدتها : رفع مرتبة الشفيع ، والدلالة على منزلته من المشفوع .

واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية ونقلية :

(١) الدليل العقلى :

إن الله يجب عليه أن يثيب الطائع ويعاقب العاصي ، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيحة . والعصاة ليسوا من أهل الثواب ، ولا من أهل التفضل لأنهم مكلفون ، فلا شفاعة لهم .

(٢) الأدلة النقلية :

(أ) قوله تعالى : {واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة} (٤).

(١) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٩٢ ، ٢٩٣

(٢) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٩٣

(٣) سورة النساء : آية ١٧٣

(٤) سورة البقرة : آية ٤٨

- (ب) قوله تعالى : {ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} (١).
- (ج) قوله تعالى : {ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} (٢).
- (د) قوله تعالى : {أفأنت تنقذ من في النار} (٣).
- (هـ) قوله تعالى : {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} (٤).
- (و) قوله تعالى : {وماللظالمين من أنصار} (٥).
- ويجاب على شبههم بما يلي :

(١) زعمهم أن الأحاديث أكثرها مضطرب .

هذه حجة واهية ، وزعم عار عن الصحة ، لا يتفوه به إلا من جهل حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أغمض عينيه عنه ، بل الأحاديث في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر ثابتة . منها في الصحيحين أحاديث متعددة ، وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدده (٦).

-
- (١) سورة البقرة : آية ٢٥٤
- (٢) سورة غافر : آية ١٨
- (٣) سورة الزمر : آية ١٩
- (٤) سورة الأنبياء : آية ٢٨
- (٥) سورة البقرة : آية ٢٧٠ ، آل عمران : آية ١٩٢ ، المائدة : آية ٧٣
- (٦) انظر مجموع الفتاوى ٣١٤/١ .

وانظر صحيح البخارى ، كتاب الإيمان (١) ، باب الحرص على الحديث (٣٣) ، ٣٣/١ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة بنى إسرائيل (١٧) ، باب ذرية من حملنا مع نوح (٥) ، ٢٢٥/٥-٢٢٧ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله {لما خلقت بيدي} (١٩) ، ١٧٢/٨-١٧٣ .

وقد نص جماعة من العلماء على أنها تبلغ حد التواتر المعنوي (١).
 (٢) (أ) زعمهم أن حديث "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" (٢) لم تثبت صحته زعم مردود .

- = صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (٨٢) ، حديث رقم ١٨٥،١٨٤ ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) ، حديث رقم ١٩١،١٩٣،١٩٤،١٩٦ ، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته (٨٦) ، حديث رقم ١٩٨،١٩٩،٢٠٠،٢٠١ ، ١٧٢/١ - ١٩٠ .
- سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في الشفاعة ٢٣٦/٤ .
- سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة (٣٨) ، باب ماجاء في الشفاعة ١٠،١١،١٢،١٣ ، ٥٤٢-٥٣٧/٤ .
- سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب ذكر الشفاعة (٣٧) ، ١٤٤٠/٢ - ١٤٤٤ .
- سنن الدارمي ، كتاب الرقاق ، باب في الشفاعة ٣٢٧/٢ - ٣٢٩ .
- (١) انظر : مجموع الفتاوى ١/١٤٩،٣١٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣ ، لوايع الأنوار ٢/٢٠٨،٢١٨ .
- (٢) أخرجه أبوداود في سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، كتاب السنة ، باب في الشفاعة برقم ٤٧٣٩ ، ٢٣٦/٤ .
- والترمذي في سننه عن أنس برقم ٢٤٣٥ .
- وقال : "حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه" .
- وعن جابر بن عبد الله برقم ٢٤٣٦ ، وقال : "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" ، كتاب صفة القيامة (٣٨) ، باب ماجاء في الشفاعة (١١) ، ٥٣٩/٤ - ٥٤٠ .
- وابن ماجه في سننه عن جابر ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب ذكر الشفاعة (٣٧) ، برقم ٤٣١٠ ، ١٤٤١/٢ .
- وأحمد في المسند عن أنس ٢١٣/٣ .
- وابن حبان عن جابر في كتاب التاريخ (٦٠) ، باب ذكر البيان بأن الشفاعة في القيامة إنما تكون لأهل الكبائر برقم ٦٤٦٧ .
- وعن أنس في باب ذكر إثبات الشفاعة في القيامة برقم ٦٤٦٨ ، ٣٨٦/١٤ - ٣٨٧ ، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان .
- والحاكم في المستدرک عن أنس وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ" ثم ذكر له متابعات ، وشاهد من حديث جابر ، وقال عنه : "صحيح على شرط مسلم" . ووافقه الذهبي ٦٩/١ .
- =

لأن الحديث قد ثبتت صحته ، وأيدته الأحاديث الثابتة (١).

= وابن خزيمة في التوحيد عن أنس ص ٢٧٠ ، وعن جابر ص ٢٧١ ، والآجری في الشريعة عن أنس وعن جابر ص ٣٣٨ .
وأبو نعيم في الحلية من طرق عن جابر ٢٠٠/٣ - ٢٠١ ، وعن أنس ٢٦١/٧ .
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عباس وقال : "رواه الطبرانی في الكبير والأوسط .. وفيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع" .
وعنه أيضا ، وقال : "رواه الطبرانی في الأوسط وفيه حرب بن سريح وقد وثقه غير واحد وفيه ضعف ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح" .
وعن أنس وقال : "رواه البزار والطبرانی في الصغير والأوسط" . ٣٨١/١٠ .
والحديث صحيح كما نص على ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني .
انظر : صحيح سنن أبي داود ٨٩٨/٣ ، صحيح سنن ابن ماجه ٤٣١/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣ هامش ٢٠٦ .
والشيخ شعيب الأرناؤوط . انظر الإحسان ٣٨٦/١٤ ، ٣٨٧ في الهامش .
من ذلك : (١)

مارواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا" .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأُمَّته (٨٦) برقم ١٩٩ ، ١٨٩/١ .

وانظر صحيح البخارى ، كتاب الدعوات (٨٠) ، باب قوله {ادعوني أستجب لكم} الآية (١) ، ١٤٥/٧ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب في المشيئة والإرادة (٣١) ، ١٩٢/٨ - ١٩٣ .

وروى البخارى من حديثه رضى الله عنه أنه قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه" .

صحيح البخارى ، كتاب العلم (٣) ، باب الحرص على الحديث (٣٣) ، ٣٣/١ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب صفة الجنة والنار (٥١) ، ٢٠٤/٧ .

(ب) زعمهم بأنه خبر آحاد لا يحتج به ، والشفاعة طريقها العلم .

زعم أو هي من سابقه ، وبيان ذلك :

كونه خبر آحاد لا يحتج به . قد سبق الحديث عن خبر الآحاد ، والاحتجاج به (١). كما سبق بيان أن أحاديث الشفاعة لأهل الكبائر تواترت معنوياً (٢). فبطلت حجتهم .

(ج) زعمهم أنه معارض بحديث "لا يدخل الجنة نمام ... " الحديث .

وبحديث "من قتل نفسه بحديدة ... " الحديث .

فقد أوجب على ذلك من قبل ، بما يرفع التعارض ، ويوفق بين النصوص (٣).

وأما حملهم للحديث على أن المراد به شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر إذا تابوا . لادليل لهم على ذلك .

وهو مع أنه تأويل مناهض للنصوص الثابتة ، ولا يدل عليه لفظ الحديث ، فهو أيضاً معنى فاسد لأن الذي يتوب من الذنب لا يوصف به بعد ذلك ، بل يبدل الله سيئاته حسنات فضلاً منه وكرماً (٤).

فصاحب الكبيرة إذا تاب عن كبيرته وصحت توبته زال عنه هذا

الاسم .

(٣) زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر لأنه يلزم

حينئذ أن يكون محباً لهم راضياً عنهم وذلك لا يصح لأنهم يستحقون

اللعن والغضب والسخط ، وإنما تكون الشفاعة لزيادة الثواب .

(١) انظر ص : ١١٢ فما بعدها .

(٢) انظر ص : ٣١٩ .

(٣) انظر ص : ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٤) قال الله تعالى : {إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً} .

سورة الفرقان : آية ٧٠

يرد على ذلك بما يأتي :

شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأهل الكبائر وغيرهم ثابتة بالنصوص الدالة على ذلك (١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، واستفاضت به السنن من أنه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الكبائر من أمته ، ويشفع أيضاً لعموم الخلق" (٢).

وشفاعته صلى الله عليه وسلم ليست فقط في زيادة الثواب ورفع الدرجات كما تزعم المعتزلة ، بل له شفاعات أخرى دلت عليها النصوص ، ونص عليها أهل العلم . من ذلك :

(١) الشفاعة العظمى في أهل الموقف .

وهي التي تتدافعها الأنبياء حتى تصل إليه ، فيشفع فيهم عند الله ليقضى بين أهل الموقف الذين لحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون . وهي المقام المحمود الذي اختص به صلى الله عليه وسلم . وهي مجمع عليها (٣). ومما دل عليها من النصوص حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ... إلى أن قال : "... ولكن اتتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فأنتلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي ارفع يا محمد

(١) انظر ص : ٣٢٠

(٢) مجموع الفتاوى ٣١٤/١ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٩ ، لوامع الأنوار ٢/٢٠٨ ، ٢١١ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٧٣ ، الشفاعة ص ٣١ .

وقل يسمع وسل تعطى واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع ... الحديث (١).

وحديث أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال : "أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد ... إلى أن يقول : "... فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فانطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطى واشفع تشفع ... الحديث (٢).

(٢) شفاعته لأئمة فى دخول الجنة (٣).

مما دل عليها حديث أبى هريرة ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم : "فأقول أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب" (٤).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {لما خلقت بيدى} (١٩) ، ١٧٢/٨ - ١٧٣ .

وبلفظ مقارب فى باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٣٦) ٢٠١-٢٠٠/٨ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٣ ، ١٨٠/١ - ١٨٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب التفسير (٦٥) ، فى تفسير سورة بنى إسرائيل (١٧) ، باب {ذرية من حملنا مع نوح} لأنه كان عبداً شكوراً (٥) ، ٢٢٧-٢٢٥/٥ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، بلفظ مقارب ، فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٤ ، ١٨٤/١ - ١٨٦ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣ ، الشفاعة ص ١٨ .

(٤) انظر تخريج الحديث السابق .

وفي حديث أنس : "فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة" (١).

(٣) شفاعته للمؤمنين من أهل الكبائر (٢).

وقد سبقت بعض النصوص التى تدل عليها (٣). وهى لا تختص به صلى الله عليه وسلم وإنما يشركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون (٤). وله شفاعات أخرى صلى الله عليه وسلم ، منها ما يشركه فيها غيره ، ومنها ما يختص به (٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"فله صلى الله عليه وسلم شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء ، والصالحين ، ولكن ماله فيها أفضل مما لغيره فإنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل وله من الفضائل التى ميزه الله بها على سائر النبيين" (٦).

(١) سبق تخريجه انظر ص : ٣٢٣

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٣١٨/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٧٤،٧٣ ، الشفاعة ص ٦١ .

(٣) انظر ص : ٣٢٠

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣ .

روى مسلم بسنده إلى أبى سعيد الخدرى أن ناساً فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نعم" . قال : "هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب؟" - فذكر الحديث - وفيه : "فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون . ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط ... الحديث .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١) برقم ١٨٣ ، ١٧١-١٦٧/١ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣١٨،٣١٧/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٣،٢٣٢ ،

لوامع الأنوار ٢١٢،٢١١/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٧٢-٧٥ ، الشفاعة ص ٦١،٣١،١٨

(٦) مجموع الفتاوى ٣١٤/١ ، وانظر ١٥٤،١٥٣/١ .

(٤) أما دليلهم العقلى فى نفى الشفاعة :

وهو زعمهم أن الله يجب عليه أن يثيب الطائع ويعاقب العاصى ، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيحة ، والعصاة ليسوا من أهل الثواب . سبق جوابه عند الحديث عن أفعال العباد (١) ، وصاحب الكبيرة (٢) بما يغنى عن الإعادة .

(٥) أدلتهم النقلية :

أما ما استدل به المعتزلة من آيات ، إنما تتعلق بالشفاعة المنفية ، وهذه بخلاف الآيات التى أثبتت الشفاعة يوم القيامة . وقد غضوا الطرف عنها . من ذلك قوله تعالى : {من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه} (٣) . وقوله : {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} (٤) .

وقوله : {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً} (٥) .

والآيات فى ذلك كثيرة جداً فى إثبات الشفاعة .

وأما الآيات النافية للشفاعة يوم القيامة ، فما فهمه السلف منها مخالف لما فهمه أهل الاعتزال ، وإيضاح ذلك فيما يلى :

(أ) إن المراد بالشفاعة المنفية فى تلك الآيات الشفاعة للمشركين والكفار . فهؤلاء لا تنفعهم الشفاعة أصلاً كما دل على ذلك قوله تعالى : {ماسلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين} (٦) .

(١) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .

(٢) انظر ص : ٢٨٩ فما بعدها .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٥

(٤) سورة الزخرف : آية ٨٦

(٥) سورة طه : آية ١٠٩

(٦) سورة المدثر : آية ٤٢-٤٨

(ب) المراد بذلك الشفاعة التي يشبثها أهل الشرك وأهل البدع ، الذين يعتقدون أن الخلق يشفعون عند الله بغير إذن كما يشفع بعضهم لبعض في الدنيا (١).

والشفاعة إنما تطلب من الله تعالى لأنه هو المالك لها سبحانه كما قال {قل لله الشفاعة جميعاً} (٢).

- وأما الشفاعة المثبتة فهي لا تثبت عند السلف إلا بشروط وهي :
- (١) الإذن للشافع بالشفاعة . كما قال سبحانه : {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (٣). وقال : {أما من شفيع إلا من بعد إذنه} (٤).
- (٢) الرضا عن المشفوع فيه . كما قال سبحانه : {وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} (٥). وقال : {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} (٦) (٧).

-
- (١) مجموع الفتاوى ١٤٩/١-١٥٠ بتصرف . وانظر في الرد على استدلالات المعتزلة بالآيات مفصلاً في لوامع الأنوار ٢١٧/٢ .
- (٢) سورة الزمر : آية ٤٤
- (٣) سورة البقرة : آية ٢٥٥
- (٤) سورة يونس : آية ٣
- (٥) سورة النجم : آية ٢٦
- (٦) سورة الأنبياء : آية ٢٨
- (٧) انظر : مجموع الفتاوى ١١٨، ١١٩، ١٤٥، ١٤٩، ٢٣٤، ٣٣٢ ، اقتضاء الصراط المستقيم ٨٢٢، ٨٢١/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٧٤، ٧٥ ، الشفاعة ص ١٢، ١٣ .

(٦) عذاب القبر :

عذاب القبر أو نعيمه حق ثابت بظاهر القرآن وصريح السنة ، وعلى ذلك إجماع أهل السنة (١).

فإن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين (٢). والآيات الدالة على إثباته كثيرة ، من ذلك قوله سبحانه : {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} (٣)، وقوله : {فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (٤). وكقوله : {وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون} (٥).

وأما الأحاديث في إثباته فقد تواترت تواتراً معنوياً فيجب اعتقاد مادلت عليه والإيمان به (٦)، وسوف نورد طرفاً منها عند الحديث عن كشف شبهات المعتزلة .

وقد صدق السلف رضوان الله عليهم بذلك وأيقنوا وأثبتوا ماجاءت به الأحاديث ولم يردوا شيئاً منها ، ولم يعارضوها بعقل ولا رأى ، وإنما منهجهم التسليم والانقياد (٧).

(١) شرح لمعة الاعتقاد ص ٦٩ .

(٢) الروح ص ٥٢ ، لوامع الأنوار ٢٥/٢ .

(٣) سورة إبراهيم : آية ٢٧

(٤) سورة غافر : آية ٤٥-٤٦

(٥) سورة الطور : آية ٤٧

(٦) انظر : الروح ص ٥٢، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩، لوامع الأنوار ٢٣، ١٣، ٥/٢

(٧) انظر في بيان مذهب السلف في إثبات عذاب القبر :

الروح ص ٥٢ ، لوامع الأنوار ٢٥/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٦٩ .

قال المروزي : قال أبو عبد الله : عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل .

وقال حنبل : قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر . فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسناد جيد أقررنا به . إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره . قال الله تعالى : { وما آتاكم الرسول فخذوه } (١) . قلت له : وعذاب القبر حق ؟ قال : حق يعذبون في القبور . قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسأل في قبره فـ { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } (٢) (٣) في القبر .

ويمكن أن نعرض شبهات المعتزلة حول عذاب القبر فيما يأتي :

(١) لقد زعم المعتزلة أن الأخبار الدالة على عذاب القبر مجملة .

ولذلك انقسموا حوله إلى ثلاث فرق :

١ - أنكره ضرار بن عمرو (٤) .

٢ - قطع به بعضهم في الجملة .

٣ - جوزه آخرون (٥) .

(١) سورة الحشر : آية ٧

(٢) سورة إبراهيم : آية ٢٧

(٣) الروح ص ٥٧ ، لوامع الأنوار ٢٣/٢ .

(٤) ضرار بن عمرو :

هو ضرار بن عمرو الغطفاني ، قاضي من كبار المعتزلة ، وهو زعيم الفرقة الضرارية له مقالات خبيثة كفره المعتزلة من أجلها وطرده .

انظر : فضل الاعتزال ص ٣٩١ ، ميزان الاعتدال ٢/٢٣٨ ، ٢٣٩ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٤-٥٤٦ ، لسان الميزان ٣/٢٠٣ ، الأعلام ٣/٢١٥ .

(٥) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٠٢ ، ٢٠١ ، شرح الأصول ص ٧٣٠ ، الفصل في الملل والنحل ٤/٦٧ .

(٢) وتدور شبههم حول كيفية ثبوته ووقت ذلك الثبوت .

أما بالنسبة لكيفية ثبوته فإنهم قالوا :

(أ) ما يروى بأن الموتي يسمعون لا يصح إلا أن يراد أنهم في تلك

الحال يسمعون بأن أحياءهم الله وقوى سمعهم .

وما يروى بأن الميت يسمع خفق النعال لا يصح أيضاً .

الدليل العقلي على ذلك :

الإدراك إنما يترتب على الحياة ، وبالتالي لا بد من إحياء الموتي لكي

يصح تعذيبهم ، ولا بد من خلق العقل فيهم ليحسن ذلك التعذيب ، وإلا

اعتقد المعذب أنه مظلوم ، والميت كالجماذ لا يسمع ولا يبصر ولا يلتذ ،

وتعذيب الجماذ محال . وهذا إنما يعلم من جهة العقل ولا مدخل للسمع

فيه (١).

(ب) عذاب القبر إن صح لبعض الناس فإنه لا يصح لبعضهم وهم

الذين فقدت أجسادهم أو تعذر وصول الحياة إليها (٢).

وأما بالنسبة لوقته فقد قالوا :

(أ) الأخبار دلت على أن وقت العذاب يكون قرب الدفن ولكننا

لانعين ذلك ، لأنه لا طريق إلى تعيينه ، والقوى في ذلك أنه يؤخر إلى ما بين

النفختين لقوله : {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ في الصور

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسألون} (٣) (٤).

(ب) أما كون نباشى القبور لا يرون أثر العقوبة على الميت :

أولاً : من المجوز أن الله لا يعذبه في حالة اطلاع النباش أو غيره .

ثانياً : جائز أن يعذبه على وجه يستتر عنهم لوجه من المصلحة يرى

في ذلك .

(١) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٠٢، ٢٠١ ، شرح الأصول ص ٧٣٢، ٧٣١ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٠٣ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ١٠٠، ١٠١ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٠٢ ، شرح الأصول ص ٧٣٢، ٧٣١ .

ثالثاً : الصحيح أنه يؤخر ذلك إلى ما بين النفختين (١).
 (ج) قوله : {النار يعرضون عليها غدواً وعشياً} (٢).
 هذا في آل فرعون خاصة فلا يقاس عليهم غيرهم (٣).
 ويحاج على هذه الشبه بما يلي :

إن زعمهم أن الأخبار مجملة في إثبات عذاب القبر ثم انقسامهم حوله إلى ما ذكرنا ، يتبين منه أن المعتزلة وإن زعم بعضهم بأنه يقطع بوقوعه لدلالة الأخبار عليه ، إلا أنهم لم يسلموا للنصوص في ذلك تسليماً كاملاً . ولم يسلم هذا الأمر من إقحام عقولهم في جزئيات منه .
 نعم ! إن من أثبتته منهم أثبتته في الجملة ، ولكنهم خاضوا في كيفية ثبوته ووقت ذلك الثبوت مما دفعهم إلى رد بعض النصوص وتأويل بعضها .
 وإليك بيان ذلك :

فيما يتعلق بالكيفية :

(أ) زعموا أن ما يروى بأن الموتي يسمعون ، وأن الميت يسمع خفق النعال لا يصح .

هذا زعم في مناهضة الثابت من الأدلة الصريحة التي تثبت ذلك .
 منها : مارواه البخاري بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال :
 "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم ... " الحديث (٤).

(١) انظر : شرح الأصول ص ٧٣٣ .

(٢) سورة غافر : آية ٤٦

(٣) انظر : فضل الاعتزال ص ٢٠٣ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب ما جاء في عذاب القبر (٨٧) ١٠٢/٢

وبلفظ مقارب في باب الميت يسمع خفق النعال (٦٨) ، ٩٢/٢ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عرض مقعد

الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) برقم ٢٨٧٠ ، ٢٢٠٠/٤ - ٢٢٠١ .

ومارواه بسنده إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال : "اطلع النبي صلى الله عليه وسلم على أهل القليب فقال : «وجدتم ما وعد ربكم حقاً» فقيل له : تدعو أمواتاً؟ فقال : «ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون» (١) .
ولادليل على خصوصية ذلك بأهل البدر .

قال القاضى عياض رحمه الله :

"يحتمل سماعهم على ما يحتمل عليه سماع الموتى فى أحاديث عذاب القبر وفتنته التى لمدفع لها . وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون فى الوقت الذى يريد الله تعالى " .

وقال الإمام النووى رحمه الله بعد نقله لكلام القاضى عياض السابق "وهو الظاهر المختار الذى يقتضيه أحاديث السلام على القبور" (٢) .
وأما دليلهم العقلى فيجاب عنه بالآتى :

أولاً : هذا إقحام منهم للعقل فى أمر لا طاقة له به ولا مدخل له فيه ، لأن عذاب القبر أمر غيبى لا عهد للعقول به فى هذه الدار ، ولا يمكنها أن تصل إلى كيفيته ، وإنما يتوقف الإيمان فيه على النصوص الواردة ، وإن كان العقل لا يمنع وقوعه ، والشرع لا يأتى بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتى بما تحار فيه العقول (٣) .

-
- (١) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب ما جاء فى عذاب القبر (٨٧) ، ١٠١/٢ . وبلغز مقارب فى كتاب المغازى (٦٤) ، باب قتل أبى جهل ٩/٥ . وأخرجه مطولاً عن أبى طلحة فى الكتاب والباب السابقين ٨/٥ .
وأخرج مسلم فى صحيحه نحوه ، فى كتاب الجنائز (١١) ، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩) ، برقم ٩٣٢ ، ٦٤٣/٢ .
(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠٦/١٧ - ٢٠٧ .
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩ .

ثانياً : إن الحياة التي يحيها الميت في قبره والتي دل عليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : "فتعاد روحه إلى جسده" (١).

حياة أخرى غير هذه الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء ، وهذا أمر لا يكذبه العقل ولا ينفيه (٢).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"إن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام : أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من

وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم

تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن

ولانسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً .

(١) هذا جزء من حديث البراء بن عازب الطويل في شأن عذاب القبر .

والحديث أخرجه أبو داود في سننه بطوله ، في كتاب السنة ، باب في المسألة في

القبر وعذاب القبر برقم ٤٧٥٣ ، ٢٣٩/٤ - ٢٤٠ .

وأحمد في المسند ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ .

والحاكم في المستدرک ، وذكر له طرقاً . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط

الشيخين" ووافقه الذهبي ٣٧/١ - ٤٠ .

وأخرج جزء منه في كتاب العلم ١٢٠/١ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

٥٣ - ٥٢/٣ .

ونص الشيخ ناصر الدين الألباني على صحته . انظر صحيح سنن أبي داود ٩٠٢/٣

شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٨ هامش رقم ٥٢٥ .

(٢) انظر : الروح ص ٤٣ ، فتح الباري ٢٤١/٣ .

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت ، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت ، فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة" (١).

فقياس حياة البرزخ بحياة الدنيا قياساً عقلياً هو سر تخطب المعتزلة واخرافهم عن جادة الصواب ، وقدحهم في الأحاديث الصحيحة بالرد والتأويل .

فعذاب القبر ونعيمه من الأمور التى لا طريق للعلم بها إلا النصوص الواردة فى الكتاب والسنة مما ليس للعقل فيه مجال (٢).

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لا يخبرون بما تحيله العقول وتنافيه ولكن إخبارهم إما أن يشهد به العقل والفطرة ، وإما لا يدركه العقل لعجزه عن الوصول إلى حقيقته وكنهه ولا يكون الخبر بذلك محالاً فى العقل ، وبالتالي كل خبر يظن أن العقل يحيله فإما أن يكون كذباً أو يكون ذلك العقل فاسداً .

وسوء الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وتحميل الكلام ما لا يحتمل أو التقصير به عن مراد الله ورسوله هو الذى أوقع أهل الاعتزال ومن على شاكلتهم فى تلك الضلالات والبدع ، ففهموا خطأ ثم جعلوا مافهموه هو الدين الذى جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فوالوا فيه وعادوا فيه . ومافهمه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجهم لا يلتفت إليه ولا يعول عليه (٣).

(١) الروح ص ٤٣-٤٤ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩ .

(٢) انظر : لوايح الأنوار ٣/٢ .

(٣) انظر : الروح ص ٦٢، ٦٣ .

(ب) قولهم إن عذاب القبر وإن صح لبعض الناس فلا يصح لبعضهم ، ويعنون بذلك الذين فقدت أجسادهم أو تعذر وصول الحياة إليها .
ويجاب على هذا :

إن كل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه سواء قبر أو لم يقبر ، فإن أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، أو صلب أو أغرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور (١).

وكون الميت قد تفرقت أجزأؤه أو أكلته السباع أو الحيتان أو فقد شيء من جسمه لا يمنع ذلك من إحياء جزء من أجزائه وإيصال العذاب إليه (٢).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لانشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود ، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت (٣) أحياء وأرواحهم معهم ولانشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزأؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيتها (٤) ، وتسجد له

(١) الروح ص ٥٨ بتصرف ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٢٠١/١٧ .

(٣) المبهوت : هو الذي أخذ بغتة .

انظر : القاموس المحيط ص ١٨٩ ، مادة (بهت) .

(٤) جاء ذلك في قوله تعالى : { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما

يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما

تعملون } . سورة البقرة : آية ٧٤

الجبال والشجر (١)، وتسبحه الحصى والمياه والنبات ، قال تعالى : {وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} (٢)... وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل (٣)، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد (٤)، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك (٥).

والحاصل إن الله جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ، ودار البرزخ (٦)، ودار القرار ، وجعل الإنسان من بدن ونفس ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، فجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، وجعل أحكام الآخرة على

(١) وجاء ذلك في قوله تعالى : {ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ...} الآية . سورة الحج : آية ١٨

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤

(٣) روى البخارى بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : "كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال : اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال : "حى على الطهور المبارك والبركة من الله" فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".

صحيح البخارى ، كتاب المناقب (٦١) ، علامات النبوة في الإسلام (٢٥) ، ١٧١/٤ .

(٤) وروى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : "كان المسجد مستقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت".

صحيح البخارى ، الكتاب والباب السابقين ١٧٣/٤-١٧٤ .

(٥) الروح ص ٧٢-٧٣ .

(٦) البرزخ : هو الحاجز بين الشيئين ، والمراد به الفترة ما بين الموت إلى القيامة . انظر : القاموس المحيط ص ٣١٨ .

الأبدان والأرواح جميعاً ، فأحكام البرزخ تجرى على الأرواح فيسرى ذلك على أبدانها نعيماً أو عذاباً^(١).

والروح تنعم أو تعذب منفردة عن البدن ومنتصلة به فيكون النعيم أو العذاب عليهما جميعاً ، كما يكون على الروح منفردة^(٢).

فالمت يقع عليه النعيم أو العذاب ولو لم يقبر ، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه ، وإن أكثر الموتي يقبرون ، ومن يقبر فإن جسده يتحلل ويتحول إلى تراب ومع ذلك يصل إليه النعيم أو العذاب ، وهذا محجوب عن الخلق^(٣).

وما يتعلق من شبه بوقت عذاب القبر فإنهم زعموا :

(أ) أن الأخبار دلت على أن وقته قرب الدفن ، ولكننا لانعين ذلك ، لأنه لا طريق إلى تعيينه ، **والصحيح** أنه يؤخر إلى ما بين النفختين لقوله : {ومن ورائهم برزخ ...} الآية^(٤).

الذى يلقي نظرة على الأدلة من الكتاب والسنة يجد أن عذاب من يستحق العذاب يبدأ منذ قدوم الملائكة لأخذ روحه عند الموت . قال الله تعالى : {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون}^(٥).

فقوله : "والملائكة باسطوا أيديهم" أى بالضرب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، وهو كقوله : {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم}^(٦)^(٧).

-
- (١) انظر : الروح ص ٦٤، ٦٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠١ .
 (٢) انظر : الروح ص ٥١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .
 (٣) انظر : الفصل في الملل والنحل ٦٧/٤ ، فتح الباري ٢٣٣/٣ .
 (٤) سورة المؤمنون : آية ١٠٠
 (٥) سورة الأنعام : آية ٩٣
 (٦) سورة الأنفال : آية ٥٠
 (٧) انظر تفسير القرآن العظيم ١٥٧/٢ .

كما دلت الأدلة على وقوع العذاب عقب الدفن وبعد سؤال الملكين وامتحانهما له . فقد جاء في حديث البراء بن عازب في شأن المؤمن "فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره" .
وقال في الكافر "فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه" الحديث (١) .

فهذا نص على وقوع العذاب بعد الدفن .

وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : "مر النبي صلى الله عليه وسلم بجائط من حيطان المدينة أو مكة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يعذبان ، وما يعذبان في كبير . ثم قال : بلى ، كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشى بالنميمة ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين فوضع على كل قبر منهما كسرة ، فقبل له : يارسول الله لم فعلت هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم : لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا" (٢) .

وفي حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبنى النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : "من يعرف

(١) سبق تخريجه انظر : ٣٣٢

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ، في كتاب الوضوء (٥٥) ، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٥٥) ٦٠/١-٦١ ، ولفظ مقارب : في باب ماجاء في غسل البول (٥٦) ، ٦١/١ ، وفي كتاب الجنائز (٢٣) ، باب الجريد على القبر (٨٢) ، ٩٩-٩٨/٢ ، وفي باب عذاب القبر من الغيبة والبول (٨٩) ، ١٠٣/٢ ، وفي كتاب الأدب (٧٨) ، باب الغيبة (٤٦) ، ٨٥/٧-٨٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، بلفظ مقارب . في كتاب الطهارة (٢) ، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٣٤) برقم ٢٩٢ ، ٢٤٠/١-٢٤١ .

أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل : أنا . قال : "فمتى مات هؤلاء؟" قال : ماتوا في الإشراف . فقال : "إن هذه الأمة تبتلى في قبورها . فلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ..."
الحديث (١).

وفى حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه فى ذكر منام النبى صلى الله عليه وسلم ورؤيته للمعذبين كيف يعذبون (٢).

فقد دلت هذه الأحاديث على استمرارية عذاب القبر بعد الدفن ، وهل يدوم ذلك الى يوم القيامة أم ينقطع؟

الظاهر من النصوص أن منه ما هو دائم إلى يوم القيامة ، وهو عذاب الكفار ، كما قال تعالى : {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (٣)، وفى حديث أبى هريرة فى شأن المنافق : "فيقال للأرض التئمت عليه فتتخلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك" (٤).

ومنه الذى يدوم مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة ، فإنهم يعذبون على قدر جرائمهم ثم يخفف عنهم (٥).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) ، ورقمه ٢٨٦٧ ، ٢١٩٩/٤ - ٢٢٠٠ .

(٢) وهو حديث طويل . أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجنائز (٢٣) ، باب (٩٣) ، ١٠٤/٢ - ١٠٥ ، وفى كتاب التعبير (٩١) ، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٤٨) ، ٨٤/٨ - ٨٦ .

وأخرج مسلم فى صحيحه طرفا يسيرا منه فى كتاب الرؤيا (٤٢) ، باب رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ، برقم ٢٢٧٥ ، ١٧٨١/٤ .

(٣) سورة غافر : آية ٤٦

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الجنائز (٨) ، باب ماجاء فى عذاب القبر (٧١) برقم ١٠٧١ ، ٣٨٣/٣ ، وحسنه الشيخ ناصر الألبانى . صحيح سنن الترمذى ٣١١/١ ، وانظر : مشكاة المصابيح ٤٧/١ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٨٠/٣ ورقمه ١٣٩١ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠١ .

فزعهم أن العذاب يؤخر إلى ما بين النفختين زعم لاحقيقة له لأن الأدلة السابقة تخالفه ، والآية التي استدلوا بها دليل عليهم لالهم ، لأن المراد بالبرزخ هو الحاجز الذى بين الدنيا والآخرة وهى فترة بقاء الناس فى قبورهم (١).

فلاية نص على عذاب القبر . وهو عذاب البرزخ (٢).

(ب) أما كون نباشى القبور لا يرون أثر العقوبة على الميت :
وجوابهم على ذلك بأنه من المجوز أن الله لا يعذبه فى حالة اطلاع النباشى أو غيره ... الخ .
والجواب :

أولاً : إن المعتزلة وهم فى معرض الرد على المنكرين لوقوع عذاب القبر بهذه الشبهة العقلية ، يقرون فى ردهم أصل الشبهة التى انطلق منها أولئك ، وهى قياسهم حياة البرزخ بالحياة الدنيا . وقولهم "أو يعذبه على وجه يستتر عنهم" لا يشفع لهم فيما قالوا لأنه أورد فى معرض الجواز كما أورد عدم وقوع العذاب فى حال اطلاع النباشى أو غيره على الميت . بل وترجيح أن العذاب يقع بين النفختين كما زعموا فيه دلالة على تأييد شبهة أولئك المنكرين .

ثانياً : إن الله عزوجل جعل أمر الآخرة وما يتصل بها من حياة البرزخ أمراً غيبياً محجوباً عن المكلفين فى هذه الدار لكمال حكمته سبحانه وتعالى وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم (٣).

ثالثاً : إن أحوال الآخرة وحياة البرزخ لا تقاس بأحوال الدنيا ، لأن ذلك قياس للغائب على الشاهد وهو محض الضلال والجهل وتكذيب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم (٤).

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢٥٦/٣ .

(٢) الروح ص ٥٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .

(٣) انظر : الروح ص ٦٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٧١ ، فتح البارى ٢٣٥/٣ ، شرح لمعة الاعتقاد ص ٧٠ .

رابعاً : إن العذاب الذى فى القبر ، والنعيم الذى فيه ليس من عذاب الدنيا ولانعيمها . فإن الميت يعذب أو ينعم ، وأهل الدنيا لا يحسون بذلك . بل لو دفن رجلان أحدهما إلى جنب الآخر ، وكان أحدهما منعماً ، والآخر معذباً ، فإن نعيم الأول لا يصل إلى الثانى ، وكذا عذاب الثانى لا يصل إلى الأول ، وقدرة الرب سبحانه أعجب وأوسع من ذلك ، ولكن النفوس مولعة بتكذيب ما لم تخط به علماً ، إلا من عصمه الله ووفقه (١) .

خامساً : إن الله عز وجل حجب بنى آدم من رؤية كثير مما يحدث فى هذه الدنيا ، فجبريل عليه السلام كان يتزل بالوحي على النبى صلى الله عليه وسلم ويخاطبه على كثب من الصحابة رضوان الله عليهم وهم لا يرونه ، والجن يعيشون بيننا ويتكلمون فيما بينهم ونحن لانراهم ولانسمع كلامهم ، والنائم يجد ألماً ولذة فى نومه ولا يحس بذلك جليسه ، بل اليقظان يحس بالألم ويشعر باللذة ولا يجد ذلك من يجالسه (٢) .

والمحتضر يشعر بالألم عند احتضاره وتضربه الملائكة والحاضرون لا يرون ذلك . كذلك عذاب القبر يقع على الميت وهو يتألم ولو كان موضوعاً بين الناس ، وتسأله الملائكة ويحييها ومع ذلك لا يراه الناس ولا يسمعون كلامه (٣) .

سادساً : لو أطلع الله العباد على عذاب القبر لزالَت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما ثبت فى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "فلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه" (٤) .

(١) انظر : الروح ص ٦٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠١، ٤٠٠ .

(٢) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠١/١٧ ، الروح ص ٧١ ، فتح البارى ٢٥٣/٣ .

(٣) انظر : الاعتصام ٣٢٩/٢ ، الروح ص ٧٢ .

(٤) سبق تخريجه انظر : ص ٣٣٨ .

ولما كانت هذه الحكمة منفية في البهائم سمعت ذلك وأدركته (١).
(ج) دعواهم : إن قوله تعالى {النار يعرضون عليها غدواً وعشياً} (٢)
في آل فرعون خاصة .

يجاب على ذلك :

بأن دعوة الخصوصية ممتنعة ولادليل عليها ، ومما يؤيد ذلك :
أولاً : لقد احتج أهل العلم بهذه الآية على عذاب القبر وما زالوا
يستشهدون بها على إثباته (٣) ، حتى قال الإمام ابن كثير رحمه الله : "وهذه
الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور" (٤).
ثانياً : لقد فهم الصحابة والتابعون رضی الله عنهم عدم الخصوصية
في الآية ولذلك جعلوها مستنداً لهم في إثبات عذاب القبر (٥).

(١) انظر : الروح ص ٦٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠١ ، فتح الباري ٢٣٥/٣ .
روى البخاري بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : "دخلت على عجوزان من
عجز يهود المدينة فقالتا لي : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم فكذبتهما ولم أنعم
أن أصدقهما فخرجتا ، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله
إن عجوزين وذكرت له . فقال : "صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها"
فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر .
صحيح البخاري ، كتاب الدعوات (٨٠) ، باب التعوذ من عذاب القبر (٣٧) ،
١٥٩-١٥٨/٧ .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب المساجد (٥) ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر
(٢٤) برقم ٥٨٦ ، ٤١١/١ .

(٢) سورة غافر : آية ٤٦

(٣) انظر : زاد المسير ٤٦/٧ ، شرح النووي على صحيح مسلم ٢٠٠/١٧ ، الجامع
لأحكام القرآن ٣١٩، ٣١٨/١٥ ، الروح ص ٧٥ ، تفسير القرآن العظيم ٨١/٤ ،
شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٦ ، فتح الباري ٢٣٣/٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨١/٤ .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٣١٩/١٥ .

ثالثاً : روى البخارى بسنده إلى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة^(١)". وهذا فى معنى الآية .

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (٩٠) ١٠٣/٢ ، وبلفظ مقارب فى كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب ماجاء فى صفة الجنة (٨) ، ٨٥/٤ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب سكرات الموت (٤٢) ، ١٩٣/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه وزاد : "وإن كان من أهل النار فمن أهل النار" . فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) برقم ٢٨٦٦ ، ٢١٩٩/٤ .

الباب الثاني

موقف المستشرقين

من السنة النبوية

وفيه تمهيد وفصلان :

التمهيد : المستشرقون : صلتهم بالفكر الإسلامي
وأثر تلك الصلة في إثارة الشبهات
حول السنة النبوية

الفصل الأول : شبهات المستشرقين حول الوحي النبوي .

الفصل الثاني : موقف المستشرقين من صحة الحديث .

التمهيد

المستشرقون - صلتهم بالفكر الإسلامى وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبهات حول السنة النبوية .

مفهوم الاستشراق ومن هم المستشرقون :

الاستشراق اتجاه فكرى يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة . وقد كان مقتصرأ فى بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية ، ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله - لغاته ، أديانه ، تقاليده ، آدابه (١) .

والمستشرقون هم علماء الغرب الذين اعتنوا بدراسة الإسلام واللغة العربية (٢) ، ولغات الشرق وأديانه وآدابه .

تاريخ الاستشراق :

من الشائك تحديد نشأة الاستشراق تحديداً دقيقاً ، ولذا اختلف المحققون فى مبدأ نشأته .

فقد حدده بعض المؤرخين بدخول القوات العسكرية الاستعمارية قبيل القرن التاسع عشر .

وبعض المشتغلين باللغة العربية وآدابها يرون أنه بدأ من القرن السابع عشر متمثلاً فى ترجمة بعض الكتب العربية وطباعتها .

ويرى بعض الباحثين المتخصصين أنه أقدم من ذلك بكثير فقد يرجع تاريخه فى بعض البلدان الأوربية إلى القرن الثالث عشر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أنه انتشر فى أوربا بصفة جديدة بعد فترة عهد الاصلاح الدينى (٣) .

(١) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ١٥ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٣٧٤ ، وانظر المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص ١٠-١٢ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٧٦-٤٥٨ .

أهداف الاستشراق :

انطلق المستشرقون في دراستهم للإسلام من منطلقين كان لهما أبلغ الأثر في توجيه الدراسات الاستشراقية .

المنطلق الأول : الزعة الصليبية التنصيرية التي خيمت على أذهان المستشرقين وغطت على أفكارهم ، فجاءت دراساتهم في ثوب تنصيري ، إذ الاستشراق ارتبط في جميع مراحل ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسات الكنسية التنصيرية .

المنطلق الثاني : الزعة الاستعمارية السياسية المادية التي تهدف إلى بث النفوذ الغربي على البلدان الإسلامية ، وسرقة خيرات تلك البلدان .

ولذلك جاءت بحوثهم ودراساتهم تهدف إلى الآتي :

(١) إفساد صورة الإسلام بطمس معالمه ، وتشويه محاسنه ، وتخريف حقائقه وتقديمه للعالم مهلهلاً متناقضاً .

(٢) تشكيك المسلمين في دينهم بإثارة الشبهات حول هدى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لاضعاف صلتهم بهذا الدين وارتباطهم به .

(٣) إحياء النعرات القبلية ، والعصبية المذهبية ، والزعات الطائفية والعقائدية ، وإثارة الخلافات ، لتفريق وحدة المسلمين ، وإضعاف روح الإخاء الإسلامي بينهم ، وإثارة اللهجات العامية بالتشكيك في مصادر اللغة العربية ، فيشتت شملهم وتضعف قوتهم .

(٤) غرس المبادئ الغربية في نفوس أهل الإسلام وتمجيدها ، والعمل على إضعاف القيم الإسلامية وتحقيرها حتى يتم لهم إفساد أبنا المسلمين وتخللهم ويتمكنوا من توجيههم لخدمة مصالحهم .

(٥) إزالة الثقة بعلماء وأعلام الأمة الإسلامية لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم المجيد ، وبالتالي تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها ليسهل التأثير والانقياد لهم .

(٦) بعض المستشرقين المعتدلين قاموا بتحقيق بعض المصادر الإسلامية وترجموا بعضها إثراء للجانب العلمي ونشراً للتراث ، مع وجود كثير

من الأخطاء في بعض تلك الدراسات ، وكانت لبعضهم سلاحاً ذا حدين (١).

منهج المستشرقين في دراسة الإسلام والدافع من ورائه :

لقد كشف الله سبحانه وتعالى الدافع الحقيقي لهؤلاء المستشرقين في دراستهم للإسلام ، ذلك الدافع الذى يتمثل في العداء السافر لهذا الإسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، والذى بدأ منذ فجر الإسلام الأول ، فالمستشرقون عبارة عن امتداد لليهود والنصارى الأول الذين بذلوا كل مافي وسعهم لطمس دين الإسلام ، وإزالة معالمه عن الوجود .

وقد فضحهم الله سبحانه وهتك أستارهم ، وكشف دسائسهم ، وأبان أحقادهم .

ولن يرضى هؤلاء من المسلمين صرفاً ولا عدلاً إلا أن ينخرط المسلمون في اليهودية والنصرانية . {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير} (٢).

والانخراط في دينهم هو الكفر الذى يسعى أولئك الحاسدون لغمس

المسلمين فيه كما قال سبحانه وتعالى :

{ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأق الله بأمره إن الله على كل شىء قدير} (٣).

(١) وللوقوف على أهداف المستشرقين انظر :

مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٥/١ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٣٩، ٤٦٠-٤٦١، ٤٥٧ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص ٥-٧، ٢٣-٢٤ ، الفكر الإسلامى الحديث ص ١٦-١٧، ٤٣، ٤١٧، ٤٢٣ ، الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ص ١٣-١٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٩-٩٢ ، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ٣٦-٣٩، ٥١، ٥٢-٥٩، ٦٣، ٦٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٠

(٣) سورة البقرة : آية ١٠٩

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله :

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وماهم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم" (١).

بل بلغت تلك العداوة شأواً بعيداً حيث تمنوا أن يحجب كل خير فلا يصل لمسلم كما قال سبحانه : {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (٢).

وهذا السيل العارم من العداوة تجاه الإسلام وأهله ، لم تحف وطأته طيلة القرون السابقة ، وإنما ظل يلهب مع مر العصور والأزمان ، يأخذ صوراً شتى وأشكالاً متنوعة تعلن تارة وتخفى أخرى ، تظهر في ثوب الود والولاء حيناً وتكشر عن أنياب العداوة أحياناً .

ولقد اشتدت هذه العداوة بعد الحروب الصليبية (١٠٩٧ - ١٢٩٥م) التي كانت نقطة تحول في الصراع الفكري والعقائدي والسياسي بين الغرب المسيحي المدعم باليهود وبين الشرق الإسلامي (٣).

ولقد وجد أعداء الإسلام في تلك الحروب الصليبية متنفساً بالرغم من الهزائم المتتالية التي حلت بهم ، وظهر هنالك الحقد الدفين وعلا على السطح .

يقول المونسنيور كولى في كتابه "البحث عن الدين الحق" :

"برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه ، وتساهل في أقدم قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ،

(١) تفسير القرآن العظيم ١/١٥٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٥

(٣) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ٢٧ ، الإسلام على مفترق الطرق

ص ٥٥-٥٦ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٤٦ .

ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له . حتى ايطاليا هدها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا ، لقد أصيبت المدينة .. ولكن انظرها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل^(١) سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه - - - ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩-١٢٥٤م) في سبيل الدين ، فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى مافيه من قوانين الأخلاق الساذجة^(٢).

ولقد أورثت الحروب الصليبية الغربيين عداء جديداً للإسلام مشوباً بالخوف والرعب ، ولذا كرثوا الجهود للنيل منه بكل الأساليب والوسائل حتى لاتعاد الكرة وتصبح للإسلام الهيمنة . قال مكسيم رودنسون^(٣):

"فقد أوجدت الحروب الصليبية حاجة كبيرة وملحة للحصول على صور كاملة ومسلية ومرضية لأيديولوجية الخصوم . وكان رجل الشارع يرغب في صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفج

(١) شارل مارتل :

حاكم ألماني الأصل ، دانت له أجزاء واسعة من أوروبا بعد قتال مرير ، خاض عدة معارك مع المسلمين أشهرها معركة "تور" التي قتل فيها قائد المسلمين عبد الرحمن الغافقي ، وهزم فيها جيش المسلمين ، وكان لها أثر بالغ في إخراج المسلمين من الأندلس . مات سنة ٧٤١ .

انظر : المعرفة ٣٦٨/٣ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٢٤٤ .

(٣) مكسيم رودنسون :

يهودي ماركسي ولد سنة ١٩١٥م ، كان من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس ثم مديرها . ألف كتاباً بالفرنسية عن محمد صلى الله عليه وسلم "حياة محمد" مشحون بالافتراءات على النبي صلى الله عليه وسلم .

انظر : المستشرقون ٣٢٨/١-٣٢٩ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٧٠/١ .

على أن تكون في الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضى الذوق الأدبي الميال إلى كل ماهو غريب ، وهو ميل يشكل سمة بارزة في جميع الأعمال في ذلك الوقت" (١).

واتخذ المستشرقون تلك الحروب مطية لهم فشوهوا من خلالها الإسلام لرجل الشارع الغربى حتى تتأصل تلك العداوة في أذهان الجميع ، ولتكون الحملة على الإسلام حملة شعواء لاهوادة فيها ، كل فرد بما يقدر عليه ويستطيعه من دور . يقول كيمنون المستشرق الفرنسى فى كتابه "باثولوجيا الإسلام" :

"إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقره الخمر ، ويجمع فى القبائح ، وماقبر محمد إلا عمود كهربائى يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة "الله" إلى مالانهاية ، والتعود على عادات تنقلب على طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبىذ ، والموسيقى ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى الذات" (٢).

وأصبح الغرب كله يضج بالعداء للإسلام ، عداً لا يقف عند حد ، ولا يعرف المهادنة ، الكل ينظر إليه بمنظار قاتم يحجب الأبصار عن رؤية الحق .

وإليك تصويراً بليغاً بقلم غربى ولكنه عرف الحق فاهتدى يكشف عن حقائق طالما خفيت على كثير من أبناء الإسلام المسيحين بمحمد الغرب . يقول محمد أسد "ليوبولد فايس" :

(١) تراث الإسلام ٣٤/١ .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص ٥٥ .

"فيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد . وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية .

قد لا تتقبل أوروباً تعاليم الفلسفة البوذية^(١) ، أو الهندوكية^(٢) ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبنى على التفكير .

إلا أنها حالماً تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتشرب حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى في كتاباتهم عن الإسلام . ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاة ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شىء من الفتور ، اعتبار الأسباب المخففة"^(٣).

(١) البوذية :

هى ديانة ظهرت فى الهند بعد الديانة البرهمية فى القرن الخامس قبل الميلاد . كانت فى بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناذاة بالمحبة والتسامح وفعل الخير لكنها لم تلبث بعد موت مؤسسها - سد هارتا جوتاما الملقب ببوذا - أن تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثنى ، ولقد غالى أتباعها فى مؤسسها حتى ألوهه .

الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص ١٠٧ ، وانظر : أديان الهند الكبرى ص ١٦٦-١٧٢ .

(٢) الهندوكية أو الهندوسية :

هى ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند ، وقد تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر . إنها ديانة تضم القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها ، فلكل منطقة إله ، ولكل عمل أو ظاهرة إله .

الموسوعة الميسرة ص ٥٣١ ، وانظر : أديان الهند الكبرى ص ٤٣-٤٤ .

(٣) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٢-٥٣ .

وقال : "إن النهضة" أو إحياء الفنون والعلوم الأوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى في الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوروبا أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ولكنها لم تعترف بهذا الجميل وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة "مسلم" ، ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلاً كان أم امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى ، ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوروبا شيعاً ، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى ، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها ، بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ولكن العداء للإسلام استمر" (١).

وقال : "إن المدنية الغربية لم تبدل اتجاهها العقلى نحو الإسلام ، وإنها اليوم شديدة المناهضة للفكرة الدينية فى الحياة كما كانت دائماً من قبل" (٢). لقد عاش المستشرقون فى هذه البيئة المفعمة ببغض الإسلام ، وارتضعوا من ثديها ، وارتقوا بلبانها ، ولذا جاء منهجهم الذى اختطوه فى دراسة الإسلام منهجاً معوجاً ملتوياً ، يحوى بين طياته كل دسيسة وشبهة تقدح فى الدين الذى ارتضاه الله ديناً للبشرية جمعاء .

وإليك أبرز سمات ذلك المنهج والمقاييس الجائرة التى درسوا بها

الإسلام :

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٩-٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٤ .

- (١) تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوربية ، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمحدود والمغلوط الذى يجهل حقيقة الإسلام (١).
- (٢) تبينت فكرة مسبقة ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها لإثبات تلك الفكرة واستبعاد ما يخالفها ، وذلك منهج معكوس وليد للهوى (٢).
- (٣) اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار وغض الطرف عما هو صحيح وثابت منها (٣).
- (٤) تحريف النصوص ، ونقلها نقلاً مشوهاً ، وعرضها عرضاً مبتوراً ، وإساءة فهم ما لا يجدون سبيلاً لتحريفه (٤).
- (٥) غربتهم عن العربية والإسلام منحهم عدم الدقة والفكر المستوعب فى البحث الموضوعى ، حتى ولو اختص أحدهم بأمر واحد من أمور الإسلام طيلة حياته (٥).
- (٦) تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه ، ويصححون ما ينقله "الدميرى" (٦) فى كتاب

-
- (١) انظر : السنة ومكانتها ص ١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص ٤٩ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ص ٣٦٤ ، الإسلام والمستشرقون ص ١٩١ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ١٢٤ .
 - (٢) انظر : السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص ٤٣ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٥١ .
 - (٣) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٤٨ .
 - (٤) انظر : السنة ومكانتها ص ١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ١٣٠ .
 - (٥) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص ١٦ .
 - (٦) الدميرى :

هو محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى ، أبو البقاء الشافعى ، من أهل دميرة بمصر ، مفسر ، محدث ، فقيه ، أصولى ، أديب ، نحوى ، ناظم . مات سنة ٨٠٨ هـ .

من آثاره : "حياة الحيوان" ، "الديباجة" فى شرح سنن ابن ماجه ، "النجم الوهاج" فى شرح منهاج النووى . =

"الحيوان" ويكذبون ما يرويه "مالك" في "الموطأ" ، كل ذلك انسياقاً مع الهوى ، وانحرافاً عن الحق (١).

(٧) إبراز الجوانب الضعيفة والمعقدة والمتضاربة كالحلاف بين الفرق ، وإحياء الشبه ، وكل ما يفرق وإخفاء الجوانب الإيجابية والصحيحة وتجاهلها (٢).

(٨) الاستنتاجات الخاطئة والوهمية وليدة التعصب ، وجعلها أحكاماً ثابتة ، يؤكدها أحدهم المرة تلو المرة ، ويجمعون عليها حتى تكاد تكون يقيناً عندهم (٣).

(٩) النظرة العقلية المادية البحتة التي تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية (٤).

وسائل المستشرقين :

لقد استخدم المستشرقون كل وسيلة توصلهم إلى أهدافهم وغايتهم كتأليف الكتب ونشرها ، والبث الإعلامي بجميع أنواعه وألوانه ، والتعليم في الجامعات وغيرها ، وعقد المؤتمرات العلمية العامة والجمعية ، وتقديم الخدمات الاجتماعية الإنسانية ، وغير ذلك (٥).

= انظر : الضوء اللامع ١٠/٥٩-٦٢ ، شذرات الذهب ٧/٧٩-٨٠ ، البدر الطالع

٢/٢٧٢ ، معجم المؤلفين ١٢/٦٥-٦٦ ، الأعلام ٧/١١٨ .

(١) انظر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٨٨-١٨٩ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٤) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ص ١٦ .

(٥) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٤٦٠ ، الفكر الإسلامي الحديث ص ٤١٨ .

صلتهم بالفكر الإسلامى

وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبه حول السنة :

إذا بدأنا بالحروب الصليبية التى كانت نقطة التحول فى الصراع الفكرى والعقائدى والسياسى بين الغرب المسيحى والشرق المسلم ، وأنها الدافع الأساسى للنشاط الاستشرافى المكثف ، نستطيع أن نقول : إن اتصال الغرب بالشرق فى ذلك الوقت وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى اتصال عدائى مسلح ، متمثلاً فى تلك الحروب الطاحنة ، التى ظلت آثارها باقية حتى الآن .

ولما كان القرن السادس عشر هو منطلق الإصلاح الدينى فى الغرب ، كانت نهايته بداية الاتصال الاقتصادى المتمثل فى كشف موارد الثروة فى العالم الإسلامى أو استغلالها ونقلها إلى الغرب فى صورة تبادل تجارى أو غيرها .

وتبع هذا الاتصال الاتصال السياسى المتمثل فى سيطرة الغرب ونفوذه على العالم الإسلامى حتى بلغ أوجه خلال الفترة ما بين النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين .

وخلال هذه الفترة الاستعمارية عمل الغربيون على تخلف المسلمين بإبعادهم عن دينهم الحنيف حتى يتمكنوا من إخضاعهم إخضاعاً تاماً للسيطرة الغربية^(١).

وفى تلك الفترة كان الاستشراف فى ذروته لأنه كان مسنداً من قبل الحكومات الغربية التى كانت توفر لهم من الأسباب المعينة على دراسة العلوم الإسلامية حتى يتمكن الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية . وسبق أن ذكرنا أن من أهداف الاستشراف الهدف الاستعمارى^(٢).

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث ص ١٥-١٧ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٣٥٤ ، الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٣، ٤١٧ .

وقد بحث المستشرقون في كل مايتصل بالإسلام من تاريخ وفقه وتفسير وحديث وأدب وحضارة وصبغوا كل ذلك بصبغة علمية مما أدى بتلك البحوث أن تكون مراجع لكثير من طلبة العلم المتخصصين في المعاهد والجامعات العالمية^(١).

وقد غزت تلك البحوث العالم الإسلامى فى مؤسساته الفكرية والتربوية ومناهج التعليم ، وكان العديد من قادة الفكر الإسلامى قد تتلمذوا على أيدي أولئك المستشرقين عن طريق إيفادهم إلى الخارج واستقدام المستشرقين إلى البلاد الإسلامية للعمل فى المؤسسات الإسلامية الفكرية ومناهج التربية والتعليم^(٢).

وهكذا ظلت العلاقة موصولة ، والصلة وثيقة بين العالم الغربى والفكر الإسلامى ، ولكنها علاقة تستهدف الإسلام وبناءه الشاىخ .

والمستشرقون الذين بحثوا فى كل جوانب الإسلام لم يغب عنهم أهمية السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - فقد علموا أنها تتبوا منزلة رفيعة ومكانة سامية فى الإسلام ، إذ هى المصدر التشريعى الثانى بعد القرآن ، وهى توضيحه وبيانه ، ولذا تناولوها بالطعن والتشويه والشبه ليتسنى لهم بعد ذلك أن يتلاعبوا بالقرآن الكريم ويؤولوه بما يحلو لهم ، بل وفى طعنهم فى السنة وهدمهم لصرحها هدم للإسلام برمته ، وعند ذلك تتهاوى أركان المجتمع الإسلامى - كما يزعمون - ويتبدد نظامه ويكون فريسة سهلة المنال لأعداء الإسلام المستشرقين^(٣).

قال محمد أسد : "إن العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه ، وإن ترك السنة هو الخلال الإسلام . لقد كانت السنة

(١) انظر : السنة ومكانتها ص ١٨٩ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص ٤٠ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٣٥٤ ، الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص ٧٦ .

(٣) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص ٤٩ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٦٧/١ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢١٩ ، ٤٥٣ .

الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيد هشك أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟" (١).

وقال د. تقى الدين الندوى :

"فمن المعروف أن المستشرقين والمضلين ومنكرى السنة يبذلون قصارى جهودهم لاسقاط السنة النبوية من مكانتها الرفيعة كمصدر تشريعى ثانى بعد كتاب الله العزيز إذ إنها شرحه وتفسيره وبيانه .

ويستهدفون من وراء ذلك هدم مجتمع الإسلام ونظامه لكى تسود الفوضى وتنتشر البلوى ، وعلى هذا التقى أعداء الإسلام ... فى عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة مع أعداء الإسلام اليوم من المستشرقين ومن لف لفهم فى الحضارة الغربية المعاصرة ، لأن ضوء الإسلام الباهر يغيظ أعداء الإسلام ويغشى أبصارهم فيندفعون بعصبية عمياء حمقاء لتهديم كل مايتصل به من قرآن وسنة واجتهاد ولتشويه كل من حمل لواء الإسلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى حملته من أعلام السنة والحديث ، ولإفساد الحقائق المتصلة به من حضارة وتاريخ ، ولانشك أن هذه المعركة بين الإسلام وخصومه ستنتهى إلى هزيمتهم وكشف مقاصدهم الخبيثة الخبيثة . وسنة الله فى الحياة أن ينتصر الحق والعلم والنور دائماً وأبداً إبل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق" (٢).

ولقد بارك المستشرقون موقف المعتزلة من السنة النبوية ، ورأوا أن وجهتهم فى رد الأحاديث بالعقل هى الوجهة الصحيحة التى يجب أن تناصر وتؤيد ضد المتشددىن الحرفيين الجامدين على النصوص . وأنهم - أى المعتزلة - هم الذين طهروا الإسلام مما به من شوائب التجسيم والأفهام الخاطئة التى نتجت من التمسك بظواهر النصوص والجمود عليها . فهم أهل العقل الحر والمنهج القويم الذى يجب أن يبقى ويستمر .

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٨٧ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٣٥٣-٣٥٤ .

والآية (١٨) من سورة الأنبياء .

قال جولد زيهر (١):

"إنه إذًا ، ضد أشياع مذهب التجسيم أو التشبيه القديم هذا ، كان على المعتزلة أولاً وقبل كل شيء أن يقاتلوا في الميدان الديني كل هذه الآيات والأحاديث والنصوص المقدسة ، التي تنسب لله بظواهرها الصورة الإنسانية ، وأن يجعلوها لاتدل إلا على معان روحية ، وذلك بتأويل استعارية أو مجازية مؤسسة على مانعرف لله من نقاء وطهارة ومكانة ... أما فيما يختص بالحديث ، فإن المعتزلة كانوا يملكون تحت تصرفهم الوسيلة لرفض الأحاديث التي يبلوح منها مالا يصح أن يقبل من التجسيم أو التشبيه ، أو التي تجعل لمثل هذا مكاناً ، وهذه الوسيلة هي : الطعن فيها بعدم الصحة وبذلك يتحرر الإسلام من مجموعة كبيرة من الأقاصيص التي تراكمت ، بمساعدة الاعتقاد الشعبي الشره إلى الأساطير ، بصفة خاصة فيما يتصل بالدار الأخرى وما فيها ، والتي أيدتها دينياً صيغة الحديث" (٢).

وقال :

"ولكن مذهباً جديداً قدر له أن يكون أداة في المحافظة على الإسلام وتقاليده الفكرية في عالم العقول المستنيرة ، وهذا المذهب أو النظام هو

(١) جولد زيهر :

مستشرق مجرى يهودى ، رحل إلى سورية وفلسطين ومصر ولازم بعض علماء الأزهر . له تصانيف باللغات الألمانية والانكليزية والفرنسية . ترجم بعضها إلى العربية . مات سنة ١٩٢١م .
من آثاره : "ديوان الخطيئة" ، "فضائح الباطنية" ، "العقيدة والشريعة" . وغير ذلك .

انظر : الأعلام ٨٤/١ ، المستشرقون ٩٠٦/٣-٩٠٨ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٦١/١-١٦٢ .

قال السباعي :

"عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه ، ومن محررى دائرة المعارف الإسلامية . كتب عن القرآن والحديث ، ومن كتبه : "تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى" .
الاستشراق ص ٣١-٣٢ .

(٢) العقيدة والشريعة ص ١٠٩-١١٠ .

ما عرف في تاريخ الفلسفة باسم "علم الكلام" كما عرف رجاله باسم "المتكلمون" ... إنه كان من هؤلاء الجماعة الأتقياء الورعين ، المعتزلة ، أى الزهاد الذين يعتزلون الناس أولئك الذين دفعوا هذه الحركة أولاً إلى الأمام هذه الحركة التى جمعت الأوساط العقلية ، والتى دخلت لهذا فى تعارض - كان يزيد ويتضح شيئاً فشيئاً مع الآراء الدينية السائدة حينذاك .

وإنه فى نهاية تطور هذه الحركة فقط أن استحق أنصارها اسم المفكرين الأحرار فى الإسلام ... وبداية هذا المذهب الاعتزالى تدلنا على الأقل على نزعة التحرر من القيود الثقيلة المتعبة ، وعلى القضاء على الفهم السنى الصارم للحياة ... لقد كانوا الأوائل الذين وسعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصراً آخر قيماً وهو العقل الذى كان ، حتى ذلك الحين مبعداً بشدة عن هذه الناحية" (١).

هكذا مجد المستشرقون المعتزلة ومدحوا منهجهم العقلانى لأنهم وجدوا فيه تحقيقاً لمآربهم السيئة ونواياهم الخبيثة التى تهدف لهدم السنة وبالتالى إزالة الإسلام من على الأرض ، وقد فتح لهم المعتزلة الباب على مصراعيه وأعطوهم سلاحاً مضاعفاً ليفتكوا به الأحاديث الصحيحة الثابتة ، إنه سلاح الشبه العقلية التى يحكمها الهوى .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن المدرسة الاستشراقية امتداد للمدرسة الاعتزالية القديمة فى التعامل مع الأحاديث النبوية مع تباين هدف الرفض ، إذ المستشرقون همهم تشويه الإسلام والقضاء عليه ، وهو أمر لم يتظاهر به المعتزلة. والذى يتتبع كتب المستشرقين ومؤلفاتهم يجدها زاخرة بتمجيد العقل وتصويب منهج أهل الكلام الداعى إلى معارضة السنة الصحيحة بالعقل (٢).

(١) العقيدة والشرعية ص ١٠٠-١٠٢ ، وانظر : ص ١١٨-١٢٠ ، وانظر : تراث الإسلام ص ٢١٨، ٢٠٣ .

(٢) انظر : دراسات فى حضارة الإسلام ص ٢٦٨-٢٦٩، ٢٧٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ص ٥٨٤٦٥٨، ٥٥٧٦ ، العقيدة والشرعية ص ١٠٧-١٠٨، ١١٢ .

الفصل الأول

شبهات المستشرقين حول الوحي النبوى

إن من أهم الأمور بل من أعظمها خطراً أمر الوحي والنبوة الذى أطلق المستشرقون لعقولهم الأعنة بالخوض والطعن فيه مستهدفين بذلك الإسلام كله ، لأنهم يعلمون أن القدح فى نبوته صلى الله عليه وسلم والنيل منها يؤدى إلى انهيار صرح الإسلام وتداعيه ، إذ الوحي هو الأساس الذى يبنى عليه الدين فإذا فقد فقد الدين .

ومن هنا كثفوا حملاتهم ، وزادوا هجماتهم ، يحملهم الحقد وتدفعهم البغضاء والعداء السافر ، يصدرون عن أحكام مغرضة ، وأقوال جائرة ، مجافين طرق البحث العلمى النزيه {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} (١).

لقد كان عدم التصديق بنبوته صلى الله عليه وسلم هو القاعدة التى انطلقوا منها فى بث كل شكوكهم ومطاعنهم فى بقية جوانب الإسلام . وقبل أن نتناول شبهات أولئك القوم لابد من وقفة تكشف من خلالها بالبراهين الساطعة والأدلة الدامغة التى تثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى نبوته ، وأنه رسول من عند الله حقاً يوحى إليه ، لم يكن دعياً ولا كذاباً ولا مخادعاً ، بل ابتعثه الله لحمل رسالته ، وتبليغ دينه ، وإقامة حجته على جميع أهل الأرض ، فالسعيد من احتذى حذوه وسار على نهجه والشقى من تنكب طريقه {واتبع هواه وكان أمره فرطاً} (٢).

من ذلك :

(١) سورة التوبة : آية ٣٢

(٢) سورة الكهف : آية ٢٨

الفرط : هو الإسراف فى التقدم ومجاوزة الحد .

انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم ٣٢٣/٢ .

"وكان أمره فرطاً" : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع .

تفسير القرآن العظيم ٨١/٣ .

(١) قال تعالى : {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} (١).

ففى الآية دلالة على أن الله قد أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ، فوحى إليه كوحى إليهم فى جنسه وموضوعه والغرض منه (٢).

فلم يكن بدعاً فى رسالته كما قال سبحانه : { قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين } (٣). فلم يكن أول من أرسله الله ، فقد بعث من قبله رسل كثر . يقول ابن كثير رحمه الله :

{ قل ما كنت بدعاً من الرسل } أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبل فما أنا بالأمر الذى لانظير له حتى تستنكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم " (٤).

وجنس الرسل معروف وهو معتاد فى الآدميين وإن كان قليلاً ، وقد جاء النبى بجنس ماجاءوا به ، بل أعظم مما جاءوا به فهو أحق بالتسليم له بالنبوة من سواه (٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"نبوة عين هذا النبى تكون ظاهرة ، لأن الذى جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء فمن أقر بجنس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد فى غاية الظهور ... ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب فى نبوة محمد إما أن يكون بجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم ، أو لعناده وهو حال طلاب

(١) سورة النساء : آية ١٦٣

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٨٥/١ ، فتح البارى ٩/١ ، الوحى المحمدى ص ٣٥ .

(٣) سورة الأحقاف : آية ٩

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٥٤/٤ .

(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٩ .

الرياسة بالدين منهم" (١).

(٢) قال تعالى : { لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً } (٢).

فقد شهد الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رسوله حقاً الذى أنزل عليه القرآن ، فما أعظمها من شهادة ، وما أعظمه من شاهد ثم ثنى بملائكته الذين شهدوا أيضاً بصحة الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم (٣). فمن لم يقبل شهادة الله بصدق نبيه وشهادة ملائكته بإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فليس من المؤمنين ، ولذا عقب الآية بقوله : { إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً } (٤). أى كفروا فى أنفسهم بعدم التصديق بوحيه إلى نبيه ثم صدوا غيرهم بإثارة الشبه والشكوك عن اتباع ذلك النبى والافتداء به (٥).

(٣) قامت الشواهد على صدقه صلى الله عليه وسلم وشهد له بذلك العدو والصديق .

فقريش التى جابهته العداء ، وأخرجته من بينها ، وآذت من آمنوا معه ، كانت تقر بصدقه وأمانته .

عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية : { وأنذر عشيرتك الأقربين } (٦) ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا .

(١) كتاب النبوات ص ٣٨-٣٩ .

(٢) سورة النساء : آية ١٦٦

(٣) انظر : الوحي المحمدى ص ٣٦ .

(٤) سورة النساء : آية ١٦٧

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٨٩/١ .

(٦) سورة الشعراء : آية ٢١٤

فهتف "يا صباحاه" (١) فقالوا : من هذا الذى يهتف؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه ، فقال : "يابنى فلان! يابنى فلان! يابنى عبد مناف! يابنى عبد المطلب!" فاجتمعوا إليه فقال : "أرأيتمكم لو أخيرتكم أن خيلاً تخرج بسفح (٢) هذا الجبل أكنتم مصدقي؟" قالوا : ماجربنا عليك كذباً . قال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ..." (٣) . وهذا من أقوى الأدلة على صدقه قبل البعثة وبعدها ، وأدري الناس به قومه وعشيرته وقد شهدوا له بذلك .

وخديجة رضى الله عنها لما جاء إليها وأخبرها بأمر الوحي وقال لها : "لقد خشيت على نفسي" قالت : "كلا والله ما يخنيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث وتحمل الكل (٤) ، وتكسب المعدوم (٥) ،

-
- (١) ياصباحاه : قال ابن الأثير : "هذه كلمة يقولها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، فكأن القائل "يا صباحاه" يقول : غشنا العدو . وقيل : إن المقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال ، فإذا عاد النهار عاودوه ، فكأنه يريد بقوله : ياصباحاه : قد جاء وقت الصباح فتأهبوا للقتال" . النهاية ٦/٣-٧ . الجمع
- (٢) السفح : عرض الجبل المضطجع ، أو أصله ، أو أسفله ، أو الحضيض . والجمع سفوح . القاموس المحيط ص ٢٨٧ .
- (٣) أخرج البخارى نحوه فى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الشعراء (٢٦) ، باب قوله : {وأُنذِرَ عشيرتك الأقربين} (٢) ، ١٦/٦-١٧ ، وفى تفسير سورة سبأ (٣٤) ، باب إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٢) ، ٢٩/٦ ، وفى تفسير سورة تبت يدا أبى لهب (المسد) (١١١) ، باب (١) ، وباب قوله : {وتب ما أغنى عنه ماله} (٢) ، ٩٤/٦-٩٥ .
- وأخرجه مسلم واللفظ له ، كتاب الإيمان (١) ، باب فى قوله تعالى : {وأُنذِرَ عشيرتك الأقربين} (٨٩) برقم ٢٠٨ ، ١٩٣/١-١٩٤ .
- (٤) الكل : بفتح الكاف : هو من لا يستقل بأمره . كما قال تعالى : {وهو كل على مولاه} . (سورة النحل : آية ٧٦) . فتح البارى ٢٤/١ . وانظر النهاية : ١٩٣/٤
- (٥) تكسب المعدوم : قال ابن الأثير : "أى يكسب ما يحرمه غيره . وقيل : أرادت تكسب الناس الشيء المعدوم الذى لا يجدونه مما يحتاجون إليه . وقيل : أرادت بالمعدوم الفقير الذى صار من شدة حاجته كالمعدوم نفسه . فعلى الأول يكون تكسب متعدياً الى مفعول واحد . وعلى القولين الآخرين يكون متعدياً الى مفعولين" . النهاية ١٩١/٣-١٩٢ .

وتقرى (١) الضيف وتعين على نوائب (٢) الحق (٣).

فاستدلت على صدقه بمكارم الأخلاق وما اتصف به من أصولها صلى الله عليه وسلم فمثله لا يخزى ولا يهان .

وورقة بن نوفل الذى تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى مايكتب ، لما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم خير مارأى قال له ورقة : " هذا الناموس (٤) الذى نزل الله على موسى (٥) فلم يكذبه فيما رأى وأخبر ، بل ثبتته فى أمره وأيده فى قوله .

ومثله قول النجاشى (٦) عندما قرىء عليه القرآن من قبل الصحابة

(١) تقرى الضيف : أى تضيفه . انظر : القاموس المحيط ص ١٧٠٦ .

(٢) نوائب : جمع نائبة . وهى ما ينوب الإنسان : أى ينزل به من المهمات والحوادث النهاية ١٢٣/٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحي (١) ، باب (٣) ، من حديث عائشة رضى الله عنها ، ولم يذكر قولها : "وتصدق الحديث" ٣/١-٤ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق) (٩٦) ، باب (١) ٨٧/٦-٨٩ ، وفى كتاب التعبير (٩١) ، باب التعبير وأول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا (١) ، ٦٧/٨-٦٨ .

وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٣) برقم ١٦٠ ، ١٣٩/١-١٤٢ .

(٤) الناموس : هو صاحب سر الخير ، كما أن الجاسوس صاحب سر الشر . وأراد بذلك جبريل عليه السلام ، لأن الله تعالى خصه بالوحي والغيب الذين لا يطلع عليهما غيره .

انظر : الفائق ١٨٣/١ ، النهاية ١١٩/٥ .

(٥) انظر تخريج الحديث السابق .

(٦) النجاشى :

هو أصحمة بن أبجر النجاشى . ملك الحبشة . واسمه بالعربية عطية ، والنجاشى لقب . أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر إليه ، وليس له رؤية ، فهو صحابى من وجه ، تابعى من وجه . وكان رداً للمسلمين الذين هاجروا إليه فى صدر الإسلام ، نافعاً لهم ، محسناً إليهم . قيل إنه توفى فى العام التاسع للهجرة وصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته صلاة الغائب .

انظر : أسد الغابة ١١٩/١-١٢٠ ، سير أعلام النبلاء ٤٢٨/١-٤٤٣ ، الإصابة ١٠٩/١

رضى الله عنهم وأجلوا له الأمر ، قال : "إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة" (١).

ومن أبلغ الأدلة والشواهد ما استدل به هرقل (٢) عظيم الروم على صدقه وإثبات نبوته . وذلك عندما وصله كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذى يدعو فيه إلى الإسلام . فاستدعى أبا سفيان ومن معه ثم طرح عليهم مجموعة من الأسئلة ، فسألهم عن نسبه فيهم ، وهل قال هذا القول أحد قبله؟ وهل كان فى آباءه من ملك؟ وهل يتبعه أشرافهم أم ضعفاؤهم؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟ وهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ وهل كانوا يتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ وهل يغدر؟ وهل قاتلوه؟ وكيف كان قتالهم إياه؟ وبماذا يأمرهم؟

ثم استدل بما أجابه به على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم فقال للترجمان (٣): "قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آباءه من ملك؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم

(١) وهو طرف من حديث أم سلمة فى شأن الهجرة الأولى إلى الحبشة . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية من طريق ابن إسحاق ٢٠٥/١-٢٠٨ . وأخرجه أحمد عنها فى المسند ٢٠٣/١ ، ٢٩١/٥ .

وحسنه الشيخ ناصر الدين الألبانى . انظر شرح الطحاوية ص ١٥٣ الهامش .

(٢) هرقل :

هو ملك الروم ، وهرقل اسمه ، ولقبه قيصر . وكان له علم فى دين النصرانية ، وهو الذى أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم خطاباً يدعو فيه إلى الإسلام ، فأراد أن يسلم ولكن الروم أبت عليه فضن بملكه فلم يسلم .

انظر : البداية والنهاية ٢٦٢/٤-٢٦٨ ، فتح البارى ٣٣/١-٣٧ .

(٣) الترجمان : وتفتح . وهو الذى يترجم الكلام . أى ينقله من لغة إلى لغة أخرى والجمع التراجم . والتاء والنون زائدتان . النهاية ١٨٦/١ .

تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته^(١) القلوب . وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت^(٢) لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه"^(٣).

(٤) النبوة لها خواص مستلزمة لها تعرف بها ، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء ، وإن كانت معتادة للأنبياء فهي لا توجد لغيرهم . فإذا أتى مدعى النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته^(٤).

(١) البشاشة : هي الفرح بالشيء والانبساط إليه ، والإنس به .
انظر : النهاية ١٣٠/١ .

(٢) تجشمت الشيء إذا تكلفته . انظر المرجع نفسه ٢٧٤/١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي (١) ، باب (٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ٧-٥/١ ، وفي كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة آل عمران (٣) ، باب { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء } (٤) ، ١٦٧/٥-١٦٩ وأخرجه مختصراً في كتاب الجهاد والسير (٥٦) ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٧٦) ٢٢٥/٣ ، وفي باب هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلمهم الكتاب (٩٩) ٢٣٤/٣ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير (٣٢) ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل (٦) برقم ١٧٧٣ ، ١٣٩٣/٣-١٣٩٧ .

(٤) كتاب النبوات ص ٣٣ .

وقد اقتضت حكمة الله عدم التسوية بين الصادق والكاذب ، فهو لا يؤيد الكذاب بمثل ماأيد به الصادق قط ، بل لابد أن يفضحه ولا ينصره ، بل لابد أن يهلكه (١).

ومامن أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه مظهر لمن له أدنى تمييز (٢). فالذى يتتبع أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم وأخباره ومعجزاته ، وأخلاقه وصفاته ، ونصر الله له وتأييده ، وقيامه بما كلفه الله به على أكمل وجه ، وصبره على الأذى فى سبيل دين الله ، قطع قطعاً جازماً بصدق ذلك النبى صلى الله عليه وسلم . قال أبو الحسن الماوردى :

"ولم تنزل أمارات النبوة لألحّة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تدرج إليها وهو غافل عنها وغير متصنع بها فنهض بأعبائها حين أتته وقام بحقوقها حين لزمته غير واهل فيها ولا عاجز عنها إلى أن تكامل به الشرع فتم على أصل مستقر وقياس مستمر لا يدفعه عقل ولا ياباه قلب ولا تنفر منه نفس ، وهذا وهو أسمى لم يقرأ كتاباً ولا اكتسب علماً ، فأوضح كل ملتبس ، وبين كل مشتبه حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته فى علم ماقصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها وبين أحكامها ، وماذلك إلا بعون إلهى وتأيد لاهوتى ، وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه ، وحجاً لو اكتفينا به" (٣).

(٥) إن كمال الإسلام وسده حاجة البشرية فى كل زمان ومكان ، واستمراريته طيلة القرون السابقة ، وإقبال الناس عليه ، والتمسك به والدفاع عنه ، أصدق دلالة وأقوى حجة على أنه دين من عند الله تعالى أوحى به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، لادخل للبشر فيه .

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤، ٢٤٥ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٠ .

(٣) أعلام النبوة ص ٥٦ .

قال كارليل (١):

"لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى مايظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وأن لنا أن نخارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتئة المحصر والإحصار أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلاأستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين وماالحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق . فواأسفاه! ماأسوأ مثل هذا الزعم وماأضعف أهله ... فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء فإنها نتاج جيل كفر وعصر جحود والحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان" (٢).

هذا قليل من كثير مما يؤيد صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من عند الله يوحى إليه . وسوف تأتى بعض الأدلة الأخرى من خلال الرد على الشبه .

(١) هو توماس كارليل . كان من المستشرقين المنصفين الذين قالوا كلمة حق فى الإسلام ، ولم يؤمن به . له كتاب "الأبطال" عقد فيه فصلاً رائعاً عن النبى صلى الله عليه وسلم . مات سنة ١٨٨١م .

انظر : المستشرقون ٤٨١/٢ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٧٤/١ .

(٢) الأبطال ص ٥٤-٥٥ ، وانظر ص ٥٨ .

عرض شبهات المستشرقين حول الوحي النبوي والجواب عنها:

- الوحي لغة : هو إعلام في خفاء^(١).
وفي الشرع : هو الإعلام بالشرع^(٢).
وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وحي من عند الله كصنوها القرآن ،
وتصديق ذلك قوله سبحانه وتعالى : {وما ينطق عن الهوى} إن هو إلا وحي
يوحي^(٣). وقال صلى الله عليه وسلم : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"
الحديث^(٤).
وقال حسان بن عطية^(٥) رحمه الله : "كان جبريل (عليه السلام)
ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن"^(٦).
ومن هنا كان القدح في الوحي وفي نبوة النبي صلى الله عليه وسلم
قدحاً في السنة كما هو قدح في القرآن .
ولقد ركز المستشرقون جل جهودهم ، وبذلوا قصارى جهدهم في
الوصول إلى نفى النبوة وسلبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن

(١) لسان العرب ٢٥٧/١٢ ، مختار الصحاح ص ٧٣٨ .

(٢) فتح الباري ٩/١ .

(٣) سورة النجم : آية ٤،٣ .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه من حديث المقدام بن معديكرب . إلا أنه قال : "أوتيت

الكتاب" . كتاب السنة ، باب في لزوم السنة برقم ٤٦٠٤ ، ٢٠٠/٤ .

وسنده صحيح . انظر مشكاة المصابيح ٥٨/١ ، الهامش .

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظه عن المقدام ١٣١/٤ .

وقد نص الشيخ ناصر الدين الألباني على صحة الحديث .

انظر : صحيح سنن أبي داود ٨٧١/٣ ، حديث رقم ٣٨٤٨ .

(٥) هو المحاربي ، مولاها ، أبو بكر الدمشقي ، ثقة ، فقيه ، عابد . روى عن أبي

أمامة ، وابن المسيب ، وعنه الأوزاعي ، وأبو غسان محمد بن مطرف . مات بعد

العشرين ومائة .

انظر : الجرح والتعديل ٢٣٦/٣ ، الكاشف ٢١٧/١ ، تقريب التهذيب ١٦٢/١ .

(٦) سنن الدارمي ، المقدمة ، باب السنة قاضية على الكتاب ١٤٥/١ .

ما جاء به نتاج بشرى وليس من عند الله تعالى . ولذا حاولوا أن يفسروا الوحي تفسيراً يؤدي بهم إلى هذا الزعم الجائر والضلال البين . وقد تباينت أقوالهم وتضاربت آراؤهم في بيان حقيقة أمر الوحي وكنهه .

وإليك ما أنتجته عقولهم وسطرته أقلامهم من شبه حول ظاهرة الوحي الإلهي إلى خاتم الرسل ، صلى الله عليه وسلم . وهي تدور حول محورين : الأول : إنه أمر ذاتي ، أي من داخل نفس النبي صلى الله عليه وسلم . الثاني : إنه أمر خارج عنه ، ولكن ليس من عند الله سبحانه .

(أ) أما المحور الأول فانه يحوى بين طياته عدة تفسيرات للوحى :

(١) الوحى النفسى :

إن محمداً كان من أصحاب النفوس الصافية والخيال الواسع ، والإحساس العميق ، والعقل المتوقد ، ولذا انصرف فى وقت مبكر إلى التفكير فى المسائل الدينية ، ولم يجد فى العبادة الوثنية التى تقوم من حوله ما يروى ظمأه الروحى (١).

وهذه الأفكار ولدت إلهاماً فى نفسه فاض من عقله الباطن على مخيلته وانعكس على بصره وسمعه فتصور أنه يرى ملكاً يخاطبه ، أو يتمثل له رجلاً ، أو يرى فى منامه ما اعتقد أنه وحى من الله كلف بإبلاغه إلى بنى وطنه (٢).

يقول المستشرق بروكلمان (٣)، مصوراً لنا الوحى النفسى :

"بينما كان بعض معاصرى النبى كأمية بن أبى الصلت (٤) شاعر الطائف وهى بلدة بجزاء مكة ، يكتفون بوحدانية عامة ، كان محمد يأخذ بأسباب

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤ .

(٢) انظر : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٦/١ ، ٢٢٨/١-٢٢٩ ،

تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٨ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٣٨٢/١ .

(٣) بروكلمان :

هو كارل بروكلمان . مستشرق ألماني ، تعلم اللغة العربية وكان عالماً بتاريخ الأدب العربى . عضو المجمع العربى وكثير من المجمع الأخرى بألمانيا . مات سنة ١٩٥٦م . من آثاره : "تاريخ الأدب العربى" ، "تاريخ الشعوب الإسلامية" وغيرها .

انظر : الأعلام ٢١١/٥-٢١٢ ، المستشرقون ٧٧٧/٢-٧٨٣ ، المستشرقون الألمان ص ١٥٣-١٦٢ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٩٧/١-١٩٨ .

(٤) أمية بن أبى الصلت :

هو أمية بن عبد الله بن أبى الصلت بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى . شاعر جاهلى من أهل الطائف . فى شعره حكم . اطلع على الكتب القديمة ، وقد لقى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به . مات سنة ٥٥ هـ على خلاف فى ذلك .

انظر : البداية والنهاية ٢٢٠/٢-٢٢٩ ، الإصابة ١٢٩/١-١٣٠ ، الأعلام ٢٣/٢ .

التحنث (١)، والتنسك (٢)، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي ، ليالى بطولها في غار حراء (٣) قرب مكة. لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة ، فكان يضح في أعماق نفسه هذا السؤال : إلى متى يمدهم الله في ضلالهم ، مادام هو عز وجل قد تجلى ، آخر الأمر ، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة ، رسالة النبوة ، ولكن حيائه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات الحارقة في غار حراء . ذلك بأن طائفا تجلى له هنالك يوما ، هو الملك جبريل على ما مثله محمد في مابعد ، فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة . وآمنت زوجته في الحال ، برسالته المقدسة ، وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التي ناداه فيها الصوت الإلهي وتكاثرت . ولم تكد هذه الحالات تنقضى حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه ، كوحى من عند الله " (٤) .

-
- (١) التحنث : هو التعبد . من الحنث وهو الإثم . أى يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرَج . انظر : لسان العرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ ، الصحاح ٢٨٠/١ مادة (حنث) . وانظر : الفائق ٢٧٢/١ ، النهاية ٤٤٩/١ .
- (٢) التنسك : هو التعبد . من النسك وهو الطاعة والعبادة ، وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى . انظر : لسان العرب ١٠/٤٩٨ - ٤٩٩ ، الصحاح ١٦١٢/٤ مادة (نسك) . وانظر : النهاية ٤٨/٥ .
- (٣) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال .
- معجم البلدان ٢٣٣/١ ، مراصد الاطلاع ٣٨٨/١ .
- (٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦ .

ويجاب عن ذلك بما يلي :

(١) لقد بين الله سبحانه وتعالى أن الوحي أمر خارج عن نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس نابعاً من داخلها ، بل حمله جبريل عليه السلام من عند الله إليه ، كما قال سبحانه :
 {وإنه لتزِيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين} (١).

فحامله عليه السلام ملك منفصل عن ذات محمد صلى الله عليه وسلم ليس خيلاً فيها ، وله من الصفات ما بينها الله في قوله :

{إنه لقول رسول كريم . ذو قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فآين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وماتشؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين} (٢).

(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يستشرف النبوة ، وما كان يرجوها ، ولم يطمع في حصولها له ، بل لم يرد في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي يتحدث عنه علماء اليهود والنصارى قبل البعثة ، ولو ثبت ذلك عنه لما ترك المحدثون تدوينه ، وقد دونوا ذلك عن أمية بن أبي الصلت لما كان يتوقع أن يكون نبياً .

(١) انظر مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٦/١ .

والآيات هي ١٩٢-١٩٥ من سورة الشعراء .

(٢) انظر كتاب النبوات ص ٢٥١ . والآيات هي ١٩-٢٨ من سورة التكوين .

وقد جاء في القرآن نفى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :
 {وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك} . فما كان صلى
 الله عليه وسلم يظن أن الوحي قبل إنزاله عليه يتزل عليه ، وإنما أنزله الله
 رحمة به وبالعباد ، فهو نعمة من الله وفضل (١).

وأما اختلاؤه صلى الله عليه وسلم وتعبده في الغار عام الوحي ،
 فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقويّاً لذلك الاستعداد الوهبي ، ولذلك
 الاستعداد السلبي ، من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم
 ولعاداتهم ، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة ، لأنه لو كان لأجلها
 لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقيق رجائه ، ولم
 يخف منه على نفسه ، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد
 الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأُنس بالله تعالى والرجاء في
 هدايته إلى المخرج منها (٢).

(٣) إن الوحي الذي حدث للنبي صلى الله عليه وسلم هو حدث إلزامي
 فجائي طارئ لا يمكن إحضاره واجتلابه ، وبالتالي لا يمكن دفعه ورده .
 ومن أوضح الأدلة على ذلك ما يعتريه من أعراض جسدية لاسيطرة له
 عليها ، كاحمرار وجهه وتتابع أنفاسه وسماع غطيط منه (٣) ، وما يتقاطر منه
 من عرق في اليوم الشديد البرد (٤) ،

(١) انظر : الوحي المحمدي ص ١٢٣، ١٢٤ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن
 ص ٢٢٥ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٠٨ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٣-٤ .

والآية هي ٨٦ من سورة القصص .

(٢) الوحي المحمدي ص ١٣١-١٣٢ .

(٣) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الحج (٢٥) ، باب غسل الخلق ثلاث مرات
 (١٧) من حديث يعلى بن أمية ١٤٤/٢ .

صحيح مسلم ، كتاب الحج (١٥) ، باب ما يباح للمحرم (١) برقم ١١٨٠ ،
 ٨٣٦/٢-٨٣٧ .

(٤) انظر : صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي (١) ، باب كيف كان بدء الوحي
 (١) ، من حديث عائشة رضي الله عنها ٣-٢/١ .

وثقل جسمه (١)، وما يسمعه الصحابة عند وجهه من صوت كدوى النحل (٢).

وهذه الأعراض لا تعتريه صلى الله عليه وسلم إلا في فترات وجيزة وبرهات متقطعة وذلك عند نزول الوحي عليه .
ومما يدل على ذلك أيضاً ما انتابه من أحوال نفسية تمثلت في خوفه صلى الله عليه وسلم من ملك الوحي في مبدأ أمره ، كما جاء في رواية عائشة رضى الله عنها . وقوله : "لقد خشيت على نفسي" (٣).
وقوله : "زملوني زملوني حتى ذهب عنه الروح" (٤).
وفي رواية جابر : "فجثت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض" (٥)(٦).
قال النووي رحمه الله في شرحه لرواية عائشة رضى الله عنها :

-
- (١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الصلاة (٨) ، باب ما يذكر في الفخذ (١٢) من حديث زيد بن ثابت ٩٧/١ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة القيامة (٤) ، باب {لا يستوى القاعدون من المؤمنين} (١٨) ، ١٨٢/٥ .
- (٢) انظر : مسند أحمد ، من حديث عمر ٣٤/١ .
قال الشيخ أحمد محمد شاكر : "إسناده صحيح" .
مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٢٥٥/١ ، مصنف عبد الرزاق ، باب تعليم القرآن وفضله برقم ٦٠٣٨ ، ٣٨٣/٣ .
مستدرک الحاكم ٥٣٥/١ ، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي .
- (٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ٣٦٢
- (٤) سبق تخريجه . انظر ص : ٣٦٢
- وزملوني : أى لفوني بالثياب . انظر : الفائق ١٢٢/٢ ، النهاية ٣١٣/٢ .
والروح هو الخوف والفرع . انظر : النهاية ٢٧٧/٢ .
- (٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٣) ، برقم ١٦١ ، ١٤٣/١ .
وجثت منه : أى فزعت منه وخفت . وقيل معناه : قلعت من مكانى . من قوله تعالى : {اجثت من فوق الأرض} (سورة إبراهيم : آية ٢٦) . النهاية ٢٣٩-٢٣١/١
- (٦) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠ .

"حتى فجئته الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك" (١) قال :
 "أى جاءه الوحي بغتة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متوقعاً
 الوحي" (٢).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في قولها "في اليوم الشديد
 البرد" (٣): دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي ، لما فيه
 من مخالفة العادة ، وهو كثرة العرق في شدة البرد ، فإنه يشعر بوجود أمر
 طارئ زائد على الطباع البشرية" (٤).

والدليل على أنه صلى الله عليه وسلم لاقدرة له على إحضار الوحي
 وجلبه ، فتور الوحي وانقطاعه عنه فترة من الزمن حتى شق ذلك عليه
 وأحزنه وأقضى مضجعه ، ثم جاءه جبريل بعد ذلك بقوله : {والضحى .
 والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى} (٥).

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة اقرأ باسم
 ربك الذى خلق (العلق) (٩٦) ، ٨٧/٦-٨٩ ، وفي كتاب التعبير (٩١) ، باب
 التعبير وأول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ٦٧/٨-٦٨ .
 وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحي (٧٣) برقم ٢٥٢
 ١٣٩/١-١٤٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٩٩/٢ .

(٣) سبق تخريجه . انظر ص ٣٧٢

(٤) فتح البارى ٢١/١ .

(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥٠/١ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في
 القرآن ص ٢٠٠ .

والآيات هي ١-٣ من سورة الضحى .

وانظر : صحيح البخارى ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الضحى (٩٣) ،
 ٨٦/٦ .

وانظر في انقطاع الوحي وحزن النبي صلى الله عليه وسلم : صحيح البخارى ،
 كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق) (٩٦)
 ٨٨/٦ .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحي (٧٣) ١٤٣/١ .

ومن ذلك ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عندما أبطأ جبريل فى النزول عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟" فتزلت : {وما تنتزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا} (١)(٢).

ومن ذلك حادثة الإفك (٣) عندما رميت السيدة عائشة رضى الله عنها زوجها بما رميت به ، ولبت صلى الله عليه وسلم شهراً لا يوحى إليه فى شأنها حتى استدعى على بن أبى طالب وأسامه بن زيد يستأمرهما فى فراق أهله ، وحتى قال لها :

"يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيروك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" (٤).

(١) سورة مريم : آية ٦٤

(٢) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٦) ، ٨٠/٤ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة كهيعص (مريم) (١٩) ، باب قوله : {وما تنتزل إلا بأمر ربك} (٢) ، ٢٣٧/٥ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} (٢٨) ، ١٨٨/٨ .

(٣) الإفك : فى الأصل الكذب . وأريد به هنا ما كذب به على عائشة رضى الله عنها فيما رميت به .

انظر : الفائق ٤٩/١ ، النهاية ٥٦/١ .

(٤) هذا جزء من حديث عائشة رضى الله عنها الطويل فى حادثة الإفك . والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الشهادات (٥٢) ، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً (١٥) ، ١٥٤/٣-١٥٨ ، وفى كتاب المغازى (٦٤) ، باب حديث الإفك (٣٤) ، ٦٠-٥٥/٥ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة النور (٢٤) ، باب {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً} (٦) ، ٩-٥/٦ .

وأخرجه مختصراً فى كتاب الشهادات ، باب إذا عدل رجل أحداً فقال لانعلم إلا خيراً (٢) ، ١٤٦/٣-١٤٧ ، وفى كتاب التفسير ، تفسير سورة يوسف (١٢) ، باب قوله {بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصير جميل} (٣) ، ٢١٦/٥ ، وفى تفسير سورة النور ، باب {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا} (١١) = ١٣-١١/٦ .

ففى هذه الحادثة أقوى دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لاسيطرة له على الوحي ولاهيمنة ، وإنما هو أمر من عند الله تعالى .

ومن ذلك : إن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى يهود المدينة يستخبروهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يسألوه عن أهل الكهف ، وذى القرنين والروح ، فسألوه ، فقال صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتكم عنه غداً" ولم يستثن . فانصرفوا عنه ، فمكث خمس عشرة ليلة لم يأته الوحي ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لايجربنا بشيء مما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف ، وفيها معاتبته على حزنه عليهم وخبر ماسألوه (١).

(٤) أقام صلى الله عليه وسلم فى قومه أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ولم يكن معروفاً بينهم بالعلم والمعرفة ، ولاالتخيل ، ولاالوهم الدينى ، ولاالشعر ، ولاالخطابة ، بل كان أمياً لامعرفة له بالكتابة ولاالقراءة ، ولكنه فجأة يدعوهم إلى عقيدة حكيمة ، وعبادات سليمة ، وآداب مستقيمة ، وأخلاق قويمه ، فأشربها ملايين البشر ودانوا لله بها ، ولم يأت مايبين عدم صحتها أو استقامتها .

= وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى { يريدون أن يبدلوا كلام الله } (٣٥) ، ١٩٨/٨ ، وفى باب قول النبى صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع الكرام البررة (٥٢) ، ٢١٤/٨ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب التوبة (٤٩) ، باب فى حديث الإفك (١٠) برقم ٢٧٧٠ ، ٢١٣٦-٢١٢٩/٤ .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/١٨٠، ١٨١ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٧١-٧٢ . وقد أورده البيهقى من طريق ابن إسحاق . وفى سنده راو لم يسم . دلائل النبوة ٢/٢٦٩-٢٧١ .

فلا يمكن لهذه الأحكام التي تتسم بالكمال والاستمرارية أن تكون صادرة إلا من الخالق العظيم المطلع على غيب السموات والأرض سبحانه وتعالى (١).

قال الله تعالى : {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} (٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى :

{قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به} : "أى هذا إنما جئكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيتته وإرادته ، والدليل على أنى لست أتقوله من عندى ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل لاتنتقدون على شيئا تغمصونى به ولهذا قال : "فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون" : أى أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل" (٣).

(٥) النبوة ليست أمرا كسبيا يناله المرء بسعيه وكسبه ، ولا تخضع لجهد فكرى أو ترقى روى وأخلاقى ، ولا تنال بالقيم الدنيوية ، ولا الاعتبار المادية ، فليست بابا مفتوحا يلج من خلاله من سمت نفسه ، أو عظم لإشراقه ، بل هى اصطفاء إلهى يختص به من يشاء من عباده ، {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (٤). وقد حكى الله عن المشركين عندما قالوا : {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} أجابهم بقوله : {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض

(١) انظر : الوحى المحمدى ص ١٣٧، ٩٣ ، الإسلام والمستشرقون ص ٣٢٢ .

(٢) سورة يونس : آية ١٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤١٠/٢ .

(٤) انظر : كتاب النبوات ص ٤٢٢ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٠٦

مناهج للمستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ .

والآية هى ١٠٥ من سورة البقرة .

درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون} (١).
وقال تعالى : {الله أعلم حيث يجعل رسالته} (٢)، وقد جعلها في محمد
صلى الله عليه وسلم كما جعلها في الرسل قبله ، واصطفاه لذلك ، فأى
غرابة وعجب في ذلك؟ إن قدح بروكلمان ومن شايعه في إثبات الوحي
لمحمد صلى الله عليه وسلم يقدح في ديانتهم وفي رسوله الذى يؤمن به ، فما
قاله هنالك في إثبات الوحي يلزمه أن يقوله هنا ، إذ لفارق بين
الوحيين (٣).

ولكن لعل بروكلمان يرى كما يرى غيره من أهل ملته أن الوحي
هو حلول روح الله في روح الموحى إليه . ولأجل ذلك ألهموا رسولهم ،
وهذا تعريف خاطيء للوحي ، وقول فاسد بل هو كفر والحاد ، فالله لا يحل
في غيره ولا يحل فيه غيره (٤).

(٦) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بدعوته في قوله :
{فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} (٥)، فالتزم صلى الله عليه
وسلم أمر ربه وأعلنها مدوية في سماء مكة ، وبأدى قومه بالإسلام ، مظهراً
لأمره ، معلناً له ، فعاب آلهتهم وبين ضلالهم وانحرافهم عن الحق ، فقاموا
في وجهه وكاشفوه العداء ، وهو في صلابة لا ينثنى ولا يلين ، فذهبوا إلى عمه
الذى حذب عليه وحماه فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا
وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن
تخلى بيننا وبينه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى على ما هو
عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، فعاد زعماء القوم إلى أبى طالب مرة
أخرى ، فقالوا : إنا والله لانصير على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا

(١) سورة الزخرف : آية ٣١، ٣٢

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٤

(٣) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ١٦٦، ١٧٠ .

(٤) انظر : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ص ٢٧ .

(٥) سورة الحجر : آية ٩٤

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين^(١).

فقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قومه مالمقى ، من العنت والشدة ، فلو أن أمر الوحي كان ذاتياً ينبع من نفسه كيف صبر على مواجهة أولئك ، وهو أمر لاتستحسنه النفوس ، ولاتسعى إليه؟ بل هو وحي من الله وماعلى الرسول إلا الالتزام والانصياع والطاعة^(٢).

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٥٩/١-١٦١ .

(٢) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٠٨ .

(٢) أن الوحي ظاهرة للإصلاح الاجتماعي :

لقد عاش محمد في مكة وكان على علم ودراية بحالة المجتمع الذي يعيش فيه ، فقد كانت المادية مؤثرة على ذلك المجتمع ، وتحكم فيه الكبراء على الضعفاء والأغنياء على الفقراء ، وساد فيه الظلم والأنانية وحب الذات ، وسوء المعاملة ، وقد لمس محمد ذلك بنفسه لأنه كان يتيماً ، فأثرت تلك العوامل في نفسه فلجأ إلى الكهوف والغيان ليفكر في أمور دينية يعالج من خلالها مايسود في مجتمعه من فساد اجتماعي .

وهناك تملكه شعور بأن الله يدعوه ، وأصبح هذا الشعور قوة تدفعه إلى أن يكون مريباً لقومه ، ومبشراً ومنذراً لهم^(١).
يقول المستشرق وات^(٢):

"لابد أن محمداً كان واعياً منذ وقت مبكر من عمره بمشاكل مكة الاجتماعية والدينية ، وكونه يتيماً جعله بلاشك أكثر إدراكاً لليلة الموجودة في المجتمع . أما نظرته الدينية فالمحتمل أنها كانت نوعاً من التوحيد الغامض الموجود بين أكثر المكيين استنارة ولكن لابد أنه كان بالإضافة إلى ذلك يبحث عن نوع من الإصلاح في مكة وكل الأشياء في بيئته ستجتمع لتقترح أن هذا الإصلاح لابد أن يكون دينياً .

بهذه الحالة العقلية تعمد محمد فيما يبدو البحث عن العزلة ليفكر في مسائل إلهية ويقوم ببعض العبادات ربما للتكفير عن الذنوب"^(٣).

(١) انظر : العقيدة والشرعة ص ٧-٨ .

(٢) هو دبليو منتجمري وات . عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرة . له عدة مؤلفات عن الإسلام منها : "محمد في مكة" ، "محمد في المدينة" ، "الوحي الإسلامي في نظر العالم الحديث" ، "الجدل الديني" .

انظر : المستشرقون ٥٥٤/٢ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٠٧/١ .

(٣) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٢٠/١-٢٢١ .

ويقول المستشرق الألماني هوبرت جريمي^(١) في كتابه محمد :

"لم يكن محمد في بادئ الأمر يبشر بدين جديد ، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . فالإسلام في صورته الأولى الأصلية لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه ، ذلك لأننا إذا نظرنا إليه عن كثب ، نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية ، بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين ، والفقراء المضطهدين ... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين ، وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته"^(٢).

(١) هو برت جريمي "جرميته" :

هو أستاذ اللغات الشرقية في مونستر .

من آثاره : "محمد" ، "ترجمة القرآن" ، "عرب الشام قبل الإسلام" . وله عدة

دراسات أخرى . مات سنة ١٩٤٢ م .

انظر : المستشرقون ٧٦٠/٢ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ ، وانظر : ٢٧/١-٢٨ .

ويجاب عن ذلك بما يلي :

إن تصور المستشرقين للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه مصلح اجتماعي وليس نبياً من عند الله ، تصور يبنى على عجز هؤلاء المستشرقين عن فهم الوحي فهماً حقيقياً .

وذلك لانغماسهم في الماديات التي أثرت على تلك العقول فلم تصفوا لفهم ما وراء حاجز المادة ، وإنما حصرت نفسها بين جدران المحسوسات ، وليتها وقفت هنالك صامتة مكمنة الأفواه ولكنها كشفت عن مزيد جهلها بإنكارها لعالم الغيب ، أضف إلى ذلك ما يساير هذا الإنكار من دس وطمع وتشويه وتعصب وتضليل .

لقد وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بكونه مصلحاً اجتماعياً ليضاف إلى صف المصلحين الكثر الذين وجدوا في هذا العالم فتخلع عنه عند ذلك صفة النبوة ويذوب في مجاهل التاريخ كما ذاب كثير من أولئك الذين قاموا بخدمات جليلة لإصلاح مفاصل مجتمعاتهم .

هذا خلط وفهم سقيم لمقام النبوة التي هي وهب إلهي مع مواقف بعض البشر الذين سمت أنفسهم وصفت أذهانهم فثاروا على وضع ما أو تصحيح خطأ ما .

يقول د. نذير حمدان :

"ومعظم المستشرقين الذين يدرسون ظاهرة الوحي والنبوة إنما يدرسونها من خلال الأحداث الإنسانية والأحوال البشرية ، وكثيراً ما يستعينون بالدراسات النفسية والتحليلات التاريخية في دراسة هذه الظاهرة كما تدرس بطولات آدمية وعبقريات إنسانية ، فإذا بهم يخلطون بين النبوة والعبقرية ، ويلتبس عليهم معاني البطولة ومعاني الرسالة" (١).

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ص ٢٩ .

ويقول د. عماد الدين خليل كاشفاً للمنطلق الذى انطلق منه وات فى زعمه السابق . يقول :

"فإنه - أى وات - لم يستطع الفكاك من نقاط الشد الأخرى التى تمسك بتلابيب العقل الغربى : النزوع العلمانى ، والمسلمات المادية ، والرؤية الوضعية ، والانحسار على المنظور ، واعتقاد القدرة على إخضاع كل ظاهرة تاريخية أو بشرية لمقولات التحليل العقلى الخالص ، حتى ولو كانت "غيبية" تند عن التعليل والتحليل" (١).

وعجباً لهؤلاء المستشرقين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية الحقائق البينة الماثلة أمام كل ذى لب وعقل ، فإن هذا الدين الإسلامى الذى سعدت به شعوب شتى ، وقامت به دول ، واستقامت به مجتمعات ، وظل طيلة هذه القرون صامداً فى وجه كل تحدى ، وعجزت الإنسانية أن توجد مثيلاً له ، لكماله وقامه وسده لحاجات البشرية فى جميع جوانبها ، وصدق الله إذ يقول : {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (٢) فهل يقصر كل ذلك على تصحيح وضع معين فى بيئة جاهلية يجدها الزمان والمكان؟ وهل التأريخ الذى لجأ إليه أولئك وجعلوه مقياساً للحكم من خلاله على دين الله الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، يقف سنداً لهم فى حكمهم ذاك؟

إن التاريخ يثبت بقاء هذا الدين ودوامه وصلاحه لكل عصر ومصر . فهلا نظروا إلى عصور الإسلام الزاهية ، عندما كان الغرب يغط فى نوم عميق ويحيط به ظلام دامس ، والمسلمون يعيشون الحضارة فى أوجها والسعادة فى قمتها ، فى ذلك الوقت الذى لجأ الغرب فيه إلى علوم المسلمين وثقافتهم ينهل من معينها ، فكانت له كالنافذة التى بدأ يبصر من خلالها نور الرقى والتقدم؟ أما كان الإسلام صالحاً لذاك الوقت ، الذى انخنت فيه أوروبا ذليلة تستجدى ما يضمن لها سعادتها وبقائها من ثقافة الإسلام وعلومه؟

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١٧٤/١ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧

أم كانوا ينظرون إليه في ذلك الزمان بأنه صيحة إصلاحية لتصحيح وضع جاهلية قريش المحاطة بجبال مكة العالية ، حيث لا مجال لنفوذ تلك الصيحة من خلال تلك الجبال؟

إنه حكم جائر ، وزعم مناف للصواب ، {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} (١).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

"فإذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون شىء منها من تأثير الوراثة ، والبيئة والتربية ، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيره ممن لقى في أسفاره القليلة ، أو أنه فكر في حاجة البشر إلى مثلها بما أدركه بذكائه الفطرى من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق ، والوفاء بحاجة الأمم كلها ، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا ، وعهد حب الظهور إلى أن تظهر في سن الكهولة بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الأمة العربية ، المغيرة لطباعها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ماقصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله بها" (٢).

ثم إن ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن لعلاج الفروق بين الأغنياء والفقراء فقط ، وإنما جاء بشرع متكامل في كل جوانبه ، فجاء ببيان التوحيد الخالص والعقيدة الصافية من كل شوائب الشرك ، كما جاء بإيضاح العبادات السامية التى تربط الإنسان بربه وخالقه ، وبين المعاملات التى تربط الإنسان بجميع أفراد المجتمع ، ورسم الأخلاق التى يسمو ويعلو من قام بها والتزمها ، فالإسلام جاء بكل مايصلح البشر ويضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة .

(١) سورة التوبة : آية ٣٢، ٣٣

(٢) الوحى المحمدى ص ٣٤٣ .

وهناك أحوال وحوادث غيبية كشف عنها الوحي مما لا يمكن أن تؤخذ من بشر قط . ففي الماضي ، مافصل فيه من أخبار الأمم السابقة ومواقفهم من الرسل وغير ذلك . وفي المستقبل فيما أخبر به من حوادث ستقع فوقعت كما أخبر . وهذا لا يمكن أن يتأتى لأحد من الخلق . وقد قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} (١) . والذى يستغرب له الإنسان ويستعجب منه أن يصل الأمر بالمستشرق (جرىمى) أن ينفى النبوة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويصفه بأنه داعية من دعاة الاشتراكية ، تلك الفلسفة المادية الالحادية الباطلة التى اقتلع الإسلام جذورها وبين فسادها وضلالها ، إن (جرىمى) لا يدرى ما يخرج من رأسه أن يصل به السخف والسذاجة إلى هذا الحد (٢) .

(١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٦٣، ٢٦٤ .

والآية هى ٤٩ من سورة هود .

(٢) انظر : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ .

(٣) أن الوحي عبارة عن أمراض عقلية ونفسية :

ذهب بعض المستشرقين إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصاباً ببعض الأمراض العقلية والنفسية التي أثرت عليه تأثيراً بالغاً ونتاج من تلك الآثار ما ادعى أنه وحي من الله .

قال جولد زيهر :

"وفي خلال النصف الأول من حياته اضطرت مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجتريها في قرارة نفسه ، وهو منطو في تأملاته أثناء عزله ، ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلح فيها أثر حالته المرضية ، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين" (١).

ولكن ما حقيقة هذه الأمراض وما نوعيتها؟

يجيب على ذلك عدد من المستشرقين مع تباين تشخيصاتهم .

زعم الويز شيرنجر (٢) ، وجوستاف فايل (٣) وغيرهم أنه كان مصاباً بحالات من الصرع يغيب فيها عن الناس وعما حوله ويظل ملقى على أثرها بين الجبال لمدة طويلة ، يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم ، ويتصبب عرقاً ، ويثقل جسمه (٤).

(١) العقيدة والشرعة ص ٧ .

(٢) الويز شيرنجر :

هو ابن كرستوفر شيرنجر . مستشرق نمسوى ، يجيد كثيراً من اللغات ، وله المام بالأدب الشرقى . مات سنة ١٨٩٣ م .

من آثاره : "حياة محمد" ، وقد نشر بعض الكتب العربية مثل "الإصابة في تمييز الصحابة" ، "الإتقان في علوم القرآن" .

انظر : الأعلام ٨/٢ ، المستشرقون ٦٣١/٢-٦٣٢ .

(٣) جوستاف فايل :

مستشرق ألماني ، له كتاب مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن . مات سنة ١٨٨٩ م .

انظر : آراء المستشرقين ٢٢٩/١ .

(٤) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن ٣٩٨/١ .

وتعتريه التشنجات ، وتخرج منه الرغبة . فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحى من الله (١).

وبعضهم اعتبرها حالة هستيريا ، وتهيجاً عصبياً ، يظهر عليه أثرها في مزاجه العصبي القلق ، ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض ، حتى كان يصل به الأمر أن لا يفرق بين تعاقب الليل والنهار ، وقد هزل على إثرها جسمه ، وشحب لونه ، وخارت قواه (٢).

ويذهب المفكر الفرنسي جوستاف لبون (٣) إلى أنه نوع من الهوس (٤) ، فيقول :

"ونرى محمداً الثاقب النظر من الناحية العلمية من ذوى الهوس ، كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات ، وليس في ذلك ما يحط من قدره ، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشأوا الديانات وقادوا الناس ، وإنما أولو الهوس هم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول ، وأثاروا الجموع ، وذلّلوا الصعاب . ولو كان القصد لالهوس ، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر" (٥).

وزعم نولدكه (٦) بأنها نوبات انفعالية طاغية ، حيث يقول :

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٢٠٢ .

(٢) آراء المستشرقين حول القرآن ٣٩٨/١ ، نقلاً عن مقدمة القرآن لمونتجمرى وات ص ١٧-١٨ ، ومقدمة القرآن لبل ص ٢٩-٣٠ .

(٣) جوستاف لبون :

لم أقف له على ترجمة .

(٤) الهوس : بالتحريك ، طرف من الجنون ، ويرادفه المس .

انظر : المعجم الفلسفى ٥٢٦/٢-٥٢٧ ، القاموس المحيط ص ٥٧١ .

(٥) حضارة العرب ص ١٢٦-١٢٧ .

(٦) نولدكه :

هو تيودور نولدكه شيخ المستشرقين الألمان ، وكانت له مكانة بين المستشرقين عامة يحسن اللغات الشرقية . مات سنة ١٩٣٠ م .

من آثاره : "تاريخ القرآن" ، "حياة النبی محمد" ، "دراسات لشعر العرب القدماء" انظر : الأعلام ٩٦/٢ ، المستشرقون الألمان ص ١١٥-١٢٤ ، المستشرقون

٧٣٨/٢-٧٤٠ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٨٥/١ .

"وكانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة
للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج ، فلولا ذكاؤه
الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه ... مع هذا كان يعتقد أن مشاعره
الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة" (١).

(١) آراء المستشرقين حول القرآن ٣٨٧/١ ، نقلًا عن تاريخ القرآن لنولدكة ٥/١ .

ويجاب على ذلك :

هذا أيضاً نشأ من التصور الخاطيء والفهم السقيم لحقيقة الوحي والنبوة ، والعجز التام عن معرفة العلاقة التي تربط بين جبريل الملك ومحمد النبي عليهما السلام ، وما يظهر من آثار على النبي صلى الله عليه وسلم من تلك العلاقة (١).

فتلك ظاهرة لا تخضع للعلوم التجريبية والتحليلات النفسية ، أو الاستنتاجات العقلية لعجز البشر عن إدراك كنهها وحقيقتها .
يقول د. التهامي نقرة :

"فوصف ظاهرة الوحي الإلهي ، وما كان يعتري النبي عند تلقيه من حالة خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية ، واتصاله بالملكية الروحانية بالهوس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية على ضوء التحليل النفسى جهل خطير بحقيقة النبوة . وهل يكفى لصنف من العلوم أن يصل إلى حد من الدقة والتطور ، بحيث تفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى ، وينتصب معياراً؟ إن تطور منهج من المناهج العلمية لا يعطى كمعيار خارج ميدانه" (٢).

إن المستشرقين كالبيغاوات يرددون شبه إخوانهم أعداء الأنبياء والرسل الذين جعلوا ما يحصل لأنبياء الله مثل الذي يحصل للمجانين والسحرة كما قال تعالى : {كذلك مآتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون} (٣).

(١) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٢٩ ، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٨/١ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٢٨/١ - ٢٩ .

(٣) انظر : كتاب النبوات ص ٢٥٠ .

والآيات هي ٥٣،٥٢ من سورة الذاريات .

وهى عين الفرية التى رمت بها قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم
فبرأه الله مما قالوا ، بقوله سبحانه وتعالى :
{فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} (١).

وقد ضلوا بذلك وانحرفوا عن الحق فمثلهم كمثل من ضل الطريق
وتشعبت عليه السبل ف يأخذ يمينا وشمالا ولا يهتدى أبداً ، كما قال سبحانه :
{انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} (٢).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : {هل أنبيئكم
على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم
كاذبون} (٣) يقول :

"يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول صلى
الله عليه وسلم ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به
رعى من الجان ، فتره الله سبحانه جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ونبه
أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأن تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم
أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين ... وإنما ينزلون على من يشاكلهم
ويشابههم من الكهان الكذبة" (٤)

أرأيت كيف يردد المستشرقون شبهة عفا عنها الدهر وطوتها السنون
وبين الله فسادها قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ثم جاءوا يلوكونها
ويدندنون بها تشويهاً للإسلام وتشكيكاً في نبيه صلى الله عليه وسلم (٥).
وهل ياترى يغيب الفرق بين العاقل والذى اختل عقله؟

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٧٩/١ فى رميهم النبى بالجنون .

والآية هى ٢٩ من سورة الطور .

(٢) انظر : كتاب النبوات ص ٣١٤ ، تفسير القرآن العظيم ٣١٠/٣ .

والآية هى ٩ من سورة الفرقان .

(٣) سورة الشعراء : آية ٢٢١-٢٢٣

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٥٢/٣-٣٥٣ .

(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٢٨ .

إن التسوية بينهما من التسوية بين الأضداد المختلفة التي يستحيل أن يختلط أمرها على عاقل ، إن الذى يجعل العاقل مجنوناً كالذى يجعل المجنون عاقلاً ، وهذا من أبطل الباطل ، فكيف يجعل النبي الذى هو أكمل البشر عقلاً مجنوناً ، سبحانه هذا بهتان عظيم (١).

وهل يعقل أن تصدر كل هذه الشرائع السامية الرفيعة والتشريعات التي حلت أعتى مشاكل الحياة ، بل وهذا القرآن الذى أعجز عقلاء البشر . عن رجل خولط عقله فلا يعي مايقول ؟

قال د. حسن عتر :

"ولو نظرت فى الشريعة الإسلامية وما فيها من حكم ومواعظ وأحكام تشريعية سامية وأخلاق رفيعة لأثار فيك ذلك تساؤلاً هل يصدر كل ذلك التعقل والحكمة عن الجنون واختلال المشاعر؟ ومتى كان الجنون منبع الحكمة ، والفساد مصدر الخير؟ ثم انظر فى سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم هل تراه كان مبتلى بالغفلة والبلاهة فيتراءى له مايتراءى؟ تراه بنى مجتمعاً قوياً على دعائم وطيدة ، وقاد معارك النصر والظفر ، وأسس دولة على أسس منيعة منحتها قوة للتوسع بعده من جبال الصين شرقاً الى حدود فرنسا غرباً؟

إن محمداً وكافة الرسل قبله ، قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها . يعترف لهم بهذا أتباعهم وأعداؤهم على السواء . وهنا نتيقن أن مثله فى نباهته ويقظته وذكائه لا تختلط عليه الأمور ولا تقلبه الأوهام والهواجس" (٢).

لقد كان صلى الله عليه وسلم أكمل الرجال عقلاً ، وأشدّهم فطنة ، وأصوبهم قولاً ، وأحكمهم فعلاً . وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعایشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنوناً أو اختلال عقل ، وذلك فى

(١) انظر : كتاب النبوات ص ٢٣٦ .

(٢) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٢٧ .

قوله : {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد} (١).
يقول ابن كثير رحمه الله :

"يقول تبارك وتعالى قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون {إنما أعظكم بواحدة} أى إنما آمركم بواحدة وهى "أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة" أى تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً (ثم تتفكروا) أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه . ويتفكر فى ذلك" (٢).

وقال القاسمى رحمه الله :

"وقوله تعالى : {مابصاحبكم من جنة} أى جنون . مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجيح صدقه . والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بـ(صاحبهم) للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم ، لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بقوة العقل ، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل" (٣).
وأما زعمهم بأنه مصاب بالصرع ، فهذا زعم باطل وخطأ علمى فاحش فإن أعراض الصرع تختلف كل الاختلاف عما كان يعتزى النبى صلى الله عليه وسلم عندما يأتية الوحي . فالصرع مرض مصحوب باصفرار الوجه وبرودة فى الأطراف ، واصطكاك فى الأسنان ، ويتعطل تفكير المصروع وإدراكه تماماً ويدخل فى غيبوبة كاملة ، فلا يدرى أثناء نوبته ما يدور حوله ، وتعتريه تشنجات ، وينسى ما حدث له خلال ذلك نسياناً تاماً ، وهذا بخلاف أمره صلى الله عليه وسلم ، فلا يظهر عليه شئ مما ذكر من أعراض هذا

(١) سورة سبأ : آية ٤٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٣/٣ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٣١١/١٤ - ٣١٢ .

(٣) محاسن التأويل ٤٩٦٦/١٤ .

المرض عند نزول الوحي عليه ، بل يظل في تمام وعيه وكامل قوته العقلية ، قبل وأثناء وبعد الوحي ، كما قال في حديثه : "فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال" (١)(٢).

وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الحضور وهم يشاهدون ذلك كما ثبت ذلك من حديث عمر (٣) وعائشة (٤) رضي الله عنهما .

لقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة ، لم يطرأ عليه أى خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام ، بل كان كمال عقله مضرب الأمثال .

وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها ، من كفاحه المرير في سبيل نشر دعوته ، ومن سياسته الحكيمة وخططه الحريية وتنظيماته

(١) قطعة من حديث أخرجه البخارى في صحيحه . من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب بدء الوحي (١) ، باب (٢) ، ٣-٢/١ ، وفي كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٦) ، ٨٠/٤ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل (٤٣) ، باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد (٢٣) برقم ٢٣٣٣ ، ١٨١٦-١٨١٧ .

فيفصم : أى يقلع . والفصم هو أن يتصدع الشيء فلا يبين .

النهاية ٤٥٢/٣ ، وانظر : الفائق ١٢٢/٣ .

(٢) انظر : النبأ العظيم ص ٧٢ ، محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ص ١١٣-١١٤ ، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم ٤٠١/١ .

(٣) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بيان الإيمان والإسلام (١) برقم ٨ ، ٣٨-٣٦/١ . وهو حديث سؤال جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان .

(٤) روى البخارى بسنده إلى مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها فأين قوله : {ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} (سورة النجم : آية ٨، ٩) قالت : ذاك جبريل كان يأتيه في صورة رجل وإنه أتاه هذه المرة في صورته فسد الأفق" . كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب إذا قال أحدكم آمين (٧) ، ٨٤/٤ .

الاجتماعية ، فلو كان مصاباً بالانهيار العصبي كما يزعمون ، فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة والتنظيمات الدقيقة (١).

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

"أجئون مصروع يبنى دولة ، وينشئ نظاماً ، ويقيم دنيا ، ويعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أجئون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزجرة وحيداً في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام علية وريح رخاء" (٢).

يقول المستشرق ماكس مايرهوف (٣):

"أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي أو بداء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول" (٤).

وأما زعمهم بأنه مصاب بمرض الهستيريا وهو مرض عصبي عضال ، وراثي يكثر في النساء ، من أعراضه شذوذ في الخلق ، وضيق في التنفس

(١) انظر : الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٥٥ .

(٢) النبي محمد ص ١٣٩ .

(٣) مستشرق ألماني . من كبار أطباء العيون العالميين ، وفي طليعة مؤرخي الطب العربي ، تعد اكتشافاته فيه وكتابته عنه ، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية مرجعاً دقيقاً وافياً . سكن مصر وانتخب نائباً لرئيس المعهد المصري والجمعية الطبية المصرية . توفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م .

من آثاره : "فصلاً في حياة حنين بن إسحاق" . نشر "شرح أسماء العقار" لموسى ابن عبد الله القرطبي وغير ذلك .

انظر : المستشرقون ٧٦٦/٢-٧٦٨ ، الأعلام ٢٥٦/٥-٢٥٧ .

وانظر ترجمته في : المستشرقون الألمان ص ١٤١-١٤٤ .

(٤) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٥٥ .

نقلًا عن : الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب ص ١٦٢ ، والقرآن والمستشرقون ص ٢٦-٢٧ .

والصدر ، واضطراب في الهضم ، وقد يحدث اضطراباً في اليدين والرجلين ، إلى حد الشلل في بعض أعضاء المريض ، فإذا تقدم المرض وصل إلى حالة من التشنج يسبقها بكاء وهذيان ، وقد يصل إلى حد الإغماء ، وقد يستمر الحال بالمريض حتى يرى أشباحاً وأعداء تحاربه وتقاتله ، ويسمع أصواتاً لاحقيقة لها ، فيتحرك حركات مضطربة ، ويقفز من مكان إلى آخر بصورة مرعبة (١).

فهذا الزعم لا يستند إلى الحقيقة بأي وجه من الوجوه ، وواقع النبي صلى الله عليه وسلم وحاله يشهد بطلان ذلك ، وبرأته عنه ، فهو صاحب الطبع الرصين ، والنفس الهادئة ، والخلق الحسن ، وكان صلى الله عليه وسلم صبوراً عند الغضب ، حليماً عند المقدرة ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه ، فقالت : "فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن" (٢). وفي حديث معاوية بن الحكم السلمي عندما تكلم في الصلاة ، قال : "فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي! مارأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه . فوالله ما كهرني (٣) ولا ضربني ولا شتمني . قال : "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هو التكبير والتسبيح وقراءة القرآن" (٤).

فهل يعقل لمن اتصف بهذه الخصال الكريمة والسجايا الحميدة أن يكون مصاباً بمرض يحدث الرعب في قلب من يراه؟

(١) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن ص ٤٠٢-٤٠٣ ، المعجم الفلسفي ٥٢٠/٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين (٦) ، باب جامع صلاة الليل (١٨) برقم ١٣٩ ، ٥١٣/١ .

(٣) كهرني : أي نهزني . يقال كهره إذا زبره واستقبله بوجه عبوس . انظر : الفائق ٢٨٨/٣ ، النهاية ٢١٢/٤ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ، باب تحريم الكلام في الصلاة (٧) برقم ٥٣٧ ، ٣٨١/١-٣٨٢ .

إن المستشرقين لم يجدوا مايتشبثون به من مطاعن حول نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فراحوا يهرفون بما لايعقلون ، وينعقون بما لايدرون ، فكانت مزاعمهم أضحوكة للولدان ، يعرف فسادها كل من وقف عليها ، إلا من طمس الله بصيرته فلايعى ولايفقه . {ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً} (١).

وأما زعم لبون أنه مصاب بالهوس ، فالجواب عما سبق جواب عنه ولكن من المستحسن أن نورد مذكروه د. التهامى نقرة في رده عليه إذ يقول : "أليس من مجازفة القول أن يعد "لبون" محمداً صلى الله عليه وسلم من المتهوسين ، ولم يثبت تاريخياً قبل البعثة ولابعدها ، أنه كان من ذوى الوسوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب ، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التى لا بد لها من انعكاسات وردود فعل . ألم تشهد خديجة وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو فى غار حراء لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع؟" كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق" (٢).

فما أبعد هذا الكمال الإنسانى عن الهوس الذى قد يملى على صاحبه مواقف غريبة ، وأفعالاً ينبو عنها الذوق السليم! ولكنه الجهل بحقيقة الدين واستعمال منهج النقد العلمى فى موضوعه ويقول :

"وهل الذين آمنوا به منذ أربعة عشر قرناً واتبعوا الدين الذى جاء به - من قادة الفكر على امتداد العصور - كلهم أغبياء مغرورون ، لم يميزوا بين الحق والباطل ، والصدق والكذب؟

والعلم وحده لا يستطيع أن يقدم تفسيراً مقنعاً لهذا التحول الجذرى ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا على ضوء الإيمان بما تضمنه هذا الوحي

(١) سورة الكهف : آية ١٧

(٢) سبق تخريج الحديث . انظر ص ، ٣٦٢

السماء الذى ظل يقودها على مايزيد من عشرين عاماً ولم يخلف ماوعده ، ولا كذبه فيما أخبر به من أنباء الغيب .

وأى فرق بين تقولات المشركين فى الجاهلية وتفسيرهم لظاهرة الوحي عندما ينزل على الرسول ، وما يناله عند التلقى من جهد وعناء بالجنون أو السحر تارة ، وبالشعر أو الكهانة أخرى ، وبين تفسير المستشرقين الأكاديميين للوحي من الوجهة النفسية أو العقل الباطن أو نحو ذلك مما اخترعوه وانتحلوه كالهوس الذى يزعمه لبون^(١).

وكونه مصاباً بنوبات انفعالية تطغى عليه وتسيطر عليه كما يدعى "نولدكه" ، فتلك شبهة لا تخرج عما سبق ذكره فى شأن الوحي النفسى ، فليس هنالك انفعالات ولا هيجان أحاسيس عند نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم ، بل يكون فى قمة الهدوء وسلامة الأعصاب ورزانة الطبع لا كما يقول "نولدكه"^(٢).

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٣٠، ٢٩/١ .

(٢) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن العظيم ٣٨٩/١ .

(ب) المحور الثاني :

وهو أن الوحي أمر خارج عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضاً مفسر عندهم بعدة تفسيرات :

(١) أن الوحي مقتبس من اليهودية والنصرانية :

لقد زعم المستشرقون أن الوحي انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية ولكن محمد كيفه تكييفاً بارعاً وفقاً لمتطلبات شعبه الدينية (١). ويشرح لنا جولد زيهر كيف تم له ذلك ، وكيف أصبحت تعاليم اليهودية والنصرانية وحيّاً تبناه محمد صلى الله عليه وسلم يقول :

"فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه ، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية.

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بايحاء قوته التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيّاً إلهياً ، فأصبح - بإخلاص - على يقين بأنه أداة لهذا الوحي" (٢).

وقد وصل الأمر ببعضهم وهو ماحكاه فيليب حتى ، أن زعموا أن الإسلام برمته بدعة نصرانية أكثر منه ديناً جديداً (٣).

ولم يخف جولد زيهر قوله في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تتلمذ على رهبان النصراني وأحبار اليهود الذين كانوا أساتذة له (٤).

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٩ .

(٢) العقيدة والشرعية ص ٥-٦ الأولى .

(٣) انظر : تاريخ العرب ١٧٦/١ .

(٤) انظر : العقيدة والشرعية ص ١٣-١٤ الأولى .

وكيف تم له الاتصال بأولئك؟
 يرى بروكلمان أن ذلك تم من خلال رحلاته (١).
 ويضيف جولد زيهر أن ذلك تم أيضاً عن طريق التقاليد أو الروايات
 المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية (٢).
 وقد حاول المستشرقون إرجاع كثير من شعائر الإسلام إلى اليهودية أو
 النصرانية أو الاثنين معاً (٣).
 فبعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ووجد
 بعض قبائل اليهود يقطنونها ، وطمع في إسلامهم فأصبح يجاريهم في شعائرهم
 ليوفق بين الدينين اليهودي والإسلامي .
 قال بروكلمان :

"وتأثرت اتجاهات النبي الدينية في الأيام الأولى من مقامه في المدينة،
 بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود . وأغلب الظن أنه كان يرجو ، عقب
 وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود في دينه . وهكذا حاول أن يكسبهم
 من طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي .
 فشرع صوم العاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم ، على غرار
 الصوم اليهودي في يوم الكفار الذي يقع عندهم في العاشر من شهر تشرى ،
 وبينما كان المؤمنون في مكة لا يصلون إلا مرتين في اليوم ، أدخل في المدينة
 على غرار اليهودية أيضاً ، صلاة الثالثة عند الظهر ... كذلك جعل يوم الجمعة
 يوم صلاة عامة على غرار "السبت" اليهودي ، ولكنه خالف اليهود حين
 سمح للمؤمنين بأن ينصرفوا في ذلك النهار ، إلى شؤونهم الدنيوية ، قبل
 أداء الصلاة وبعدها" (٤).

-
- (١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤ .
 (٢) العقيدة والشرية ص ١٨ الأولى .
 (٣) انظر : العقيدة والشرية ص ١٧-١٨ الأولى ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٧-٤٨
 ٧٩، ٧١ ، تاريخ العرب ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٣ ، ملوك الطوائف ص ٤٠٥ .
 (٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٦-٤٧ .

وقد ادعى بعض المستشرقين أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليم الوحي عن بعض الشخصيات النصرانية ، من أولئك :
(أ) بحيرى الراهب (١) :

قالوا : إن محمداً لقي بحيرى فى مدينة بصرى (٢) بالشام ، وكان نسطورياً (٣) من أتباع آريوس (٤) فى التوحيد ، وينكر الوهية المسيح وعقيدة التثليث (٥) ، وكان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً وساحراً ، فتعلم منه محمد

(١) بحيرى :

راهب . قيل إنه كان يهودياً من يهود تيماء ، وقيل : كان نصرانياً من عبد القيس يقال له جرجس . لقيه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

انظر : أسد الغابة ١/١٩٩ ، البداية والنهاية ٢/٢٢٩-٢٣٠ ، الإصابة ١/١٧٦-١٧٧ .

(٢) بصرى : موضع بالشام وهى التى وصل إليها النبي صلى الله عليه وسلم فى رحلته مع عمه .

انظر : معجم البلدان ١/٤٤١ ، مرصد الاطلاع ١/٢٠١ .

(٣) نسطور هو بطريرك الاسكندرية سنة ٤٣١م . وهو الذى قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان ، فهى بذلك أم الإنسان وليست أمماً لإله ، وأتباعه هم النساطرة ، ومذهبهم وضع الأساس للقول بطبيعتين فى المسيح .

انظر : الموسوعة الميسرة ص ٥٠٢-٥٠٣ ، الملل والنحل ١/٢٢٤ .

(٤) آريوس : كان قسيساً بالاسكندرية . وكان فى زمن قسطنطين الأول . وهو القائل بأن الله واحد ، سماه أباً ، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء ، وهو مخلوق قبل خلق العالم ، وهو خالق الأشياء ، وزعم أن لله روحاً مخلوقة أكبر من سائر الأرواح ، وأنها واسطة بين الأب والابن ، تؤدى إليه الوحي . وقد تبرأ منه النصارى لمخالفته لهم فى مذهب التثليث .

انظر : الملل والنحل ١/٢٢٧-٢٢٨ ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١/٤٨ ، الموسوعة الميسرة ص ٥٠٢ .

(٥) عقيدة التثليث :

وهى الركن الأول الذى يبنى عليه النصارى عقائدهم . ومع اختلاف مللهم إلا أنهم مجمعون على التثليث . وهواعتقاد وجود ثلاثة آلهة وهى الأب (الله) والابن (عيسى) وروح القدس (جبريل) أو هى الأب والابن ومريم . ويقررون ذلك بما يسمى الأقانيم الثلاثة ، والأقنوم يطلق على الجوهر والأصل والشخص . ويفسرونه بأنه وحدانية فى تثليث ، وتثليث فى وحدانية . وبين فرق النصارى اختلاف شديد فى تقرير ذلك . =

عقيدته ، بل زعم بعضهم أنه كان مصاحباً له بعد رسالته ، وأن محمداً
 ماحرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بجيرى وهو سكران (١).
 (ب) ورقة بن نوفل (٢):
 قال الحداد (٣):

"والسر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والإنجيلية وجود العالم المسيحي
 ورقة بن نوفل من بني أسد ابن عم السيدة خديجة في جوار النبي ، وهو
 الذي زوجه ابنة عمه ، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر ، وكان
 يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية ، فهو إذن عالم مسيحي كبير ، وقد عاش
 محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه . ألا تكفى هذه المدة لنا بغة
 العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئاً من علوم التوراة
 والإنجيل؟" (٤)

وقال وات :

= انظر : الشامل في أصول الدين ص ٥٧٥-٥٧٦ ، الملل والنحل ١/٢٢٦-٢٢٧ ،
 الموسوعة الميسرة ص ٥٠٣-٥٠٤ ، عقيدة التثليث والصلب وموقف الإسلام منها
 ص ٧٦١ ، تحفة الأريب في الرد على الصليب ص ١٥٥-١٥٦ ، العلمانية نشأتها
 وتطورها ص ٣٨ .

(١) الوحي المحمدي ص ٩٥-٩٦ بتصرف .

(٢) ورقة بن نوفل :

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ابن عم
 خديجة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم . قرأ الكتب السابقة
 وتنصر . أقر بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه مات قبل الدعوة على الصحيح
 ذكره جماعة من العلماء في الصحابة .

انظر : أسد الغابة ٥/٤٤٧-٤٤٨ ، البداية والنهاية ٣/٩-١١ ، الإصابة
 ٤/٦٣٣-٦٣٥ .

(٣) الحداد :

لم أقف له على ترجمة .

(٤) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ١/٣٧ نقلاً عن القرآن والكتاب
 للحداد ٢/١٠٥٩-١٠٦٠ .

"من الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة ، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة" (١).

(ج) الحاشية اليهودية والمسيحية المسلمة :

قال الحداد :

"ونجد في المدينة في معية النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام ، نجد بلالاً الحبشى مؤذن النبي ، وصهيباً الرومى المسيحى الثرى ، وسلمان الفارسى المسيحى الأصل ، وعبد الله بن سلام اليهودى الوحيد الذى أسلم فى المدينة مع كعب الأبحار . وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة والإنجيل ؟ إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها ، وإن ثقافة محمد والقرآن كتابية فى كل مظاهرها ، وذلك بمعزل عن الوحي والتزيل" (٢).

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية - الإسلامية ١/٣٧-٣٨ .

(١) المرجع السابق ١/١٥٠ .

ويجاب عن ذلك بما يلي :

هذه أقوال ومزاعم عارية عن الصحة لم تستند إلى دليل ، ولم تُقم على أساس ، وإنما بنيت على التشكيك والتعصب كمزاعمهم السابقة ، وقد تضافرت الأدلة على بطلانها وعدم صحتها ، وإليك طرفاً من ذلك :

(١) لو تلقى صلى الله عليه وسلم شيئاً عن أهل الكتاب لنقل ذلك أتباعه الذين كانوا أحرص الناس على نقل أخباره وآثاره صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يفعلوا فعلم فساد (١).

(٢) لو ثبت ما ذكر لاخذ أعداؤه من المشركين حجة لهم للنيل منه والطعن فيه ، وهم الذين تعلقوا بأوهى الشبه وأضعفها كزعمهم أنه تعلم ذلك وتلقاه من رومى حداد أعجمى ، فرد الله عليهم بقوله : {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين} (٢).

ولكان اليهود والنصارى أعرف الناس بهذا ، ولما سكتوا أبداً ، وهم الذين بذلوا كل ما يملكون من جهد للنيل من هذا الدين وإخماد أنفاسه ، وقد كانت هنالك علاقة تربطهم مع المشركين ، وقد التقوا سوياً في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف صبروا على ذلك؟ ولماذا لم يخبروا أصدقاءهم بهذا المطعن الخطير ، ولماذا لجأوا إلى عرض الأسئلة عليه صلى الله عليه وسلم للتثبت من نبوته وهم يعلمون أن دينه مأخوذ من دينهم؟ (٣) إن الذى يريد أن ينقد أمراً معيناً عليه قبل ذلك أن ينظر إلى ما يترتب على نقده من ملابسات ومعارضات حتى لا يصبح نقده نقداً عليه

(١)، (٢) انظر : الوحي المحمدى ص ١٢٢ .

والآية هي ١٠٣ من سورة النحل .

(٣) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٠٦ .

وطعنه طعناً فيه كهؤلاء المستشرقين الذين ينقدون نقداً مكشوفاً ويكذبون كذباً واضحاً لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

(٣) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت له أن رأى التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ فيهما وهو الأُمى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة (١).

ولم يثبت عنه أنه تلقى عن أحد من علماء اليهود أو النصارى أو غيرهم ، والذين لقيهم لم يتصل بهم صلة تمكنه من الأخذ عنهم (٢).

بل ونصوص القرآن صريحة فى أنه لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل أن يأتیه الوحى ، قال له سبحانه وتعالى عقب قصة نوح عليه السلام : {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} (٣). وقال عقب قصة يوسف عليه السلام : {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} (٤). وقال عقب قصة موسى عليه السلام : {وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين} (٥).

وقال عقب قصة زكريا عليه السلام وولادة مريم : {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (٦).

(١) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص ١٣٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٢١ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١٦٥/١ .

(٣) سورة هود : آية ٤٩

(٤) سورة يوسف : آية ١٠٢

(٥) سورة القصص : آية ٤٤، ٤٥

(٦) انظر : الوحى المحمدى ص ١٢٣ . والآية هى ٤٤ من سورة آل عمران .

ولو ثبت أنه اطلع على تلك الكتب لردّها لما فيها من باطل وانحراف عن الحق ، وقد شهد بذلك منصفوهم .

قال المفكر الفرنسي الكونت هنرى دى كاسترى :

"ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد من مطالعة التوراة والإنجيل (يعنى قبل بعثته) إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها ، لاحتوائها على مذهب التثليث ، وهو مناقض لفطرته ومخالف لوجدانه عند خلقته . فظهور هذا الاعتقاد في جزيرة العرب بواسطة محمد دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته" (١).

(٤) لقد كشف الله بهذا الوحي الذى أنزله على الرسول صلى الله عليه وسلم أسرار أهل الكتاب ، وفضحهم ، وهتك أستارهم ، وبين انحراف عقائدهم ، وناصبهم العدا ، وذمهم ذماً منكراً ، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى : {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون} (٢).

وقال سبحانه : {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً} (٣).

وقال سبحانه : {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل} (٤).

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٣١٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ٧٥ ، وانظر الآيات بعدها .

(٣) سورة النساء : آية ١٧١ .

(٤) سورة المائدة : آية ٦٠ ، وانظر الآيات بعدها إلى ٨١ .

وقال تعالى : {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين} (١).
فلو أنهم كانوا معلمين له صلى الله عليه وسلم لمدهم وجاملهم وتودد إليهم وتقرب منهم ، ولم يقف منهم هذا الموقف العدائي ، حتى لا يفضحوا أمره ، ويكشفوا حاله (٢).

(٥) أين هذه الرحلات التي يتكلم عنها جولد زيهر وبروكلمان والتي التقى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأحبار اليهود ورهبان النصارى وأخذ عنهم؟ ومتى كانت؟ وأين تم هذا اللقاء؟ وكم مدة قضاها ليتلقى تلك الدروس حتى يهضمها ويستوعبها؟ ومن هم الذين أخذ عنهم؟ وماذا أخذ؟

أسئلة يعجز المستشرقون عن إجابتها ، لأنها لا إجابة لها البتة ، إذ إجابة عنها من صنع الخيال ، وترهات الأفكار .

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم تثبت له إلا رحلتان كلثاهما إلى الشام إحداها مع عمه أبي طالب في تجارة له وهو طفل صغير ، وقد أعاده عمه إلى مكة قبل إتمام رحلته ، والثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره صحبة غلامها ميسرة ، ولم يتجاوز سوق مدينة بصرى في المرتين ، ولم يذهب يتعلم وإنما ذهب ليتاجر ، ومعه من يصحبه في الرحلتين ، ولم يذكروا شيئاً من ذلك أبداً . ولماذا سكت طيلة هذه الفترة من عمره حتى أظهر ذلك عندما بلغ الأربعين ، وتلك مدة كافية لنسيان ما حصل عليه عرضاً؟ (٣)

(١) سورة المائدة : آية ١٣ ، وانظر الآيات بعدها حتى آية ١٨ .

(٢) انظر الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٩، ٤٣٠ .

(٣) انظر : الوحي المحمدى ص ١٠١ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن

(٦) إن الدين اليهودى والمسيحى لم يكونا نافقين ذلك الحين فى جزيرة العرب ، لعدم تقبل العرب لهما لما فيهما من التعقيد والغموض والقومية والتعصب المقيت .
يقول المستشرق دوزى (١):

"أما فى أواسط بلاد العرب ، وفى قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة (٢) العربى القح (٣) وأرومته (٤) ، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحى ، ولم تكن لئزى ثم إلا أثراً ضعيفاً له - إن لم نقل معدوماً .
وكان المسيحية فى ذلك الزمن - على وجه عام - بما تحويه من معجزات وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب - قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى" (٥).
وقال : "وقد صارت اليهودية نفسها - فى زمن ما - دين اليمن الرسمى . على أنها ضعفت - على مرور الزمن - وقل إقبال العرب عليها ، لأن اليهودية لاتلائم إلا شعباً مختاراً ، أما أن تكون ديناً عاماً للناس قاطبة فلا! ذلك أنها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب "بيت المقدس" وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد" (٦).

(١) دوزى :

هو رينهارت بيتر آندوزى ، مستشرق هولندى ، من أصل فرنسى . بروتستانى المذهب ، كان من أعضاء عدة مجامع علمية ، وتعلم عدة لغات . عين أستاذاً للعربية فى جامعة ليدن . مات سنة ١٨٨٣م على خلاف فى ذلك .
من آثاره : "معجم دوزى" ، "تاريخ المسلمين فى أسبانية" ، "ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام" وغيرها .

انظر : الأعلام ٣/٣٩ ، المستشرقون ٢/٦٥٨-٦٦٠ .

(٢) جرثومة الشئ : أصله . القاموس المحيط ص ١٤٠٥ .

(٣) القح : هو الخالص . المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٤) أرومته : وتضم أصله . المرجع نفسه ص ١٣٨٩ .

(٥) ملوك الطوائف ص ٣٥٤-٣٥٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٣٥٦ .

فاذا كان هذا حكم المستشرقين على أديانهم، فكيف يجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدراً للتلقى ، وهو يعلم سلفاً أن قومه يرفضون التدين بها لأنها لاتواكب طموحاتهم ، وقد غصت بالعقائد الساذجة التي يسخرون منها؟

(٧) إن أحكام الشريعة الإسلامية كانت تأتى على حسب الحوادث والوقائع وكان صلى الله عليه وسلم يبين عند كل أمر ما يحتاج إليه ، ويتوقف في بعض الأمور لينتظر الوحي ، وفي ذلك دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يتلق علماً سابقاً من أهل الكتاب أو غيرهم ، ويلزم من تلقيه أن يكون على صلة دائمة بهم .

إن يعلى بن أمية رضى الله عنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليتنى أرى نبي الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه . فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم بالجرعانة ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظلم به عليه معه ناس من أصحابه ، فيهم عمر . إذ جاءه رجل عليه جبة صوف ، متضمخ بطيب فقال : يا رسول الله! كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جبة بعدما تضمخ بطيب؟

فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت . فجاءه الوحي ، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية : تعال . فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط ساعة ، ثم سرى عنه ، فقال : "أين الذى سألنى عن العمرة آنفاً؟" فالتمس الرجل فجىء به . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها . ثم اصنع في عمرتك ماتصنع في حجك" (١).

(١) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الحج (٢٥) ، باب غسل الخلق ثلاث مرات (١٧) ١٤٤/٢ ، وفي كتاب المغازى (٦٤) ، باب غزوة الطائف (٥٦) ، ١٠٣/٥ ، وفي كتاب فضائل القرآن (٦٦) ، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب (٢) ، ٩٧/٦-٩٨ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج (١٥) ، باب ما يباح للمحرم (١) برقم ١١٨٠ ، وسياق القصة له ٨٣٧/٢ .

(٨) ومن أقوى ما يدل على أن الإسلام لم يكن مقتبساً من اليهودية أو النصرانية ، وجود الخلاف في كثير من العقائد والأحكام . بل جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً له ، ومن متطلبات الشرع ، وهنالك كثير من الأحكام جعلت العلة فيها هي مخالفة اليهود أو النصارى (١).

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم : "خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم" (٣).

عن أنس إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم ، لم يؤاكلوها ولم يجامعن في البيوت . فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٦٠، ١٦١، ١٧٣، ١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ماذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ١٤٥/٤ - ١٤٦ ، وفي كتاب اللباس (٧٧) ، باب الخضاب (٦٧) ، ٥٧/٧ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب اللباس والزينة (٣٧) ، باب في مخالفة اليهود في الصبغ (٢٥) برقم ٢١٠٣ ، ١٦٦٣/٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه من حديث شداد بن أوس ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة في النعال برقم ٦٥٢ ، ١٧٦/١ .

قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وإسناده صحيح" . مشكاة المصابيح ٢٣٨/١ الهامش .

وأخرجه البيهقى في سننه ، كتاب الصلاة ، باب سنة الصلاة في النعلين ٤٣٢/٢ ، والحاكم في المستدرک ، كتاب الصلاة . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي ٢٦٠/١ .

وذكره الهيثمى في جمع الزوائد من حديث أنس بن مالك . وزاد فيه : "وصلوا في خفافكم ونعالكم" . وقال : رواه البزار ٥٧/٢ .

وقد نص الشيخ ناصر الدين الألبانى على صحة الحديث .

انظر : صحيح سنن أبى داود ١٢٨/١ ورقمه ٦٠٨ .

الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض} الى آخر الآية^(١). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اصنعوا كل شيء إلا النكاح" فبلغ ذلك اليهود فقالوا : "ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه"^(٢) الحديث .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود ، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم ، حتى قالوا : ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه"^(٣).

فهذا إقرار من اليهود عليهم لعائن الله ، بمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم لما كانوا عليه من شعائر حتى اشتهر ذلك بينهم ، ألا يكفي ذلك برهاناً ساطعاً على بطلان قول المستشرقين أنه كيف شعائر الإسلام لتتفق مع شعائر اليهود؟ أولم يكفهم أنه صلى الله عليه وسلم أخرج اليهود أذلاء حقيرين من المدينة وأجلاهم عنها لما نقضوا عهودهم معه ، وأبى عليهم أن يساكنوه في بلد واحد؟^(٤)

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحيض (٣) ، باب الاضجاع مع الحائض في لحاف واحد (٢) برقم ٣٠٢ ، ٢٤٦/١ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١٨٧/١ .

(٤) روى البخارى ومسلم بسنديهما إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال : "حاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود المدينة" . هذا لفظ البخارى كتاب المغازى (٦٤) ، باب حديث بنى النضير (١٤) ، ٢٢/٥ .

وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير (٣٢) ، باب إجلاء اليهود من الحجاز (٢٠) برقم ١٧٦٦ ، ١٣٨٧-١٣٨٨/٣ .

أما وقف المستشرقون على الآيات والأحاديث العديدة الدامة لليهود ،
والهاتكة لستورهم؟ أفى ذلك أيضاً دلالة على أن النبي كان يتقرب منهم
ويتزلف لهم لكسبهم وإرضائهم؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن بعث وحمل رسالة الإسلام ،
نسخ الأديان السابقة ، وأبطل شرعيتها ، فلانجاة لأحد من الخلق يهودياً كان
أو نصرانياً إلا بالتزام شرعه والسير على نهجه ، وهو القائل صلى الله عليه
وسلم : "والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى
ولانصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أصحاب
النار" (١).

فلابقاء لدين مع دينه صلى الله عليه وسلم ، ولاشريعة مع شريعته ،
بل دينه هو الحاكم والمهيمن على كل الأديان . قال سبحانه وتعالى : {وأنزّلنا
إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم
بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} (٢) الآية . وقال
تعالى : {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك
السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى
الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} (٣).

واستدلالهم بصوم عاشوراء على موافقة اليهود فيه أمور تحتاج إلى
إيضاح :

أولاً : جاءت الأحاديث تترى عن النبي صلى الله عليه وسلم تأمر
بصيام يوم عاشوراء ، وكان مفروضاً فى بادىء الأمر ، فلما شرع صوم
رمضان ، أصبح صيامه مستحباً .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، كتاب الإيمان (١)
باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ
الملل بملته (٧٠) برقم ٢٤٠ ، ١٣٤/١ .

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨

(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٨

وذلك لقول عائشة رضى الله عنها : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بصيام يوم عاشوراء ، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر" (١).

ثانياً : وردت بعض الأحاديث الصحيحة التى يمكن أن يؤخذ منها موافقته صلى الله عليه وسلم لليهود . من ذلك : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ما هذا؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه" (٢).

وعلة الموافقة هى التى بنى عليها المستشرقون شبهتهم السابقة .
ويجاب بالآتى :

(١) لقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم عاشوراء فى الجاهلية قبل قدومه المدينة .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : "كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فلما قدم المدينة

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢/٢٥٠ .

وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، كتاب الصيام (١٣) ، باب صوم يوم عاشوراء (١٩) ٢/٧٩٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢/٢٥١ .

وأخرج نحوه فى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب قول الله تعالى : {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (٢٤) ٤/١٢٦ ، وفى كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة (٥٢) ، ٤/٢٦٩ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة يونس (١٠) ، باب (١) ، ٥/٢١١-٢١٢ ، وفى تفسير سورة طه (٢٠) ، باب (٢) ، ٥/٢٣٩ .

وأخرج مسلم فى صحيحه نحوه ، فى الكتاب والباب السابقين برقم ١١٣٠ ، ٢/٧٩٥-٧٩٦ .

صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء ، فمن شاء صامه ومن شاء تركه " (١).

وفى رواية : " وكان يوم تستر فيه الكعبة " (٢).

فدل بهذا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يصمه موافقة لليهود واقتداء بهم ، فيكون قوله في الحديث " فأنا أحق بموسى منكم " ، تأكيداً لصومه ، وبياناً لليهود : أن الذى يفعلونه من موافقة موسى نحن أيضاً نفعله ، فنكون أولى بموسى منكم (٣).

(٢) إن النبى صلى الله عليه وسلم بين نوع مخالفة لليهود فى صيام عاشوراء عندما شرع صيام يوم قبله أو بعده .

فعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا فيه اليهود ، صوموا قبله يوماً أو بعده يوماً " (٤).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢/٢٥٠ .

وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب الحج (٢٥) ، باب قول الله تعالى : { جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس } (٤٧) ، ٢/١٥٩ ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب وجوب صوم رمضان (١) ، ٢/٢٢٦ ، كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب أيام الجاهلية (٢٦) ، ٤/٢٣٤ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة (٢) ، باب { يأتونها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام } (٢٤) ، ٥/١٥٥ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى الكتاب والباب السابقين برقم ١١٢٥ ، ٢/٧٩٢-٧٩٣ .

(٢) هذه الرواية أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الحج (٢٥) ، باب قول الله تعالى : { جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس } (٤٧) ، ٢/١٥٨-١٥٩ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤١٣-٤١٤ ، فتح البارى ٤/٢٤٨ .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ١/٢٤١ ، والبيهقى فى سننه موقوفاً على ابن عباس ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم التاسع ٤/٢٨٧ .

قال الشيخ الأرنؤوط : " وسنده صحيح " . زاد المعاد ٢/٦٩ الهامش .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف نحوه موقوفاً على ابن عباس أيضاً ، باب صيام يوم عاشوراء برقم ٧٨٣٩ ، ٤/٢٨٧ .

وعنه قال : حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فإذا كان العام المقبل ، إن شاء الله ، صمنا اليوم التاسع" ، قال : فلم يأت العام المقبل ، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .
فدل ذلك على مخالفته لهم في صيامه (٢) .

وأما زعمهم أن المؤمنين كانوا لا يصلون في مكة إلا مرتين في اليوم ، ثم أدخلت صلاة الثالثة عندما ذهبوا إلى المدينة على غرار اليهودية . فهو زعم أوهى من خيط العنكبوت ، إذ الصلوات الخمس فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء ، ولا خلاف بين أهل العلم وأهل السير في ذلك (٣) .

وهذا الذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة التى وردت فى صفة الإسراء والمعراج فى الصحيحين وغيرهما ، من أحاديث جماعة من الصحابة رضى الله عنهم (٤) .

وفى أحدها قوله صلى الله عليه وسلم : "فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة" (٥) الحديث .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصيام (١٣) ، باب أى يوم يصام فى عاشوراء (٢٠) برقم ١١٣٤ ، ٧٩٧/٢ - ٧٩٨ .

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٤١٥/١ ، فتح البارى ٢٤٥/٤ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١٠ .

(٤) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الصلاة (٨) ، باب كيف فرضت الصلاة (١) ، ٩١/١ - ٩٣ ، كتاب الحج (٢٥) ، باب ما جاء فى زمزم (٧٦) ، ١٦٧/٢ ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ذكر إدريس عليه السلام (٥) ، ١٠٦/٤ - ١٠٨ .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات (٧٤) ، ١٤٥/١ - ١٥١ .

(٥) هذه الرواية بهذا اللفظ أخرجها مسلم فى صحيحه ، فى الكتاب والباب السابقين من حديث أنس بن مالك ، ورقمه ١٦٢ ، ١٤٥/١ - ١٤٧ .

وأما زعمهم أنه جعل الجمعة يوم صلاة عامة على غرار السبت عند اليهود . فهو أيضاً قول مخالف للصواب ، لأن الله سبحانه شرع لعباده المؤمنين الاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : {ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} (١).

وقد ثبت أن الله أمر الأمم السابقة بتعظيمه فضلوا عنه ، واختار اليهود السبت والنصارى الأحد ، وفضل الله هذه الأمة بيوم الجمعة لفضيلته (٢).

عن أبي هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا . فكان لليهود يوم السبت . وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا ، فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد . وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة . نحن الآخرون من أهل الدنيا . والأولون يوم القيامة . المقضى لهم قبل الخلائق" (٣).

ففى الحديث ذم لأهل الكتابين على تفريطهم فى يوم الجمعة . ثم شرع صلى الله عليه وسلم صيام يوم السبت ويوم الأحد مخالفة لهما . كما جاء فى حديث أم سلمة أنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ويقول : إنهما عيد

(١) سورة الجمعة : آية ٩

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٣٦٥/٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الجمعة (٧) ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة

(٦) برقم ٨٥٦ ، ٥٨٦/٢ .

وأخرج البخارى نحوه من حديث أبى هريرة ، كتاب الجمعة (١١) ، باب فرض

الجمعة (١) ، ٢١١/١-٢١٢ ، وفى باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل (١٢) ،

٢١٦/٢ .

وأخرج مسلم نحوه أيضاً من حديث أبى هريرة فى الكتاب والباب السابقين برقم

٨٥٥ ، ٥٨٥/٢-٥٨٦ .

المشركين فأنا أحب أن أخالفهم" (١).

قال الحافظ ابن حجر : "يوم السبت عيد عند اليهود والأحد عيد عند النصارى وأيام العيد لاتصام فخالفهم بصيامها" (٢).

بعد هذا يتضح لنا أن وحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مأخوذاً من اليهودية أو النصرانية وإنما هو وحى مستقل لم يتأثر بغيره. وبالتالي دين الإسلام دين قائم بذاته متميز عن غيره ، وإذا وجد تشابه بين نسك إسلامى وبين عمل سابق منسوب إلى دين اليهود أو النصارى . دل ذلك على أن أصل الدين الذى جاء به رسل الله واحد (٣).

قال تعالى : {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون} (٤). وقال صلى الله عليه وسلم : "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد" (٥).

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٣٢٤/٦ .

وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد . وقال : "رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات وصححه ابن حبان" ٢٠١/٣ .

وأخرج الترمذى نحوه من حديث عائشة رضى الله عنها ، كتاب الصوم (٦) ، باب ماجاء فى صوم يوم الاثنين والخميس (٤٢) برقم ٧٤٦ ، ١٢٢/٣ .

وقد جاء من الأحاديث مايدل على النهى عن صيام يوم السبت . إلا أن الإمام أبداود رحمه الله يرى أن ذلك منسوخ .

انظر : سنن أبى داود ٣٢١/٢ ، فتح البارى ٣٦٢/١٠ .

(٢) فتح البارى ٣٦٢/١٠ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٣٨/٢ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١٦٥/١ ، الرسول فى كتابات المستشرقين ص ١٢٥ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص ٢٩١ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ٩٢

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب : {واذكر فى الكتاب مريم} (٤٨) ، ١٤٢/٤ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه عنه رضى الله عنه بألفاظ مقاربة . كتاب الفضائل (٤٣) ، باب فضائل عيسى عليه السلام (٤٠) ، ورقمه ٢٣٦٥ ، ١٨٣٧/٤ . =

أى أصل إيمانهم واحد لأنهم متفقون فى أصول التوحيد ، وأما فروع الشريعة فوق فيها اختلاف (١).

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العلاقة بين شريعة الإسلام والشرائع السابقة ، مقسماً ذلك إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم مشروع فى ديننا ، مع كونه كان مشروعاً لهم ، أو لا يعلم أنه كان مشروعاً لهم لكنهم يفعلونه الآن .

(ب) وقسم كان مشروعاً ثم نسخه شرع القرآن .

(ج) وقسم لم يكن مشروعاً بحال ، وإنما هم أحدثوه .

وهذه الأقسام الثلاثة : إما أن تكون فى العبادات المحضة ، وإما أن تكون فى العادات المحضة ، وهى الآداب . وإما أن تجمع العبادات والعادات (٢).

(أ) الإدعاء بأنه أخذ ذلك من بحيرى الراهب :

لقد تعرضت كثير من كتب السير إلى قصة بحيرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وملخص ما أورده ابن هشام رحمه الله :

إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ومعه النبی صلى الله عليه وسلم وهو حديث السن ، فمروا براهب يدعى بحيرى فى صومعة له وكان إليه علم أهل النصرانية ، فصنع لهم طعاماً فدعاهم إليه ، وذلك أنه رأى غمامة تظل النبی صلى الله عليه وسلم من بينهم فلما حضروا إليه جعل يلحظ النبی صلى الله عليه وسلم لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، ثم جعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه

= إخوة لعلات : هم الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد . أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .

النهاية ٢٩١/٣ ، وانظر : الفائق ٤٤/٣ .

(١) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ١٢٠/١٥ ، فتح البارى ٤٨٩/٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٤٢٠/١ .

وهيئته وأموره ، فأخبره ، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم سأل أبا طالب عنه فأخبره أنه ابن أخيه ، فأمره أن يرجع به إلى بلده ، وحذره عليه من اليهود ، وأخبره أنه كائن له أمر عظيم .
فخرج به عمه سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته (١).

- (١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ص ١١٠-١١٢ .
والقصة رواها الإمام الترمذى فى سننه ، من طريق أبى موسى الأشعرى ، كتاب المناقب (٥٠) ، باب ماجاء فى بدء نبوة النبى صلى الله عليه وسلم (٣٠) ، برقم ٣٦٢٠ ، ولم يرد اسم (بحيرى) فى القصة ، وقال : "حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه" ٥٥٠/٥-٥٥١ .
وروى الخبر الحاكم فى المستدرک . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" . قال الذهبى : "أظنه موضوعاً فبعضه باطل" . ٦١٥/٢-٦١٦ .
ورواه البيهقى فى دلائل النبوة ، باب ماجاء فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب ٢٤/٢-٢٥ .
وأورده ابن كثير من طريق ابن إسحاق ، ثم قال : "هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .
فقال الحافظ أبو بكر الخرائطى حدثنا عباس بن محمد الدورى حدثنا قراد أبو نوح حدثنا يونس عن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه . فساق رواية الترمذى .
ثم قال : "وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن ابن غزوان الخزاعى مولاهم ، ويقال له الضبي ويعرف بقراد . سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ، وثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ، ومع هذا فى حديثه هذا غرابة ... قال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح وقد سمعته منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده .
قلت : فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة . فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خير ، سنة سبع من الهجرة . ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة . وعلى كل تقدير فهو مرسل .
فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة" . البداية والنهاية ٢٨٤/٢-٢٨٥ .
وقد ذهب الشيخ ناصر الدين الألبانى إلى صحة الرواية . وذكر أن إسناد الترمذى صحيح . انظر : فقه السيرة ص ٦٨ الهامش .

وقد دفع هذه الشبهة الشيخ الزرقاني رحمه الله دفعاً رد به مزاعم المستشرقين ، بحيث لا يجدون بعد ذلك متعلقاً في هذه الحادثة البتة . قال : "يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لقي بحيرى فأخذ عنه وتعلم منه ... وندفع هذا :

أولاً : بأنها دعوى مجردة عن الدليل ، خالية من التحديد والتعيين . ومثل هذه الدعاوى لا تقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ما الذى سمعه محمد من بحيرى الراهب؟ ومتى كان ذلك وأين كان؟

ثانياً : أن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه صلى الله عليه وسلم سافر إلى الشام فى تجارة مرتين ، مرة فى طفولته ومرة فى شبابه ، ولم يسافر غير هاتين المرتين ، ولم يجاوز سوق بصرى فيهما . ولم يسمع من بحيرى ولا من غيره شيئاً من الدين . ولم يك أمره سراً هنالك بل كان معه شاهد فى المرة الأولى وهو عمه أبو طالب ، وشاهد فى الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التى خرج الرسول بتجارته أيامئذ .

وكل ما هنالك أن بحيرى الراهب رأى سحابة تظله صلى الله عليه وسلم من الشمس ، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود . وقد رجع به عمه خوفاً عليه ولم يتم رحلته .

كذلك روى هذا الحادث من طرق فى بعض أسانيدنا ضعف . ورواية الترمذى ليس فيها اسم بحيرى . وليس فى شيء من الروايات أنه صلى الله عليه وسلم سمع من بحيرى أو تلقى منه درساً واحداً أو كلمة واحدة ، لا فى العقائد ولا فى العبادات ولا فى المعاملات ولا فى الأخلاق . فأنى يؤفكون؟

ثالثاً : أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته ، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التى يزفها ، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذى سيأخذ عن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين ، وهادى الهداة والمرشدين! وإلا كان هذا الراهب متناقضاً مع نفسه .

رابعاً : أن بحيرى لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامى المعجز لكان هو أخرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

خامساً : أنه يستحيل فى مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ، ثم ينضج النضج الحارق للمعهود فيما تعلم وتثقف ، بحيث يصبح أستاذ العالم كله ، لمجرد أنه لقى مصادفة واتفاقاً راهباً من الرهبان مرتين . على أن هذا التلميذ كان فى كلتا المرتين مشغولاً عن التعليم بالتجارة وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان صغيراً تابعاً لعمه فى المرة الأولى ، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة فى عنقه لابد أن يؤديها كاملة فى المرة الثانية ، وهى أمانة العمل والإخلاص فى مال خديجة وتجارته .

سادساً : أن طبيعة الدين الذى ينتمى إليه الراهب بحيرى ، تأبى أن تكون مصدراً للقرآن وهدايته ، خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف .

سابعاً : أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة ، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا ، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة (١) .

يتبين لنا مما سبق أن لقاءه ببخيرى كان فى وقت وجيز ، وكان لقاء سريعاً لا يكفى لحمل هذا العلم الذى نثره النبى صلى الله عليه وسلم فى مدة ثلاثة وعشرين عاماً ، وقد كان صلى الله عليه وسلم فى سن التاسعة أو الثانية عشرة من عمره ، وهذه سن لا تؤهله لحمل واستيعاب كثير من المسائل ، وعمه ما كان يفارقه طرفة عين ، ولم ينفرد به بحيرى ليلقنه ذاك الدرس المزعوم .

ومع أن هذه الحادثة ليس لها كبير أهمية إلا أن أعداء الإسلام من المستشرقين يتشبهون بها ، ويركزون عليها ، ولا حجة لهم فى ذلك (٢) .

(١) مناهل العرفان ٤٢١/٢ - ٤٢٣ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٢٨ .

(ب) الادعاء بأنه أخذ من ورقة بن نوفل :

روى البخارى رحمه الله بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : "أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : {اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم} (١) . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زمelonى زمelonى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً . ثم لم ينشب

ورقة أن توفي وفتر الوحي" (١).

وعلى ضوء هذه الرواية الصحيحة يمكن أن نبين بطلان مزاعم المستشرقين ، وتهافت أقوالهم ، وفسادها . وذلك في النقاط التالية :

الأولى : تبين الرواية أن ورقة كان قد تنصر في الجاهلية ، ولكن المحدثون والمؤرخون استقصوا كل ما عرف عنه مما صح سنده ومما لم يصح فلم يعثروا على رواية تبين أنه كان داعية إلى النصرانية (٢).

الثانية : لم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي ورقة قبل هذا اللقاء أو رآه (٣).

الثالثة : لقد تم هذا اللقاء بعد مجيء ملك الوحي في المرة الأولى ، وقد حضرت اللقاء خديجة رضى الله عنها وشهدته ، وقد آمنت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فلو كان هنالك تعلم وتلقى ما غاب ذلك عن بالها أبداً (٤).

الرابعة : إن موقف ورقة من ذلك الأمر كان موقف المستطلع المستخبر لا موقف المعلم ، فلما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم خبر مارأى كان موقفه موقف المبشر المصدق المؤمن المتطوع لمناصرة الحق ، المؤيد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فموقف هذا شأن صاحبه لا يمكن أن يكون هذا الصاحب مصدر علم الوحي الذى شرف به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥).

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر ص ٣٦٢

(٢) انظر : الوحي المحمدى ص ٩٦ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢١٧ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٢ .

(٣) انظر : الوحي المحمدى ص ٩٦ .

(٤) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٣ .

(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٣ .

الخامسة : لم تذكر الروايات أنه ألقى إلى النبي صلى الله عليه وسلم درساً أو عظة في أى جزء من جزئيات الإسلام ولم تثبت أنه كان صلى الله عليه وسلم يتردد عليه لتلقى تلك الدروس ، والذي يفهم من كلمته المختصرة أنه كان يتمنى أن يبقى حتى يصبح ناصراً لدين الله ، وجندياً مخلصاً ، وتلميذاً ناجحاً للنبي صلى الله عليه وسلم لأستاذاً مريباً ، ولا عالماً معلماً (١).

السادسة : لقد مات ورقة مبكراً ، ولم يمكث زمناً طويلاً . فكيف كان هو سر نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (٢)
وكيف تنبأ للنبي صلى الله عليه وسلم بتلك الحوادث والأمر التي حدثت فيما بعد؟ أكان يعلم الغيب؟ {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون} (٣).

السابعة : لو ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ذلك من ورقة لما سكت أعداؤه أبداً ، ولروجوا ذلك ، وساروا به في الناس جميعاً ، وهم الذين تشبثوا بما هو أوهى من ذلك (٤).

الثامنة : لو كان ورقة هو الذى أعطى علوم النبوة للنبي صلى الله عليه وسلم لكان هو أولى بالنبوة منه صلى الله عليه وسلم .

التاسعة : لو كان ورقة هو المعلم ، وقد كان معاشياً للنبي في مكة ، فلماذا انتظر إلى أن هرم وبلغ النبي من العمر أربعين .

(ج) ادعائهم أنه أخذ من الحاشية اليهودية والمسيحية المسلمة :

إن هذا ادعاء يعلم ببداهة العقول فساد ، فأغلب هؤلاء الذين ذكرهم الحداد لم يلتق بهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة ، وقد سبق

(١) انظر : مناهل العرفان ٤٢٨/٢ .

(٢) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٣ .

(٣) سورة النمل : آية ٦٥

(٤) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٢٨ .

عمر مديد من حياة النبوة ، وقد التقى بهم تابعين له لامتبوعين ، ومتعلمين منه لامعلمين ، ومؤمنين به ومصدين لامكذبين^(١).
قال د. التهامي نقرة :

"إن ما يدعيه المستشرقون من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته ، هو محض افتراض ، لأن إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من الوحي الإلهي . ولو تبين لهم أنه كان يتتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ، ولعادوا إلى دينهم ، ولم تكن لهم تلك الميزة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام والذود عنه ، والإخلاص للرسول ، فإن ثباته في الشدائد والمحن ، ومثابرته على مغالبة الكبر والعناد ، أول برهان قدمه للإنسانية على مدار التاريخ ، يشهد بصحة نبوته وصدق رسالته"^(٢).

(١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢٢١، ٢٢٢ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٢٦ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٣٥/١ .

(٢) أن الوحي مقتبس من العقائد والأديان القديمة المختلفة :

لقد زعم المستشرقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأت بجديد من الأفكار ، ولم يبشر بدين إلهي كما يقول ، وإنما أخذ أفكاره من الأديان والعقائد والنظريات السائدة في عهده ، وطور في بعضها لتساير مجتمعه الذي يعيش فيه . فالوحي الذي يزعمه هو عبارة عن لميم ومزيج من العقائد والعبادات الهندية والفارسية واليونانية والبابلية والوثنية والمجوسية وشرائع العرب في الجاهلية والأساطير الإبراهيمية والتزعات الصوفية وغير ذلك ، فلم يأت بما لم يسبق إليه^(١).

(١) انظر تفاصيل ذلك في: العقيدة والشرعية ص ٤، ٥، ١٨، ١٩ الأولى ، تراث الإسلام ٢٠٦/٢ ، ١٠/٣ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٨، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٠ ، تاريخ العرب ١٨٣/١-١٨٥ ، ملوك الطوائف ص ٤١١، ٤٧٠ .

والجواب عن ذلك :

إن الله سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وذلك حين انحرفت الإنسانية عن طريق الرسل عليهم السلام ، وانغمست في لجج الضلال ، وانطمس نور الهداية ، فعاش الجميع في ظلام دامس ، إلا ماندر ممن بقى من أهل الكتاب على عقيدة التوحيد .

قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب" (١).

واختلفت عقيدة الإيمان بالله في نفوس البشر :

فالإله في التوراة له تصور خاص يتعلق بيني إسرائيل وأنبيائهم وليس له صفة العموم والشمول .

وفي الإنجيل فكرة الثلث التي تنافي الوجدانية (٢).

والبيئة التي نشأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بيئة جاهلية اتخذت من الأصنام والأوثان آلهة تلجأ إليها في الشدة والرخاء ، لاتعرف معروفاً ولاتنكر منكراً ، اختلط عندهم الحق بالباطل ، وذلك الضلال الذى وصفهم الله به في قوله : {هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين} (٣).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . وهو جزء من حديث رواه عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه . كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٦) ، ورقمه ٢٨٦٥ ، ٢١٩٧/٤ .
قال النووى رحمه الله :

"المقت أشد البغض . والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمراد ببقايا أهل الكتاب : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل .

شرح النووى على صحيح مسلم ١٧/١٩٧-١٩٨ .

(٢) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص ٣٥،٣٤ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٢

وأما الهنود فلهم أديان كثيرة وعبادات مختلفة تجمع بين الوثنية الساذجة ، والآراء الفلسفية (١). وقد عبدوا عدداً من الآلهة ، فعبدوا الحيوانات وقوى الطبيعة وغير ذلك (٢).

والمجوسية التي هي دين الفرس وغيرهم أثبتوا أصليين مدبرين ، أحدهما النور وهو إله الخير والنفع والصلاح ، والآخر الظلمة وهي إله الشر والضر والفساد (٣). وجعلوا للنار بيوتاً وعبدوها من دون الله (٤). وعقائد اليونانيين والبابليين من الفلاسفة والصائبة الذين ينكرون النبوات (٥). فالصائبة يعبدون الكواكب والهيكل (٦)، والفلاسفة هم المقدسون للعقل القائلون بالوجود المطلق (٧). والصوفية التي انخرفت عن الصراط المستقيم وشابت عقائدها بالفلسفات الهندية والفارسية واليونانية وغير ذلك ، كعقيدة الحلول (٨) والاتحاد (٩)،

-
- (١) انظر : الملل والنحل ٩/٢ .
 (٢) انظر : أديان الهند الكبرى ص ٢١٣، ٣٢، ٣٣ .
 (٣) انظر : الملل والنحل ٢٣٢/١ .
 (٤) انظر : المرجع السابق ٢٥٤/١ .
 (٥) انظر : المرجع السابق ٣٨/١ .
 قال الشهرستاني : "صبأ الرجل إذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيفهم عن نهج الأنبياء ، قيل لهم صائبة" . المرجع نفسه ٥/٢ .
 (٦) انظر : المرجع السابق ٧/٢ .
 (٧) انظر : المرجع السابق ٥٩، ٥٨/٢ .
 (٨) الحلول : عقيدة باطلة من عقائد المتصوفة أخذت عن العقائد الهندية والنصرانية . يزعمون فيها أن الله يحل في الأشخاص ، حتى يصبح الشخص رباً أو إلهاً يتصرف في الكون ويعلم الغيب . ومن أقوالهم في ذلك : "أنا الحق" . "وما في الجبة إلا الله" . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .
 انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٦٥ ، الموسوعة الميسرة ص ٣٤٧ .
 (٩) الاتحاد أو وحدة الوجود : هي عقيدة الحادية باطلة من عقائد المتصوفة . يزعمون فيها : أن كل شيء في الوجود هو الله . وأن الله هو الذي في الكون وحده ولا شيء معه ، وما هذه الظواهر من المخلوقات إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي حقيقته . تعالى الله عما يقول الجاهلون .
 انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٦٩ ، الموسوعة الميسرة ص ٣٤٧ .

والفناء (١)(٢).

قال محمد الغزالي :

"فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي فارس وروما؟ لأقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية . فأسمى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكاً في السماوات والأرض أسمى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السموات والأرض . وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، ويعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على الخرافة؟" (٣)

فيستحيل على هذه النحل الفاسدة ، والعقائد المنحرفة أن تكون مصدراً لعقيدة التوحيد الصافية الخالية من كل شائبة شرك ، ولذلك الدين القويم والهدى المستقيم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) الفناء :

عقيدة الحادية باطلة من عقائد المتصوفة يزعمون فيها أن العبد يفنى في الله بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود وأنه لا وجود لسواه ، لابه ولا غيره .
قال ابن القيم رحمه الله :

"زعم أهل الاتحاد - القائلون بوحدة الوجود - أن الفناء هو غاية الفناء عن وجود السوى . فلا يثبت للسوى وجود البتة . لافي الشهود ولا في العيان . بل يتحقق بشهود وحدة الوجود . فيعلم حينئذ : أن وجود جميع الموجودات هو عين وجود الحق ، فما ثم وجودان . بل الوجود واحد .

وحقيقة الفناء عندهم : أن يفنى عما لاحقيقة له . بل هو وهم وخيال ، فيفنى عما هو فان في نفسه . لا وجود له . فيشهد فناء وجود كل ماسواه في وجوده . وهذا تعبير محض . وإلا ففي الحقيقة : ليس عند القوم "سوى" ولا "غير" وإنما السوى والغير في الوهم والخيال . فحول هذا الفناء يدندنون وعليه يحومون".
مدارج السالكين ٣/٣٧٨ .

(٢) انظر : الموسوعة الميسرة ص ٣٤١، ٣٥٢ .

(٣) فقه السيرة ص ١٦-١٧ .

فأحيا الله به قلوباً غلفاً ، وأبصاراً عمياً ، وآذاناً صماً ، وانتشل به البشرية من وهدة الظلام وضلال العقول إلى بر الأمان وسلامة المعتقد .

وهذه النحل تحوى بين طياتها لميماً من العقائد والعبادات المختلفة المتباينة ، فكيف استقى النبي صلى الله عليه وسلم منها جميعاً ثم خرج بهذا الدين الذى لا تباين فيه ولا اختلاف؟ وهل لبشر مهما أوتى من النبوغ وحصافة العقل أن يجمع بين ملل تفرقت بها الأهواء وانحرفت بها السبل ، وتشعبت بها الطرق ، واختلفت مصادرها ومشاربها هذه الاختلافات البينة التى غصت بها كتب النحل والملل والأديان؟

لقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب فى بيئة أمية جاهلية تقبع فى جزيرة العرب ليس لها معرفة واطلاع على عقائد وأديان الشعوب الأخرى إلا ما قل وندر ، ولم يخرج صلوات الله وسلامه عليه من جزيرة العرب قط ، ولم يختلط مع تلك الشعوب ويتعرف على عقائدها وثقافتها ليكون منها فكرة دينية ثم يزعم أنه أرسل لتبليغها للناس .

وقد أسلم كثير من أصحاب تلك النحل ، وحملوا هذا الدين ، وأصبحوا من أبنائه ، فلماذا لم يكشفوا عن هذه الحقيقة لأبناء نحلهم؟ ولماذا رضوا بالبقاء واستمرارية الانتماء له وهو دين منحول من أديانهم وغيرها؟ وأين هو الدليل الذى يثبت مزاعم المستشرقين على إفكهم هذا؟ وماهى العقيدة أو الشعيرة التى اقتبست من تلك النحل؟

لقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الوثنيين وطهر أرض الحجاز منهم ومن أوثانهم ، وأجلى اليهود عن المدينة .

وكاتب ملوك الفرس والروم وغيرهم ، يدعوهم إلى ترك ما هم فيه والانخراط فى دينه ، وواصل خلفاؤه من بعده الفتوح فدكوا عرش الفرس واقتلعوا دولتهم من جذورها ، وأخرجوا الروم من الجزيرة العربية ، وظل الإسلام يواصل سيره شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، ويغزو تلك النحل والملل فى عقر دورها ، ويخضع أصحابها إلى الانتماء إليه وترك أديانهم وعقائدهم ، فلو كان ملفقاً من تلك العقائد لماذا لم يجابه أربابها الفاتحين

بتلك الحجة - وما أسهلها - بدلاً من حمل السيف ومواجهة التقتيل والتشريد والسبي؟

ثم لماذا يحارب المسلمون أصحاب نخل يعلمون أن نبيهم عليه السلام قد استقى دينه منها؟ ولماذا لم يكرمواهم ويقدرهم ، ويجلوا عقائدهم بدلاً من سفك الدماء ، وسبي النساء ، وفرض الجزية؟
كل هذا وغيره يبين فساد ادعاء المستشرقين وبطلان قولهم ، وتهافت عقولهم ، وانكشاف دسائسهم وأحقادهم .

(٣) أن الوحى كهانة :

قال بروكلمان :

"واستخدم محمد فى دعوته أساليب الكاهن ، كما عزا على غراره أحوال غيبوبته ومايصدر فى هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل ، واعتقد أنه رسول الله إليه . ولا حاجة هنا إلى ذكر تاريخ دعوته التى ضاها بها فى مكة أسلوب الدعوة النصرانية ، ولعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة وقد زجت هذه الدعوة بمحمد فى خصومة مع قومه" (١).

(١) تاريخ الأدب العربى ١/١٣٤ ، وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦-٣٧ .

والجواب عن ذلك :

هذه شبهة قديمة قذف بها النبي كفار قريش وضلالها ورموه بها (١).
وقد تولى الله عز وجل دحض ذلك في قرآنه الكريم فقال : {فذكر
فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} (٢).

وقال : {فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم
وما هو بقول شاعر قليلًا* ماتؤمنون . ولا بقول كاهن قليلًا* ماتذكرون . تنزيل
من رب العالمين} (٣).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الأولى :

"يقول تعالى أمراً رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ رسالته إلى
عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان
والفجور فقال : {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} أى لست بحمد
الله بكاهن كما تقول الجهلة من كفار قريش والكاهن الذى يأتيه الرؤى من
الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء" (٤).

فقد أوضح ابن كثير رحمه الله أن مثيرى الشبهة هم أهل بهتان
وفجور ، وجهلة ، وهى من أبرز صفات المستشرقين الذين ضاهوا بقولهم
قول المشركين ، فهم قوم بهت لايتوانون عن الكذب والفجور والإفك ،
وذلك لجهلهم وخفة عقولهم .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٦٣/١-١٧٩ .

(٢) سورة الطور : آية ٢٩

(٣) سورة الحاقة : آية ٣٨-٤٣

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٤٣/٤ .

انظر فى معنى الآية : زاد المسير ٢٢٠/٧ ، تفسير أبى السعود ١٥٠/٨ .

(٤) أن الوحي أسطورة :

بلغ الزعم بالمستشرق (تولستوف) إلى أن ينفي وجود النبي صلى الله عليه وسلم ويعتبره شخصية أسطورية . وأن الإسلام نشأ عن أسطورة صنعت في الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وأنها مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية^(١).

(١) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٦٧ .

والجواب عن ذلك :

هذه شبهة لا تحتاج إلى رد ، وذكرها يكفي لبيان بطلانها ، لأن خبر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم نقل بالتواتر ، وعلم بذلك الأمم مسلمها وكافرها ، جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، فإنكار ذلك كإنكار الحقائق الثابتة ، والأمور المعلومة ضرورة التي لا يختلف فيها اثنان .

يقول الإمام ابن حزم رحمه الله في شأن ماتواتر من الأخبار :
"وهو مانقلته كافة بعد كافة حتى تبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم .
وهذا خبر لم يختلف مسلمان في وجوب الأخذ به .

وفي أنه مقطوع على غيبه ، لأن بمثله عرفنا أن القرآن هو الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا صحة مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ... إن البرهان قائم على صحته ..(١).

وما زعمه تليستوف أن النبي صلى الله عليه وسلم شخصية أسطورية لاحقيقة لها ، يقدر في عقله الذى خالف به العقلاء الذين أقروا بوجوده صلى الله عليه وسلم ، ومن أولئك المستشرقون أنفسهم . كما يقدر ذلك في ديانته إن كان له ديانة ، ونبيه إن كان يؤمن بنبي .

وزعمه أن ذلك مستمد من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية زعم واهى أيضاً ، لأن الحنفاء الذين كانوا في وسط البيئة الجاهلية التي بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم عدد قليل امتازوا بسلامة الفطرة ، وعرفوا ما كان عليه قومهم من الفساد والضللال ، وأيقنوا بوجود إله واحد هو الذى يجب أن تصرف له العبادة ، ولكنهم كانوا في حيرة من أمرهم لم يعرفوا الطريق الصحيحة لعبادة الله وحده .

فما كانوا عليه لا يصلح أن يكون أساساً ومصدراً للذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢).

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١٠٤/١ .

وقد سبق كلامه بطوله في موضع الحديث عن المتواتر من ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) انظر الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٥٣ .

(ج) مطاعن المستشرقين فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم :

أراد المستشرقون أن يدعموا شبهاتهم السابقة فحذفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهم جائرة ، وكالوا له أبشع الشتائم وأسوأ السباب ، حتى يجردوه من مقام العصمة الملازمة لمنزلة النبوة ، ولكى يقولوا للناس هذا فرد من أفراد البشرية لا يختلف عنهم ، بل قد يكون دون الكثيرين منهم لما اتصف به من أخلاق ذميمة ، وأفعال تنافى الفضيلة ، فمثله لا يصلح أن يكون موضعاً لاصطفاء الرب سبحانه وتعالى ، إذ النبوة مقام سامى ودرجة رفيعة لا ينالها إلا الأصفياء الخالص من البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا يحق له أن يدعى هذه المنزلة العظيمة هكذا زعموا ، وبئس مازعموا .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرفع مكانة من أن تناله مطاعن أولئك ، وأسمى منزلة من أن تصل إليه تهمهم ، وهو أكمل الناس خلقاً ، وأحسنهم سجية ، وأصفاهم طبعاً ، وأوسعهم صدرأ ، وأبلغهم حلمأ ، فطر على مكارم الأخلاق ، وجبل على محاسن الصفات ، ومعالي الشيم .
ويكفى فى ذلك وصف الله له بقوله : {وإنك لعلى خلق عظيم} (١).
وقد كان خلقه القرآن صلوات الله وسلامه عليه .
وهذه مطاعنهم مشفوعة بالرد عليها ودحضها :

(أ) انشغاله بالنساء :

لقد صوروا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان ميالاً إلى النساء منشغلاً بهن ، حتى تطرق المرض والضعف إلى نشاطه بسبب الحياة الزوجية الواسعة التي عاشها (١).

فقد تزوج اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجها بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسى أو اجتماعى (٢).
فقد روى عنه أنه قال : "إنما حجب الى من دنياكم النساء والطيب" (٣).

وأضيف إلى ذلك فيما بعد "وجعلت قرّة عيني في الصلاة".
وهذه الرواية وأمثالها تجعله بحق موضع اتهام خصومه الذين أخذوا عليه أنه لا يشتغل بغير النساء مما لا يتفق وصفة النبوة (٤).

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٧ .

(٢) انظر : تاريخ العرب ص ١٦٦ .

(٣) يأتي تخريج الحديث والكلام عنه .

(٤) انظر : العقيدة والشرعية ص ١٤٣ .

الجواب على ذلك :

هذا محض افتراء على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم الذى ابتعته الله مريباً وهادياً إلى أحسن الأخلاق وأقومها سبيلاً ، فلم يتزوج صلى الله عليه وسلم بنسائه بدافع هوى أو غرام ، ولا مجرد شهوة ولا حب ، وهو الطاهر العفيف المنزه عن النقائص والعيوب والشهوات النفسية والمطامع الشخصية .

والدليل على ذلك أمور نجملها فيما يلى :

(أ) لقد تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها وهو فى عنفوان شبابه ، وكانت فى الأربعين من عمرها ولم يزد عليها حتى توفاه الله ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، فلم يكن إلى هذا العمر رجلاً شهوانياً لاكتفائه بامرأة واحدة ، فمن باب أولى ألا يكون كذلك وقد جاوز سن الشباب والفتوة والرغبة فى النساء^(١).

(ب) لم يكن فيمن تزوجهن بكرأ سوى عائشة رضى الله عنها وقد خطبها وهى صغيرة فى عمرها ، وأما سواها من نسائه صلى الله عليه وسلم فمنهن من كانت طاعنة فى السن ، ومن يصحبها أبناءها ، وأمثال هؤلاء تقل الرغبة فيهن ويضعف الاستمتاع بهن^(٢).

(ج) لم يكن زواجه منهن صلى الله عليه وسلم بقصد رغبة أو شهوة وإنما لحكم ومصالح اقتضتها دعوة الإسلام ، من إيجاد روابط أسرية ، وتأليف للقلوب ، وكفالة لليتامى ، وإحسان إلى الأرامل وغير ذلك من أوجه المصالح التى ترتبط بزواجه من كل واحدة منهن^(٣).

(١) انظر : حياة محمد ص ٣٢٨ ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ٣٦١-٣٦٢ ، الإسلام والمستشرقون ص ٢٢٨ .

(٢) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٦/٣ ، محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢١٩ .

(٣) انظر : حياة محمد ص ٣٣٠-٣٣٦ ، محمد رسول الله ص ٣٦٢ ، حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ ، محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢٢٠ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

"وجملة القول أنه صلى الله عليه وسلم راعى المصلحة في اختيار كل زوج من أزواجه عليهن الرضوان في التشريع والتأديب والمودة والتأليف وكفالة الأرمال والأيتام ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلم أتباعه احترام النساء وإكرام كرائئهن ، والعدل بينهن ، وقرر الأحكام بذلك ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام مايليق بهن مما ينبغي أن يتعلمنه من النساء دون الرجال ، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغني في الأمة غناء التسع . ولو كان صلى الله عليه وسلم أراد بتعدد الزواج مايريده الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار على أولئك الثيبات المكتهلات منهن" (١).

(د) لقد كان صلى الله عليه وسلم بشراً يخضع لصفات البشرية ، فهو يحب ويبغض ، ويشتهي ويأنف ، ويرغب ويكره ، قال سبحانه : {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي} (٢). ومع ذلك لم يكن يتصرف في كل أموره الخاصة كما يحلو له ويشاء وإنما كان يخضع لأوامر ربه سبحانه وتوجيهاته (٣)، كحادثة زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها فقد تم بأمر من الله تعالى (٤).

(١) نداء إلى الجنس اللطيف ص ٧٤ ، وانظر : ص ٥٧-٥٨، ٦٠-٧٤ من الكتاب نفسه .

(٢) سورة الكهف : آية ١١٠

(٣) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ .

(٤) قال الله تعالى : {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً} سورة الأحزاب : آية ٣٧

قال ابن كثير رحمه الله :

"وكان الذي ولى تزويجها منه هو الله عز وجل ، بمعنى أنه أوحى أن يدخل عليها بلاولى ولاعقد ولامهر ولاشهود من البشر". تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٣ . =

وقد أباح الله لنبهه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج ماشاء من النساء ثم قصره على أزواجه اللائى كن فى عصمته وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء أو السرارى وذلك فى قوله له : {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيباً} (١) جزاء لهن على اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن الله سبحانه فى ذلك بقوله لنبهه صلى الله عليه وسلم : {يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً} (٢). ثم رفع الله هذا الحكم عنه صلى الله عليه وسلم وأباح له التزوج ولكنه لم يقع منه زواج صلى الله عليه وسلم بعد ذلك (٣) .

(هـ) لم يكن صلى الله عليه وسلم يعيش فراغاً فى حياته ، وهو الذى لم يذق طعم الراحة منذ أن بعث إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم ، فقد قام بأعباء دعوة الله خير قيام ، فجاهد فى سبيلها ونشرها بالسيف واللسان والقول واللسان ، وكان معلماً لأصحابه مؤدباً لهم حاكماً فيهم قاضياً بينهم ، مراعيّاً لحقوقهم ، وكان مجاهداً لنفسه ملازماً لعبادة

= ومما يؤيد ذلك مارواه البخارى بسنده إلى أنس بن مالك قال :
 "فكانت زينب تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات" .
 وفى رواية : "إن الله أنكحنى فى السماء" .
 صحيح البخارى ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب {وكان عرشه على الماء} (٢٢) ، ١٧٦/٨ .

(١) سورة الأحزاب : آية ٥٢
 (٢) سورة الأحزاب : آية ٢٨ ، ٢٩
 (٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٠٢ ، ٥٠١ ، ٤٨٠ / ٣ .

ربه ، وكان يقوم حتى تتفطر أقدامه (١) ، ويصوم حتى يظن أنه لا يفطر (٢) ، فأين فراغه الذى يقضيه فى شهواته وملذاته (٣) .

ولكن المستشرقين عدموا الحياء فأساءوا الأدب ، وليس بعد الكفر ذنب . (و) إن تعدد النساء ليس مما يطعن به الأنبياء ، ولا يعد قدحاً فيهم ، ولو كان قادحاً فى نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقدح فى نبوة الأنبياء السابقين الذين عرفوا بتعدد النساء فى كتب العهد القديم التى يؤمن بها أولئك المستشرقون الحاقدون (٤) .

فقد نصت تلك الكتب على أن إبراهيم عليه السلام تزوج سارة ثم هاجر فى حياة الأولى ، ويعقوب عليه السلام قد تزوج بأربع نسوة ، وداود عليه السلام تزوج نساء كثيرة ، وسليمان عليه السلام تزوج بألف امرأة ، وجاء فى شريعة موسى عليه السلام ما يدل على تعدد الزوجات وعدم تحريمه (٥) .

فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى ذلك بدعاً من الرسل ، ولا يخفى أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب مألوفاً لهم (٦) .

(١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب التهجد (١٩) ، باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تتورم قدماه (٦) ، ٤٤/٢ ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة الفتح (٤٨) ، باب قوله {ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك} (٢) ، ٤٤/٦ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب الصبر عن محارم الله (٢٠) ، ١٨٣/٧ .

صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة (١٨) ، ٢١٧١/٤-٢١٧٢ .

(٢) انظر : صحيح البخارى ، كتاب التهجد (١٩) ، باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم بالليل (١١) ، ٤٦/٢ ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم شعبان (٥٢) ، وباب ما يذكر من صوم النبى صلى الله عليه وسلم (٥٣) ، ٢٤٣/٢-٢٤٤ .

صحيح مسلم ، كتاب الصيام (١٣) ، باب صيام النبى صلى الله عليه وسلم فى غير رمضان (٣٤) ، ٨٠٩/٢-٨١٢ .

(٣) انظر : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ٣٦٢ .

(٤) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ .

(٥) انظر : إظهار الحق ص ٦١٦-٦١٩ .

(٦) انظر : حياة محمد ص ٣٢٨، ٣٢٩ ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ٣٦٢ .

ومع ذلك لم يكن دافع الشهوة هو الذى سيطر عليه صلى الله عليه وسلم فى زواجه ممن تزوج بهن . إضافة إلى أن تعدد الزوجات نفسه له حكم كثيرة يقصر هذا المقام عن ذكرها (١).

(ز) لقد تنبه العقلاء من أولئك القوم إلى فساد هذه الشبهة وبطلانها ، فكشفوا عن افتراء قومهم ومزاعمهم .

من أولئك الفيلسوف الإنجليزى توماس كارليل الذى يقول :
"وما كان محمد أخا شهوات - برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد مانجور ونخطىء إذا حسبناه رجلاً شهوياً لاهم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت" (٢).

وأما حديث "حب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني فى الصلاة" ، وزعم جولد زيهر أن قوله "وجعلت قرة عيني فى الصلاة" زيادة موضوعة أضيفت إلى الحديث فيما بعد ، والحديث يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم موضع اتهام خصومه لانشغاله بالنساء .

يجاب على هذه الفرية بما يلى :

أولاً : الحديث أخرجه النسائى (٣) ، والإمام أحمد (٤) ، وعبد الرزاق (٥) ، والحاكم (٦) من حديث أنس بن مالك بزيادة قوله : "وجعلت قرة عيني فى الصلاة" .

(١) انظر : المرجع السابق ص ٣٦٣-٣٦٦ .

(٢) الأبطال ص ٨٩ .

(٣) سنن النسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٦٠،٥٨/٣ .

(٤) مسند أحمد ٢٨٥،١٢٨/٣ ، ١٩٩/٣ ولم يذكر "الدنيا" . وأخرجه عن عائشة بمعناه ٧٢/٦ .

(٥) مصنف عبد الرزاق ، باب المرأة تصلى وليس فى رقبتها قلادة وتطيب الرجال برقم ٧٩٣٩ ، ولم يذكر "الدنيا" ٣٢١/٤ .

(٦) مستدرک الحاكم ١٦٠/٢ ولم يذكر "الدنيا" .

وهو حديث صحيح بزيادته . وقد صححه جماعة من العلماء (١).
ثانياً : ليس في الحديث دلالة على انشغال النبي صلى الله عليه وسلم
بالنساء حتى يكون موضع اتهام خصومه .

نقل السيوطي عن التستري في شرح الأربعين أنه قال :
"من" في هذا الحديث بمعنى في ، لأن هذه من الدين ، لامن الدنيا وإن
كانت فيها . وإضافة في رواية (دياكم) للايذان بأن لالعلاقة له بها" (٢).
وقال الشيخ المناوي :

"إنه لم يضيفها لنفسه - أي الدنيا - فما قال "أحب" تحقيراً لأمرها لأنه
أبغض الناس فيها لأنها ليست من دنياه بل من آخرته كما ظن إذ كل
مباح دنيوى ينقلب طاعة بالنية فلم يبق لتخصيصه حينئذ وجه ، ولم يقل من
هذه الدنيا لأن كل واحد ناظر إليها وإن تفاوتوا فيه وأما هو فلم يلتفت إلا
إلى ما ترتب عليه مهم ديني ، فحبب إليه (النساء) والإكثار منهن لنقل ما بعث
من الشريعة مما يستحيا من ذكره من الرجال ولأجل كثرة سواد المسلمين
ومباهاته بهم يوم القيامة" (٣).

والرسول صلى الله عليه وسلم بشر وقد أباح الله له الأخذ من
الطيبات وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف كما قال تعالى : {ياأيها
الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً} (٤).

(١) قال الحاكم : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي .
المستدرک ١٦٠/٢ .

وقال المناوي : "قال الحافظ العراقي : "إسناده جيد" ، وقال ابن حجر : حسن" .
فيض القدير ٣٧١/٣

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : "صحيح" . صحيح الجامع ٨٧/٣ .
وانظر : مشكاة المصابيح ١٤٤٨/٣ في الهامش ، ورقم الحديث ٥٢٦١ ، سير أعلام
النبلاء ٩٠/١٢ ، ٣٩٤/١٥ في الهامش .

(٢) زهر الربا على هامش سنن النسائي ٥٩/٧ .

(٣) فيض القدير ٣٧١/٣ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ٥١

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ،
وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " (١) .
فلم يكن صلى الله عليه وسلم راهباً متبتلاً كما يفعل رهبان النصارى ،
وجهلة المتصوفة ، كما أنه لم يطلق لنفسه العنان لتنغمس في الشهوات والملذات
كما يفعل عباد الدنيا ومقدسو المادة . إذ كان دينه وسطاً عدلاً في كل شيء .
لإفراط ولا تفريط (٢) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ، كتاب النكاح : (٦٧)
باب الترغيب في النكاح : (١) ، ١١٦/٦ .
ومسلم في صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب النكاح : (١٦) ، باب استحباب
النكاح : (١) ، برقم : (١٤٠١) ، ١٠٢٠/٢ .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٩٠، ٨٩/١٢ .

(ب) اهتمامه بالدنيا والغنائم وعيشه على التلصص والسلب :

لقد كان النبي ميالاً في بدء دعوته إلى الزهد في الدنيا والتهوين من أمرها ، ولكن لما بدأت الفتوحات وظهرت الغنائم ، تغير مبدأ الزهد في الدنيا إلى الطمع فيها ، وأصبح أمر الغنائم هو الذى يشغل باله ويدفعه إلى خوض الحروب وقتال الأعداء ، وهو الهدف نفسه الذى أثار به حماس جنوده ، الذين ما انضوا تحت لوائه إلا لعقدتهم الآمال على الكسب والفوائد الميسورة التى عرضت لهم ، وعلى السعى للاحتفاظ بها^(١).
قال مرجليوث^(٢):

"عاش محمد هذه السنين الست مابعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك - على أى حال - سبب ما ، حقيقياً كان أم مصطنعاً يدعو إلى انتقامه منهم ، إلا أن خير^(٣) التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً لأن قتل

(١) انظر : العقيدة والشريعة ص ١٣٤-١٣٥ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٩ .

(٢) مرجليوث :

هو دافيد صمويل مرجليوث إنجليزى يهودى ، من كبار المستشرقين ، متعصب ضد الإسلام ، ومن محررى "دائرة المعارف الإسلامية" ، كان عضواً بالمجمع اللغوى المصرى ، والمجمع العلمى فى دمشق . عين أستاذاً للعربية فى جامعة اكسفورد . له كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن مخلصاً فيها للعلم . مات سنة ١٩٤٠م .
من آثاره : "التطورات المبكرة فى الإسلام" ، "محمد ومطلع الإسلام" ، "الجامعة الإسلامية" وغيرها .

انظر : الأعلام ٣٢٩/٢-٣٣٠ ، المستشرقون ٥١٨/٢-٥٢٠ ، الاستشراق ص ٣٦-٣٧ آراء المستشرقين حول القرآن ٨٨/١ .

(٣) خير : موضع مشهور على ثمانية برد من المدينة . من جهة الشام . كان بها سبعة حصون لليهود وحولها مزاع ونخل . والخير بلسان اليهود الحصن .
انظر : معجم البلدان ٤٠٩/٢-٤١٠ ، مراصد الاطلاع ٤٩٤/١ . وهى الآن مدينة معروفة من مدن المملكة العربية السعودية .

أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون ذريعة للانتقام .
وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذى طرأ على سياسة محمد ، ففى أيامه الأولى فى المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين لكنه الآن (بعد السنة السادسة للهجرة) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر سبباً كافياً لشن الغارة عليها ، وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التى أثرت على نفس محمد والتى دفعته إلى شن غارات متتابة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر^(١) من قبل ونابليون^(٢) من بعد ، ... إن استيلاء محمد على خير يبين لنا إلى أى حد قد أصبح الإسلام خطراً على العالم"^(٣).

(١) الاسكندر :

حاكم يونانى قديم . خلف أباه فيليب عام ٣٣٦ ق.م على مملكة الروم الغربية . أخضع جميع بلاد الاغريق لحكمه ، ثم استولى على دولة الفرس ومصر وسوريا والهند وأفغانستان ، وأخضع أجزاء كبيرة من العالم لحكمه . وكان يطمع فى مده إلى جميع أنحاء العالم ، ليتسنى له نشر الثقافة الإغريقية فى جميع بقاعه . ولكن عاجلته المنية فمات فى الثالث والثلاثين من عمره . ثم انقسم ملكه بعد موته وتفرقت أجزاؤه . وقد بنى مدينة الاسكندرية فى مصر التى سميت باسمه . والصحيح أنه ليس ذا القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن .

انظر : تاريخ الطبرى ١/٥٧٢-٥٧٨ ، البداية والنهاية ٢/١٠٥-١٠٦ ، البدء والتاريخ ٣/١٥٢-١٥٥ ، التاريخ القديم ص ٩٢-٩٥ ، دائرة المعارف الإسلامية ٢/١٢٦-١٢٨ .

(٢) نابليون :

هو نابليون بونبارت قائد فرنسى تغلب على كثير من بلاد أوروبا وغيرها . ثم تولى حكم فرنسا ونصب نفسه امبراطوراً عليها وعلى معظم بلاد أوروبا ، وكان حاكماً استبدادياً .

تحالفت عليه دول أوروبا فعزل فى سنة ١٨١٤م ، ثم عين ملكاً على جزيرة "إلبا" الصغيرة . ثم عاد إلى حكم فرنسا وغير سياسة الاستبداد . ولكن الحلفاء ثاروا عليه مرة أخرى فوقع بينهما معارك أدت إلى هزيمته ، ثم نفى إلى جزيرة "سانت هيلانة" حيث توفى عام ١٨٢١م .

انظر : تاريخ أوروبا الحديث وآثار حضارتها ص ٦٣-١ .

(٣) الإسلام والمستشرقون ص ٢٥٦ نقلاً عن "محمد وقيام الساعة" لمرجليوث ص ٢٦٢-٢٦٣ .

والجواب على ذلك :

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيداً عن مطامع الدنيا مترفعاً عنها ، وصان دعوته التي كلفه الله بتبليغها للناس عن كل هدف وغاية رخيصة ، ولم يقرنها في لحظة من اللحظات أو وقت من الأوقات بمطمع دنيوى أو عطاء بشرى ، لأنه جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ليلأخذ أموالهم ويستمتع بحقوقهم ، {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} (١) ، فهو لا يريد من الناس مالا ولا يريد ضياعاً ، وإنما يرجو ثواب الله والدار الآخرة ، {قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد} (٢) .

وذلك هو منهج الرسل صلوات الله عليهم جميعاً في دعوتهم إلى الله فإنهم مترفعون عن أغراض الدنيا الزائلة ، متزهون عن مطامعها الدنيئة ، وإنما همهم رضا الله وثوابه (٣) .

وقد عرض عليه صلى الله عليه وسلم القرشيون في مبدأ دعوته المال والشرف والملك لكي يتنازل عما يقول ، ولكنه أجابهم بما ينفى عنه كل غرض أو مطمع زائل فقال لهم : "ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " . أو كما قال صلى الله عليه وسلم (٤) .

(١) سورة ص : آية ٨٦

(٢) سورة سبأ : آية ٤٧

(٣) انظر الآيات في : سورة يونس : آية ٧٢ ، سورة هود : آية ٥١ ، ٢٩ ، سورة

الشعراء : آية ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧٧ .

ولقد ظل صلى الله عليه وسلم على هذا الدرب لم يتغير ولم يتبدل
لا كما يزعم المستشرقون .

يقول فخر الدين الرازى :

"إنه صلى الله عليه وآله وسلم تحمل في أداء الرسالة أنواعاً من المشاق
والمتعاب ، ولم يتغير عن المنهج الأول البتة . ولم يطمع في مال أحد
ولا جاهه . بل صبر على تلك المشاق والمتعب ، ولم يظهر في عزمه فتور
ولا في إصراره قصور . ثم إنه لما قهر الأعداء ووجد العسكر العظيم والدولة
القاهرة القوية ، ونفذ أمره في الأموال والأزواج لم يتغير عن منهجه الأول
والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ، وكل من أنصف علم أن المزور
لا يكون كذلك ، فإن المزور إنما يزور الكذب والباطل على الخلق ليجد الدنيا
، فإذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعياً في تضييع الدنيا والآخرة على نفسه .
وذلك ما لا يفعله أحد من العقلاء" (١).

لقد ضاق أزواجه يوماً من شظف العيش وضيق الحال ، وقلة المتاع
فاشتكين حالهن له ، فأمره الله سبحانه أن يخبرهن بين فراقه لهن حيث
يذهبن إلى من يجدن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين البقاء معه على ما هو
عليه ، كما قال سبحانه : {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة
الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن
الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً}
فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة (٢).

لقد دانت له جزيرة العرب وانقادت له الجموع الهائلة وحكم أمره في
الأموال ، فلم يرض لنفسه أبهة الملك وعظمته ، وثناء الخلق وتعظيمهم له
كما أطرت النصرى عيسى وعظمت الأعاجم ملوكها ، فقال :

(١) الأربعين في أصول الدين ص ٣١٢ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/٣ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن
ص ١٣٩ . والآيات هي ٢٩، ٢٨ من سورة الأحزاب .

"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله" (١).

وقال : "إن كدتم أنفأ لتفعلون فعل فارس والروم . يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم . إن صلى قائماً فصلوا قياماً ، وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً" (٢). وذلك حين صلى أصحابه خلفه قياماً وهو قاعد .

قال الماوردي :

"مامنع من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحبوب ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصع من شعير لطعام أهله وقد ملك جزيرة العرب وكان فيها ملوك وأقيال (٣) لهم خزائن وأموال يقتنونها ذخراً ويتباهون بها فخراً ويستمتعون بها أشراً (٤)، وبطراً (٥)، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولادراً ، لا يأكل إلا الخشن ولا يلبس إلا الخشن ، ويعطى الجزل (٦) الخطير ويصل الجمل الفقير ، ويتجرع مرارة الإقلال ويصبر على سغب (٧) الاختلال ،

-
- (١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ١٠٣ .
والحديث أخرجه البخارى في صحيحه ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب {واذكر في الكتاب مريم} (٤٨) من حديث عمر رضى الله عنه ١٤٢/٤ .
- (٢) تطروني : الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح ، والكذب فيه . النهاية ١٢٣/٣ .
أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله . كتاب الصلاة (٤) ، باب ائتمام المأموم بالإمام (١٩) برقم ٤١٣ ، ٣٠٩/١ .
- (٣) أقيال : جمع مقول ، وقيل . وهو الملك . أو هو دون الملك .
انظر : القاموس المحيط ص ١٣٥٨ .
- (٤) أشراً : ويحرك . وهو المرح . والفعل منه أشر كفرح .
انظر : المرجع السابق ص ٢٣٨ .
- (٥) بطراً : بالتحريك : قلة احتمال النعمة . أو الطغيان بها .
انظر : المرجع نفسه ص ٤٤٩ .
- (٦) الجزل : هو الكثير من الشيء . انظر المرجع نفسه ص ١٢٦٢ .
- (٧) سغب : هو جوع مع تعب . انظر المرجع نفسه ص ١٢٤ .

وقد حاز غنائم هوازن^(١)، وهى من السبي ستة آلاف رأس ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون ألف شاة ومن الفضة أربع آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خلواً^(٢).

لقد زهد صلى الله عليه وسلم في الدنيا بكل ما تحمل كلمة الزهد من معنى حتى أشفق عليه صحابته رضى الله عنهم وراجعوه في ذلك فأبى إلا الحالة التى كان عليها .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا : يارسول الله لو اتخذت لك وطاءً^(٣) فقال : "مالى وللدنيا؟ ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"^(٤).

(١) هوازن : بطن من قيس عيلان من العدنانية وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة وهى التى حاربها النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين .
انظر : معجم قبائل الحجاز ص ٥٢٤-٥٢٦ ، السيرة النبوية لابن هشام ٩/١ ، ٣٣١/٤ ، البداية والنهاية ٣٢٢/٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢١٨-٢١٩ .

(٣) الوطاء : هو الفراش الممهّد المذلّل الذى لا يؤذى جنب النائم .

انظر : الفائق ٦٨/٤ ، النهاية ٢١٠/٥ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . كتاب الزهد (٣٧) ، باب (٤٤) برقم ٢٣٧٧ .

وقال : "وفى الباب عن عمر وابن عباس" . وقال : "هذا حديث حسن صحيح"
٥٠٨/٤ . قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وهو كما قال" . سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨٠/١ .

وأخرج ابن ماجه فى سننه نحوه من حديث ابن مسعود ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب مثل الدنيا (٣) ، برقم ٤١٠٩ ، ١٣٧٦/٢ .

وأخرج أحمد فى مسنده نحوه من حديث ابن مسعود أيضاً ٤٤١،٣٩١/١ .

ومن حديث ابن عباس ولفظه : "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال : يابى الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال : "مالى وللدنيا مامثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها" . ٣٠١/١ . =

قالت عائشة رضى الله عنها : "ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى سبيله" (١).
وقالت : "إن كنا آل محمد لنمكث شهراً مانستوقد بنار إن هو إلا التمر والماء" (٢).

وقال النعمان بن بشير رضى الله عنهما : ذكر عمر (رضى الله عنه) ماأصاب الناس من الدنيا فقال : "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى مايجد دقلاً (٣) يلاً به بطنه" (٤).

= وأخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس بلفظ مقارب لرواية أحمد ، كتاب التاريخ (١٠) ، باب صفته صلى الله عليه وسلم وأخباره (٣) ، ذكر مامثل المصطفى صلى الله عليه وسلم نفسه والدنيا بمثل مامثل به برقم ٦٣٥٢ . قال الأرناؤوط : "إسناده قوى" . الإحسان ٢٦٥/١٤ - ٢٦٦ .

وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث ابن عباس نحو رواية أحمد وقال : "هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبي .
وقال الحاكم : "وله شاهد من حديث عبد الله بن مسعود" . ثم ساق الحديث نحواً من رواية الترمذى ٣٠٩/٤ - ٣١٠ .

وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ونسبه لأحمد . وقال : "رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة" ٣٢٦/١٠ . وأورد الشيخ ناصر الدين الألبانى : حديث ابن مسعود برقم ٤٣٩ ، وحديث ابن عباس برقم ٤٤٠ فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٩/١ - ١٨٠ .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب الأطعمة (٧٠) ، باب ماكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون (٢٣) ، ٢٠٥/٦ ، وفى باب ماكان السلف يدخرون فى بيوتهم وأسفارهم من الطعام وغيره (٢٧) ، ٢٠٦/٦ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب كيف كان عيش النبى صلى الله عليه وسلم (١٧) ، ١٨٠/٧ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، واللفظ له . كتاب الزهد والرقائق (٥٣) برقم ٢٩٧٠ . ٢٢٨١/٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، بلفظ مقارب ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب كيف كان عيش النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (١٧) ، ١٨١/٧ .

(٣) وأخرجه مسلم فى صحيحه واللفظ له ، فى الكتاب السابق برقم ٢٩٧٢ ، ٢٢٨٢/٤ . الدقل : هو ردىء التمر ويابس ، وماليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لايجتمع ويكون منشوراً . النهاية ١٢٧/٢ ، وانظر : الفائق ٤/٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى الكتاب السابق برقم ٢٩٧٨ ، ٢٢٨٥/٤ .

بل قد حذر أصحابه رضى الله عنهم من الانغماس فى شهوات الدنيا وملذاتها ، وتخوف عليهم منها فقال : "إن مما أخاف عليكم من بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها" (١).

وقال : "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء" (٢).

ولقد فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة وماترك خلفه درهماً ولاديناراً .

روى البخارى بسنده إلى عمرو بن الحارث ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى جويرية بنت الحارث قال : "ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهماً ولاديناراً ولاعبداً ولاأمة ولاشيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة" (٣).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، من حديث أبى سعيد الخدرى ، وهو جزء من حديث • كتاب الزكاة (٢٤) ، باب الصدقة على اليتامى (٤٧) ، ١٢٧/٢ . وأخرج نحوه فى كتاب الجهاد والسير (٥٦) ، باب فضل النفقة فى سبيل الله (٣٧) ، ٢١٣/٣-٢١٤ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٧) ، ١٧٣/٧ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى كتاب الزكاة (١٢) ، باب تخوف مايجرج من زهرة الدنيا (٤١) برقم ١٠٥٢ ، ٧٢٨-٧٢٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء (٤٨) ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٦) برقم ٢٧٤٢ ، من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ٢٠٩٨/٤ قال النووى رحمه الله :

"معنى الدنيا خضرة حلوة ، يحتمل أن المراد به شيئان ، أحدهما : حسنهما للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا . والثانى : سرعة فنائها كالشئ الأخضر فى هذين الوصفين . ومعنى مستخلفكم فيها جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أو بمعصيته وشهواتكم" . شرح النووى على مسلم ٥٥/١٧ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الوصايا (٥٥) ، باب الوصايا (١) ، ١٨٦/٣ . =

هذا إرثه في هذه الدنيا التي يزعم المستشرقون أنه عاش على الطمع فيها والسلب والنهب .

ومع هذا فلم يرث أهله عنه شيئاً لقوله : "لأنورث ماتركنا فهو صدقة" (١).

ويكفيينا في ذلك قول عائشة رضى الله عنها ، إذ تقول : "توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومافى بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى" (٢).

= وأخرج نحوه فى كتاب الجهاد والسير (٥٦) ، باب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم (٦١) ٢٢٠/٣ ، وفى باب من لم ير كسر السلاح عند الموت (٨٦) ، ٢٢٩/٣ ، وكتاب فرض الخمس (٥٧) ، باب نفقة نساء النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، ٤٥/٤ ، وكتاب المغازى (٦٤) ، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٨٣) ، ١٤٤/٥ .

(١) سبق تخريجه انظر ص : ١٦

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب فرض الخمس (٥٧) ، باب نفقة نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته (٣) ، ٤٥/٤ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب فضل الفقر (١٦) ، ١٧٩/٧ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق (٥٣) برقم ٢٩٧٣ ، إلا أنها قالت : (ومافى رفى) ٢٢٨٢/٤ - ٢٢٨٣ .

ولكن إن كان ماسبق هو رأى بعض المستشرقين الجائرين فى رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم فقد أنصفه غيرهم من بنى جلدتهم ، وردوا على فريتهم تلك بما يكمم الأفواه ويخرس الألسنة .
قال كارليل :

"أيزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره ، حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب ، وفى تاج قيصر^(١) ، وصولجان^(٢) كسرى^(٣) وجميع مابالأرض من تيجان وصوالة . وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو فى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلا إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب ، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافاً وحمقاً ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع"^(٤) .
وقال :

"لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وإنهم ليذكرون - ونعم مايذكرون - إنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد فى الله ، قائم النهار ، ساهر الليل ، دُباً فى نشر دين الله ، غير طامح إلى مايطمح إليه أصاغر الرجال ، من رتبة ، أو دولة ، أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة"^(٥) .
وقال المفكر الفرنسى الكونت هنرى دى كاسترى :

(١) هو لقب لملوك الروم . أسد الغابة ١٢٠/١ .

(٢) صولجان : بفتح الصاد واللام : هو المحجن . انظر القاموس ص ٢٥١ .

(٣) هو لقب لملوك الفرس . أسد الغابة ١٢٠/١ .

(٤) الأبطال ص ٧١-٧٢ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٩-٩٠ .

"لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاصه وصدقه ، أما في الدور الثاني فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة ، ... ولم يكن فيه أى عيب ، بل مانسبوه إليه (من قبل بعض الكتاب الأوربيين) لايؤثر بشيء في سيرته الطاهرة. إن محمداً ماكان يميل إلى زخارف الدنيا ، ولم يكن بخيلاً وكان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ، ويرقع ثوبه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة ، وكان قنوعاً ، وقد خرج محمد من هذا الباب (يعنى توفي) ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته ، وتجرد من الطمع ، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب ، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها ، فلم تكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً ، وقد احتقر المال ، وأنه بلغ من السلطان منتهاه ، ومع ذلك لم يكن له علامات الإمارة والملك سوى خاتم من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) (١) (٢).

وأما زعم مرجليوث أن النبي صلى الله عليه وسلم انتقم من يهود المدينة بسبب حقيقى أو مصطنع ، يدل على جهل هذا المستشرق بتاريخ اليهود ، أو تجاهله لذلك .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى المدينة لم يكن في سياسته إبعاد اليهود أو مصادرة أموالهم أو الخصام والتنازع معهم ، وأصدق دليل على ذلك ماأبرمه معهم من معاهدة تقرهم على دينهم وتؤمنهم في أموالهم ، وجاء فيها نصره المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق (٣).

(١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب اللباس (٧٧) ، باب خاتم الفضة (٤٦) ، والأبواب التى تليه ٥١/٧-٥٤ .

صحيح مسلم ، كتاب اللباس والزينة (٣٧) ، باب لبس النبي صلى الله عليه وسلم خاتماً من ورق نقشه محمد رسول الله (١٢) ، والأبواب بعده ١٦٥٦/٣-١٦٥٨ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٣١٧ .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/٢ ، ٣١٩ ، فقه السيرة ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

وكان على اليهود وهم أهل كتاب ولهم عهد بالديانة والرسول أن يقفوا مع الإسلام ويؤيدوه ويناصروه ، وإن لم يفعلوا ذلك فعلى الأقل يقفوا على الحياد ، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولاذاك وإنما ناصبوا الإسلام العداً حسداً وبغضاً ومالوا أعداء الإسلام من المنافقين والمشركين فهتك القرآن استارهم ، وكشف دواخل قلوبهم المريضة ونفوسهم العليلة ، وبين ماتنطوى عليه تلك النفوس من عقائد باطلة ، وأخلاق منحطة ، وعادة سيئة ، ونبش تاريخهم المظلم تجاه أنبياء الله والصد عن سبيله ، وتحريف التوراة وغير ذلك (١).

فثارت ثائرتهم ، واشتدت عداوتهم ، ولم يقف بهم الأمر عند المخالفة وحياسة الدسائس ، بل تعدوا إلى تفضيل عبادة الأوثان على عبادة الواحد الديان ، وقد ذكر الله عنهم ذلك صراحة في قوله : " ألم ترى إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً " (٢).

وخانوا العهود ونقضوها وأسفروا عن وجه كالح ملء حقداً وعداءً للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، واستحالت مساكنتهم ومجاورتهم مع المؤمنين في مكان واحد ، عند ذلك قلب لهم الإسلام ظهر المجن ، وأجلاهم نبى الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بما هو معلوم في تاريخ السيرة . وخير التي يزعم مرجليوث تجنى النبى صلى الله عليه وسلم على أهلها . لم يكن الأمر كذلك ، بل كانت خير قلعة حربية لليهود ، وهى آخر معاقلمهم فى جزيرة العرب ، وكان يتربص أهلها بالمسلمين الدوائر ، وقد

(١) انظر : السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص ٢٢٨-٢٣٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٣١ ، والآية هى ٥١ من سورة النساء .

وفى معنى الجبت والطاغوت أقوال منها : السحر ، الأصنام ، الكاهن ، الشيطان .

انظر : تفسير القرآن العظيم ٥١٢/١ ، زاد المسير ١٣٨/٢-١٣٩ .

خافوا أن يصيبهم ما أصاب يهود المدينة ، فتآمروا مع غطفان^(١) لغزو المدينة فتنبه النبي صلى الله عليه وسلم لأمرهم فسير الجيوش نحوهم لكسر شوكتهم وتأمين جهتهم^(٢).

وإن كان هذا المستشرق قد جهل ذلك فغيره من المستشرقين لم يجهلوه . فقد قال مونتجمرى والله :

"كان يهود خيبر وخاصة رؤساء قبيلة بنى النضير التي أجلاها الرسول من المدينة يضمرون الحقد لمحمد ، وهم الذين نجحوا في حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم ، بما بذلوه من أموال ، وكان ذلك هو السبب الرئيسى في توجه محمد إلى خيبر بجيوشه"^(٣).

ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم فتحها عنوة بعد قتال مرير إلا أنه دفع إليهم أموالهم على أن يعملوها بينهم وبين المسلمين بالمناصفة كما جاء ذلك عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : "أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ، ولهم شطر ما يخرج منها"^(٤).

(١) غطفان : اسم لقبيلة من قبائل العرب ، من قيس عيلان . وهو غطفان بن سعد ابن قيس عيلان . نزلت الكوفة .

انظر : الأنساب ٥٩/١٠ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص ٣٥١-٣٥٢ ، فقه السيرة ص ٣٦٨ .

(٣) السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص ٣٥٢ الهامش ، نقلاً عن محمد النبى السياسى ص ١٨٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الإجارة (٣٧) ، باب إذا استأجر أرضاً فمات أحدهما (٢٢) ، ٥٥/٣ ، وفى كتاب الحرث والمزارعة (٤١) ، باب المزارعة مع اليهود (١١) ٦٩/٣ ، كتاب الشركة (٤٧) ، باب مشاركة الذمى والمشرىكين فى المزارعة (١١) ، ١١٣/٣ ، وفى كتاب الشروط (٥٤) ، باب الشروط فى المعاملة (٥) ، ١٧٥/٣ ، وفى كتاب المغازى (٦٤) ، باب معاملة النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر (٤٠) ، ٨٤/٥ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساقاة (٢٢) ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (١) برقم ١٥٥١ ، ١١٨٦/٣-١١٨٧ .

وظل الحال كذلك حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرهم أبو بكر على معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي ، وأقرهم عمر أيضاً صدرأ من خلافته ، ولكن بغضاؤهم وحقدهم على الإسلام دفعهم لارتكاب بعض الجرائم في حق المسلمين ، فقتلوا عبد الله بن سهل الأنصاري ، وفدعوا يدى عبد الله بن عمر فما كان من عمر إلا أن قام في الناس خطيباً فقال :

"أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامل يهود خبير على أنا نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا يديه ، كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لانشك أنهم أصحابه ليس لنا هنالك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخير فليلحق به ، فإني مخرج يهود ، فأخرجهم" (١).

وقد أيد فعل عمر رضى الله عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع إلا مسلماً" (٢).

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٨/٣-٢٦٩ ، فقه السيرة ص ٣٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كتاب الجهاد والسير (٣٢) ، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (٢١) برقم ١٧٦٧ ، ١٣٨٨/٣ .

(ج) اتباعه لهواه :

لقد زعم المستشرقون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسير وفقاً لهواه ومزاجه ، فلا وحى يرشده ولادين يقوده ، وإنما الهوى هو الذى يسيطر عليه ويحركه كما يشاء .

يقول د. جلاوور^(١) فى كتابه "تقدم التبشير العالمى" :

"كان محمد حاكماً مطلقاً ، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه ويفعل ما يشاء ، وكان مجبولاً على هذه الفكرة ، فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لا يوافق فى هواه . أما جيشه العربى فكان يتعطش للتهديم والتغلب ، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم"^(٢).

(١) جلاوور :

لم أقف له على ترجمة .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٢٤٥ . نقلاً عن "تقدم التبشير العالمى" .

والجواب على ذلك :

لقد عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن اتباع الهوى ومدحه بذلك في قرآنه ، فهو لا يقول إلا حقاً ولا يفعل إلا حقاً . وأكد ذلك سبحانه بإقسامه على نفى الهوى عنه ، وذلك في قوله : {والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى} (١) . قال العلامة ابن كثير رحمه الله :

"وقوله تعالى {ماضل صاحبكم وماغوى} هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال : وهو الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فتره الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وهى علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه بل هو صلاة الله وسلامه عليه ومابعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال : {وماينطق عن الهوى} أى مايقول قولاً عن هوى وغرض {إن هو إلا وحى يوحى} أى إنما يقول ماأمره به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان" (٢) .

وفى الحقيقة إن اليهود والنصارى هم الذين انطمست بصائرهم ، وضلت عقولهم ، واتبعوا أهواءهم ، حتى حذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم من سلوك مسلكهم واتباع أهوائهم فقال له : {ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} (٣) ، وقال : {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (٤) . وأى هوى أعظم من معرفة الحق ثم العدول عنه أو عبادة الله على الجهل والضلالة وتلك سمات أهل الكتابين التى وسمهم الله بها فى قوله : {أهدنا الصراط

(١) سورة النجم : آية ١-٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٤٦/٤-٢٤٧ .

(٣) سورة المائدة : آية ٤٨

(٤) سورة المائدة : آية ٤٩

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} (١).
 إن أعداء الإسلام من المستشرقين لا يراعون عن إلحاق كل ذم وعيب
 بهذا الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ورميه بكل فرية ، وهم أولى بكل
 ذم وعيب ، وهل رميهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رموه به وهو
 منه برىء إلا من نتاج الهوى والحق الذي ران على قلوبهم وتشربته
 نفوسهم حتى أصبح من أبرز السمات لهم؟، فهذه بحوثهم وتلك أقوالهم
 وآراؤهم التي مزجت بالهوى والضلال فراحوا يرمون غيرهم بما هم فيه ،
 وقد قيل في المثل (رمتني بدائها وانسلت) (٢).

فيأعداء الإسلام إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول ولا يفعل
 ولا يأمر ولا ينهى إلا بما أمره به ربه وخالفه سبحانه وتعالى ولا يمكنه أن ينقص
 شيئاً أو يزيد فيه من عند نفسه وقد قال له سبحانه : {ولو تقول علينا بعض
 الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد
 عنه حاجزين} (٣).

ولو فعل وحاشاه أن يفعل لتعرض لعقاب ربه وعذابه ، ولكنه
 الصادق فيما يقول ، الملتزم لأمر ربه المنصاع له المجتنب لما نهاه عنه ، فمثله
 لا يكون متبعاً لهوى البتة .

ثم أين الدليل على مازعمه جلاوور؟ كان عليه أن يمثل لنا بمثال
 يثبت به ما قال ، وأنى له ذلك ، انه لا يملك ما يدلل به على باطله ، فعاد قوله
 عليه ، لأن من الهوى أن يطلق الإنسان الحكم قبل إيجاد الدليل ، وقد فعل
 جلاوور ، فهو صاحب الهوى إذن .

لقد نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم في أمور ليست من أساس
 الدين ، كعتابه له في قوله : {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك
 الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} (٤)، وفي قوله : {يا أيها النبي لم تحرم ما أحل

(١) سورة الفاتحة : آية ٦، ٧

(٣) سورة الحاقة : آية ٤٤-٤٧

(٢) مثل يضرب لمن يهين صاحبه بعيب هو فيه . مجمع الأمثال للميداني ٢/٢٣ .
 وانظر كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ١/٤٧٥-٤٧٦ .

(٤) سورة التوبة : آية ٤٣

الله لك { (١) ، وقوله : {عبس وتولى} (٢) ، وفي ذلك أصدق دليل على أنه رسول من الله لا يفعل إلا ما يرضى ربه ، ولو قال قولاً أو فعل فعلاً مهما قل ودق ولم يأت على مراد الله وأمره ، لعاتبه الله فيه • وحصر ما وقع فيه صلى الله عليه وسلم من أمور يسيرة ، وذكر الله لذلك في القرآن ، دلالة على أن كل مانطق به وفعله وأقر عليه سوى ما ذكر حق مؤيد بوحي من الله تعالى بعيداً عن الهوى والزلل (٣) .

(١) سورة التحريم : آية ١

(٢) سورة عبس : آية ١

(٣) انظر : السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام ص ٢٧٥ .

(د) تناقضه :

لقد حكموا على النبي صلى الله عليه وسلم بالتناقض في أوامره وأحكامه ، ينفي اليوم ما يثبت بالأمس ، ويثبت ما ينفيه ، ويفعل ما حذر منه ، ويأمر بما نهى عنه ، حتى أصبح ذلك مدعاة لبعث النقد الذين كشفوا هذه التناقضات .

يقول جولد زيهر بعد زعمه بأن القرآن متناقض :

"ورسالة النبي الدينية تنعكس في روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة في نفسه ... ويبدو فضلاً عن ذلك أنه فيما يتعلق بمحمد نفسه شرع منذ القدم في البحث عن تناقض فيما يبشر به . ولاغرو فقد كان وحى النبي ، حتى في حياته ، معرضاً لحكم النقد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادى في تعاليمه موضع ملاحظات ساخرة" (١).

ومن الأمثلة على تناقضه :

(١) بعث مرة سرية من جيشه لمباغطة قافلة بالعروض (٢) ، فأصابته القافلة وأصابته منها غنائم كثيرة وكان ذلك في الشهر الحرام ، فأثار ذلك عاصفة من الاستنكار ، فما كان من محمد إلا أن أنكر صنيع أتباعه ، الذى تم وفق رغباته بلاخلاف ، وعزاه إلى سوء فهم أوامره (٣).

(١) العقيدة والشرية ص ٧٩ .

(٢) العروض :

تطلق على المدينة ومكة واليمن . وقيل : على مكة واليمن . وقيل : على مكة والطائف وماحولهما . وقيل : على بلاد اليمامة والبحرين . وقيل تجمع ذلك كله . وسميت العروض لأنها تقع مستطيلة مع ساحل البحر .

انظر : معجم البلدان ١٦٠/٦ ، مرصد الاطلاع ٩٣٥/٢ .

(٣) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٩ .

(٢) لقد كان في بادئ أمره لايهتم بأمر الدنيا ، ولا يطمع في نيلها ولكنه انتقل في مراحلہ الأخيرة إلى الأمانى الدنيوية القوية التي صار لها التفوق خلال مراحل نجاحه، وهذا ما طبع الدين الإسلامى بطابع التناقض (١).

(١) انظر : العقيدة والشریعة ص ٣٠-٣١ الأولى .

والجواب على ذلك :

لقد صان الله دينه وحفظ وحيه من التناقض والاختلاف ، ونزه شريعته من التضاد والتباين لأنها من عند الله عز وجل وهو الحق سبحانه الذى لا تتضارب أقواله ولا تتنافر أحكامه .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله :

"الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف كما أنها في أصلها كذلك ولا يصلح فيها غير ذلك ، والدليل عليه أمور : أحدها : أدلة القرآن :

من ذلك قوله تعالى : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} (١) ، فنفى أن يقع فيه اختلاف البتة . ولو كان فيه ما يقتضى قولين مختلفين لم يصدق عليه هذا الكلام على حال . وفي القرآن {فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول} (٢) الآية . وهذه الآية صريحة في رفع النزاع والاختلاف فإنه رد المتنازعين إلى الشريعة وليس ذلك إلا ليرتفع الخلاف ، ولا يرتفع الخلاف إلا بالرجوع إلى شئ واحد . إذ لو كان فيه ما يقتضى الاختلاف لم يكن في الرجوع إليه رفع تنازع وهذا باطل .

وقال تعالى : {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات} (٣) الآية . والبيانات هى الشريعة فلولا أنها لا تقتضى الاختلاف ولا تقبله البتة لما قيل لهم من بعد كذا .

ولكان لهم فيها أبلغ العذر ، وهذا غير صحيح . فالشريعة لا اختلاف فيها . وقال تعالى : {وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (٤) ، فبين أن طريق الحق واحد وذلك عام في جملة

(١) سورة النساء : آية ٨٢

(٢) سورة النساء : آية ٥٩

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٥

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٣

الشريعة وتفصيلها" (١). إلى آخر ما ذكر رحمه الله من أدلة تبين خلو الشريعة من الاختلاف والتناقض (٢).

وقال في موضع آخر :

"إن كل من تحقق بأصول الشريعة فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض كما أن كل من حقق مناط المسائل فلا يكاد يقف في متشابه . لأن الشريعة لا تعارض فيها البتة . فالمتحقق بها متحقق بما في الأمر فيلزم ألا يكون عنده تعارض ، ولذلك لا تجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف ، لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ أمكن التعارض بين الأدلة عندهم" (٣).

ففي حقيقة الأمر لا تعارض بين أدلة الشرع على الإطلاق كما قال ابن خزيمة رحمه الله :

"لأعرف أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثان بإسنادين صحيحين متضادين ، فمن كان عنده فليأتني به لأؤلف بينهما" (٤).

ولكن قد تتعارض بعض الأحاديث عند بعض العلماء ولذا قام فن جليل وعلم هام من علوم الحديث عرف بعلم مختلف الحديث ومشكله ، وهو من أهم الأنواع ، لا يضطرار جميع العلماء إلى معرفته ، ولا يكمل فيه إلا من دق فهمه وثقب رأيه ، ووسع علمه (٥).

وقد اعتنى علماء الحديث بهذا العلم اعتناء بالغاً ، منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم ، فجمعوا بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض فوفقوا بينها ، وأزالوا ما بها من إشكال ، وكان لهم فضل كبير في رد انتقادات الطاعنين ،

(١) الموافقات ٦٣/٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٦٣/٤ - ٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ١٧٤/٤ .

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٣ ، معالم السنة النبوية ص ١٨٨ .

(٥) انظر : التقريب مع شرحه التدريب ١٩٦/٢ أصول الحديث ص ٢٨٣ ، معالم السنة النبوية ص ١٨٥ .

ودحض شبهات فرق المبتدعة كالمعتزلة وغيرهم ، ونقوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل شائبة وكدره ، وأودعوا ذلك مؤلفات ، كاختلاف الحديث للشافعي ، وتأويل مختلفه لابن قتيبة ، ومشكل الآثار للطحاوي وغيرها الكثير^(١).

وقد قعدوا القواعد التي تزيل الإشكال بين مآظهم التعارض من الأحاديث وتوفق بينها . فذكروا أنه في حالة تعارض حديثين يجمع بينهما إذا أمكن الجمع ، ولا يعدل عن ذلك إلى غيره ، فإن لم يمكن الجمع بينهما وعلم أن أحدهم ناسخ والآخر منسوخ عمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وإذا لم يثبت النسخ أخذ بالراجح منهما ، وأوجه الترجيح كثيرة عدها بعضهم فزادت على المائة وجه^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"خفاء ترجيح أحدهما على الآخر إنما هو بالنسبة للمعتبر في الحالة الراهنة مع احتمال أن يظهر لغيره ما خفى عليه"^(٣).

ولعل جولد زيهري يعني بالتناقض أيضاً ما يقع في القرآن أو السنة من نسخ لبعض الأحكام .

والنسخ ثابت في الشريعة الإسلامية ، وهو مما خص الله به هذه الأمة لحكم كثيرة منها :

(١) مراعاة مصالح العباد .

(٢) تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس .

(١) انظر : الحديث والمحدثون ص ٤٧١، ٤٧٢ ، أصول الحديث ص ٢٨٤ ، معالم السنة النبوية ص ١٨٩، ١٨٦ .

(٢) انظر : التقريب مع شرحه التدريب ١٩٨/٢ ، الباعث الحثيث ص ١٧٠-١٧١ ، شرح نخبة الفكر ص ٦٢ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٥٨ ، معالم السنة النبوية ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣) شرح نخبة الفكر ص ٦٣ .

- (٣) ابتلاء المكلف واختباره بالامتحان وعدمه .
- (٤) إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر (١).
- والنسخ لا يكون في القواعد الكلية كأركان الإيمان وإنما يكون في الجزئيات الفرعية، وما وقع فيه النسخ منها قليل جداً (٢).
- ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم ما يجب معرفته لمن يبحث في أحكام الشريعة ، ولذا أولاه الصحابة والتابعون وأهل العلم أهمية كبرى لما يترتب على ذلك من أخذ بعض الأحكام وترك غيرها ، وقد نبغ فيه كثير من العلماء ، وأوضحوا وبينوا مانسخ من الأدلة ومالم ينسخ وألفت في ذلك الكتب وصنفت التصانيف (٣).

وبينوا ما يعرف به النسخ من أمور، منها :

- (١) أن يثبت النسخ بتصريح رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- (٢) أن يخبر بذلك صحابي من صحابته رضى الله عنهم أجمعين .
- (٣) أن يتتبع التاريخ ليعرف السابق من اللاحق .
- (٤) أن يدل على ذلك الإجماع ، والإجماع لا ينسخ ولا ينسخ ولكن يدل على النسخ (٤).

فكل حديث ثبت نسخه فقد بينه العلماء ودونوه ، فلم يبق للمستشرقين حجة في ذلك أبداً .

فإذا تبين هذا ، نقول لجولد زيهري من هم النقاد الذين بحثوا في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وأثبتوا تناقضها؟ وأين تلك المتناقضات التي أخرجوها؟

-
- (١) علوم القرآن ص ٢٤٠ ، وانظر : علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٢٢٢-٢٢٥ ، بحوث في أصول التفسير ص ٣٢٥ .
 - (٢) انظر : الموافقات ٣/٦٣، ٦٥، ٧٠ .
 - (٣) انظر : الحديث والمحدثون ص ٤٧٢ ، أصول الحديث ص ٢٨٨، ٢٨٩ .
 - (٤) انظر : تدريب الراوى ٢/١٩٠-١٩١ ، الحديث والمحدثون ص ٤٧٣ ، تيسير مصطلح الحديث ص ٦٠ ، معالم السنة النبوية ص ١٩٥ .

ومماثل به من أمثلة لا يدل على زعمه الباطل .
وهذا بيانه :

(أ) حادثة السرية :

وملخص ما حدث في ذلك :

إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، فلما سار اليومين فتح الكتاب فإذا فيه :

"إذا نظرت في كتابي هذا فامضى حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم" .

فمضى ومضى معه النفر حتى نزل بنخلة فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة لهم وفيها عمرو بن الحضرمي .

فتشاور القوم في أمرهم وكان ذلك في آخر يوم من رجب ، فقال بعضهم : لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم .

فرمى أحدهم ابن الحضرمي بسهم فقتله وأسروا منهم أسيرين ، ثم عادوا بالأسيرين والعرير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" وأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة "إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان" فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله قوله : {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير} (١) ... الخ ما نزل في ذلك .

أى إن كنتم قتلتم أيها المسلمون في الشهر الحرام فإن ما فعله الكفار أعظم من ذلك وأكبر ، فإنهم صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وأخرجوكم منه وأنتم أهلله ، ثم هم باقون على ذلك {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} (١).

فلما نزل القرآن بذلك ، وفرج ما كان فيه المسلمون من الشفق قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين وتجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه ، وأعطوا على غزوتهم أجر المجاهدين كما قال سبحانه : {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} (٢)(٣).

ويمكن من هذا السياق أن نستجلى عدة أمور تبين فساد مازعمه جولدزيهر :

أولاً : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث هذه السرية لقتال وإغما بعثهم لإرصاد أمر قريش وكشف أخبارهم .
ثانياً : لقاء السرية بالقافلة كان على غير توقع منهم .
ثالثاً : قتالهم لهم كان عن اجتهاد منهم ليس بأمر سابق ، وقد دل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" .
وإيقافه للعير والأسيرين .

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٨

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٩٧/٢-٤٠٠ بتصرف . وانظر : تفسير القرآن العظيم ٢٥٣/١-٢٥٤ ، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوى ص ٢٣٥-٢٣٨ ، فقه السيرة ص ٢٢٩-٢٣٢ .

وقد روى البيهقي القصة في سننه من طريق الزهري عن عروة مرسلًا ، في كتاب السير ، باب ماجاء في نسخ العفو عن المشركين ١١/٩-١٢ ، ولكنه لم يورده بتمامه ثم ساق القصة بكاملها من طريق عروة في الكتاب السابق ، باب قسمة الغنيمة في دار الحرب ٥٨/٩-٥٩ .

وصحح الشيخ ناصر الدين الألباني إسناده . انظر : فقه السيرة ص ٢٣٠-٢٣١ الهامش .

رابعاً : تعنيف المسلمين لمن كان في السرية ومؤاخذتهم لهم ، فلو كان ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عنفوهم .

خامساً : تخفيف الله عز وجل عن عبد الله بن جحش وأصحابه بمقارنة ما فعلوه بما فعله المشركون وهو أعظم وأكبر ، ثم جعله إياهم من المهاجرين المجاهدين الذين يرجون بما فعلوا رحمة الله ومغفرته ، يدل على حسن قصدهم ورجائهم للثواب فيما صنعوا .

فليس لجولد زيهر في هذه الحادثة من دليل يدل على تناقض النبي صلى الله عليه وسلم في أمره ، فبطل احتجاجه .

(ب) ما استدل به على تناقض النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الدنيا ، ورفضه إياها أولاً ثم ميله إليها ثانياً ، لا يدل على تناقض ، وقد أسلف الحديث في هذا الشأن فيما سبق عندما تعرضت لشبهة الغنائم (١)

بعد هذا يتضح لنا أن مازعمه المستشرقون من مطاعن في شخص النبي صلى الله عليه وسلم يريدون من خلالها الطعن في نبوته وإبطال رسالته ، ماهى إلا أمور أوهى من خيط العنكبوت ، بل بان من خلالها كذب هؤلاء المستشرقين وتلفيقهم ، وليهم للحقائق الثابتة لكي تتجارى مع أهوائهم ، وفساد نياتهم تجاه هذا الدين ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم . ولا تزيد هذه الشبه إلا قدحاً في مصداقيتهم ، وشكاً في بحوثهم .

(١) انظر ص : ٤٤٦ فما بعدها .



٢
٢
٢